إيما كلارك

فن الحدائق الإسلامية

ترجمة: عمر سعيد الأيوبي

نبذة عن المؤلفة:

إيما كلارك كاتبة ومحاضرة، ومصممة حدائق متخصصة في تصميم الحدائق الإسلامية والتقليدية البصرية في كلية برينس للفنون التقليدية في لندن. كما أنها تقدم استشارات إلى صالة كريستيز بشأن المنسوجات الإسلامية والشرقية والأوروبية.

نبذة عن المترجم:

عمر سعيد الأيوبي يعمل في الترجمة والتحرير منذ أكثر من خمس وعشرين سنة، وله العديد من الكتب المترجمة: «الاستراتيجية التنافسية: أساليب تحليل الصناعات والمنافسين» لمايكل بورتر، و«خرافة التنمية: الاقتصادات غير القابلة للحياة في القرن الحادي والعشرين» لأزفالدو دي ريفيرو، و«ملفات المستقبل: 5 اتجاهات ستشكّل الخمسين سنة المقبلة» لريتشارد واطسون، وسلسلة كتب «الطاقة البديلة» للأطفال.

يعتبر فن الحدائق الإسلامية من أرقى أشكال الفنون البصرية في الحضارة الإسلامية. وهو يعكس المبدأ الأساسي بأن الحياة الدنيا ليست سوى انعكاس عابر للحياة الآخرة الباقية. ثمة مكوّنان رئيسيان لجميع الحدائق الإسلامية، الماء والظل، لأنها صمّمت تاريخياً وزرعت كملاذ يُلجأ إليه اتقاء من حرارة الشمس. كما أنها تتميّز بتصميمها الرباعي المقام حول بركة أو نافورة مركزية يتدفّق منها أربعة جداول في الاتجاهات الأربعة.

يقدّم هذا الكتاب الغني دليلاً مفهومياً للرمزية الملازمة للحديقة الإسلامية ودليلاً عملياً لأجزائها المكوّنة ويوضح أهمية تصميم الحديقة، فضلاً عن الأشكال الهندسية والمناظر الطبيعية الصلبة، والعناصر المعمارية وضرورة انسجامها معاً وتكاملها. ويوصي بالأشجار والشجيرات والأزهار الملائمة لها، معتمداً على القرآن وقوائم البستانيين الإسلاميين والشعر الإسلامي، والرسوم المنمنمة الإسلامية كمصادر يستقي منها أهم النباتات التي كانت تزرع في الحدائق الإسلامية التقليدية. كما يقدّم النصح بشأن كيفية إقامة الحديقة الإسلامية في المناخات الباردة التي تميّز شمال أوروبا، والبدائل النباتية الملائمة التي تحتمل البرودة.

والكتاب يأتي ضمن سلسلة مختارة من مكتبة جامع الشيخ زايد الكبير.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

ISBN 978-9948-01-975-6
9 789948 019756

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

فن
الحدائق الإسلامية

الطبعة الأولى 1432 هـ 2011 م

فن الحدائق الإسلامية
إيما كلارك

SB457.8.C52512 2011
Clark, Emma, 1955-
[The Art of the Islamic Garden]
فن الحدائق الإسلامية / تأليف إيما كلارك؛ ترجمة عمر سعيد الأيوبي. - ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، نوفمبر 2011.
332 ص؛ 27x21 سم.
تدمك: 6-975-01-9948-978
1 - الحدائق الإسلامية. 2 - الحدائق الإسلامية - تصميم.
أ - الأيوبي، عمر سعيد.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Emma Clark
The Art of the Islamic Garden

First published in Great Britain in 2004 as The Art of the Islamic Garden
by The Crowood Press Ltd, the Stable Block, Crowood Lane, Ramsbury,
Marlborough, Wiltshire, SN8 2HR.

كلمة
KALIMA
info@kalima.ae
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

فن
الحدائق الإسلامية

تأليف
إيما كلارك

ترجمة
عمر سعيد الأيوبي

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

الشكل 1. نافورة في قصر الحمراء في غرناطة.

تمهيد

إن إدراك القليل عن الفن والعمارة الإسلاميين التقليديين يكشف بوضوح أن جمالهما لا يكمن في التزيين السطحي، بل هو انعكاس لمعرفة وفهم عميقين للنظام الطبيعي ووحدانية الخالق التي تتغلغل في كل حيواتنا. هذا الكشف العميق هو السبب الرئيسي الذي قادني إلى دخول الدين الإسلامي. ليس هناك فصل بين الديني والدنيوي في المجتمع الإسلامي التقليدي (أو أي مجتمع تقليدي يتمحور حول مبدأ سام)، وذلك يعني أن كل شيء ذو صلة بالديني، لا الصلاة فحسب التي تؤدّى خمس مرات في اليوم. بل كل ما نقوم به في الحياة اليومية، من الاغتسال إلى الأكل إلى التجارة أو زراعة النباتات، يؤدّى بمعرفة تامة وإيمان بأن له «معنى في الآخرة»[1]. لذا فإن الموضوع الأساسي لهذا الكتاب هو أن للحديقة الإسلامية التقليدية، مثل الفن الإسلامي التقليدي بأكمله، رسالة عميقة ﴿لقوم يتفكّرون﴾[2] تذكّرنا من نحن أمام الخالق.

فتحت دراسة الفن والعمارة الإسلاميين وإكمال رسالة الماجستير عن الحديقة الإسلامية وسجادة الحديقة في الكلية الملكية للفنون[3] عيني على معنى الفنّ. وبعد تشكّل فهمي للدين الإسلامي على العموم والفن الإسلامي على وجه الخصوص، اتضح لي أن الفن بأكمله، إلى حدّ كبير أو صغير، يجب أن يكون وعاء لرسالة أمل[4]: يجب أن يذكّرنا ماذا يعني أن نكون بشراً، وبمكاننا في الكون ودورنا، كخلفاء لله على الأرض، كما يقول الإسلام. ويمكن القول إن أي حديقة تحمل رسالة، لأن مكوّنها الرئيسي ما خلق الله، تذكّرنا بجمال الطبيعة ووحدتها، لا سيما في البيئات الحضرية - وذلك صحيح إلى حدّ ما. غير أن الحديقة المقامة وفقاً للمبادئ التقليدية، مثل الحديقة الإسلامية «جهار باغ»، أي الحديقة الرباعية، قد تكون شهادة أبلغ بكثير من حديقة مخطّطة من دون أن تكون مثل هذه المبادئ في الذهن. وهذا هو الموضوع الرئيسي للكتاب.

في الأزمنة المتزايدة الصعوبة التي نعيش فيها، يجدر التذكير بأن الحدائق والطبيعة تتجاوز الجنسية والعرق والدين واللون والإيديولوجية: الحدائق الإسلامية ليست للمسلمين فحسب بل يتجلّى جمالها للجميع، وبخاصة ﴿لقوم يعقلون﴾[5]. تكشف وسائل الإعلام عن جانب من الإسلام ليس له كبير علاقة بوجهه الداخلي، وجه يتقاسمه مع دينين توحيديين عظيمين آخرين وهو الاقتراب إلى الله. القرآن مقدّس عند المسلمين ويجدر النظر بعناية في إشاراته إلى الطبيعة، مثل وصفه جنات الفردوس، عند دراسة معنى الحديقة الإسلامية أو النظر في صنع واحدة بنفسك. ويؤمل أن يلقي هذا الكتاب بعض الضوء على المنجزات العظيمة للحضارة الإسلامية وجمال الدين نفسه، عن طريق كشف شيء عن تصميمها وعالمها.

يقدّر اليوم أن هناك أكثر من مليار مسلم في عالم يعدّ ستة مليارات نسمة تقريباً، ويقدّر أن الإسلام هو الدين الأسرع نمواً في العالم[6]. وقد كتب أحد الصحافيين في سنة 1979: «ما من جزء من العالم يساء فهمه بشدة ومنهجية وعناد أكثر من الدين، والثقافة والجغرافية التي تدعى الإسلام»[7]. غير أن الكثير من الكتب نشرت منذ ذلك الوقت لفهم الإسلام[8]، ولا شك في ازدياد المعرفة عن هذين الدين والثقافة إلى حدٍّ كبير. كما انتشر تعليم الإسلام والحضارة الإسلامية أيضاً في العالم الغربي، إن لم يصبح ذلك التيار هو التيار السائد. قبل خمس وعشرين سنة لم نكن نتعلّم في المملكة المتحدة سوى عن المسيحية من دون غيرها. اليوم تدرّس معظم المدارس الابتدائية شيئاً عن أديان العالم الأخرى، وأجد أن الأطفال والمراهقين دون سن العشرين يعرفون أكثر من آبائهم وأجدادهم عن الإسلام والأديان الأخرى. والطريقة الوحيدة لمحاربة الجهل والتحيّز والخوف، في مجتمعاتنا العالمية و«المتعدّدة الثقافات»، تكمن في التعليم الذكي عن أديان العالم الأخرى وثقافاته.

أنشئ برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية المعروف بـ (فيتا) في سنة 1983 في برنسس فاونديشِن ـ حيث أعمل مدرّسة ومحاضرة ـ ليس لتعليم مبادئ الفنون والحرف الإسلامية وممارستها فحسب، وإنما لدراسة فنون التقاليد العظيمة الأخرى في العالم أيضاً. وفي السنوات القليلة الماضية أخذت أعداد متزايدة بالتدريج من المعنيين بالتعليم في الوطن والخارج تأتي إلى (فيتا) طلباً للمشورة بشأن برامج تعليم الفنون الإسلامية للمدارس والتعليم العالي. ويؤمل أن يزداد التسامح والفهم عن طريق الفن والجمال والطبيعة. وكما يعرف كل من لديه علاقة بعالم البستنة، ثمة اهتمام كبير في السنوات العشر الأخيرة بكل ما يتصل بالحدائق. ويرجى أن يشجّع حبّ الحدائق بعض الأشخاص على تعلّم المزيد عن الدين والثقافة التي أنتجت بعض أجمل الحدائق في العالم.

شكر وعرفان

أودّ أولاً أن أتقدّم بالشكر الجزيل إلى خالد سيدو، لا على رسومه فحسب (الأشكال 62، و74أ ـ 74د، و231) وإنما أيضاً على الساعات التي قضاها في قراءة النص وتقديم الملاحظات المفيدة (عادة!).

ثانياً، أقدم شكري الجزيل إلى إيما ألكوك على كل الجهد الذي بذلته في رسومها (الأشكال 5، و6، و30، و58، و59، و114، و136). وأودّ أيضاً أن أشكر الدكتور خالد عزّام كثيراً على ملاحظاته التحريرية القيّمة.

كما أنني مدينة كثيراً لمايك ميلر، المصمّم الرئيسي لحديقة السجادة لأمير ويلز والمدير الإداري السابق لمشاتل كليفتون. فقد كان مسعفاً دائماً وسخياً في تقديم المعلومات والنصح بالإضافة إلى تزويدي بصور فوتوغرافية ومخططات لحديقتي السجادة في تشلسي وهايغروف على السواء.

وأود أن أعرب عن امتناني لصاحب السموّ الملكي أمير ويلز الذي تكرّم بالسماح لي باستخدام حديقة السجادة الخاصة به كدراسة حالة في تصميم الحديقة الإسلامية التقليدية في إنكلترا الريفية وصنعها. وأود أن أشكر الموظّفين لديه أيضاً، وأخص بالذكر: ديفيد هوارد، كبير البستانيين في هايغروف، وباتريك هاريسون ونايجل بيكر وجيمس كيندر.

كما أنني مدينة للأصدقاء والأقرباء التالية أسماؤهم الذين منحوني دعماً عظيماً بطريقة أو بأخرى، وقدّموا النصح التحريري والعملي والعلمي ـ من الملاحظات التي لا تقدّر بثمن على النص وعن التصميم الهندسي والحدائقي إلى تفسير القرآن والحديث، بالإضافة إلى تعريف النباتات والسماح لي بالتجوّل في حدائقهم، وهم بالترتيب الألفبائي الإنجليزي: فاطمة عزّام، والسيّد نايجل والسيدة هيثر ألفورد، والسيد مارتن بروند (وهم ثلاثة بستانيين في كلوفلي كورت، نورث ديفون)، والسيد

عدنان بخاري والسيدة سمر بغدادي، والدكتور هاري والسيدة لورا بوثبي، والبروفسور كيث كرتشلو، والسيدة جاك كلارك، والسيد جاسبر كلارك وليندا روست، وصاحبة السموّ الملكي الأميرة هيفاء الفيصل، والبروفسور ريتشارد فلتشر، وصاحب السموّ الملكي الأمير غازي بن محمد والأميرة أريج غازي، والسيد أنطوني والليدي فيرجينيا غبس، والدكتور جوليان والسيدة أليسون جوهانسن، وصاحبة السموّ الملكي الأمير جوهرة بنت خالد، وكارولين كنكيد ويكس، والسيدة ديبي لين لمساعدتها العظيمة في مكتبة لندلي، والدكتور مارتن لنغز، والسيد مصطفى والسيدة هاجر مجذوب، والسيد خليل مارتن، والدكتور توبي والسيدة فرحانة ماير، والسيد منور المعيد، والدكتور جين لويس ميشون، والسيد خالد والسيدة باسكال النقيب، والبروفسور سيد حسين نصر، والدكتور هلالي والسيدة سامية نور الدين، والبروفسور عبد الله والسيدة طيبة شريف شليفر، والدكتور رضا والسيدة نورين شاه كاظمي، وعائلة ريكت، والأب جون روس، والدكتور فيليب واطسون، وعائلة زينوفييف.

شكر وتقدير على الصور

وأنا مدينة أيضاً للزملاء والأصدقاء التالية أسماؤهم الذين تكرّموا بتزويدي بالصور: بول مارشَنت (الأشكال 17 و19 و41 و43)، وتيمور خان ممتاز (الشكل 116)، وكامل خان ممتاز (الشكل 138)، وسجاد كوسر (الأشكال 18، و131 و137)، والبرفسور جوناس لهرمان (الأشكال 139، و140، و141)، ومايكل ميلر (الأشكال 206، و207، و211، و213، و221، و226)، وصافينا حبيب (الشكل 25)، وريريكو سوزوكي (الشكلان 23، و84)، وفريد التركي (الشكل 66)، وباتريشيا أرانيتا.

وأدين بالشكر أيضاً للمكتبة الشرقية البريطانية ومجموعات مكتب الهند (الشكل 26)، ومجموعة الصباح في متحف الكويت الوطني بإذن من مؤسسة الخليج العالمية (الشكل 210)، وكريستيز إنترناشيونال (الشكل 102).

أخيراً، أودّ أن أعبّر عن عميق احترامي وامتناني لكل البستانيين، ومعظمهم مغفلون، الذين يهتمون بحدائقهم بشغف وعناية كبيرين: إنهم لا يحظون بكبير الشكر لكونهم يقدّمون الكثير من الجمال والعزاء لرفع معنويات كثير من المارّة الذين لا يحصون عدداً؛ وكل الشكر بالطبع إلى أعظم البستانيين قاطبة: الطبيعة.

والحمد لله رب العالمين

المقدّمة

يقدّم هذا الكتاب مدخلاً إلى تصميم الحديقة الإسلامية التقليدية ومعناها الرمزي ونباتاتها، كما يطرح بعض الأفكار العملية للمهتمين في صنع حديقة لأنفسهم في المملكة المتحدة أو في أي مكان آخر ذي مناخ مماثل. وهو ليس تاريخاً للحدائق الإسلامية أو مسحاً جغرافياً شاملاً لها. ربما يستلهم بعض الأشخاص إقامة مثل هذه الحدائق كمكان يذكّرهم بأوقات أمضوها في المغرب أو سورية أو إيران أو الهند أو إسبانيا؛ أو ربما يرغب المسلمون في إقامة واحدة تذكرهم بالحدائق الموجودة في مسقط رأسهم أو مسقط رؤوس أقربائهم. ليس من الضروري أن تكون مسلماً لتصنع حديقة إسلامية، مثلما لا ضرورة لأن تكون بوذياً لصنع حديقة زن يابانية أو مسيحياً لصنع حديقة منتظمة قروسطية. لكن ما من شك في أن إدراك صانع الحديقة أو مصممها بعض الشيء عن الثقافة التي كوّنتها في المقام الأول تضفي مزيداً من الثراء على فكره.

الشكل 2. حديقة ماجورل، نافذة ذات شُبيكة حديدية مثبتة داخل إطار منقوش من الجص.

الشكل 3. فناء قصر العظم في دمشق.

الشكل 4. حدائق جنة العريف، قصر الحمراء، غرناطة.

لا يحتوي هذا الكتاب على نسخ عن مخططات تصاميم هندسية، بل على أفكار مرنة مستمدّة من الموضوع الأساسي موضوع جهار باغ (من الفارسية «جهار» بمعنى أربعة و«باغ» بمعنى حديقة)، بالإضافة إلى توصيات للزراعة. حديقة جهار باغ الكلاسيكية هي الحديقة الرباعية المقامة حول بركة أو نافورة مركزية تتدفّق منها أربعة جداول، نحو اتجاهات المكان الأربعة الرمزية. ويصمّم تدفّق الماء أحياناً من النافورة المركزية «نحو الخارج»، بالإضافة إلى الانتقال «نحو الداخل» من النوافير الموضوعة عند «الأركان الأربعة» باتجاه المركز كما يشاهد في ساحة الأسود في قصر الحمراء (الشكل 6 وانظر الشكلين 31 و32). وغالباً ما تحل الممرات محل الماء. يمكن القول إن ذلك هو جوهر مخطّط الحديقة الإسلامية وثمة تفسيرات عديدة لها في العالم الإسلامي، يمكن أن تكون مستطيلة مثلاً لا مربّعة (باحة قناة الري في جنة العريف، الأشكال 40 و52 و56) ويمكن تكرارها على نحو نظام شبكي تبعاً لقنوات الري (حدائق أغدال قرب مراكش). ولا تقتصر رمزيتها على الإسلام وإنما هي ذات طبيعة شاملة تقوم على فهم عميق للكون - يبحث ذلك في الفصل الأول. ويمكن تكييف المخطّط مع حديقتك وفقاً للظروف والمتطلّبات الشخصية، في حين يبقى المعنى الأساسي لكونها انعكاساً لجنات الفردوس على حاله ويتصل بالمسلمين وغير المسلمين على السواء.

لدينا جميعاً نقاط ابتداء مختلفة تبعاً للحجم والمكان (في المدينة أو الضواحي

أو الريف) والمظهر والمناخ والتربة وما إلى هنالك، لذا نقدّم في الفصلين الخامس والسادس اقتراحات لأنواع عديدة من الأشجار والشجيرات والنباتات والأزهار التي قد تلائم المناخ الشمالي وتكون في الوقت نفسه ملائمة لحديقة مستوحاة من الحدائق الإسلامية. لكن لا بد من المحافظة على التصميم الرباعي الأساسي، بالإضافة إلى الماء بشكل أو بآخر (انظر الفصل الرابع). ويجب الإيضاح منذ البداية أن هذا النوع من الحدائق شكلي ويتكيّف على العموم مع الوضع الحضري بسهولة أكبر من الوضع الريفي. لكن يمكن بالتأكيد إنشاء حديقة رباعية في الريف، شريطة وجود نوع من الفصل عن محيطها ـ على شكل جدران أو أسيجة من الأشجار المرتفعة ـ ما ينشئ حيّزاً لها. وتظهر دراسة الحالة في الفصل السابع على حديقة السجادة لصاحب السموّ الملكي أمير ويلز في قصر هايغروف، مقدار النجاح الذي يمكن أن تحقّقه.

لا بديل عن القيام بزيارة فعلية للحدائق الإسلامية في كل أنحاء العالم من أجل استيعابها وتقديرها حقّ قدرها. والحدائق التي ننظر فيها لاستلهامها حدائق أنشئت منذ القرن العاشر تقريباً إلى نهاية القرن السابع عشر، في بلدان مصنّفة في العالم الإسلامي التقليدي: بلدان شمال أفريقيا، والشرقان الأدنى والأوسط، وتركيا،

الشكل 6 باحة الأسود، قصر الحمراء: تتدفّق المياه من النافورة الوسطى إلى الجدول الصغير في الأسفل، ومن النوافير الأربع، واحدة في كل زاوية نحو الوسط ما يعكس الأنهار الأربعة المذكورة في الجنّة في القرآن: واحد من ماء وواحد من حليب، وواحد من عسل، وواحد من خمر (انظر الفصل الثاني).

الشكل 5 مخطّط جهار باغ الأساسي، نقلاً عن حديقة تاج محل.

الشكل 7. حديقة متحف دار البطحاء، فاس، تظهر الممرات التي تشكّل الحديقة الرباعية (جهار باغ).

الشكل 8. مقهى عند أسفل الجبال شمال طهران. يجلس الضيوف ويضطجعون على سرر معدنية مغطاة بالسجاد على جانبي مجرى مائي سريع.

وفارس (إيران اليوم)، وشبه القارة الهندية[9]. أنشئت غالبية الحدائق الإسلامية الرائعة قبل بداية القرن الثامن عشر عندما بدأ الإحساس بتأثير تقاليد البستنة الغربية[10]. كان هذا الوضع معكوساً حتى ذلك الوقت، من القرن السادس عشر فما بعد وقبل ذلك بقرن واحد على الأقل في إسبانيا: كانت الحدائق الأوروبية متأثّرة بالحدائق الشرقية، وتشهد نوعاً من الثورة، ليس في التصميم بقدر ما يتعلّق بالنباتات والزراعة. بدأ ذلك بالأعداد والأنواع الكثيرة للأشجار والشجيرات والأزهار الجديدة التي جاء بها من تركيا وأماكن أبعد في الشرق دبلوماسيون ورحّالة حريصون على معرفة المزيد عن الإمبراطورية العثمانية القوية والسريعة التوسّع[11].

لكن لنعد إلى أحد أغراضنا الرئيسية هنا، أي النظر في بعض الحدائق الإسلامية التي بقيت حتى اليوم لتمدّنا بالإلهام. تُظهر نظرة سريعة على قليل من هذه الحدائق العظيمة[12] من حدائق أتشابال الواسعة (كشمير) وباغي فين (فارس)، إلى حدائق قصر الحمراء وجنة العريف الأكثر حميمية (إسبانيا) وفناءات دمشق القديمة وفاس، التشديد على الماء والظلّ، بالإضافة إلى التكامل القوي بين العمارة والمناظر الطبيعية، ما يميّزها عن الحدائق التي تتبع التقليد الأوروبي الشمالي. في بلد في شمال أوروبا مثل المملكة المتحدة، نجد أن التشديد على الماء والظل أقل على نحو مفهوم من التشديد على الشمس والحدود المواجهة للجنوب الذي يُحنّ إليه. وما زال معظم الناس، على الرغم من التحذيرات الصحية، يُسرعون إلى الاستمتاع بأشعة الشمس عند ظهورها النادر. ولعلي لم أبدأ بفهم أهمية الماء والظل، واستيعاب جوّ الحديقة الإسلامية إلا بعدما زرت إيران وأمضيت وقتاً في المقاهي الموجودة

عند أسفل الجبال في شمال طهران. هنا توضع سُرر معدنية متواضعة على جانبي مجاري المياه السريعة الجريان؛ وتفرش السرر بالسجاد والوسائد لكي يجلس عليها الزائر متربعاً أو يضطجع بانتظار تقديم البطيخ والشاي وربما النرجيلة. وبعد ذلك يتكئ المرء على الوسائد وينظر إلى أعلى إلى أوراق أشجار الشينار (الدلب) الظليلة، ويستمع إلى خرير المياه الجارية على الحصى في الأسفل فيستحضر الآية القرآنية ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[13]. ويشكّل ذلك بحقّ تجربة مسبقة لجنة الفردوس التي يأمل المسلمون، وسواهم من دون شك، أن تكون مستقراً لهم.

عند ملاحظة الامتثال لشكل الحديقة الرباعية في كل أنحاء العالم الإسلامي، تجدر الإشارة إلى اختلاف جوهري بين حدائق (نشير هنا إلى الحدائق الكبيرة) إنكلترا وأوروبا والحدائق الإسلامية: المسلمون، وكل من نشأ في بلد حارّ، لا يحبّون على العموم المشي طلباً للمتعة[14]. أولاً، الجوّ حارّ جداً على العموم؛ ثانياً، ما جدوى المشي إذا لم يكن لديك مقصد ضروري تتوجّه إليه؟ وذلك أمر مفهوم تماماً، كما يعرف القارئ الذي أقام في بلد حارّ مدة من الوقت. وهكذا بعد عنصري الماء والظلّ الحيويين، ثمة اعتبار مهمّ آخر (إلى جانب الهندسة التي تبحث في الفصلين الثاني والثالث) وهو مكان الجلوس: سرادق في أحد الأطراف أو في الوسط، ويفضّل أن يكون قرب الماء للاستمتاع بالنسيم البارد. ولعل ملاحظة السير جون تشاردين John Chardin (السفير في فارس في القرن السابع عشر) بأن «الفرس لا يمشون كثيراً في الحدائق مثلما نفعل... إنهم يجلسون في مكان ما من الحديقة... ولا يتركون مقعدهم إلا عندما يغادرون»[15]، مهمة جداً في فهم محيط الحديقة الإسلامية. فهي تركّز على الراحة والاسترخاء والاستمتاع، بالإضافة إلى التأمّل الهادئ، أكثر من الحديقة في إنكلترا حيث لا يمكن الجلوس فيها سوى شهرين أو ثلاثة في السنة، وما تبقّى من الوقت تكون مكاناً رطباً، وغير جميل، للمشي. بل إن فرانسيس بيكون Francis Bacon (1561– 1626) أبدى ملاحظة معاكسة عن إنكلترا، «من الممتع أن تكون في الخارج وليس من الممتع جداً الجلوس ساكناً».

النية

عند دراسة الفنّ والعمارة والمناظر الطبيعية لثقافة أخرى، لا سيما الثقافة الإسلامية، يجب أن تؤخذ نوايا وعقلية الحرفيّين والفنانين والمصمّمين الماهرين الذين ابتكروها. وتكتسب نية المرء أهمية كبرى في الإسلام. فثمة حديث للنبي[16] صلى الله عليه وسلّم يقول، «فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة

الشكل 9. حديقة السلطانة، ويظهر الرواق والماء، حدائق جنّة العريف في قصر الحمراء.

كاملة، فإن هو همّ بها وعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة»[17]. يذكّر ذلك بدرس يورده بستاني إنكليزي، امتهن فنّ الحدائق اليابانية، في كتابه عن الحدائق اليابانية، عندما تعلّم أهمية كيفية مقاربة العمل: «لا يمكن تجاهل العبرة بأن الروح التي يؤدّي بها المرء عمله، بصرف النظر عن مقدار بساطته، أهم من أداء العمل... وجوهر تلك الروح أن تكون مضبوطة في المركز»[18]. فعلى المتمهن أن يهيّئ نفسه قبل تنفيذ حرفته، وذلك يعني بإيجاز شديد أن النفس بحاجة إلى انضباط ونضج محدّدين قبل التقدّم إلى مستوى أكثر تعقيداً في الحرفة. ويمكن تطبيق ذلك أيضاً على طالب أي فن أو حرفة تقليدية أو ممتهنها، لا سيما في الإسلام الذي يقدّر النية الحسنة تقديراً عالياً. وكما سيُذكر غير مرة في هذا الكتاب، فإن الحِرَف والطرق الروحانية في الإسلام متلازمة تلازماً وثيقاً، على غرار الملل في العالم المسيحي في القرون الوسطى.

لذا فإن النية أو الروح التي تقف خلف إنشاء حديقة ما مهمة جداً في فهم الحدائق التي يصنعها الآخرون وفي الحديقة التي يصنعها المرء. وما من شك في أن ما يحيط بالمرء يعكس روحه كما يؤثّر أيضاً فيها. وكما قال بوذا: «إذا صفا عقل المرء

ونقى، صفا ما يحيط به أيضاً ونقى»[19]. وفي الوقت نفسه، إذا كان المحيط نقياً، وأكبر مثال على ذلك الطبيعة البكر، وفي الدرجة الثانية الحديقة المنظّمة تنظيماً جميلاً (بغياب العمارة الدينية) فإنه يساعد نفس المرء في هذا المحيط على السكينة، إن لم يكن «النقاء» الداخلي. ويتطلّب النقاء الذي يشير إليه بوذا عملاً روحانياً منضبطاً طوال الحياة، وهو مسار لا يقدّر سلوكه إلا للقلّة. ولا يختلف سوى القليل على أن الشعور بالسلام والتأمّل في حديقة جميلة أو طبيعة بكر أسهل من الشعور بهما في مدينة ذات مبانٍ شاهقة، وحركة مرور شديدة الضوضاء وشوارع مزدحمة.

أنواع الحدائق

هناك عدة أنواع من الحدائق في العالم الإسلامي، إلى جانب الحديقة الرباعية التي ذكرت أعلاه، والتباين الرئيسي هو الحدائق الكبيرة الخارجية والفناءات الصغيرة الداخلية. تعرف الحدائق الكبيرة على العموم باسم «بستان» وربما كانت تابعة في الماضي للقصور، مثل حديقة المنارة وحديقة أغدال، وهما حديقتان عامّتان اليوم في ضواحي مراكش. وكلاهما يتكوّن من برك واسعة راكدة تحيط بها بساتين الزيتون وأشجار الفاكهة وبساتين النخيل. ويمكن القول إن الكبرى بينهما، حديقة أغدال، حديقة رباعية مضاعفة عدّة مرات، حيث تحيط بالمسطّح المائي المركزي الواسع برك ريّ صغيرة ذات قنوات هندسية تجري في ما بينها. وتحيط بالمساحة بأكملها جدران توجد في ما بينها قطع أرض مربعة لا نهاية لها في الظاهر تضمّ أشجاراً مثمرة برتقالاً وليموناً ومشمشاً وتيناً ورمّاناً تقسّمها جميعاً قنوات الري وتضمّ ممرات مرتفعة وطرقاً توجد أشجار الزيتون في ما بينها. هذه

الشكل 10. حدائق المنارة، مراكش.

الشكل 11. حديقة أغدال، مراكش.

الشكل 12. حدائق المنارة – تناول وجبة تحت أشجار الزيتون.

الحدائق الكبيرة ليست حدائق أزهار كما نعرفها، بل أماكن خضراء لطيفة للجلوس وتناول الطعام تحت الأشجار قرب الماء، فيما الأولاد يلعبون. وثمة حديقة مفتوحة كبيرة شهيرة أخرى، تركّز على المصاطب المائية والسرادقات، وهي حدائق شاليمار في لاهور التي بناها في القرن السابع عشر الإمبراطور المغولي شاه جهان (انظر الفصل الرابع والشكل 116).

تتكوّن الحدائق الصغيرة عادة من الفناءات الداخلية للبيوت العربية الإسلامية التقليدية. وكلّها أشكال مكيّفة من الحديقة الرباعية (جهار باغ) ويمكن أن تتفاوت مساحتها بين الصغيرة التي تبلغ ستة أمتار بستة أمتار تقريباً، إلى الكبيرة التي تبلغ مساحتها عشرين متراً بخمسة عشر متراً. في دمشق القديمة، تضمّ البيوت الكبيرة للمسؤولين الأغنياء، مثل قصر أسعد باشا العظم، سلسلة من الفناءات التي تتفاوت بين الأكبر، خمسة وعشرين بعشرين متراً تقريباً، والأصغر سبعة بسبعة أمتار، وتحتوي جميعاً على برك أو نوافير. حكم العظم دمشق مدة أربعة عشر عاماً وحقّق ثروة ضخمة جداً بحيث أعيد تقييم عملة الإمبراطورية العثمانية عندما صادرها السلطان في سنة 1758! ومن الممتع تفحّص خرائط المدن الإسلامية التقليدية مثل دمشق أو فاس أو حلب: ليس هناك طرق رئيسية أو مساحات مفتوحة، بل شبكة كثيفة غير عادية من الدروب والأزقّة الملتفة ومربّعات المنازل ذات الباحة العامة التي تقسّم في الغالب إلى أحياء لكل منها مسجد وفرن للخبز. وتُظهر خريطة دمشق التي وضعها الفرنسيون في الثلاثينيات (1930نيات) أن لكل منزل فناءه ونافورته وأشجاره[20]. وقد لاحظ العديد من الرحّالة التباين بين الطرق الضيّقة المعتمة وجدران المنازل

الشكل 13. بيت تقليدي ذو فناء في مراكش.

الشكل 14. رياض العَرَصة، مراكش، ناحية صغيرة في هذا الفناء الكبير.

الخارجية المرتفعة التي لا تخترق والفناءات الداخلية المشرقة. فكتب أحد الأميركيين بطريقة ميلودرامية في سنة 1852، «هل خاب ظنّك وأنت تسير في هذه الطرقات من الجدران المنفّرة؟ وهل ترتعد مخافة أن يتلاشى حلم دمشق على واقع دمشق نفسها؟ رويدك! فكل منزل دمشقي جنّة بعينها»[21]!

ثمة نوع آخر من الحدائق هو حديقة الزهور (غلستان)، التي يمكن أن تشغل ناحية واحدة من البستان، أو تتكوّن ببساطة من جدار أو تعريشة ذات أزهار متسلّقة أو بضع شجيرات وردٍ في فناء. وتستخدم كلمة «غل» كمصطلح عام للزهرة في الفارسية، وكذلك للوردة على وجه الخصوص. والشكل التجريدي للزهرة رسم

الشكل 15. أحد الفناءات الصغيرة، قصر العظم في دمشق.

الشكل 16. فناء مركزي كبير، قصر العظم في دمشق.

متكرّر سائد في كثير من السجاد القبَلي، من بلوشستان إلى الأناضول وصولاً إلى مجموعة واسعة من السجاد والبُسُط التركمانية.

ثم هناك حديقة الضريح، وهي شكل قائم بذاته في الهند المغولية. إنها ضرب من الجهار باغ. بدلاً من السرادق المعدّ للجلوس بداخله، يوضع قبر الميت وسط حديقة رباعية كبيرة، ما يرمز إلى رجوع الروح الخالدة إلى باريها عند الوفاة. وتنفتح حديقة الضريح من المركز إلى الخارج نحو جهات المكان الأربع. وفي ما يلي ثلاثة من أشهر الأمثلة على ذلك: ضريح اعتماد الدولة، المسؤول عن الشؤون المالية في ظل حكم الإمبراطور المغولي جهانكير؛ وقبر جهانكير نفسه؛ وتاج محلّ. وتاج محل، الذي بناه شاه جهان لزوجته ممتاز محل، هو المثال الأسمى لحديقة الضريح، حيث القبر نفسه في أعلى الحديقة الرباعية يشرف على المحور الرئيسي باتجاه البركة المرتفعة في المركز.

الروضة تعني الحديقة في العربية لكن المصطلح يستخدم تحديداً للمساحة الصغيرة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلّم في المدينة بين قبره والمنبر. وقد أسميت

الشكل 17. قبر اعتماد الدولة في أغرا، وسط حديقة رباعية (جهار باغ)

كذلك لقوله صلى الله عليه وسلّم، «ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة». اليوم عندما يزور المؤمنون مسجد النبي صلى الله عليه وسلّم في المدينة، تكون هذه المنطقة الأكثر ازدحاماً، لأن الجميع يتوقون إلى أن يكونوا مع النبي في روضته بالجنة.

يمكن أن تستخدم كل الحدائق الواردة أعلاه التصميم الهندسي للحديقة الرباعية بشكل أو بآخر، وقد تتكرّر في الحدائق الكبيرة، مثل حديقة أغدال، لتشكيل نمط شبكي منتظم. ويظهر ذلك في سجادات الحدائق مثل أبركونواي (الشكل 210) حيث يسمح المنظر العام للناظر برؤية مشهد شامل. الخطوط الهندسية المنتظمة قنوات أو ممرات وقطع الأراضي المربّعة أو المستطيلة تحتوي كل منها عادة

الشكل 18. قبر جهانكير يظهر التصميم الرباعي لحديقة ذات بركة مربعة مركزية كبيرة، لاهور، باكستان.

الشكل 19. تاج محل في مقدّمة حديقة رباعية كبيرة.

على شجرة مثمرة أو خضرة معيّنة. لم يكن التمييز بين حديقة الزهور وحديقة الخضروات مفروضاً بدقّة كما يبدو الحال في العديد من الضيع في إنكلترا وأوروبا في القرن التاسع عشر. وفي الحقبة الفكتورية، أصبحت حديقة الخضراوات المسوّرة المنفصلة سمة مهمّة من سمات «البيت الفخم» ولم يصبح المزج بين الخضروات والأزهار ـ رائجاً إلا في عهد قريب نسبياً. لا شك في أن حديقة المنزل الريفي للعديد من العمال الريفيين كانت تحتوي في ذلك الوقت على الخضروات والفاكهة والأزهار لم يكن يزرع الأزهار إلا المحظوظون الذين في وسعهم إفراد قليل من الأرض المخصصة للخضر (انظر الشكل 6). ومن الأمثلة الجيدة على المزج الحديث بين النباتات المزهرة والغلال الزراعية الحديقة المسوّرة في هايغروف التي تردّد الموضوع الإسلامي والشامل كما سنرى بتفصيل أكبر في الفصل الثاني للتصميم الرباعي ذي البركة في الوسط. تشكّل تعريشات الورود وأخاديد الجلبان العطر جزءاً من التصميم المتناظر الذي تقع زَرِيعات الخضر والفاكهة فيما بينها.

القرآن والرمزية وأفلاطون

ثمة انقسام حادّ في العالم الحديث بين الحياة اليومية بكل متطلّباتها وشواغلها المادية والحياة الروحانية إذا كنا محظوظين بامتلاكها. وقد كادت الأولى تدمّر الأخيرة بالنسبة إلى العديد من الأشخاص الذين يقطنون في العالم الغربي. في الإسلام، كما في الديانتين الإبراهيميتين[22] الأخريين، ينظر إلى الإنسان[23] بأنه هبط من حياته الفطرية في جنّة عدن حينما كان في سلام مع الخالق وفي حالة وحدة معه ومع الكون. ولكي يستطيع الإنسان استعادة الحالة الفطرية للوحدة مع الله، فإنه بحاجة إلى كل مساعدة ممكنة لتذكيره بطبيعته كمخلوق سام. فالبشر نسّاؤون، ويستغرقون كثيراً في تفاصيل الوجود الدنيوي بحيث لا ندرك العلامات التي يمكن أن تذكّرنا ماذا يعني أن نكون بشراً. ومن أعظم هذه العلامات أو الآيات الطبيعة نفسها. يشير القرآن عدة مرّات إلى أهمية الآيات الموجودة في العالم الطبيعي، وليس بينها ما هو صغير أو تافه لا يذكّر بوجود الله من نواة التمر إلى البعوضة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: 26). والآية هي أيضاً جملة أو جمل في القرآن، ما يعني أن كل آية في القرآن علامة من عند الله. وهذه هي الحال في الواقع لأن معجزة الإسلام الكبرى هي القرآن الكريم نفسه، كلام الله المنزل. ويتفق على العموم أن القرآن باعتباره «الكلمة التي جُعلت كتاباً» يقابل المسيح في المسيحية باعتباره «الكلمة التي جُعلت بشراً».

يوحي أفلاطون في «نظرية الفن»[24]، من خلال الحوار حول السرير، بأنه يعتبر كل ما ينشئه النجّار أو المصوّر أو الفنّانون الآخرون «بعيداً ثلاث درجات عن

الشكل 20. الطبيعة البكر، أعظم الفنون الدينية. ثمة دعوة متكرّرة في القرآن إلى وجوب التفكير في الطبيعة لأن جمالها وتنوّعها من أعظم الرموز التي توصل إلى الخالق.

الحقيقة». وموضوعاتهم تمثيلات بعيدة عن «عرش الحقيقة». فقد خلق الله «الشكل الحقيقي» أو المثال الأول في الجنّة، لذا فإن كل شيء في العالم المخلوق بما في ذلك النباتات والحيوانات والأرض والسماء والكواكب هي انعكاسات أو صور مرآوية لهذه المُثل الأولى. واعتمد الإسلام التراث الأفلاطوني، ومن يعقلون، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (وهي عبارة تتكرّر في القرآن) ينظرون عبر ظواهر العالم الطبيعي بكل عظمته اللامتناهية إلى الحقيقة الأساسية: الطبيعة، كآية من الله، تحجب وتكشف في آن معاً. لذا فإن جمال العالم الطبيعي من أعظم آيات الله ومن خلال التفكّر في عظمته نستطيع الوصول إلى الله، كما هو الحال في الفن الحقيقي الديني. وهذا هو ما يتمحور حوله الفن الديني مثلما اشتهر عن أفلاطون القول، «الجمال هو روعة الحقيقة»[25]. لا يوجد في الإسلام جمال بعيد عن الله[26] ويُظهر الفن التقليدي في كل أنحاء العالم الإسلامي، إلى حدّ كبير أو صغير، حقيقة ذلك وحقيقة كلام أفلاطون. والحديقة الرباعية الإسلامية التقليدية، ونموذجها الأول جنات الفردوس التي وُصفت في القرآن (انظر الفصل الأول)، هي بحدّ ذاتها إحدى هذه العلامات. إنها وسيلة تستثيرنا من القبول المنفعل للعالم الحسي دون نقاش إلى إدراك حلول الله في الكون وتساميه.

الحدائق الإسلامية في بيئة مختلفة

نشأت الحديقة الإسلامية، كما هو معروف، في مناخ حارّ. وعلى الرغم من أن الثلج يتساقط في العديد من أنحاء العالم الإسلامي، مثل تركيا، وأجزاء من الأردن وإيران، ويمكن أن تنخفض درجات الحرارة دون الصفر، فإن مقدار الحرارة وأشعة الشمس أكبر بكثير مما هو عليه في المناخات الشمالية. لذا يدرك البستاني أو المصمّم منذ البداية أن محاكاة حدائق الشرق، مثل باغ شازده (حديقة الأمير) في ماهان بإيران، أو الحدائق الأقرب إلى الغرب مثل أفنية قصر الحمراء وحدائقه وجنة العريف (الأشكال 21 و24 و28 29) غير ممكن أو منشود في المناخ الرطب. الممكن والمنشود في عالمنا «المتعدّد الثقافات» هو دمج مبادئ تصميم الحدائق الإسلامية التي تتحدّث عن الرؤية الشاملة للكون بالمناخ الشمالي الرطب. ويؤمل أن يكون للنتائج جاذبية قوية لدى الناس من مختلف الخلفيات أو البلدان أو الأديان، وأن تعزّز في الوقت نفسه إدراك الجمال والشمول الذي يقوم عليه ما يعتبر في الغالب ثقافة غريبة.

العنصران الرئيسيان لجميع الحدائق الإسلامية، أياً كان نوعها ومكانها، هما الماء والظلّ؛ لذا يجب التفكير ملياً في إنشاء مثل هذه الحديقة في مناخ تُنشد فيه

حرارة الشمس وتعتبر عزيزة، في حين أن الماء والظلّ متوافران كثيراً وأمران مسلّم بهما. لذا يبحث مصمّم الحدائق في أحد المستويات عن لغة جديدة للبستنة، تزاوج بين مبادئ التصميم الإسلامية والنباتات الملائمة للمناخات الشمالية. وعلى مستوى أعمق، ربما يُجذب الشخص الراغب في إنشاء حديقة إسلامية إلى دورها كنوع من الملاذ على الأرض، بالإضافة إلى أنها تجربة مسبقة لجنات السماوات.

الشكل 21. حديقة البركة في قصر الحمراء.

الشكل 22. جدران حديقة السجادة في هايغروف، من جانب غرفة البستان. وقد بنيت من حجارة محلية بالإضافة إلى الخرسانة المكسوة بالملاط والمطلية لمنحها مظهراً كوتسوُلدياً متوسطياً مع إحساس أزتيكي بالحجم إلى حدّ ما.

إن الشهية الكبيرة لتعلّم مختلف تقاليد البستنة اليوم علامة أن العديد من الأشخاص يرغبون حقاً في فهم شيء عن الرؤية الثقافية والروحانية التي ولّدت بعض هذه التقاليد. فالحديقة الإسلامية تجسّد رؤية روحانية أساساً، على غرار حدائق زن البوذية. ولأنها تستند إلى قوانين الطبيعة والكون الشاملة فربما تلهم أشخاصاً من خلفيات ومواقع جغرافية شديدة التنوّع لتفسير أفكارها. وربما تتحدّث الرؤية الشاملة التي تجسّدها الحديقة الإسلامية إلى الجميع أياً كانت خلفيتهم أو بلدانهم أو أديانهم.

والأمل في أن يتمكّن القارئ من تعلّم شيء في الفصول التالية عن أهمية رمزية الحديقة الإسلامية بالإضافة إلى مبادئها التصميمية وكيف تجمع هذه المبادئ مع النباتات الملائمة لإنشاء هذه «اللغة الجديدة». وربما يمكن تكييف هذه المبادئ في موقع ما لكن يجب ألا يدخل عليها تغيرات جوهرية، لأن ذلك يخلّ بالمعنى الذي تقوم عليه. النباتات شديدة المرونة ويمكن تغييرها وفقاً للمناخ والتربة والشكل واعتبارات بيئية أخرى دون إدخال تغيير كبير على مبادئها التصميمية.

عند فتح البلدان المختلفة، استوعب الدين الإسلامي إلى حد ما الثقافات المتنوّعة لهذه البلدان وغيّرها بدوره. وينطبق ذلك على الفن والعمارة ونمط الحياة في كل الأنحاء المتنوّعة للعالم الإسلامي. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن المساجد التي بنيت في الثلاثين الأخيرة في البلدان التي انتشر فيها الإسلام حديثاً، مثل أوروبا الشمالية وأميركا الشمالية، ليست أمثلة على التصميم الجيّد على العموم[27]. وربما ثمة حاجة إلى مزيد من الوقت لفهم كيفية الجمع بين التصميم الإسلامي التقليدي والعمارة والمواد المحلية في هذه البلدان، فضلاً عن التصميم الغربي الحديث على العموم. قد يكون من السهل الجمع بين هذين المجالين معاً في الحدائق بطريقة سارّة ومنسجمة وذات مغزى. فقد انتشر الإسلام في النهاية في بلدان ومناخات شديدة التنوّع، من أفريقيا إلى تركيا إلى إندونيسيا والصين، لذا فإنه دين وثقافة مرنان، ومعتاد على تكييف الفن المحلي مع الروح الإسلامية المثالية والعكس بالعكس. وقد حان الآن دون أن تستوعب البلدان الشمالية الرؤية الإسلامية وتفسّرها ضمن تقاليد البستنة المحلية لإنشاء شيء إسلامي مميّز، ومع ذلك منسجم مع البلد المعني. ثمة قليل من الأمثلة التي نذكرها هنا، وأكثرها شهرة حديقة السجادة في هايغروف (انظر الفصل السابع، وهناك أيضاً الحديقة المستلهمة من المغول في مانغهام بارك ببرادفورد). لقد نجح ذلك إلى حدّ كبير، لأنها معزولة خلف الجدران: كما ذكر أعلاه، ولا تحاول المستحيل الامتزاج مع الحدائق الإنكليزية المحيطة. وينسجم ذلك مع الفكرة الإسلامية بإنشاء ملاذ، من سمات الحدائق في الصحراء، وحدائق الصيد الفارسية، وكلاهما معزول عن محيطه بالأسوار والنباتات.

إذاً ما هي الحديقة الإسلامية بالضبط، وما طرق اختلافها عن الحدائق الأخرى أو تشابهها معها؟ كيف نستطيع تطبيق مبادئها وأفكارها على حدائقنا؟ الأمل أن يجيب هذا الكتاب عن بعض الأسئلة الأساسية بالإضافة إلى تقديم بعض التفسير للمعنى الباطني الذي يقوم عليه شكل الحديقة الإسلامية ووظيفتها. ويؤمل أيضاً أن يُلهم القرّاء بأخذ بعض الأفكار وتطبيقها على حدائقهم. عند التفكير في الحديقة الإسلامية وكيف يمكن أن تصمّم حديقتك وتنشئها، من الملهم قراءة كلمات أحد أعظم مصمّمي الحدائق والكتاب في القرن الماضي، راسل بيج Russell Page:

> عندما أعمد إلى بناء حديقة خاصة بي فإنها لا يمكن أن تتخذ شكلاً لا يعكس رؤية صانعها. إذا أردتها أن تكون «مثالية»، علي أيضاً أن أحدد لنفسي مثالي وهدفي. والآن مثلما يكون الاختبار بالنسبة للمصوّر أو النحّات أو أي فنان آخر - ما القيم التي يحاول صانع الحديقة التعبير عنها؟ يبدو لي أنه يمتلك الخيار إلى حدّ ما. ربما يختار الطريق السهل ويصمّم حديقة تظهر مهارته التقنية

وألمعيته، أو يبذل قصارى جهده لإبراز المؤثّرات القوية، أو ينظر إلى الأمر كأنه اختيار بين عمل جيد أو رديء ويضع الخطة وفقاً لذلك. أو قد يحاول أن يجعل حديقته رمزاً وينشئ على أفضل وجه سقالة أو إطاراً تكسوه الطبيعة بالحياة» [28].

هذه الجملة الأخيرة تختصر صنع الحديقة الإسلامية، لأن الحديقة الرباعية في نهاية المطاف رمز، رمز لجنة الفردوس. والأمل أن يقدّم هذا الكتاب للقارئ أفكاراً لإنشاء إطار للرمز وكسوته بالحياة.

الشكل 23 مسجد باريس، مثال جيد على المسجد والفناء في القرن العشرين في أوروبا، وقد بني على الطراز الشمال أفريقي التقليدي.

الحديقة الرباعية في العالم الحديث

من الأهداف الرئيسية لهذا الكتاب إظهار أنه يمكن تطوير الحديقة الرباعية (جهار باغ) الإسلامية التقليدية في المملكة المتحدة وشمال أوروبا وأنحاء أخرى في العالم ذات مناخ مماثل. وثمة أدلة متزايدة على أن العديد من الأشخاص يجدون أن الحديقة، مهما كانت صغيرة، يمكن أن تصبح مصدراً لسلامة العقل في مجتمع معقّد ومحموم. ولعل تركيز الحديقة الإسلامية على السكينة والتأمّل هو ما يجتذب العديد من سكّان المدن إليها. في المناطق الصحراوية، تُحجب الرؤية عن البيئة القاسية خلف الأسوار العالية والأشجار الدائمة الاخضرار، الصنوبريات عادة، لأنها تتحمّل الرياح وقلة الماء لإقامة ملاذ في الداخل. ويمكن أن يطبّق المبدأ نفسه في المدن اليوم، الابتعاد عن البيئة: الشوارع المزدحمة والملوّثة والكثيرة الضوضاء بدلاً من نقاء الصحراء القاحلة والقاسية. بل إن البيت العربي الإسلامي التقليدي (الشكل 13)، الذي لا يزال يشاهد في وسط المدينة في بعض المدن الإسلامية مثل فاس والرباط ومراكش وحلب، بني دائماً حول فناء مركزي، تفصله جدران عالية عن المدينة. وتركّز هذه البيوت ذات الأفنية (باعتبار الفناء حديقة صغيرة) على الداخل والأعلى، ويرمز ذلك إلى القلب والله. لقد كان هذا الفناء الداخلي ولا يزال المعتكف الداخلي، وقلب البيت المخصّص للعائلة. وكما قال مجدّد العمارة التقليدية وتخطيط المدن المصري العظيم حسن فتحي، «إن أفضل تعريف للعمارة هو نتاج التفاعل بين ذكاء الإنسان وبيئته، لتلبية احتياجاته الروحانية والمادية»[29]. ويمكن اليوم إعادة إنشاء المعتكف الداخلي في الحديقة الخلفية أو الأمامية للعديد من الساكنين في المدن.

الشكل 24. حديقة السلطانة في جنّة العريف.

الفصل الأول

التاريخ والرمزية والقرآن

جاء المسلمون الأوائل من شبه الجزيرة العربية: النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، على نحو معظم الأولاد الصغار العرب في ذلك الوقت (القرن السادس الميلادي)، نشأ في طفولته المبكّرة عند مرضعة من إحدى القبائل الرحّل. وكان يعتقد أن البيئة الصحراوية القاسية وطريقة العيش البدوية تغرس في الأولاد في سنّ مبكّرة فضائل الثبات والقوة والشجاعة، ما ينفعهم كثيراً عند البلوغ. لم يكن هناك على ما هو معروف أي تاريخ للحدائق كما نفهمها في شبه الجزيرة العربية في تلك الفترة. فقد كانت شجرة النخيل والماء، أي الواحة، هي الحديقة. ولا يمكن الحديث عن نشوء الحديقة الإسلامية إلا بعد أن فتح الإسلام البلدان الأخرى ذات الحضارات التليدة وبخاصة فارس. فقد استوعب المسلمون هنا تقاليد حدائق الصيد والحدائق الملكية الخاصة للمتعة ومنحوها رؤية روحانية جديدة تماماً.

إذا ألقينا نظرة على الفنّ والعمارة في العالم الإسلامي يتضح التنوّع الهائل للتعبير الفنّي ومن الأمثلة على ذلك مسجد القيروان في فاس، ومسجد أحمد بن طولون في القاهرة، والمسجد الجامع في أصفهان. وكلها تتميّز بالفن والأشغال الحرفية الغنية التي تزيّنها. فقد كيّف كل موقع جغرافي يتميّز بسكانه المحليين وخصائصه الثقافية ومواهبه، الرؤية والمبادئ الإسلامية لبلوغ ذرى الفنّ التي تعكس الأرض المعنية وتبرز المظاهر الحقيقية للروح الإسلامية، وينطبق ذلك بالقدر نفسه على الحدائق الإسلامية. تظهر هذه الحدائق في كل أنحاء العالم الإسلامي تنوّعاً عظيماً في الأسلوب بما يعكس العوامل البيئية والعملية، بالإضافة إلى العوامل الثقافية المحلية: عوامل مثل الطوبوغرافيا وتوافر المياه وغرض الحديقة أو نوعها. وتتراوح هذه بين الحدائق الواسعة المفتوحة، مثل شاليمار باغ (حديقة الحب) في كشمير حيث يمكن جمع المياه من الجبال وجرّها في قنوات، وحدائق الأفنية الداخلية الصغيرة (وهي موضوع اهتمامنا الرئيسي هنا) في المدن التقليدية مثل فاس أو دمشق. وعلى غرار الفنّ والعمارة الإسلامية، فإن هذه الحدائق تحتفظ بالمبادئ نفسها وتعبّر عن الروح الإسلامية، بصرف النظر عن التنوّع الثري في أساليبها.

إذا كان البستاني أو المصمّم الفرد ماهراً في ربط التصميم الإسلامي بالعوامل المحلية مثل المناخ والمواد والعمارة وتقاليد البستنة، فلن يعود هناك أي سبب لعدم نجاح الحدائق الإسلامية في العديد من المناطق الجغرافية في العالم من جنوب فرنسا إلى اسكتلندا، أو من فنزويلا إلى كندا. لكن إنشاء حديقة إسلامية ناجحة في أي مكان من العالم يبدو مفهوماً غريباً يتطلّب بعض المعرفة بتاريخها ورمزيتها وتقاليد الزراعة وتنوّع الأساليب في العالم الإسلامي، وهو ما يحرص هذا الكتاب على إظهاره. وهكذا فإن فهم الإطار الثقافي مفيد ومهم عند البحث عن إلهام أو أفكار عملية.

التاريخ

ترجع فكرة التماهي بين الفردوس (الجنّة) والحديقة (الجنينة) إلى ماض بعيد جداً. فهي تسبق الإسلام، فضلاً عن اليهودية والمسيحية وجنّات عدن بقرون، ويبدو أن أصولها نشأت في الحقبة السومرية (4000 ق. م) في بلاد ما بين النهرين. هنا تذكر جنة الفردوس الخاصة بالآلهة في أولى كتابات الإنسان. ووصف البابليون (نحو 2700 ق. م) لاحقاً فردوسهم الإلهي في ملحمة غلغامش: «في هذه الجنة الخالدة تبرز الشجرة... توجد الشجرة إلى جانب ينبوع مقدّس»[30]. وهكذا فإن لدينا العنصرين اللذين لا غنى عنهما في جنّات الفردوس في الإسلام: الماء والظلّ. وكلمتا

جنة وحديقة عربيتان، أما كل الكلمات الأخرى التي تصف الحديقة، مثل جهار باغ (الحديقة الرباعية)، والبستان والغلستان (حديقة الورود) فهي فارسية، ما يشير بوضوح إلى أصل الحديقة الإسلامية. لقد كان التأثير الفريد للوحي الإسلامي على الحضارتين الساسانية والأخمينية القديمتين في فارس، بحدائق الصيد المسوّرة فيهما ونظم الري المعقّدة، مثل حدائق قورش العظيم في بساركاد، هو الذي أوجد الحديقة الإسلامية في نهاية المطاف.

ثمة كثير من الإشارات إلى النوافير والمياه المتدفّقة والمناخ المثالي المعتدل في وصف الجنّة في القرآن، مثل ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وفي ﴿جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾[31]. في البيئات الحارّة والجافة، ينظر إلى الماء، سواء في الشتاء أو الربيع، بأنه رمز مباشر لرحمة الله، ويوصف المطر في القرآن بأنه رحمة وحياة (انظر الفصل الرابع). أما بالنسبة إلى من نشأوا في بلاد كثيرة المطر (والفكرة الشائعة عن الجنّة واحة في الصحراء ونخيل) فمن السهل أن يؤخذ الماء كأمر مسلّم به وألا يُدرك ما تعنيه الحديقة الوارفة ذات الظلّة الخضراء والماء المتدفّق لسكان البلاد ذات المناخ الصحراوي الشديد الحرارة. وليس مصادفة أن يكون الأخضر علم الإسلام وهو اللون المستخدم مراراً وتكراراً لوصف الجنة حيث يرتدي المؤمنون «ثياباً خضراً» و﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾[32]. وهو ليس لون كل الخضرة اليانعة في الربيع، والتي ترمز إلى النماء والخِصب فحسب، وإنما نقيض الألوان البنية الرملية للصحراء، الذي تتوق إلى مرآه العيون. وقد كتب بستاني إنكليزي شهير في بداية القرن العشرين وصفاً مثيراً جداً للحرارة التي لا يمكن اجتنابها والتوق إلى البرودة والأوراق الخضراء عندما كان مسافراً في إيران:

> تصوّر أنك ركبت في الصيف أربعة أيام عبر سهل ما؛ ثم وصلت إلى حاجز من الجبال التي تعلوها الثلوج فعبرت ذلك الممرّ؛ ومن أعلى الممرّ شاهدت سهلاً آخر وحاجزاً جبلياً آخر في البعيد، على بعد مئات الأميال؛ وتعرف أنه خلف تلك الجبال يوجد سهل آخر، وآخر؛ وأن عليك أن تركب أياماً، وحتى أسابيع دون أي ظلّ، الشمس من علٍ ولا شيء سوى عظام الحيوانات المبيضّة المبعثرة على طول الممرّ. وعندما تصل إلى أشجار ومياه جارية تدعوها حديقة. لن تكون الأزهار وألوانها الزاهية ما تتوق إليه عيناك، بل كهف أخضر مليء بالظلال والبرك التي تندفع فيها الأسماك الذهبية، وتُسمع فيها رقرقة الجدول[33].

الشكل 25. بستان نخيل في المدينة.

الشكل 26. منمنمة فارسيّة تظهر الجدران المرتفعة المحيطة ببيت وحديقة، أواخر القرن الرابع عشر.

كان الفرس، كما أشرنا سابقاً، من أوائل الشعوب التي تزرع الجنينات والحدائق العامّة وأراضي الصيد وكانت أراضي الصيد مسوّرة بحكم التعريف. وهكذا نحصل على الفور على فكرة مكان معزول عن محيطه، لدرء البيئة الصعبة وحماية الخصب واليسر في الداخل. ومن طبيعة الجنّة أن تكون مخبّأة وسرية، لأنها تقابل العالم الداخلي والروح العميقة ـ جنّ تعني سَتَر، وهو جذر كلمة جَنّة[34]. وهكذا غالباً ما تمثّل الحديقة الرباعية (جهار باغ) في المصوّرات المنمنمة بأنها محاطة بجدران عالية. والفناء في المنزل العربي الإسلامي التقليدي في المدينة حديقة رباعية مصغّرة؛ قد لا يكون هناك مجال لكثير من النباتات والأزهار لكن يوجد الماء دائماً، نافورة صغيرة

عادة في الوسط وربما شجرة نخيل واحدة أو بعض النباتات في الأصص. وغالباً ما تكون هذه المنازل مرتفعة إذ تتكوّن من أربع طبقات أو أكثر وسطح مستوٍ يستطيع أن ينام المرء عليه في ليالي الصيف الحارّة. ونادراً ما تفتح النوافذ على الشوارع، بل تفتح على الداخل، وتكون ذات شرفات في العادة، نحو الفناء والحديقة الصغيرة الداخلية. عند دخول أحد هذه المنازل، ينعطف الممر للمحافظة على الخصوصية بحيث لا يستطيع المارّة في الشارع استراق النظر إلى الداخل.

الخطة التي يقوم عليها المنزل العربي الإسلامي، وهي أيضاً خطة الحديقة الرباعية، موروثة من نموذج أولي قديم نشأ في بلاد ما بين النهرين. هنا استفادوا إلى الحدّ الأقصى من الماء القليل المتوافر وبنوا بيوتهم من الطين حول أماكن مسوّرة أو أفنية في وسطها نافورة. وذلك يدرأ الظروف المعاكسة في الخارج بينما ينشئ ملاذاً أبرد وأنظف وأكثر إنعاشاً في الداخل. ووفقاً للتوجيه الإسلامي، تعكس هذه العمارة أيضاً الفصل الواضح بين المجالين العام والخاص في المجتمع الإسلامي التقليدي. وقد أصبح هذا التمييز بين المجالين العام والخاص أحد مبادئ العمارة الإسلامية التقليدية، وامتداداً الحديقة الرباعية الإسلامية التقليدية. ينفتح المنزل على الداخل نحو القلب بدلاً من الخارج نحو العالم. ويمثّل القلب، الفناء، الجانب الباطن التأمّلي للطبيعة الإنسانية. بالمقابل، فإن المنزل الحديث على طراز الفيلا يمثّل الموقف الدنيوي الظاهر (الخارجي). ربما يكون المنزل التقليدي في وسط المدينة المزدحم، مثل مراكش، لكن عندما، يغلق الباب الموجود على الشارع يدخل الزائر عالماً مختلفاً تماماً: يبرز الهدوء على الفور إذ إن الجدران السميكة العالية تبقي الضوضاء في الخارج وتضفي على الداخل نوعاً من الصمت، لا يختلف عن دخول دور العبادة. في الليل تتسم هذه الأفنية الصغيرة (مربّع ذو ضلع من ستة أمتار أو أقل في الغالب) بالسحر: عندما يجلس المرء على سجادة أو وسادة على الأرض الحجرية، ينجذب نظره إلى الأعلى نحو النجوم في السماء. وذلك مثال تقليدي على كيفية تأثير العمارة التقليدية على طريقة الحياة بأكملها وعلى الروح.

كتب أحد علماء الدين، «طالما كانت فكرة الأيدي الخفية التي تدفع الرياح التي تهبّ على الصحراء وتشكّل السراب الخادع الذي يجذب المسافر إلى هلاكه تخامر سكان الصحراء»[35]. وهكذا اعتبر العرب قبل الإسلام، الذين اعتادوا العيش في بيئة قاسية، أن أقل انهمار للمطر أو أقل إشارة إلى خضرة الطبيعة أمر ثمين ومقدّس، وأن ظهوره النادر من عمل «أيد خفية». وقد شكّلت الواحة حديقة بالنسبة إليهم. لذا فإن اتساع هذه الواحة وتزايد الماء والأشجار، كما ورد في القرآن، أمر إعجازي تسوقه السماء. وكانوا يجلّون الطبيعة باعتبارها واهبة الحياة وعلامة على القوة الغامضة

التي توجّه الكون، وكانوا على دراية بعالم الروح غير المنظور. وهكذا عندما نزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم في أوائل القرن السابع الميلادي، واعداً المؤمنين والصالحين بجنّات الفردوس، كان من الطبيعي أن تتقبّل العرب ذلك. فقد أعاد الدين الإسلامي توكيد الحقائق القديمة والشاملة، وأسبغ عليها رؤية روحانية صارمة تتركّز على إله واحد. وهكذا عندما فتح العرب المسلمون فارس وسورية لا سيما دمشق وإسبانيا، كل البلدان التي تتوافر فيها المياه مقارنة بشبه الجزيرة العربية، لم يكن من المفاجئ أن يعتقدوا أنهم وجدوا الجنة الأرضية.

الشكل 27. رياض العَرَصَة، مراكش، نافورة وسط أربعة ممرّات

القرآن والرمزية

هناك العديد من الإشارات إلى جنات الفردوس في القرآن التي وُعد بها ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[36]. وترفق العديد من النعوت بكلمة جنات لوصف خصائصها: مثل ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾[37]، و﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[38]؛ و﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[39]. ويرد أيضاً ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾[40]، ما يوحي بالسلام والانسجام الذي ساد حالة البشر البدائية. ومن هذه الصفات المرفقة بكلمة جنة، نجد أن جنات الفردوس الإسلامية ليست نعيماً وخلداً فحسب، وإنما ملاذ وملجأ أيضاً، وخلوة محمية وآمنة بعيداً عن إزعاج العالم. غير أن العبارة الأكثر استخداماً (أكثر من ثلاثين مرة) هي ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[41]. ولتكرار هذه العبارة إيقاع مهدّئ، وعندما يغمض المرء عينيه، في وسعه أن يتصوّر أنه في حديقة يجري فيها الماء (الأشكال 29 و31 و40).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[42]. الأنهار الجارية والمياه والعيون هي الصور الأقوى التي يحتفظ بها المرء بعد قراءة صور جنات الفردوس في القرآن. وما من شك في أن السبب الذي يجعل الماء عنصراً في الحديقة الإسلامية هو الافتقار إليه في الأراضي الصحراوية بشبه الجزيرة العربية والأهمية التي يوليها لها القرآن (انظر الفصل الرابع). فلكي يغري الله عباده باتباع ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[43]، وعدهم

بجوائز في الحياة الآخرة يدركونها ويرغبون فيها ويجلّونها لخصائصها الواهبة للحياة مثل الماء والظل. وقد منح الإسلام المسلمين الأوائل المعرفة والإيمان بأن هذين العنصرين، إلى جانب ما تبقى من العالم الطبيعي، يجب ألا تعبد لذاتها: بل يجب أن تجلّ لما تمثّله. الطبيعة والجمال رمزان ظاهران لحسن باطن. وقد حُثّ المؤمنون في القرآن على تأمّل هذه العلامات أو الرموز، لأن كل شيء في العالم المخلوق آية تدلّ على الخالق: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (2: 243). ويشير القرآن أيضاً إلى ضآلة الحياة الدنيا وقصر أمدها مقارنة بسعادة الحياة الخالدة وجنات الفردوس: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (47: 36) و﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (87: 17).

لا يعود الإنسان مسلماً إذا قدّس العالم المخلوق كغاية بحد ذاته (انظر ص 48). بل يجب النظر إلى العالم على ما هو عليه على أنه وهم يحجب عالم الآخرة الأصلي ويكشفه. وعندما تتركّز الحضارة على الديني، سواء أكانت إسلامية أم هندية أميركية شمالية أم مسيحية قروسطية، فإن العملي يرتبط دائماً ارتباطاً متشابكاً بالروحاني. هذه هي لغة الرمزية - ربط الأنشطة العملية اليومية بأصولها السماوية. لكن البشر ينسون ويحتاجون إلى تذكرة دائمة بأن الأشياء في العالم شفّافة وليست غاية بحد ذاتها. وهنا يدخل الدين[44] أولاً، والفن الديني ثانياً. يمكن اعتبار الحديقة الإسلامية نوعاً من الفن الديني في الهواء الطلق، حيث يجتمع المضمون والشكل واللغة الرمزية معاً لتذكير الزائر بالحقائق الخالدة غير المرئية التي توجد تحت الهيئات الظاهرة.

الشكل 28. حدائق في جنّة العريف في قصر الحمراء.

﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: ربما جاءت فكرة جريان الماء «من تحت» من متطلّبات الوجود في الصحراء حيث المصدر الوحيد للماء في معظم السنة هو الواحات أو نظم الري تحت الأرض مثل القنوات في فارس. في الحدائق نفسها، يجب أن يشاهد الماء ويتفاعل معه. فلريّ الأزهار، يجب أن يجري في قنوات مستقيمة وجداول، تحت الممرات في الغالب، ما يعطي الزائر انطباعاً بأنه في حديقة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾. وعلى مستوى أعمق، يوحي الماء المتدفّق من تحت برعاية «الحديقة الباطنية»، «حديقة القلب»، بمياه الروح الدائمة التدفّق التي تنقّي نفس من يسير على الطريق الروحاني. الماء في الواقع يرمز إلى الروح في العديد من التراثات الدينية، فسيولته ومظهره المطهّر دائماً انعكاس لقدرة الروح على تجديد نفسها، ومع ذلك تبقى متطابقة مع مصدرها (انظر الفصل الرابع). ويشكّل الماء الذي يجري بصورة متواصلة في حدائق شاليمار في لاهور أو حدائق جنة العريف في قصر الحمراء بعض أكثر التمثيلات إيحاء بجنات الفردوس الإسلامية في العالم: لا يكتم صوت الماء أصوات الناس الآخرين فحسب، وإنما له تأثير في إسكات أفكار المرء والسماح بإحساس غامر بالسلام.

الشكل 29. حدائق في جنّة العريف في قصر الحمراء.

ثمة مكانان رئيسيان في الحياة الآخرة في الإسلام، الجنّة والنار يفصلان بين من نجا ومن لم ينجُ وثمة مراتب داخل كل منهما[45]. وقد ورد في القرآن: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[46]. وهكذا فإن في وسع المؤمنين والصالحين الاطمئنان إلى دخول جنات الفردوس، وهي تحتوي على جمالٍ وسعادة ساميين لا يُختبر إلا القليل منهما على الأرض. وتتحقّق هذه التجربة المسبقة في بعض الحدائق الإسلامية العظيمة في العالم التي سنتناول العديد منها في هذه الدراسة؛ وبالرعاية والحب ربما يتحقّق ذلك على مستوى متواضع في حديقتك الإسلامية على ما نأمل.

فيما يلي بعض الآيات التي تشير إلى الوفرة الكثيرة والمتعة الغامرة التي تمنحها القراءة الكاملة لأوصاف جنات الفردوس في القرآن:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾... ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩ وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ نَعِيمٗا وَمُلۡكٗا كَبِيرًا﴾[47]

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾، ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾، ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾[48]

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾[49].

المناخ معتدل ومثالي، ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾[50].

فيها خيام باردة وسرر ووسائد وبسط وثياب من حرير، ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[51].

لا يعرف فيها التعب، ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[52].

الفاكهة فيها وفيرة، ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[53].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾[54]. ويسقون خمراً لا يصدّع الرؤوس ولا يسكر، ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾[55].

ومن العناصر الأساسية في الجنة أنها خالدة، وأن الصالحين يمكثون فيها أبداً، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[56].

أخيراً، يجزي الله المؤمنين لأنهم ذكروه على الأرض: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[57].

إن المتع والمسرّات في الجنة كما يصوّرها القرآن تعطي المؤمنين فكرة واضحة عن المكافأة التي يحصلون عليها لقاء سعيهم. وهي تنقل القارئ أو السامع إلى السماوات، إلى مكان يتسم بالسلام والسرور الدائم، لا يحقّقه على الأرض إلا أشدّ المخلصين في العبادة. ويتمّ لهم ذلك بذكر الله الدائم، ورعاية الحديقة الباطنة، حديقة القلب. هذا هو ميدان الصوفيين[58]، الذين يركّزون على الناحية الباطنة للإسلام ويدركون إدراكاً عميقاً أن العالم رمز، صورة مرآوية عابرة لحقيقة خالدة غير مرئية[59].

التصميم والرمزية: العدد أربعة

على الرغم من أن التصميم الرباعي يستخدم في التقاليد الأخرى، لا سيما المسيحية حيث ترد على البال حديقة الأعشاب الديرية والفناء المفتوح داخل الدير، بالإضافة إلى معظم كليات أكسفورد وكمبريدج، فما من شك لدى معظم الأشخاص أن تصميم الحديقة الرباعية (جهار باغ) إسلامي أساساً. تطوّر هذا المخطط المكوّن من أربعة أجزاء من النموذج الأولي الفارسي القديم قبل الإسلام وجنات الفردوس التي يرد وصفها في القرآن الكريم والحديث الشريف[60]. وتلازم العدد أربعة رمزية

شاملة تقوم على فهم للعالم الطبيعي. فهي تشمل الجهات الأربع، والعناصر الأربعة، والفصول الأربعة. ويمثّل المكعّب، وهو الشكل الثلاثي الأبعاد للعدد أربعة، الصلابة، أو الأرض[61]. ويذكّر المخطّط الرباعي أيضاً بالمندالا(*) الأساسية للتراث الفيدي، التي تقسم إلى تسعة مربّعات وترمز إلى العالم الأرضي. وتستند التانغا(*) البوذية إلى شكل مربّع داخل دائرة، تمثّل الأرض التي تحيط بها السماء. وقد أبرز الدين الإسلامي هذه الحقائق الكونية القديمة الواسعة الانتشار، ومنحها فهماً روحانياً جديداً. وتحدّث النبي محمد صلى الله عليه وسلّم، عندما وصف المعراج، عن أربعة أنهار: واحد من ماء، ومن لبن، ومن عسل، ومن خمر. وذكرت الأنهار الأربعة أيضاً في جنات الفردوس التي وصفها القرآن: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾[62]، وورد في سفر التكوين «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس»[63]. ويجدر بنا هنا إيراد وصف طيطس بوركهارد Titus Burkhardt لباحة الأسود في قصر الحمراء كاملاً:

الشكل 30. مخطّط أنغوري باغ، وهي جزء من القلعة الحمراء في أغرا.

(*) المندالا تمثيل رمزي للعديد من الطاقات الكونية المختلفة. والتانغا رسومات تستخدم للتعليم والتأمّل – المترجم.

الشكل 31. باحة الأسود، قصر الحمراء.

يشمل مخطط الحديقة دائماً أنهار الجنّة الأربعة التي تجري نحو أقسام الجنة الأربعة، أو منها نحو المركز. تغذى مجاري الماء في باحة الأسود من صحنين في الشمال والجنوب وقبّتين حجريتين من الجانبين الغربي والشرقي. ترتفع أرضية القاعتين فوق مستوى الحديقة، ومن ثم يجري الماء، الذي يتدفّق من حوضين دائريين، فوق العتبة نحو النافورة، حيث يتجمّع هناك ويتسرّب بعيداً... والنافورة نفسها ذات الاثني عشر أسداً التي تحمل حوضاً ويخرج الماء من أفواهها رمز قديم وصل إلى الحمراء من الشرق قبل المسيحية عن طريق كل أنواع الصلات الوسيطة. والأسد الذي يخرج الماء من فمه ليس سوى الشمس، التي تتدفّق منها الحياة، والأسود الاثنا عشر هي بروج الفلك الاثنا

عشر، والأشهر الاثنا عشر التي توجد معاً في وقت واحد في الآخرة. وهي تحمل «بحراً»... وهذا البحر هو خزّان مياه الجنة... والقبتان الحجريتان، في الجانبين المتقابلين في شرق الحديقة وغربها، هما جزء من صورة جنة الفردوس، إذ إن القرآن يذكر في وصف الجنة القباب أو الخيام العالية[64].

لا يُعرف عدد البستانيين الذين يدركون المعاني العميقة التي يقوم عليها مخطط الحدائق وبناؤها، لكنهم يدركون جميعاً أن نِعَمَ الطبيعة هبةٌ من الله: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون﴾[65].

على نحو جميع الحرف والفنون، بما في ذلك العمارة والحدائق، ثمة حرفيّ رئيسي يضع التصميم أولاً ويشرف على المشروع في أثناء تقدّمه. ولديه أيضاً بعض المعرفة عن الأهمية الرمزية لتصاميمه ويعمل بالتعاون الوثيق مع الحاكم. فالسلاطين والأمراء هم الذين أطلقوا معظم الحدائق الواسعة النطاق التي لا تزال قائمة حتى اليوم. فقد عمل المعماري العظيم سنان عن قرب مع السلطان سليمان القانوني. وفي الحمراء، كان الأمير محمد الخامس الراعي الذي أطلق بناء باحة الأسود وأدرك المعنى العميق للنموذج الرباعي. ومن المثير للاهتمام أن كلمة «patron» (راع) مستمدّة من اللاتينية «patronus»، أي الأب، وتفيد معنى الرعاية والحماية بالإضافة إلى الدعم والتوجيه. وتعود أصول كلمة «pattern»، أي النموذج الذي يصمّم عليه شيء ما، إلى كلمتي «patron» و«patronus» – ما يعزّز الفكرة (الموروثة جزئياً عن أفلاطون) بأن لكل ما على الأرض مثال إلهي أو نموذج أصلي في السماء.

الشكل 32. باحة الأسود، قصر الحمراء.

الشكل 33. مركز حديقة القصر الرباعية، قرطبة

سورة الرحمن

لا توصف الأنهار الأربعة في القرآن فحسب، وإنما توصف أيضاً الجنّات الأربع في سورة الرحمن (رقم 55) بأنها أربعة أزواج. تضمّ هذه السورة الوصف الأطول لجنّات عدن في القرآن، وتقسم هذه الجنات الأربع وفقاً للتفسير إلى الجنتين الأوليين أو السفليتين، وهما جنّة النفس وجنّة القلب (المخصصتان للصالحين). أما الجنّتان العلويتان فهما جنة الروح وجنة الجوهر (وهما مخصصتان للسابقين المقرّبين إلى الله). تحتوي كل من هذه الجنّات الأربع على فاكهتها الخاصّة. وثمة دلالات رمزيّة معقّدة وعميقة في الجنّات الأربع الواردة في سورة الرحمن لا يتسع المقاوم لبحثها بمزيد من التفصيل[66]. يكفي التشديد على أن الشكل الرباعي (الجهار باغ) للنموذج الأصلي للحديقة الإسلامية ليس نزوة تصميمية أو خطة ملائمة للبستنة، وإنما هو انعكاس للحقيقة العليا والرمز الجامع للوحدانية الإلهية.

تطوّر الحديقة الرباعية

وهكذا يستند تصميم أي حديقة إسلامية شهيرة إلى العدد أربعة، وتصبح الحديقة الرباعية الرمز الرئيسي لجنّات الفردوس القرآنية. وقد تم التعمّق فيها وتطويرها في جميع أنحاء العالم الإسلامي: على سبيل المثال، يوجد في أصفهان

طريق يُدعى جادّة جهار باغ، كانت عدّة حدائق رباعية تمتدّ على جانبيه فيما مضى[67]. وفي الهند بُنيت بعض أعظم حدائق الأضرحة، مثل ضريح همايون، حيث وُضع القبر في مركز المخطّط الرباعي، وتاج محل، المذكور آنفاً، حيث وُضع الضريح عند أحد الجوانب، وتمتد الحديقة الرباعية في المقدّمة وتوجد البركة في المركز (الشكل 19). إن جمال هذه الأضرحة وحدائقها يحبس الأنفاس، غير أنه من غير المحتمل أن يعتزم أي قارئ تصميم واحد مثل هذه – لكن من يدري؟ تشاهد أمثلة أكثر تواضعاً عن الحدائق الرباعية في العالم الإسلامي في المغرب وسورية وإيران وتركيا، حيث تشكّل الأفنية جزءاً لا يتجزّأ من البيوت والمباني العامّة. وتوجد أمثلة رائعة في إسبانيا الإسلامية في حدائق باحات قصر الحمراء وحدائق جنّة العريف المذكورة آنفاً، بالإضافة إلى حدائق القصر في قرطبة وأشبيلية التي يرجع الفضل فيها إلى السلف المسلمين. يوضح إلقاء نظرة سريعة على أي من هذه الحدائق أن جميعها تشترك في عنصر جوهري: الماء. الماء، كما يظهر الفصل الرابع، هو العنصر الأهم والمحدّد للحديقة الإسلامية. ومثلما توجد أنهار ونوافير في جنّات الفردوس، فإن هناك أنهاراً، أو بالأحرى قنوات أو جداول، ونافورة واحدة على الأقل، في الحدائق الأرضية. ويصحّ القول في العديد من الحالات إن التصميم الهندسي يتحدّد بالمتطلّبات العملية للريّ، وتدفّق الماء نفسه. وفي الحديقة الإسلامية التقليدية، كما هو الحال في جميع الفنون التقليدية والعمارة الإسلامية، لا يوجد تمييز بين ما ينفّذ للأغراض العملية وأهميّته الروحانية: فهما يترافقان جنباً إلى جنب.

الشكل 34. ضريح همايون، الهند.

الشكل 35. باحة ذات حديقة رباعية، قرب السليمانية، إسطنبول.

الشكل 36. حديقة القصر، قرطبة، تظهر النافورة في مركز حديقة رباعية.

سلام

يرد في القرآن أن الكلمة الوحيدة التي تقال في جنّات الفردوس هي سلام: ﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً. إلا قيلاً سلاماً سلاماً﴾[68]. لذا من الوظائف الرئيسية للحدائق الأرضية توفير المحيط الجميل والمنسجم، والانعزال عن العالم حيث تسترخي النفس بعيداً عن الأفكار المشوّشة وتكون في سلام. إن كلمة إسلام مشتقة من الجذر «سلم»، الذي يعني السلام لكنه يعني أيضاً الاستسلام والخضوع، ومن ثم فإن المعنيين معاً يفيدان «السلام المتأتّي عندما يسلم المرء نفسه لله»[69]. كما أن التحيّة التقليدية التي يستخدمها المسلمون في جميع أنحاء العالم بصرف النظر عن عرقهم أو جنسيّتهم أو لونهم أو خلفيتهم أو سنّهم، وبصرف النظر عن أي كلمات أخرى يمكن تبادلها، هي «السلام عليكم» والردّ عليها هو «وعليكم السلام». يردّد الشخصان اللذان يتبادلان التحية شيئاً من صدى الجنّة. وذلك أمر رائع يعبّر عن لطف هذه التحيّة ووقارها ورزانتها، وهي تحية دافئة ومتحفّظة في الوقت نفسه:

دافئة بمعنى إقرارنا بأننا متساويان كشخصين أمام الله، ومتحفّظة لأنها لا تحتاج إلى مزيد من التواصل: يُحافَظ على التكتّم والخصوصية ولا حاجة إلى قول المزيد.

لذا عندما نقرأ أن كلمة سلام هي الكلمة الوحيدة التي تقال في الجنّة، فإن ذلك يبدو طبيعياً تماماً. البحث عن الجنّة على الأرض بحث عن السلام في الدرجة الأولى، لا سلام العالم فحسب، وإنما الأهم سلام النفس، لا النفس الخالدة، بل النفس التي تتبع أهواءها. إن كلمة جهاد الذي يساء استخدامها كثيراً تعني النضال أو بذل الجهد ويمكن أن تتخذ عدة أشكال مثل جهاد التعصّب والتمييز. غير أن الجهاد الأكبر، وفقاً للحديث النبوي هو جهاد النفس. إن التَّوق، غير الواعي أكثر من الواعي، إلى صفاء النفس شبيه بالذكرى الغامضة للفطرة عندما كان الإنسان في سلام مع الخالق في جنّة عدن، وبالتالي في سلام مع نفسه. لاستعادة هذه الجنّة الفطرية، على الملتزمين حقاً بالطريقة الروحانية الوصول إلى حالة ذكر الله باستمرار التي أشير إليها سابقاً (الصفحة 41). ويمكن أن تساعد الحديقة الإسلامية، الجهار باغ، في هذا الذكر، وتقدّم الملاذ بالإضافة إلى السلوى للنفس التعبة أو المضطربة بوضع الشواغل الدنيوية في نصابها الصحيح.

قصة ذات مغزى

ثمة قصة قوية ذات مغزى في سورة الكهف (السورة 18) عن رجل متكبّر يعتقد أن جمال حديقته يعود إلى صنع يديه وأنها ستدوم إلى الأبد، ﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾[70]. شعر صاحبه بالصدمة من تكبّره وسأله لماذا لا يحمد الله على جمال جنّته وخصبها، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾. ولأن هذا الرجل مؤمن وصالح، فإن في وسعه أن يتطلّع إلى جنّات الفردوس، ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾[71]. ولأن الرجل المتكبّر لم يقرّ بأنه يدين في نعمة العيش إلى كرم الله، فقد عاقبه الله بأن أرسل على حديقته صاعقة من السماء فدمّرتها.

ولعل هذه القصّة هي التي تناولها واشنطن إيرفنغ Washington Irving بالتفصيل في إحدى قصص «حكايات الحمراء» *Tales of the Alhambra* التي يعد فيها منجّمٌ شرّير الملك المرّاكشيَّ بأن يصنع له «حديقة إرم، وهي من أعاجيب العربية السعيدة... تزيّنها النوافير وبرك الأسماك والأشجار والأزهار والبساتين المحمّلة بالفاكهة اللذيذة»، لكنها تختفي أمام معظم المسافرين كأنها سراب. وقد بنى

هذه الحديقة العظيمة، وفقاً للمنجّم، الملك شدّاد، من أحفاد النبي نوح، الذي أنشأ حديقة عظيمة وعندما «شاهد روعتها، امتلأ قلبه كبراً وغروراً، وقرّر بناء قصر ملكي يضمّ جنّات تضاهي كل ما رواه القرآن عن جنّات السماء. لكن تطاوله أغضب الله فمسحه ورعاياه عن الأرض، وكُتب على مدينته الرائعة وقصره وحدائقه الغنّاء أن تختفي عن أعين الناظرين، إلا في فترات متقطّعة بحيث تذكّر دائماً بمعصيته»[72]. وفي شيراز في إيران، توجد حديقة تحتوي على بساتين برتقال وليمون، وأشجار سرو وحديقة ورود تدعى باغي إرم (حديقة إرم)[73]. وقد بنيت في القرن التاسع عشر، ولا شك في أن بناءها مستوحى من جنات الفردوس بالإضافة إلى حكاية الحديقة العظيمة التي لا تعدو أن تكون سراباً – تذكّر بأن الحدائق الأرضية ليست سوى وهم بغضّ النظر عن إغرائها.

الشكل 37. ميضأة، مسجد شاه، أصفهان.

التراث والفنّ التقليدي

المزج بين الديني والدنيوي جزء مهمّ من الثقافة الإسلامية التراثية، وكذا في جميع الثقافات التقليدية[74]. التراث يعني «نقل» المعارف المهمة من جيل إلى آخر ويمكن تتبعه إلى مصدره الأقصى في الوحي الإلهي. إلى جانب الناحية التأمّلية للحديقة الإسلامية، يمكن القول أيضاً إن الحديقة كانت للمتعة، والمباحثات السياسية، بالإضافة إلى زراعة الخضروات والفاكهة. كانت الحديقة للاسترخاء واللجوء إليها، والاستمتاع بخصائص المياه المبرّدة والمهدّئة، بالإضافة إلى المتع الجمالية والحسّية للأزهار، وعطر البراعم المتفتّحة، وشدو الطيور، وظلّ الأشجار. كان يستمتع بكل هذه الأشياء، لا لذاتها فحسب، وإنما أيضاً للإدراك التامّ بأنها تعكس نعيم جنّات الفردوس في الآخرة.

> إذا كان بيته [المسلم] من دون نوافذ مطلّة على الشارع، ومبنياً حول فناء داخلي تتلقّى منه الغرف الضوء والهواء، فإن ذلك ليس ردّاً على المُناخ الحارّ في الغالب للأراضي الإسلامية، بل رمزياً من دون شك. وانسجاماً مع هذه الرمزية، يمثّل الفناء الداخلي للمنزل صورة للجنّة عندما يحتوي على نافورة

ومجارٍ للماء الذي يتدفّق نحو الأشجار والأزهار، ويذكّر في الواقع بأوصاف مقام الصالحين في القرآن[75].

وهكذا عندما تكتب إحدى المؤلّفات أن «الاستنتاج بأن القرآن قدّم المخطّط التفصيلي للحدائق الإسلامية خطأ منهجي»[76] فإنها محقّة في أنّه لا يعرض «مخطّطاً تفصيلياً»، أي دليلاً عملياً لقياس قطعة الأرض مثلما يوجد في العهد القديم تعليمات لنوح بشأن كيفية تصميم الفُلك. غير أن القرآن يقدّم شيئاً أعمق وأقوى بكثير من «المخطّط التفصيلي»، إنه يقدّم البعد الداخلي أو الحقيقة. ولا يقلّ ذلك عن الوحي في تشديده على التوحيد. وعندما اجتمع ذلك مع المعرفة وحبّ الطبيعة، بالإضافة إلى الأشكال الشاملة الموروثة من الحضارات القديمة، أنتج فنّاً جديداً، فنّاً جميلاً لأنه حقيقي. إن معيار الفن التراثي أنه يحتوي على معنى، ويؤدي وظيفة، فضلاً عن أنه جميل يبعث على السرور[77]. «الفنّ للفنّ» لا مجال له في العالم التراثي. ولعل معنى كلمة جنّة الذي يدلّ على الحديقة والفردوس يشير بحدّ ذاته إلى انعدام التمييز بين الديني والدنيوي.

الشكل 38. نقش هندسي في جدارية من الجصّ في الحمراء.

مفهوم التوحيد

مفهوم التوحيد هو الرسالة الأساسية للقرآن. وهو باختصار إدراك أن «لا إله إلا الله»[78]، وهو ما يمكن تفسيره أيضاً أن «لا حقيقة إلا الحقّ»، أي أن الله هو الحقيقة الوحيدة. وهكذا فإن الوجود بأكمله يتمحور حول إدراك وحدانية الخالق، وذلك يعني أن كل شيء في هذا العالم المخلوق – وكل الظواهر – يشفّ عما بداخله. بعبارة أخرى، خلف الجمال القصير الأمد للشكل الخارجي تكمن الروح التي لا توصف في الداخل. إن هذه السمة الخالدة السامية وغير المنظورة هي التي تضفي المعنى على عالم الطبيعة وكل تجلّياته: وكل ما سوى ذلك زائل. وكما كتب طيطس بوركهارد:

> الرابطة الأعمق بين الفنّ الإسلامي والقرآن... لا تكمن في شكل القرآن وإنما في حقيقته، وجوهره العديم الشكل، لا سيما في فكرة التوحيد، ونتائجها التأمّلية. الفنّ الإسلامي – ونقصد به الفنون التشكيلية بأكملها في الإسلام – هو في الجوهر إسقاط بعض نواحي الوحدانية الإلهية أو أبعادها في نظام مرئي[79].

وسيكون إسقاط مفهوم التوحيد في نظام مرئي، من خلال الحدائق، هو الموضوع الرئيسي للفصل التالي.

الخلاصة

يحاول الناس على نحو متزايد إقامة جنّات صغيرة خاصة بهم، أماكن خضراء منعزلة للترويح عن النفس. ولعل الحديقة الرباعية، بتشديدها على البعد التأمّلي، تقدّم لبعض القرّاء الإلهام بشأن الحدائق في أفنيتهم. لقد قدّم العديد من الكتّاب على مرّ القرون وصفاً جميلاً لقدرة الحديقة على توفير العزاء والشفاء. على سبيل المثال، يبدأ جون دون John Donne قصيدته «حديقة تويكنهام»: «أصابتني الأحزان، وأحاطت بي الدموع، فجئت إلى هنا أنشد الربيع». وغالباً ما استخدم شكسبير تشبيه الروح بالحديقة، وكذلك القلب بالحديقة، وكلاهما موضوعان عامّان استعرضهما العديد من الشعراء الفرس، كما سنرى لاحقاً في الكتاب. ويقارن هاملت حالته العقلية بحديقة مهملة: «إن هي إلا حديقة لم تستأصل حشائشها الضارّة فنمت واستكملت بذورها، فانتشر فيها كل ما في الطبيعة من نبات وحشي غليظ حتى استولى عليها واستأثر بها»[80]. ومثلما لا يستطيع المرء إهمال الحديقة لحظة واحدة لأن المرض والآفات تهاجمها، فإن المرء لا يستطيع إهمال النفس الشديدة التعرّض للتأثيرات المغرية والسلبية.

الشكل 39. حديقة الباحة، دمشق، تظهر نافورة كبيرة في مركز أربعة ممرّات متقاطعة (مكتب عنبر).

غير أن الشاغل الرئيسي لهذا الكتاب هو تقديم اقتراحات بشأن كيفية الحصول على الجوّ التأمّلي والهادئ للحديقة الرباعية في حديقة مقامة في شمال أوروبا والبلدان ذات المناخات المماثلة. في الفصل التالي ننظر في المخطط الأرضي الأساسي والتصميم العام للحديقة الرباعية، وفي الفصول اللاحقة نركّز على العناصر الأساسية للحديقة الإسلامية التقليدية: الهندسة والحلية المعمارية، والماء، والأشجار والشجيرات، ثم النباتات والأزهار. والفصل الأخير دراسة حالة لحديقة السجّادة، وهي إسلامية تقوم على فكرة أصيلة لأمير ويلز.

أجمل غيرترود جِكِل Gertrude Jekyll، وهو أحد أعظم البستانيين الإنكليز، المنظور التقليدي، وهو منظور يتطابق مع الرؤية الإسلامية، ويعتبر الحديقة مكاناً للجمال يعكس جمال الخالق ومحبّته كما يلي:

> إنني أنشد الجمال والانسجام في كل مكان، لا سيما انسجام الألوان. والحديقة التي تُنشأ على هذا المنوال تمنح الشعور الرائع بالسكينة والانتعاش، والاستمتاع بالجمال بأنقى صوره، وفي اعتقادي أن ذلك أفضل إنجاز لغايتها. أما بالنسبة إلى العامل المجدّ فيها، فإن السعادة التي تمنحها تشبه ترنيمة الثناء المستمرّ. إنني أرى أن الغاية الفضلى للحديقة هي إضفاء المتعة والانتعاش على العقل، وإدخال السكينة والسرور إلى القلب في روح من الثناء والشكر[81].

الشكل 40. فناء الساقية،
جنة العريف

الفصل الثاني

التصميم والتخطيط

في هذا الفصل نتناول المبادئ الأساسية لتصميم الحديقة الإسلامية، الحديقة الرباعية (جهار باغ) بالدرجة الأولى، إلى جانب كيفية تطبيقها على الحيّز الخاص بك. قبل الشروع في تصميم حديقة إسلامية، يجب أن تنظر بعناية في ما إذا كان المكان ملائماً لمثل هذا المشروع، بالإضافة إلى أخذ المظهر والتربة والمحيط في الحسبان. يمكن تكييف المبادئ الأساسية أو تفسيرها لتتلاءم بنجاح مع الموقع المطلوب، شرط أن يشغل معنى التوحيد، وهو المبدأ الذي بُحث في الفصل السابق ويشغل حيّزاً أساسياً في جميع التصاميم الإسلامية، المكانة الأسمى في رؤيتك.

معنى التوحيد

أهمّ ما في تصميم حديقتك ألا تأخذ عنصراً جميلاً أو اثنين من الأسلوب الإسلامي، مثل النافورة أو البلاط ذي الأشكال الهندسية، وتجمعهما معاً وتأمل في أن تظهر حديقة إسلامية بأعجوبة. فمن المرجّح أن تنتهي هذه الطريقة العشوائية في صنع الحديقة إلى خليط مبعثر مُرض كأجزاء منفصلة، لكن الصورة الإجمالية غير مرضية – وغير إسلامية حقاً. فالإسلام، كما ذُكر آنفاً، منتشر في مناطق متنوّعة من العالم، لذا تبدو الحديقة الإسلامية في ماليزيا مختلفة عما تبدو عليه في إيران مثلاً أو شمال أفريقيا. لكنها إسلامية من دون شك أينما كانت وكيفما اختلف شكلها، على غرار الفنّ الإسلامي والعمارة على العموم. ويرجع ذلك، كما بيّن الفصل الأول، إلى أنها تشير إلى مبدأ التوحيد الشامل، وهو المبدأ الذي تقوم عليه جميع الفنون والعمارة وتصميمات الحدائق الإسلامية. ويمكن تعلّم الكثير من خلال دراسة اللغة التي استخدمها البستانيون والمصمّمون المسلمون في الماضي (لا سيما الحدائق من القرن العاشر إلى القرن السابع عشر): عند تفحّص طريقة توظيف الهندسة والماء في حدائقهم والنسب القائمة بين هذه العناصر والنباتات، بالإضافة إلى العلاقة المنسجمة مع العمارة المحيطة، يبدو كل ذلك حيوياً جداً. يتّضح من ذلك أن المخطط الهندسي هو العنصر الثالث المهمّ بعد العنصرين الأوليين للحديقة الإسلامية، الماء والظلّ. أما المكوّن الرابع فهو العمارة – الربط بين البيت والحديقة.

الشكل 41. ضريح اعتماد الدولة في أغرا.

على سبيل المثال، يوجد في المغرب نوع من المنازل يُسمّى رياضاً، وهو منزل ذو حديقة ملحقة، مسوّرة من ثلاثة جوانب في العادة، فيما الرابع هو البيت[82]. في الحدائق المغولية والفارسية الكبيرة، تبرز العمارة على شكل سرادقات أو أكشاك (لعلها مشتقّة من التركية) للجلوس كمعلم مشترك، وغالباً ما توضع قرب الماء للحصول على نسيم منعِش. ويمكن النظر إلى حدائق الأضرحة بأنها تكامل جميل بين مبنى الضريح نفسه والحديقة الرسمية المحيطة به (مثل ضريح اعتماد الدولة، الشكل 41). وكما لاحظت كونستانس فيليير ستيوارت Constance Villiers Stuart في أوائل القرن العشرين: «يدرج البيت أو القصر في إيران والهند دائماً تحت اسم الحديقة، ويتشابك الاثنان معاً بصورة وثيقة وجميلة»[83]. وهذا المبدأ المتعلّق بالتشابك الوثيق بين البيت والحديقة مهمّ عند بدء وضع المخطط الأرضي لحديقتك الإسلامية.

خلف العناصر المكوّنة المختلفة للحديقة، أي الماء والنباتات والهندسة والعمارة، يكمن سرّ القوّة التي تجمعها معاً في تكوين يبعث على الرضا ويحظى بالانسجام: مفهوم التوحيد، أو الرسالة العميقة للقرآن التي تتغلغل في كل ناحية من نواحي حياة المسلم. بعد قضاء بعض الوقت في تأمّل حديقة تفي بهذه المبادئ، مثل فناء الساقية في جنّة العريف[84] (الشكلان 40 و52) أو الحديقة الرباعية الأصغر في القصر في قرطبة (الشكل 36)، يبدأ الزائر في فهم ما يعنيه ذلك بالفعل. هذه الوحدة هي التي تمنح الحديقة الإسلامية سمتها التأمّلية. وهي واضحة في جميع الحدائق الإسلامية التقليدية، سواء أكانت حدائق شاليمار الواسعة في لاهور أو حدائق الأفنية الأكثر حميمية في دمشق وفاس (انظر الأشكال في الصفحة 16). «التوحيد في الحديقة الإسلامية لا ينتج عن توليف للعناصر المكوّنة، بل يوجد مسبقاً، وتستنتج جميع الأشكال الخاصة منه. فالشكل الكلي للمبنى أو الداخل يوجد قبل أجزائه سواء أكانت ذات وظيفة ثابتة أم لا»[85].

كيف نحقّق إذاً معنى التوحيد في حديقتنا الإسلامية؟ لا يوجد وصفة دقيقة أو محدّدة: إنه يتطلّب أولاً قدراً من الالتزام والمسؤولية من البستاني (والعميل أيضاً إذا كان مصمّم حدائق) لفهم شيء، مهما كان صغيراً، عن التراث الديني الذي يغني التصميم. ثانياً، عدم إغفال ذلك في أثناء القيام بتطبيق التصميم على موقع معيّن. وعلى غرار كل الأعمال الإبداعية، يقتضي ذلك الكثير من التفكير والتأمّل، بالإضافة إلى البحوث والمعرفة والحبّ الحقيقي للموضوع المعني – والدعاء أيضاً. ثم بشيء من التواضع، يأتي الإلهام بمشيئة الله – عاجلاً لا آجلاً على ما يؤمل. الإلهام بحاجة إلى لغة رسمية تعمل بها وتعبّر فيها عن الفكرة – إلى جانب الإلمام بالعمارة الإسلامية التقليدية والتصميم وحدائق الماضي، تعدّ الهندسة اللغة الأهمّ عند إنشاء الحديقة الإسلامية: يستعرض ذلك لاحقاً في هذا الفصل والفصل الثالث.

التدريب التأمّلي

في الأزمة السابقة في الشرق والغرب على السواء، وحتى عهد قريب في العديد من أنحاء الشرق، كان تدريب الحرفي التقليدي يستغرق عدة سنوات (انظر الفصل الثالث). يتبع المتدرّب تعليم سيده إلى أن يصل إلى المستوى المطلوب، من حيث الخبرة الفنية والانضباط الروحي، لإحراز مزيد من التقدّم. وعندما يكتسب جميع المهارات اللازمة لوضع أفكاره موضع التطبيق، إلى جانب تحقيق بعض التحوّل في شخصيته، يُسمح له بتصميم شيء بمفرده. وكان الأمر نفسه ينطبق على البستنة، لكن أصبح التقدّم اليوم سريعاً في كل مهنة. على سبيل المثال، كان

الشكل 42. فناء الريحان، قصر الحمراء.

البستانيون في اليابان يمضون ثلاث سنوات في كنس أوراق الأشجار قبل السماح لهم بتشذيب الأشجار، اليوم يتوقّع منهم تشذيب الأشجار في اليوم الأول[86]. يبدو أن نوع التدريب التأمّلي البطيء لم يعد عملياً في العالم الحديث. مع ذلك، المقصود أنه كلما ازداد فهمك للفن والتصميم الإسلامي التقليدي ككل، أو كممارس للهندسة و/أو البستنة، والخبرة التي تكتسبها، سَهُلَ عليك تصميم حديقتك الإسلامية. وتتوقّف النتيجة الناجحة، كما يتضح من ممارسة جميع الفنون والحرف، على مزيج من عناصر كثيرة: إخلاص النيّة، والمعرفة، والخبرة، والمهارة العملية، والإحساس الديني والإحساس بالجمال، وشيء من «خواء» القلب أو التواضع، والأهم من ذلك كله الحبّ الحقيقي للعمل، ثمة حاجة إلى كل ذلك إلى حدّ ما ليأتيك الإلهام وتمنح الإلهام شكلاً مادياً يتماشى مع التراث.

لا يرمي ذلك إلى ثنيك عن تصميم حديقتك بل التشديد على أهمية إجراء بعض الأبحاث وقضاء أطول قدر ممكن من الوقت في تفحّص صور الحدائق الإسلامية، ويستحسن زيارة ما أمكن منها. عندئذ فحسب يبدأ المرء في فهم التوحيد الذي تقوم عليه الحديقة الإسلامية ويميّزها عن سواها من الحدائق. بعد قضاء

ساعات طويلة في عدة زيارات لاستيعاب جوّ فناء الساقية في جنّة العريف، وفناء الريحان وسواه من الأفنية في قصر الحمراء (كحديقة فناء لندراخا، أو عين دار عائشة، [الشكل 126])، وأفنية قصر العظم في دمشق، على سبيل المثال لا الحصر، يتضح أمر واحد بجلاء: الحب والفهم العميقان لدى المصمّمين والحرفيين المسلمين للعلاقة والنسب المنسجمة بين العمارة والمخطط الهندسي والماء والنباتات، وحدة متكاملة التي لا تنفصم عراها. ما من شك في أن هذا الفهم تأتّى من تغلغل رسالة القرآن المركزية، في العقل الباطن، في جميع أوجه الحياة: ذلك هو الذي مكّنهم من تحقيق إنجازاتهم المدهشة في فن تصميم الحدائق.

الإحساس بالنظام

إن الهندسة الدقيقة التي تتركّز، من الناحية العملية والرمزية، على المخطط الرباعي الأساسي عنصر حاسم في تصميم حديقتك الرباعية (الجهار باغ). يتناول الفصل التالي طرق استخدام الهندسة في الحديقة، إلى جانب تخطيطها الأساسي. ليس هناك ممرّات التفافية في الحديقة الإسلامية التقليدية – تقدّم الطبيعة العنصر الإيقاعي على شكل أوراق الأشجار والنباتات والأزهار. ولعل جون كاي John Caie (1811–1879)، البستاني الرئيسي عند دوق أرغيل الثامن في قصر إنفِراري، يمكن أن يكون بستانياً مسلماً في حرصه على النظام حيث يقول، «النظام هو مصدر السلام». يحظى النظام بأهمية فائقة في الحديقة الإسلامية، وهو يعكس فهم صانع الحديقة لقوانين الكون. يظهر التوحيد نفسه عبر النظام والعلاقة المنسجمة بين المخطّط الأرضي الهندسي والنباتات والماء والعمارة المحيطة. وقد كتب السير توماس براون Thomas Browne: «جميع الأشياء بدأت بالنظام وستنتهي كذلك وستبدأ ثانية كذلك وفقاً لخالق النظام والحساب الروحاني لمدينة الجنّة»[87]. الدين الإسلامي جلب معه إحساساً شديداً بالنظام الكوني ووعياً حادّاً بأن ثمة نظاماً أو ترتيباً رياضياً يربط بين الله والكون والإنسان والطبيعة. ويظهر هذا الترتيب في الطبيعة من بتلات الأزهار وتكوّن أوراق الشجر، إلى الأنواع اللانهائية من ندف الثلج والتشكيلات البلورية. يلتقط الفنّ الإسلامي النظام الموجود تحت السطح، والجوهر الكائن تحت الوهم. ويفرض البستاني المسلم النظام على الطبيعة بحكمة كونية تتجلّى في التصميم والهندسة.

عند تصميم حديقة إسلامية تقفز كلمات مثل التناظر والتوازن والانسجام والتناسب إلى الذهن، بالإضافة إلى النظام والهندسة. التناسب يعني أساساً «العلاقة بين الأشياء أو أجزاء الشيء الواحد»[88]. لقد شدّد أفلاطون على أهمية

الشكل43. مكان صغير في قصر الحمراء يظهر الوشيع الصندوقي الرسمي؛ يتخذ الوشيع تصميمات هندسية في العديد من الأماكن، وعلى الرغم من أنها حديثة نسبياً (القرن العشرون) فإنها تحافظ على النظام الإسلامي المثالي.

استيعاب النظام الذي تقوم عليه الأشياء، وأكّد على أن معرفة النظام الإلهي للكون لا يتمّ إلا من خلال ذلك. وورث العرب مفهوم أهمية النظام، والمسلمون العرب، كما هو معروف، هم الذين أخذوا عباءة المعرفة اليونانية القديمة وترجموها ونشروها في أوروبا. ولا ينطبق ذلك فقط على أعمال فلاسفة مثل أفلاطون، وإنما على الأعمال العلمية والبستانية أيضاً (انظر الفصلين الخامس والسادس). وقد رأى أشهر الفلاسفة العرب، محي الدين بن عربي (المعروف باسم الشيخ الأكبر) أن التناظر والتماثل وتجلي الجمال هما أهم المقدّمات التي يمكن أن يتوصّل بهما الإنسان إلى معرفة الخالق[89].

شخصيات بارزة في تاريخ تصميم الحدائق الإسلامية

قورش الأكبر وأباطرة الفرس

لا يهدف هذا الكتاب إلى تتبّع التطوّر التاريخي والجغرافي للحديقة الرباعية وتفسيراتها المختلفة. غير أنه يجب التطرّق بإيجاز إلى أهمية الحدائق القديمة في عصر الأخمينيين (500-300 ق. م)، بما في ذلك الحدائق في باساركاد التي بناها قورش الأكبر في القرن السادس قبل الميلاد، وحدائق الصيد في عصر الساسانيين (200-600 ميلادية)، نظراً إلى دورهم في تخطيط الحديقة الرباعية (الجهار باغ). لم تعد هذه الحدائق قائمة لكن بقاياها تكشف لنا عن تقدّم نظم ريّها. وهي تتكوّن من قنوات طويلة مستقيمة تعتمد في تدفّقها على الجاذبية، تقطعها بين الحين والآخر أحواض تبلغ مساحتها متراً مربّعاً. وكان هناك أيضاً أخاديد مفتوحة لري النباتات ونظام هيدروليكي. لقد عرف الأباطرة الفرس القوة السياسية التي تمثّلها هذه الحدائق العظيمة، لا سيما عندما تلحق بقصر رائع مثل قصر برسيبوليس، وأدركوا أيضاً معناها العميق والشامل. فانعكست الطبيعة الرباعية الغامضة للكون في التصميم الهندسي الرباعي المتكرّر لقنوات الريّ. وتكاملت الاحتياجات العملية والجمالية والسياسية والروحية في هذه الحدائق، على نحو مماثل للحدائق الإسلامية المتأخّرة. كان قورش وخلفاؤه يحبّون حدائقهم وحدائق الصيد كثيراً، حتى إن أحد الأباطرة قال إنه لا يجلس البتة لتناول الغداء قبل أن يقوم ببعض الفلاحة.

ابن العوّام

كتب جون هارفي John Harvey أن رسالة ابن العوّام المغربي «تفتح آفاقاً جديدة باقتراح مبادئ التصميم هنا وهناك»[90]. ووفقاً لهارفي، يوصي ابن العوّام أن تحدّد أشجار السرو زوايا المشاتل وأن تُزرع في صفوف على طول الممرّات الرئيسية (مثلما في جنّة العريف اليوم. انظر الشكل 160). ويوصي أيضاً بزراعة أشجار أخرى في صفوف مثل الأرز والصنوبر، بالإضافة إلى الحمضيات والغار. واقترح تظليل البرك بزراعة الأشجار على مقربة منها (وهو أمر يجب الحذر منه اليوم بسبب تساقط أوراق الشجر على الماء، بل إنه أضاف تحذيرا مماثلاً) مثل الرمّان أو الدردار أو الحور أو الصفصاف. أما للوشيع (السياج النباتي) فإنه يوصي بالبقس والغار، فضلاً عن النباتات المعترشة مثل اللبلاب والياسمين والكرمة المستخدمة للزينة[91].

ومن المدهش، من منظور التصميم، أن هذه الملاحظات التي كُتبت قبل ألف سنة تقريباً لا تزال تنطبق اليوم على العموم. ويشعر المرء أن «نقاط الاستدلال» التي ذكرتها روزماري فيري Rosemary Verey لتحديد زوايا المشاتل تتماشى تماماً مع ابن العوّام.

ابن لُيون

بعد مئة سنة تقريباً، في سنة 1248، كتب ابن ليون في المرية في الأندلس كتابه عن مبادئ الجمال وغاية التعلّم. وفيه يتناول القواعد الأساسية لتصميم المناظر الطبيعية والزراعة، ويقدم توصيات مفيدة عند تصميم حديقتك، شرط أن تكون كبيرة[92]. على سبيل المثال، يقترح ابن ليون في البداية موقعاً مرتفعاً للبيت، «لأسباب الحذر والتخطيط»، وأن يكون ذا اتجاه جنوبي، حيث يوجد المدخل في أحد الجوانب ومصدر الماء (خزان أو بئر) على مستوى مرتفع. وتستحقّ أفكاره أن نقتبسها بشيء من التطويل لأنها عملية ويمكن تكييفها مع مواقع مختلفة:

> ليكن هناك مجرى ماء بدلاً من البئر بحيث يتدفّق الماء تحت الظلّ... ثم ازرع على مقربة من الخزان شجيرات لا تسقط أوراقها وتضفي البهجة على المكان. وعلى مسافة غير بعيدة ازرع الأزهار من مختلف الأنواع، وعلى مسافة أبعد، تزرع أشجار دائمة الاخضرار. وعلى المحيط تُزرع العرايش، وما يكفي من العريش في المركز. واجعل الممرات التي تحيط بالحديقة تحت العرايش بحيث تشكل حافة لها. وأدخل بين أشجار الفاكهة الكرمة الشبيهة بامرأة نحيلة، أو أشجاراً منتجة للخشب. وبعد ذلك أعدّ التربة العذراء لزراعة ما تشاء أن يزدهر. واجعل أشجار التين أو أي أشجار غير مضرّة في الخلفية، وازرع أي شجرة مثمرة تكبر كثيراً في حوض بحيث تفيد عندما تكبر في الحماية من الريح الشمالية من دون أن تمنع وصول الشمس. ابن سرادقاً في مركز الحديقة للجلوس يطلّ على مشاهد من جميع الجوانب، لكن بشكل لا يتيح لمن يقترب سماع الحديث في الداخل، ويمكن في الوقت نفسه رؤية جميع من يقترب منه. واجعل الورود والريحان تتصلّ به، وكذا كل أنواع النباتات التي تزيَّن بها الحديقة. وأخيراً يجب أن يكون مستطيلاً كي يسمح للناظر التأمّل في البعيد[93].

تم تصميم فناء الساقية، وهي الحديقة الداخلية في جنّة العريف المذكورة أعلاه، وفقاً لتوصية ابن ليون بأن تكون مستطيلة (الشكلان 40 و52). وبدلاً من السرادق في المركز، يوجد السرادق (القصر الصيفي للسلطان في الأصل) عند الطرفين، وجدار على الجانب المواجه للتلّ، وجدار مخرّم بعقود في الجانب الرابع المطل على المشاهد الرائعة لقصر الحمراء.

الإمبراطور بابر

إن وصف ابن ليون شبيه بوصف الإمبراطور بابر (توفي 1530)، أول إمبراطور مغولي في الهند. وقد وضع مذكّرات توضح بجلاء فكرته عن الحديقة المثالية. حكم بابر كابُل اثنتين وعشرين سنة قبل أن يتوجّه إلى الهند. وصف بابر في مذكّراته كيف أراد أن تُصمّم حديقة الوفاء (باغي وفاء) قرب المدينة، وقال إنها يجب أن تقام على أرض مرتفعة، وتواجه الجنوب، ويوجد ماء على مقربة منها. عندما غزا بابر الهند، أو هندوستان كما كانت تسمّى في ذلك الوقت، أراد أن يبني حدائق مماثلة لتلك التي زارها في هرات في غرب أفغانستان عندما كان شاباً. ففي القرن الخامس عشر، أنشأ هناك الحاكم حسين بيقرة حديقة رباعية واسعة حول المدينة، بالإضافة إلى حدائق صغيرة، مثل الحديقة البهيجة (باغي دلكوشا). لكن أرض هندوستان كانت صعبة حتى على من يمتلك المهارة والتصميم مثل بابر:

> من أكبر عيوب هندوستان افتقارها إلى المياه الجارية، وطالما راودتني فكرة جعل الماء يتدفّق بإقامة دواليب أينما نزلت، بالإضافة إلى وجوب تخطيط الأرض بطريقة منظّمة ومتناظرة. كنت أنشد هذا الهدف عندما عبرت نهر جامونا لاختيار بقعة مناسبة لإنشاء حديقة بعد بضعة أيام من دخول أغرا. كان هذا المكان بأكمله قبيحاً ومقرفاً لدرجة أني لم أجد بجانب النهر كله منطقة أفضل من تلك القريبة من أغرا. لذا اضطررت لاختيار هذه المنطقة[94].

من الواضح أن التخطيط الذي يشير إليه ابن ليون وبابر خاص بالحدائق الريفية الكبيرة، المفتوحة على الأفق، لا حدائق الأفنية المطلّة على الداخل. غير أن المبادئ متماثلة حيث يحتل الماء والتخطيط المنظم أهمية قصوى لديهما (يذكر ابن ليون الظل في الجملة الأولى، لكن بابر كان مهتماً أكثر في كيفية الحصول على الماء الجاري والتوصّل إلى التناظر). وقد لاحظ حفيد بابر أبو الفضل، وهو يكتب في عهد الإمبراطور أكبر (1556–1605)، أن «الحدائق وأحواض الزهور توجد في كل مكان، لكن منذ قدوم الإمبراطور بابر إلى الهند، أصبحت الحدائق تتبع ترتيباً منهجياً، ويبدي المسافرون اليوم إعجابهم بجمال القصور ونوافيرها الرقراقة»[95].

دُفن بابر نفسه في موطنه، أفغانستان، في سرادق بناه أصلاً حفيده شاه جناح في سنة 1640، وأعيد تجديده في أواخر القرن التاسع عشر وأواسط القرن العشرين. وفي سنة 1970، كتب أحد الرحّالة عن قبر بابر، «الموقع مكان قديم غير مستعمل بعيد عن مرأى المدينة، على سفح تلّ فوق نهر كابل يضمّ أشجار التوت وشجرة أو اثنتين من أشجار الدلب تتميّزان بأغصان عظيمة وربما لا تزالان قائمتين

هنا منذ سنة 1640»[96]. اليوم (2003–2004)، تخضع الحديقة منذ الحرب الأخيرة للإصلاح والتجديد، وقد بدأت تعود إلى ما كانت عليه من جمال في الماضي. يوجد القبر داخل مسجد مبني من رخام قندهار، وثمة نقش رائع فوق المدخل الرئيسي لضريح هذا الإمبراطور المحبّ للحدائق[97].

أسماء الحدائق

يبدو أننا فقدنا الفن الشعري لتسمية الحدائق. هناك العديد من الحدائق الشهيرة التي أسماها بابر في كابل، مثل «حديقة الوفاء»، و«الحديقة البهيجة»، و«حديقة ضوء القمر»، و«حديقة زينة المدينة» (كانت تضم جدولاً يبلغ عرضه ثلاثة أمتار ونصف تقريباً يجري في وسطها، وقد حاول هو وحاشيته القفز فوقه لكنهم فشلوا)[98]. وفي أصفهان، توجد حديقة الجنّات الثماني، وفي تركيا، أنشأ العثمانيون العديد من الحدائق لا سيما في العاصمة أسطنبول – حدائق قصور وحدائق خاصة على السواء[99]. وغالباً ما سميت الحدائق الأخيرة بأسماء أصحابها أو البستانيين الذين أنشؤوها، مثل: حديقة سليمان، وحديقة عبد الله، وحديقة علي. وقد برع الصينيون في ابتكار الأسماء الرومانسية. ففي كتاب «سجل الحدائق الشهيرة في لويانغ» الذي كتبه لي غيفي Li Gefei في سنة 1095، يوجد وصف للعديد من الحدائق التي تحمل أسماء جميلة مثل «مصطبة التذوّق والانعزال» و«شرفة الموجة المزدوجة»، و«حديقة الربيع المحتشد»، و«حديقة العودة إلى الطيبة». وقد منح الصينيون السرادقات والتعريشات أسماء مثل «القناعة بما لديك» أو «التطهّر بالأزهار»[100]. قد يكون في تسمية حديقة داخلية حضرية شيء من التفاخر، لكن بعد أن تنشئ حديقتك الإسلامية، ربما تستلهم المغول أو الفرس أو العثمانيين أو الصينيين.

تصميم الحديقة الأوروبية والإسلامية

إن قدرة الحديقة كرمز يوقظ في الزائر الوعي بالجوهر الروحاني الذي يحجبه العالم الطبيعي ويكشف عنه في آن معاً ليست وقفاً على الإسلام. بل هي جزء لا يتجزّأ أيضاً من التقليد المسيحي الغربي، لا سيما الحدائق الداخلية ذات الشكل المربع. لا شك في أن هناك تشابهاً كبيراً بين وجهة النظر التي أنتجت الحديقة الرباعية الإسلامية والعقلية الأوروبية القروسطية التي أنتجت العديد من حدائق الأديرة التي تقوم على مخطط رباعي مماثل. ثمة إدراك في الحالتين أن هذه الدنيا المؤقّتة هي إعداد للحياة الآخرة الأبدية، استيعاب طرأ عليه تغيير في أوروبا في عصر

النهضة. في هذين العالمين، الإسلامي والمسيحي، الفلاحة ضرورة مادية - تنتج الغذاء الذي نأكله والأعشاب لأغراض طبية - وفي الوقت نفسه تمجّد الله من خلال تنظيم ما خلق والعناية به. لقد تركّزت الحياة الرهبانية البندكتية والسسترشية على النظام: الحياة الروحانية المنظمة تعني حياة يومية منظمة، ويتغلغل هذا المبدأ في كل نشاط بما في ذلك الزراعة والفلاحة. وذلك شبيه جداً بالإسلام، حيث الصلوات الخمس في اليوم وما يسبقها من وضوء تعني أن اليوم ليس منظماً من البداية إلى النهاية فحسب، وإنما يتخلّله ذكر الله بانتظام أيضاً. ويستمر عدم التمييز بين الديني والدنيوي حتى اليوم في معظم البلدان الإسلامية، وقد أشير إليه في مكان آخر من الكتاب لأنه ذو أهمية جوهرية في فهم الثقافة والحضارة الإسلاميتين[101].

يمكن ملاحظة التشابه بين الحديقة الإسلامية والحديقة الأوروبية القروسطية في الأروقة المغطاة التي تحيط بالأفنية على سبيل المثال. فقد كانت هذه ملحقة بجميع الأديرة والكاتدرائيات وتتكوّن من ممرّات مسقوفة تحيط بمساحة عشبية مفتوحة رباعية الزوايا مثل الرواق الصغير في دير وست منستر ورواق كاتدرائية سالزبوري. وكانت مخصّصة للتأمّل في أثناء المشي والصلاة، وتستند إلى مخطّط مربّع أو شبه مربع محصور، على غرار الساحات المربّعة في العديد من كليات أكسفورد وكمبردج القديمة[102]. وهي على حدّ علمنا مروج مربعة دائماً، وربما زرعت أرزة لبنانية في

الشكل 44. رواق كاتدرائية سالزبري.

مركزها، كما هو الحال في كاتدرائية سالزبوري، لتذكير المؤمنين بالأرض المقدّسة. وعلى نحو المسجد، هناك دائماً شكل من أشكال الماء للاغتسال، إما نافورة وإما ماء مطر مجمّع في بركة. ومن المثير للاهتمام أن اللون الأخضر كان مهمّاً، كما هو الحال في الإسلام، لأنه يرمز إلى إعادة الولادة والحياة الدائمة، ويعتبر أيضاً مريحاً للنظر. وقد لاحظ هيو فويلوي Hugh Fouilloy أن «المرج الأخضر في وسط الرواق ينعش الأعين المحصورة وتوقها إلى دراسة العائدات. إن طبيعة اللون الأخضر هي التي تنعش العينين وتحافظ على البصر»[103]. وكان يوجد في الأديرة أحياناً حيّز محصور يدعى «جنّة الفردوس»، ربما كتذكرة بكلمات المسيح نفسه لأحد اللصين، «اليوم ستكون معي في الفردوس»[104]. وربما كانت جنّة الفردوس ملحقة ببستان المقبرة، أو البستان نفسه. وثمة وثائق ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر وتشير إلى الأشجار المزهرة والبساتين في المقابر المحيطة بالكنائس، مردّدة صدى المفهوم الإسلامي عن جنات الفردوس المليئة بأشجار الفاكهة[105]. ومن الحدائق الأخرى الملحقة بالأديرة حدائق الأعشاب وحديقة القبو التي تزرع فيها الخضروات بصورة رئيسية.

صمّمت الحدائق النباتية الأوروبية العظيمة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، مثل حديقة بادوس (أنشئت في سنة 1545) وأكسفورد (أنشئت في سنة 1621) وفقاً لمخطط مربع أو مستطيل، وتقسم إلى أربعة أرباع، وتقسم الأرباع ثانية أيضاً للفصل بين أنواع النباتات وأجناسها. لقد أنشأ العالم الإسلامي الحدائق النباتية في وقت أبكر بكثير: حديقة طليطلة التي أنشأها ابن وافد في القرن الحادي عشر مثلاً، والحديقة الملكية في أشبيلية التي أنشئت في وقت لاحق من القرن نفسه، وأصبحت حديقة علمية ونباتية بإدارة ابن بصال. أنشئت الحدائق النباتية الأوروبية لإعادة إنشاء جنّة عدن. فقد حسب منشئو الحدائق النباتية أنهم باستكشاف جميع أركان العالم وإحضار عيّنة من كل نبتة موجودة يستطيعون إعادة تمثيل ما صنعه الخالق. كان جاكوب بوبارت Jacob Bobart (1599–1679) أول بستاني لحديقة أكسفورد النباتية، وقد تمكّن «بفضل عنايته ومهارته من زراعة جميع أنواع الثمار الطيّبة التي تصلح للنموّ في مناخنا، وتزيين الأرض بمجموعة متنوّعة عظيمة من الأشجار والنباتات والأزهار الجذّابة التي تزداد يومياً بما يجلبه علماء النبات من أصقاع العالم البعيدة»[106].

في العالم الإسلامي، لم يكن التصميم الرباعي بيّناً في الحدائق فحسب، وإنما أيضاً في تخطيط المساجد والمدارس والخانات. لقد بنيت المساجد الكبيرة في مصر أو المساجد الصفوية في فارس (الشكل 37) أو مساجد المغرب حول أفنية كبيرة ذات نوافير أو برك مركزية للوضوء. ومن الأمثلة الأخرى مدرسة أبو عنانية في فاس

ومكناس والخانات في دمشق. وعلى نحو ذلك، غالباً ما بنيت بيوت الإقطاعيين في أوروبا في القرون الوسطى وعصر النهضة حول فناء مركزي أو عدة أفنية.

قبل تطوّر حدائق الأديرة في شمال أوروبا لم يكن هناك تمييز كبير بين حدائق المتعة وحدائق المطبخ والبساتين والأرض الزراعية – بل لم يكن هناك حدائق كما نعرفها. ولوحظ عدة مرات أن بريطانيا وشمال أوروبا كانتا متخلّفتين في البستنة عن جنوب أوروبا والشرق الأدنى وفارس. كانتا «متخلفتين كثيراً عن الأفنية المشمسة المحيطة بالبحر المتوسّط حيث بدأ يتكشّف تأثير العالم العربي والشرق الأدنى وحيث كل شيء ينمو في روعة وبهاء»[107]. غير أن حدائق الأديرة تطوّرت بسرعة في أعقاب سنة 1000 ميلادية إذ أخذ الحجّاج والرهبان والمحاربون الصليبيون يعيدون معهم البذور من الشرق الأدنى. لكنها لم تكن تضاهي حدائق المسلمين السابقين الذين بنوا في النهاية قصر مدينة الزهراء العظيم خارج قرطبة في القرن العاشر. وقد وصف العديد من المؤرّخين روعة هذا القصر من بقاياه الأثرية: كانت كثرة حدائقه وقنواته المائية ونوافيره إنجازاً غير عادي، وبخاصة عندما يؤخذ في الحسبان نظام الريّ المعقّد الذي كان مطلوباً (انظر الفصل الرابع)[108].

الشكل 45. نافورة مدرسة أبو عنانية.

في الحدائق الإسلامية الكبيرة، المماثلة للحدائق الأوروبية القروسطية، لم يكن هناك تمييز واسع بين البستان والحديقة وحديقة المطبخ. ويبدو أن الأشجار المثمرة والأزهار والخضروات كانت تزرع في المكان نفسه، لكنه يقسّم بأناقة إلى زَريعات تفصل بينها ممرّات هندسية أو قنوات للريّ. ربما تكون أوصاف الجنّة في القرآن من أسباب زراعة كل شيء على مقربة بعضه من بعض، فهي تحتوي على أشجار فاكهة من كل الأنواع وأطعمة شهيّة، بالإضافة إلى الشجيرات والأزهار العطِرة.

وهناك بضعة أحاديث للنبي محمّد صلى الله عليه وسلّم تشدّد على أهمية زراعة النباتات التي تؤكل كنوع من الصدقة: «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[109]. وكان بعض الأصدقاء الإنكليز الذين أقاموا في مصر في الأربعينيات (1940 نيات) والخمسينيات (1950 نيات)، في الجيزة قرب الأهرامات، قد أنشؤوا حديقة جميلة مليئة بالورود والأزهار الأخرى الزاهية الألوان والعطِرة. ولعلهم سرّوا بإنجازهم وظنّوا أن جيرانهم سيحبّونها، لكن ردّ فعلهم كان التحسّر لأنه لم يكن هناك ما يؤكل بين النباتات والأزهار.

أدى اجتماع الرهبان والحجّاج العائدين من الأرض المقدّسة، بالإضافة إلى الجنود العائدين من الحملات الصليبية إلى تحسّن مستمرّ في معرفة البستنة في شمال أوروبا. كما تزايد عدد المخطوطات اليونانية العلمية والفلسفية والبستانية التي أدخلها العرب إلى أوروبا. وقد ترجمت هذه من اليونانية إلى العربية أولاً، ثم من العربية إلى اللاتينية، اللغة المشتركة للطبقات المثقّفة في شمال غرب أوروبا. من أهم الأعمال اليونانية كتاب في المداواة بالأعشاب الطبية يدعى «الحشائش والأدوية» (*De Materia Medica*) كتبه طبيب في الجيش الروماني اسمه ديسقوريدس. وقد كُتب في القرن الميلادي الأول، لكن لم يبق منه سوى نسخ يعود أقدمها إلى القرن السادس الميلادي. أصبح هذا الكتاب مصدراً أولياً في المعارف البستانية في العالم الإسلامي، على الرغم من أن العرب سرعان ما تعلّموا وبدؤوا كتابة ملاحظاتهم. ثمة حديث مشهور للنبي صلى الله عليه وسلّم «اطلب العلم ولو في الصين»(*)، ويعني ذلك ولا يزال التشديد على سعي جميع المسلمين وراء المعرفة ودراسة العالم الطبيعي. من أوائل الرسائل العربية في النباتات التي نقلت إلى الأندلس «كتاب النبات» لأبي حنيفة الدينوري (نحو 820-895 م). وقد حمله إلى هناك يونس بن أحمد الحرّاني نحو سنة 880 م. وسرعان ما ألّف بعد ذلك ابن وحشية الكلداني كتاباً في الزراعة يدعى «الفلاحة النبطية» أصبح «من أكثر المصادر الأولية التي ينقل عنها في العالم الناطق بالعربية»[110].

في الفصلين الخامس والسادس، سننظر في قوائم النباتات التي وضعها البستانيون المسلمون والكتاب عن الفلاحة، مثل ابن وافد (999-1075 م) الشهير وخليفته ابن بصال. تكفي الآن الإشارة إلى أن العلوم والفلاحة الإسلامية ازدهرت فيما كانت أوروبا تهمّ في الخروج من العصور المظلمة. (انظر الفصل الثالث).

(*) هذا حديث ضعيف وفقاً لرأي جمهور أهل العلم، فاقتضى التنويه (المترجم).

الحدائق المتوسّطية والحدائق الإسلامية: مقارنة ومقابلة

لا شك في أن مدن الأندلس التي حكمها المسلمون، مثل غرناطة أو قرطبة أو أشبيلية، تأثّرت كثيراً برهافة حس المسلمين. الفناء المرصوف الشهير قرب جامع قرطبة الكبير المزروع بصفوف من أشجار البرتقال المنتظمة وفقاً لقنوات الريّ، تحضير رائع للصلاة للمسلمين والمسيحيين على السواء، حيث يشبه جنّة الفردوس بما يوفّره من ظلّ وماء وثمار. والمحيط بأكمله، مثل حدائق القصر في المدينة نفسها، لا يزال إسلامياً على الرغم خضوعه للحكم المسيحي منذ عدة قرون. إن حدائق القصر في قرطبة كبيرة ومتنوّعة، لكن ثمة اثنتين على وجه التحديد مصمّمتان على خطة الحديقة الرباعية التي يوجد في وسطها نافورة. الحديقة الصغيرة منهما محاطة من ثلاث جهات بالعمارة الإسبانية الموركسية (الشكل 36)، والكبيرة منهما أكثر انفتاحاً وتضمّ نباتات أكثر بكثير – نباتات غير رسمية، لا سيما شجيرات مزهرة كبيرة محصورة داخل مخطط هندسي رسمي مكوّن من سور نباتي من شجر البقس (الشكل 47). على الرغم من أن الرعاة الأصليين لهاتين الحديقتين ملوك كاثوليكيون، فإنهما تبدوان لي من أكثر الحدائق الرباعية سحراً، وتحتفظان بكل ما يعتبره المسلمون دينياً: ليس النباتات النضرة والأزهار العطِرة والماء فحسب وإنما النظام والانسجام أيضاً، وذلك برهان حقيقي على الوحدة الإلهية على الأرض. أدرك الحكّام الكاثوليكيون أن المسلمين عرفوا كيف يصمّمون الحدائق واعتمدوا الحدائق المغربية نموذجاً لهم. فالفكرة من ورائها، أي أنها انعكاس دنيوي لحدائق الجنّة، لا تتعارض في النهاية مع معتقداتهم.

الشكل 46. فناء أشجار البرتقال، جامع قرطبة.

أعجب الملك بدرو القاسي (1334-1369) بالحدائق وطلب من المصمّمين والحرفيين المسلمين في القصر في أشبيلية إنشاء عدة حدائق له. ويشمل ذلك مثالين جميلين يضمّان أحواض زرع غائرة، سنبحثهما لاحقاً في هذا الفصل. وفي القرن الخامس عشر حوّل قصر أوليت في نافار لملك قشتالة إلى جنة شرقية ذات «حديقة معلّقة» على جدار محمول على عقود. كما صمّمت حديقة أخرى وفقاً لمخطط هندسي ذي ممرات مستقيمة وقنوات ونوافير وأقفاص كبيرة مليئة بالطيور المغرّدة.

الشكل 47. القصر في قرطبة، حديقة رباعية كبيرة ذات نافورة مركزية مرتفعة.

لكن باستثناء بعض القصور الملكية، فقد أفسحت الحديقة المغربية على مرّ القرون الطريق للحديقة الأيبيرية/المتوسّطية النموذجية. ومن الممتع السير على طول الشوارع الخلفية الضيّقة لقرطبة التي تطلّ من خلال البوّابات الحديدية على الأفنية المبيّضة المليئة بالعديد من نباتات إبرة الراعي واللقلقيّ، وغالباً ما كانت عتبات النوافذ والأبواب تطلى بألوان زاهية. إنها متوسّطية صرف وجميلة، لكنها ليست إسلامية، لماذا؟ تضمّ حدائق الأفنية هذه بعض عناصر الحديقة الإسلامية من دون شك، مثل المنطقة المسيّجة المليئة بالأزهار الزاهية والعطِرة. لكن خلافاً للحديقة الإسلامية، الماء ليس عاملاً موحّداً تسهل رؤيته على شكل بركة أو نافورة تشكّل نقطة الارتكاز الأساسية للنظام والتأمّل[111]. (غالباً ما يوجد صنبور للسقاية

في أحد الأركان، لكن ذلك أمر وظيفي محض.) وعند إلقاء نظرة عن قرب يشعر المرء أن هناك أمراً أساسياً ناقصاً، يصعب تحديده في البداية لأن المشهد خلّاب. لكن سرعان ما يتبيّن أنها تفتقر إلى الإحساس بالنظام والرؤية الشاملة – ذلك الإحساس العميق بالوحدة المهمّ جداً في جميع التصاميم الإسلامية.

إن تفحّص هذه الأفنية درس بصري عملي مفاده أن تجميع عدد من الأجزاء المكوّنة (كما ذكر سابقاً)، مثل الجدران المبيّضة، والأزهار العطرة، وبعض البلاط الملوّن، لا يصنع حديقة إسلامية. من الحدائق التي تجدر زيارتها دون إغفال هذه الأفكار حديقة ماجورال في مرّاكش، التي بدأ بإنشائها الرسّام الفرنسي جاك ماجورال Jacques Majorelle (1886–1962) في العشرينيات. إنها حديقة رائعة مليئة بالنباتات الدخيلة بما في ذلك أشجار الخيزران، والنخيل والأغاف، بالإضافة إلى المياه الوفيرة على شكل قنوات وبرك ونوافير. وهناك كثير من الممرات التي تتخلّلها التعريشات بين الحين والآخر، وتكثر في كل الأنحاء نباتات الجهنّمية الزاهية بجميع الألوان الممكنة. وهناك متحف يتميّز بالأشغال الحديدية المغربية الأنيقة (الشكل 2، انظر الفصل الثالث)، وقد طليت جدران الحديقة بالأزرق الغامق ما يمنح الحديقة طابعها المميّز ويميل المرء إلى الاعتقاد بأنّها «الحديقة الزرقاء». هذا الاجتماع بين الأزرق ونباتات مثل الخيزران والأغاف، غير مرتبطة بالحديقة الإسلامية التقليدية، مدهش ومختلف، بالإضافة إلى كثافة الأشجار والنباتات والأزهار، إلى جانب البرك والنوافير والتعريشات، تمنح الحديقة جمالاً مميّزاً. غير أنها تفتقر إلى تلك الوحدة الأساسية في الحديقة الإسلامية التقليدية، ويغيب عنها الوضوح والبساطة والمركز الذي يشدّ جميع المكوّنات بعضها إلى بعض بطريقة منسجمة. وإحقاقاً للحقّ، لم يكن ماجورال، المصمّم الأصلي للحديقة، يعتزم إنشاء مثل هذا النوع من الحدائق، لذا فإن النتيجة تثبت الحجّة.

الشكل 48. فناء بيت في قرطبة. على الرغم من أنّه جذّاب جداً ويوجد نافورة في وسطه، فإن النافورة محجوبة بالنباتات ولا تشكّل العامل التوحيدي والمركز التأملي الملحوظ في الحديقة الإسلامية.

الشكل 49. حديقة ماجورال في مراكش، فخمة وجذّابة وزاهية الألوان، لكنها ليست إسلامية.

الغموض

بما أن من طبيعة الجنّة أن تكون مختفية، كما ذكرنا من قبل، فإن فكرتي السرية والغموض عنصران مهمان من عناصر تصميم الحديقة الإسلامية، وكذا العمارة الإسلامية. هناك بالفعل إحساس بالغموض لأن الحديقة تكون محصورة عادة داخل جدران، لا سيما في المدينة حيث تبعدها الجدران العالية عن العالم، وتوفّر الحماية والعزلة. كما أنها تبقي العالم في الداخل سراً على الجميع باستثناء المقيمين والضيوف، وتحافظ على غموض قلب البيت: الفناء الذي ينفتح عمودياً، لا أفقياً، على السماء من فوقه. ويتوافق قلب البيت مع قلب المؤمن، ويردّد صدى الحديث القدسي(*) «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن»[112]. إن عمارة المسجد شبيهة بالمنزل العربي الإسلامي في أن «المحور المنحرف» سمة نموذجية في كليهما. فهو يحمي خصوصية الداخل وغموضه وجماله، ويعطي إحساساً بالتوقّع للزائر المجبر على الاقتراب ببطء، في شبه الظلمة، استعداداً للجمال والضوء الذي

(*) من أحاديث الصوفية، لا أصل له - المترجم.

الشكل 50. ساحة الترجّل بنافورتها المركزية البسيطة، جنّة العريف.

سيأتي. في جامع السلطان حسن في القاهرة، يسير المصلّي أو الزائر في ممرّ طويل مظلم ذي سقف مرتفع، ثم ينعطف مرة أو اثنتين ليظهر له فجأة فناء مفتوح شديد الضياء. إنها تجربة مليئة بالرهبة ويتعاظم تأثيرها على حواسنا بسبب التحضير. إن قصور الحمراء هي درر هذا النوع من العمارة: فبين القاعة الذهبية وفناء الريحان يوجد ممر مظلم ومائل، كما لو أن القلب والنفس ينقبضان ليتمدّدا ثانية. ويتكرّر الأمر نفسه على نطاق أصغر بين فناء الريحان وفناء الأسود، وكذلك في جنّة العريف عند المشي من ساحة الترجّل وارتقاء الدرج المظلم إلى فناء الساقية.

الشكل 51. الدرج المظلم المؤدي إلى فناء الساقية يضفي إحساساً بالغموض والترقب فيما يصعد المرء نحو الضوء.

وكما كتب بوركهاردت:

في نهاية الممرّات المحيّرة يجد المرء نفسه في أفنية مختبئة تتجمّع حولها القاعات كما لو كان ذلك مصادفة. ربما لا يشتبه المرء البتة بما قد تخفيه الجدران من عوالم. وذلك يشبه الحكاية الشرقية عن مسافر رمي به في مقلع ملح ووجد هناك قصراً تحت الأرض مليئاً بالبساتين والحسناوات، فيعيش سعيداً اثنتي عشرة سنة. وذات يوم يفتح باباً سريّاً يقوده إلى قصر أبهى وأروع[113].

وهكذا فإن الحديقة الإسلامية الحقيقية محجوبة وغامضة، مثل جنّات الفردوس. هذه هي طبيعتها، يجب ألا تكون سهلة المنال[114]، بل يجب الاجتهاد لبلوغها، إذ لا ينالها في النهاية إلا المؤمنون الصالحون ومن يتفكّرون.

على الرغم من أن المزروعات ترجع أساساً إلى القرن الثاني عشر، فإن حدائق جنّة العريف في قصر الحمراء لا تزال تحتفظ بجوّها الإسلامي في العديد من الطرق، منها الإحساس بالتوقّع فيما يتقدّم المرء داخل الحدائق. وعلى المستوى العملي، عندما يصبح المرء داخل الحديقة الإسلامية، فإن فرص وجود مزيد من الغموض تتوقّف على حجم الحديقة. في الحديقة الحضرية الصغيرة تكون هذه الفرص محدودة. لكن الحديقة الكبيرة قد تضمّ أماكن منعزلة حول بركة ساكنة أو نافورة، تحجبها تعريشة كرمة، و ربما يكون هناك ظلّة أو سرادق ينسحب إليه الزائر من أجل مزيد من الخصوصية. هذه جميعاً هي سمات الحدائق

الشكل 52. فناء الساقية، جنّة العريف. جدّدت هذه الحديقة مؤخّراً وأعيدت زراعتها (2002-2003).

الإسلامية وسينظر فيها بمزيد من التفصيل في الفصل التالي. في البلدان الحارّة أو في أشهر الصيف في المناطق الشمالية، تكون السرادقات بمثابة خلوات تظلّل الزائر، وتحجبه عن الأشخاص الآخرين. وربما تحتوي على أرائك ووسائد (كما ذكر في القرآن) توفّر أماكن مريحة للجلوس وتطلّ على مناظر الحديقة وتهبّ عليها النسائم الباردة من الماء. وقد كان المغول أسياد هذا النوع من الفن، حيث تضمّ حدائق شاليمار في لاهور العديد من السرادقات التي حدّد موقعها بعناية بين ثلاثة مصاطب من الماء (انظر الفصل الرابع، الشكل 116).

الشكل 53. حدائق متحف البطحاء في فاس.

عناصر التصميم

الممرّات

الممرّات أساسية في الحدائق الرسمية مثل الحديقة الإسلامية، حيث تشكّل جزءاً لا يتجزّأ من ترتيب التصميم وهندسته. وتستخدم الممرّات في العديد من الحالات كجزء من المخطط الأرضي للحديقة، إلى جانب قنوات الماء أو كبديل عنها. وغالباً ما توفّر الممرّات المخطط الرباعي بالفعل كما في حديقة متحف

الشكل 54. حديقة مسوّرة صمّمتها المؤلفة لبيت في غرب لندن تظهر مزيجاً من الحجارة والزليج.

الشكل 55. دمشق، نقش ملوّن (مزيج من الجصّ والألوان) يزيّن أحد الجدران.

البطحاء في فاس (الشكل 7) أو حدائق القصر في قرطبة (الشكلان 36 و47) وأشبيلية. الممرّات الملتفة أو المنعطفة ليس جزءاً من الحديقة الرباعية، وكذلك البرك «العضوية» مثل تلك التي يفضّلها مصمّمون من أمثال ر. بيرل ماركس R. Burl Marx (انظر الفصل الرابع). ويجب إيلاء عناية كبيرة للمواد التي تتكوّن منها الممرّات: يوصى بالمواد الطبيعية مثل الحجارة، والأردواز، والطوب (المصنوع يدوياً إذا أمكن)، والحصى، والغرانيت، والآجر. ويمكن أيضاً استخدام الزليج (قطع الخزف المغربي) عند رصها بعناية لإعطاء تأثير كبير، كما أنها تمتزج بصورة جيدة مع حديقة الفناء الإسلامية في شمال أوروبا وأميركا الشمالية (انظر الفصل الثالث). ومن البدائل الأقل تكلفة لصنع الممرّات المجموعة المتنوّعة الواسعة من حجارة الرصف المتاحة اليوم. حجارة الرصف المصنوعة كتقليد للطوب الزهري الباهت تبدو ذات مظهر طبيعي ويمكن رصفها بأشكال هندسية بالإضافة إلى أنها تتلاءم جيداً مع العمارة بالطوب. ويستخدم الرخام الملوّن أيضاً لإعطاء تأثير هندسي جميل ونقوش عربية إسلامية في الأفنية في دمشق والقاهرة، لكنه لا يتلاءم إلا مع أكبر الأفنية في حديقتنا الإسلامية في الشمال. توفّر الممرّات فرصاً رائعة للأنماط الهندسية التي سينظر فيها في الفصل التالي. الأمر المهم من منظور التصميم الأولي أن الممرّات يجب أن تكون رسمية ومتوافقة مع تصميم الحديقة والبنية العامة. وعلى غرار الجداول الهندسية، يمكن أن توفّر الممرّات الانتظام الذي تزرع فيه النباتات غير المنتظمة.

الشكل 56. فناء الساقية من الاتجاه المعاكس، تظهر القناة المركزية والنوافير المغلقة.

أحواض الزرع الغائرة

من المثير للاهتمام النظر في حوض الزهور الغائر عند التفكير في تصميم حديقتك. وعلى الرغم من أن الحوض الغائر نشأ في البداية كعامل مساهم في ري النباتات والشجيرات في البلاد الحارّة، فإنه يمكن استخدامه مع ذلك كعنصر تصميمي حتى إذا كانت حديقتك في منطقة منخفضة الحرارة وكثيرة الأمطار. وقد استخدمت قليلاً في فناء الساقية، وهو الحديقة المسوّرة الشهيرة في حدائق جنّة العريف. عندما أجريت حفريات في هذه الحديقة في أواخر الخمسينيات (1950 نيات) اكتُشف المستوى الأصلي لأحواض الزرع العربية - ينخفض 50 سنتيمتراً عن مستوى الممرّات - بالإضافة إلى الثقوب المحفورة في مجرى الماء للريّ. وقد أعيد ردمها لجعل الأحواض على مستوى مماثل لمستوى الممرّات بدلاً من إعادتها إلى عمقها الأصلي. غير أن هذه الحديقة تخضع للترميم والإصلاح (2002) لذا نأمل أن نشهد العودة إلى أحواض الأزهار الغائرة. واكتُشف شيء مماثل عند حفر فناء الأسود في قصر الحمراء ووُجد أن المستوى السابق لأحواض الزهور الأربعة ينخفض 80 سنتيمتراً عن المستوى الحالي[115]. اليوم تضمّ كل من الأحواض الأربعة لفناء الأسود شجرة حمضيات واحدة، ويغطى ما تبقى من الأحواض بالحصى. وذلك أمر ضروري

الشكل 57. حوض في باحة الأسود يظهر شجرة برتقال في حوض.

الشكل 58. رسم لحديقة غائرة من القرن الثاني عشر، القصر (قصر المبارك)، أشبيلية.

لأنه كان لجذور النباتات ورطوبة التربة تأثير مضرّ بالعمارة المحيطة. بل إن أشجار الحمضيات مزروعة في آنية تحت سطح الأرض ولديها قنوات تصريف منفصلة.

على غرار العديد من الحدائق الإسلامية في الأنحاء الأخرى من العالم، يجب تدريب الخيال لتصوّر فناء الأسود على ما كان عليه منذ عدة قرون: تكوين جميل متوازن من العمارة والنبات والماء. اليوم لا مفرّ من ملاحظة أن الفناء يبدو كئيباً من دون تأثير النبات. غير أن من المثير للاهتمام من منظور التصميم أن يلاحظ المرء نتيجة غياب أحد المكوّنين الأساسيين المذكورين آنفاً للحديقة الإسلامية – زراعة الأشجار أو الشجيرات من أجل الظل. لا شك في أن العمارة ذات جمال أخّاذ لكن زراعة بعض النباتات تزيد من أناقتها وتتمّمها وتمنحها صورة أكثر انسجاماً ووحدة.

من الأسباب الواضحة والعملية لهذه الأحواض الغائرة الحاجة إلى الريّ، بحيث يتجمّع في الأحواض عندما يسقط ولا يصرّف أو يتبخّر. في المناخات الأكثر اعتدالاً، مثل إنكلترا، حيث من المعتاد رفع الحدود العشبية، وتسود التربة الصلصالية التي تحتفظ بالماء في العديد من المناطق، تميل الرغبة إلى أحواض الزهور التي تصرّف الماء بحرّية. لذا على المرء أن يأخذ ذلك في الحسبان قبل التفكير في أحواض الزهور الغائرة استجابة للتصميم الإسلامي. إذا كانت تربتك ثقيلة فربما تحتاج إلى إضافة بعض الرمل الخشن أو الحصى حرصاً على عدم بقاء جذور النباتات منقوعة بالماء طوال الوقت ما لم تختر نباتات تتلاءم مع هذه الظروف. ومن المثير للاهتمام قراءة ما كتبته مؤلّفة وبستانية عاشت في الهند في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. تروي الكاتبة أنها عندما وصلت إلى البلاد، تمسّكت بالمخطط الإنكليزي القائم على الممرّات المنبسطة والحدود العشبية المرتفعة، لكن البستاني أنقذ الموقف وجعلها تدرك أن «الممرّات في الحديقة المروية يجب أن تكون مرتفعة بالضرورة كي تمرّ المياه تحتها»[116].

لم تؤدّ الأحواض الغائرة إلى إبراز التصميم الهندسي فحسب، وإنما أيضاً إلى إعطاء انطباع بالمشي على سجادّة نباتية (انظر الفصل السابع)، ما يوفّر تجربة جمالية وحسيّة رائعة. عندما يسير الزائر على الممرّات وتحفّ قدماه وكعباه بنباتات الخزامى وإكليل الجبل والزعتر والورد وسواها من الأعشاب والأزهار، تفوح الروائح العطرة منها في الهواء فتشعره بالانتعاش والطمأنينة. في أحد أقسام القصر في أشبيلية، فناء قصر المبارك، كانت توجد أحواض غائرة في تصميم رباعي يبيّن الشكل 58 رسماً له. وفي فناء آخر، جعلت الأحواض غائرة بعمق 5 أمتار بحيث تُزرع الأشجار ويكون أعلاها على مستوى الممرّات. تلك هي حديقة الفناء المتصالبة. وهي

الشكل 59. رسم لحديقة الباحة (بيت التجارة) القصر، أشبيلية.

تصميم رباعي تقليدي لكنها دمّرت بمعظمها عندما وقع زلزال في القرن الثامن عشر. تشكّلت المحاور المتصالبة من الممرّات بدلاً من قنوات الماء، وتشبه الممرّات القناطر المحمولة على عقود فوق الأحواض العميقة. وعلى غرار الأحواض الغائرة الأخرى التي لا تزال باقية، تتكوّن عقود مستورة وصفها أحد المسافرين الذين كتبوا في القرن السابع عشر:

> يوجد أعلاه [تحت مستوى أرض الفناء] حديقة دون أرضية من أشجار البرتقال تنقسم إلى أربعة أرباع. وهي عميقة جداً مقارنة بالفناء بحيث تصل أعالي الأشجار إلى مستوى [ممرات]... هذا الفناء، حيث تظهر منها السماء الممتدة فوقها، وتتسم الحديقة تحت الأرضية بالاتساع والعظمة والظل الذي يجعها في الصيف أكثر الأماكن ظلاً وبرودة[117].

ليس هناك كثير من البستانيين الذين يرغبون في حفر أحواض غائرة عميقة مثل حديقة الفناء المتصالبة، لكن من الممتع إنشاء حديقة غائرة رباعية ذات أبعاد واقعية، ربما على نسق حديقة الفناء في قصر أشبيلية في القرن الثاني عشر. يبلغ عمق أحواض الزهور الأربعة في هذه الحديقة من القرن الثاني عشر نحو مترين، وهي مقامة حول بركة دائرية مركزية. وعلى غرار الحديقة المتصالبة، فإن لجدران

الشكل 60. حدّ من الزليج في حديقة في غرب لندن.

الأحواض الغائرة عقوداً محجوبة مبنية بالطوب. وكانت هذه الجدران مكسوّة بالجبس ومطلية في الأصل – ربما لتوفير بعض الألوان في شهور الشتاء كما اقترح أحد المؤلفين.

اقتراحات عملية

لا يزال الحفر على عمق مترين كبيراً، لذا ربما يكون عمق متر واحد واقعياً أكثر. وقد جرّبت شخصياً الأحواض الغائرة القليلة العمق التي لا يزيد عمقها على نصف متر، وذلك يكفي لإخفاء السوق السفلى لشجيرات الورود أو الشجيرات الصغيرة مثل الخزامى. لكن إذ كان في وسعك حفر أحواضك حتى عمق متر أو أكثر، فستحتاج إلى إقامة جدران داخلية. وربما تتكوّن هذه الجدران من «الطوب» الإسمنتي، ما لم تكن محظوظاً بالإقامة في منطقة تكثر فيها الأحجار المحلية ولا تكون باهظة الثمن. وإذا كنت تريد كسوة الطوب بالملاط، فربما يكون اللون الأفضل درجة لونية محايدة من الأبيض السكّري، أو ربما ترغب في أن تكون أكثر طموحاً وتمزج لوناً مع الكسوة أو تستخدم البلاط الخزفي. وعلى أي حال، يجب التفكير في ذلك بعناية، إذ يجب عدم الاصطدام بألوان النباتات أو صرف الانتباه عنها. إذا كنت تودّ تجنّب اللون القشدي أو الأبيض السكّري، فربما يكون اللون «الأرضي» الطبيعي الأفضل للجدران، مثل اللون الطيني أو الأخضر الباهت – غير الزاهي الذي يبدو أنيقاً عندما تشعُّ الشمس عليه - ويجب أن يكون البلاط أيضاً من ألوان مماثلة، ليس

أكثر من لونين أو ثلاثة في آن معاً: ربما أخضر متوسّط مع الأصفر المائل إلى البني أو الأبيض السكّري، أو الأحمر الترابي، أو الأزرق الداكن – يتوقّف ذلك على النباتات إلى حدٍّ كبير. ربما تبدو الألوان الزاهية القوية جميلة في المناخات المشمسة، لكنها تبدو كئيبة عندما تكون السماء مكفهرّة.

إذا كنت محظوظاً بتوفّر الوقت والموارد، فقد يكون من المثير للاهتمام بناء عقود محجوبة في جوانب الأحواض الغائرة. وإذا كانت الأحواض قريبة إلى ممرّ من حجارة أو طوب، فيجب أن توفّر هذه المواد الصلبة حافّة قوية. وإذا أقيمت قرب مرج فيجب إنشاء حافّة ضيّقة صلبة – من الطوب أو الأحجار أيضاً – فوق العقود لمنع المرج من الانهيار.

كيف تضع التصميم موضع التطبيق

أولاً، ادرس عمارة منزلك، من ناحية الفترة التي بني فيها والموادّ المستخدمة، إذ إنها ستؤثّر في الموادّ المستخدمة في حديقتك. إذا كان بيتك مصنوعاً من الطوب

الشكل 61. قناة ماء، هستركومب، سومرست.

الشكل 62. رسم لفناء إسلامي معاصر محاط بمشربيّة.

الفيكتوري، فإن ذلك يمنحك فرصة كبيرة للتصاميم الهندسية بالطوب والموادّ الأخرى، ربما بعض البلاط الخزفي – وكلاهما استُخدم في الأندلس (انظر الفصل الثالث). ثانياً، فكّر ملياً في حجم حديقتك وشكلها، إذا كان لديك حديقة خلفية طويلة وضيّقة (تذكّر توصية ابن ليون أن من الأفضل أن تكون الحديقة طولية)، يبلغ طولها عشرين متراً وعرضها نحو نصف ذلك أو أقل، عندئذ لتحقيق تناسب جيّد يمكنك تقسيمها إلى أثلاث متساوية وفقاً لمستطيل متناسب[118]. ربما يمكن إنشاء الحديقة الرسمية في الثلث الأوسط أو الأخير الأبعد عن المنزل تبعاً للمظهر والمحيط. ويمكن استخدام الممرّات كبديل للقنوات المائية. وأياً يكن صغر حجم الحديقة الرباعية، فإنها يجب أن تحتوي على ماء، وإذا أخذنا في الحسبان المناخات الشمالية فيكفي وجود بركة صغيرة أو نافورة في مركزها. وما لم تكن الحديقة

كبيرة بالقدر الكافي، فمن المرجّح ألا يرغب محبو الحدائق من أوروبا الشمالية في وجود كثير من قنوات المياه الباردة الجارية المكشوفة، بصرف النظر عن جمالها وجاذبيتها في أشهر الصيف. في الحدائق الكبيرة في إنكلترا، مثل هستركومب في سومرست، أو كولتون فيشاكر في ديفون، أو شوت هاوس في دورسِت، أنشئت قنوات ماء على الطراز الإسلامي بحيث تعطي تاثيراً كبيراً وتمتزج بالمحيط بصورة جميلة. لكن لا شك في أنها لا تبدو في أفضل أحوالها في الأيام المكفهرّة والماطرة.

لمنح حديقتك الإسلامية بعض الإحساس بالعزلة، يجب فصلها بعناية عن الأقسام الأخرى عن طريق سياج نباتي أو مشبّك خشبي تتسلّق عليه الورود أو كرمة أو ياسمينة، إذا كانت أشعّة الشمس متوافرة بكثرة. ومن البدائل إقامة مشربية، وهي ستار من الخشب المقدّد أو المخروط بأشكال هندسية يشيع استخدامه في أنحاء كثير من العالم الإسلامي (انظر الفصل الثالث) – لكن احرص على معالجة الخشب بعناية لتحمّل قسوة الشتاء في المناطق الشمالية. يمكن أن توفّر بركة أو نافورة مركزية ذات أربعة ممرّات أو قنوات مائية إذا أمكن تنطلق من الوسط إلى المحيط المخطّط الأولي (الشكل 30). وتبعاً لحجم الموقع وشكله، يتضح مكان أحواض الزهور مع تقدّم المخطّط. قد يبدو ذلك غير مفيد، لكن هذا ما يحدث عندما تبدأ تقسيم المكان: تحدّد الفكرة المركزية سائر المخطّط ولن يكون هناك بالضرورة إجابة واضحة عن المناطق الأكثر تفصيلاً التي يفترض وجودها نظرياً. عليك أن تكون في الموقع، وعلى غرار كل الأعمال التصميمية، عندما تبرز المشاكل تفكّر فيها وتصل إلى أفضل الحلول في النهاية (إن شاء الله). لكن ذلك ليس سهلاً في بعض الأحيان، كما يدرك العديد من المصمّمين جيداً: ليس هناك طريق مختصر[119]. التفكير والتركيز، بالإضافة إلى النية، أمر أساسي في جميع أعمال التصميم والحرف. ولن يساعد الإلهام الذي سينتج على ما يرجّى في حلّ المشاكل عندما تنشأ فحسب، وإنما يربط أيضاً المسائل العملية بالمبادئ العامّة. وكما تمّ التأكيد من قبل، إن لتصميم الحديقة الإسلامية علاقة بالنظام والتناسب والانسجام، والأهم من ذلك الوحدة. هذه هي المبادئ التي يجب عدم إغفالها عندما تفكّر في تصميمك وتجد الحلول العملية والتقنية والجمالية لوضع معيّن: يرتبط الاستخدام والجمال والرمزية ارتباطاً عضوياً (الأشكال 36 و47 و52).

تفيد توصيات ابن ليون المقتبسة أعلاه من لديهم حدائق خلفية طويلة وضيّقة، إذ إنها تحوّل ما يعتبر سلبياً إلى شيء إيجابي، وتحديداً أن الطول مدعاة للتأمّل. وهكذا يمكن تقسيم الحديقة الحضرية التي يبلغ طولها عشرين متراً تقريباً وعرضها عشرة أمتار بواسطة ممرّات أو قنوات بوجود نافورة مركزية (يشكل

فناء الساقية مثالاً كلاسيكياً على ذلك، الشكل 52) بدلاً من تقسيمها إلى أثلاث كما اقتُرح أعلاه. ويمكن عند الرغبة تقسيم المكان ثانية للحصول على مزيد من التنوّع، فضلاً عن إضفاء شيء من الغموض. يمكن فصل الناحيتين بسياج نباتي دائم الخضرة أو مشربية، وتقسم الناحية الثانية إلى حديقة رباعية أيضاً ذات نباتات مختلفة وبركة راكدة بدلاً من نافورة تخرّ. وبخلاف ذلك قد لا تصبح حديقة إسلامية البتة، بل حديقة منزل ريفي على الطريقة الإنكليزية. يجب أن يكون السياج النباتي بين الناحيتين رسمياً، ويمكن أن يجزّ في وسطه على شكل عقد يدعو الزائر إلى دخول الحديقة الخلفية. وقد يكون السياج النباتي خياراً من عدة خيارات تبعاً لشكل الحديقة. إذا كنت محظوظاً بحديقة ذات اتجاه جنوبي أو جنوبي غربي، فإنني أوصي عندئذ بسياج الريحان ذي الأوراق الصغيرة الذي يمكن جزّه وتشكيله أيضاً. ويمكن استخدام الحبق للأسيجة الأكثر ارتفاعاً. وفي كلا الحالتين، تستحضر الأوراق العطرة جوّ البحر المتوسّط على الفور (ناهيك هن ذكر فناء الريحان في قصر الحمراء إذا ما زُرع الريحان) وينتج الريحان أزهاراً بيضاء عطرة في أواخر الربيع تستمرّ حتى طوال الصيف. وهناك العديد من الشجيرات الأخرى للأسيجة النباتية تناسب الأماكن الشمالية كما أنها تناسب الحديقة على الطراز الإسلامي، وسنتوسّع فيها في الفصل الخامس.

الانضباط يوجّه الإبداع

ثمة مجال كبير للتنوّع في التصميم داخل الشكل الهندسي المنضبط للحديقة الرباعية، من مواد تنسيق المناظر الطبيعية الصلبة إلى زراعة الأشجار والشجيرات والأزهار، إلى الماء الذي يمكن أن يتخذ أي شكل ملائم. وسيكون من الخطأ الاعتقاد أن المخطّط الرباعي يحول دون الزراعة الخلاقة والتصميم المبتكر. بل إنه يوفّر إطاراً أو لغة يستطيع البستاني أن ينفّذ بداخله العديد التفسيرات – لاحظ عدد الحدائق الإسلامية القائمة على التصميم الرباعي وتنوّعها في جميع أنحاء العالم والفترة الزمنية التي تشملها - هناك أيضاً الطبيعة وحدود الموقع عند زراعة الحدائق، وهي في الواقع ليست قيوداً بل توفّر الانضباط الذي يتم العمل ضمن إطاره. ربما تقيّد تفاصيل الموقع – الشكل والتربة والمناخ وما إلى هنالك – خيارات النباتات، لكن ذلك أمر محمود لأنه يدفعك إلى التركيز على الاحتمالات لمكنة ضمن المعايير المعطاة. وهكذا بين انضباط المخطّط الهندسي و«حدود» الموقع، يوجد لدى مصمّم الحديقة أسس الحديقة الإسلامية بالفعل. ويمكن بعد ذلك توجيه الطاقة الخلاقة نحو تصميم أنماط الممرّات وربما الجدران والنوافير والشادورات (بلاط حجري

منقوش يتدفّق عليه الماء نزولاً) وزخرفة البلاط وما إلى هنالك، من دون أن ننسى الأشجار والنباتات نفسها.

المحلّ الهندسي العبقري

كتبت كونستانس فيليير ستيوارت Constance Villiers Stuart في كتابها الرائع عن الحدائق المغولية: «اختيار الموقع وعبقرية المكان هما الاعتبار الأول لصانع الحديقة في أي مكان»[120]. غالباً ما يستخدم مصطلح عبقرية المكان في البستنة الغربية، ويترجم في الغالب إلى «روح المكان» بدلاً من «عبقرية المكان». أياً يكن الأمر فإن هذا المصطلح يعني الأمر نفسه: يشير أولاً على المستوى الأوضح إلى المحيط إلى جانب الجوّ الخاص أو نوعية المكان بعينه. غير أنه يعني على أعلى المستويات القوة الروحانية المستترة، أي بركة الله التي يقوم عليها كل الفن الديني والتقليدي. وهذه القوة غير منظورة وغير محسوسة ولا تدرك إلا بالحدس، وعلى الزائر أن يلبث بعض الوقت ويتأمّل قبل أن يبصرها ويستوعب وجودها الغامض والهادئ والخفي. ويرجع أصل كلمة genius إلى كلمة جِنّ العربية. والجنّ هم سكان العالم الخفي ولا تمكن رؤيتهم إلا إذا اتخذوا شكلاً مادياً – الجنّي في قصص ألف ليلة وليلة.

لذا يجدر بالمصمم قضاء بعض الوقت في بداية مشروع التصميم للتأمّل واستيعاب عبقرية المكان كي يأتي المخطط منسجماً مع المكان. وتنطبق هذه التوصية على الحدائق الريفية الكبيرة أكثر مما تنطبق على الحديقة الحضرية الصغيرة، ومع ذلك يجب عدم إغفالها.

«الغرف» الخارجية

تعتبر هيدكوت وسسنغهيرست من أوائل الأمثلة على الحدائق المصمّمة وفقاً لمخطّط «الغرف» الخارجية. لكن يمكن القول بالمعنى الحرفي إن المسلمين، بعد الرومان وإيوانهم، أول من طوّر مفهوم «الغرفة» الخارجية – أي حديقة الفناء الداخلي. كان ذلك في الواقع ولا يزال مكاناً للمعيشة في العديد من أنحاء العالم الإسلامي. فالأسر تأكل وتتحادث وتصلي وتجلس وتتوضّأ في الفناء الداخلي. وقد كتب مصمّم الحدائق جورج دلستون George Dillistone في كاسل دروغو في ديفون، وكان قد استُخدم بعد أن اعتُبِرت تصاميم إدوين لويتن Edwin Luyten مغالية في الطموح[122]، كتاباً ردّد فيه صدى الآراء الإسلامية: «الحديقة مُنشأ اصطناعي يخدم

الشكل 63. تفاصيل الأسود، باحة الأسود، قصر الحمراء.

غاية محدّدة. إنها غرفة المنزل الموجودة في الخارج. ولأنها من عمل الإنسان، فيجب أن تحمل خاتم فنّ الإنسان وحرفيته اللذين لا يمحيان»[123].

إثارة الحواسّ

رسّخت الأبحاث النفسانية أهمية التوازن بين المؤثّرات الحسية على الصحة والعافية. إذا أفرط في إثارة بعض الحواسّ وأهملت الأخرى، فقد يكون لذلك تأثير نفساني سلبي. ونميل اليوم إلى المبالغة في استخدام بعض الحواسّ – البصر والسمع بالدرجة الأولى – والتقليل من إثارة الحواس الأخرى لا سيما الشمّ واللمس.

غالباً ما كتب أنه يجب الاستمتاع بالحديقة الإسلامية بجميع الحواسّ، وذلك صحيح جداً. أولاً، التصميم المنظّم والنباتات الغضّة والماء لوحات رائعة وتسرّ الناظر، ثانياً، تكافأ حاسّة الشمّ لدينا بروائح الأزهار والأعشاب العطرة؛ ثالثاً، تثار حاسّة السمع بسقسقة العصافير وخرير الماء الجاري وحفيف الأشجار؛ رابعاً، تستثار حاسّة اللمس بفرك الأعشاب بأصابعنا مثل النعناع وإكليل الجبل والخزامى، والمتعة الكبيرة المتأتية من قطف الثمار مثل التفاح والإحساس بشكلها وملمسها، أو بجعل الماء يتدفّق بين الأصابع؛ وأخيراً الذوق، شرب الماء وأكل الثمار والخضراوات التي تزرع عادة في الحديقة الإسلامية. ثمة توازن في تحريك الحواس هنا يعكس توازن التصميم ويشكّل جزءاً من الغموض العميق الذي يكتنف الحديقة الإسلامية، ويسهم في إيقاظ إحساسنا الفطري، الإحساس بالجنّة دون مستوى الوعي.

ما الذي يُجتنب

في أوروبا، شهد عصر النهضة بداية التفكّك التدريجي لصورة العالم القروسطي المتركّز على مبدأ سام، أخذ الإنسان يصبح مركز العالم. لقد كانت النظرة المسيحية القروسطية شديدة الشبه بنظرة الإسلام التقليدي لكن الحضارتين افترقتا بمجيء عصر النهضة، يليه العصر الباروكي والركوكي وعصر الأنوار. وقد انعكس اختلاف نظرتيهما في تصميم الحدائق بالإضافة إلى الفنّ والعمارة على العموم. فلم تعد الحديقة الأوروبية في القرن السادس عشر وما يليه على مقياس إنساني حميم يتركّز على الداخل: إنها تتطلع إلى منظور الفخامة والأبهة مثل إنشاء لا نوتر في قصر فرساي. وعندما صار التأثير الكلاسيكي محسوساً في كل أنحاء أوروبا، امتلأت الحدائق بالتماثيل المزخرفة والمنحوتات والأشجار المقلّمة الرائعة، والمغارات والأشغال المائية الاصطناعية من كل لون ووصف. (يتناول الفصل الرابع النوافير والبرك الملائمة للحدائق الإسلامية). وهذه نقيض رهافة الحس وتصميم الحدائق الإسلامية التقليدية الإسلامية، ويجب اجتنابها مهما كلّف الأمر إذا كنت ترغب في إنشاء حديقة إسلامية أصيلة.

إن تجنّب التماثيل في الحديقة هو امتداد لتجنّب التجسيم والتصوير في الفنّ الإسلامي ككل. ويرجع ذلك جزئياً إلى الخوف من عبادة الأصنام التي كانت متفشية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام. فكل ما يمكن أن يصبح صنماً يجب ألا يدخل بين الإنسان والله. كما أن تجنّب الأصنام يحمي الكرامة الأصلية للإنسان. فقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، ويجب أن يكون أي تصوير للإنسان مقيّداً

بالضرورة، وذلك هو سبب تحريم صور الله لأنه ينزل المطلق إلى مستوى النسبي والإنسان. وتصوير البشر بطريقة طبيعية حية، كما تفعل معظم التماثيل -والصور- الأوروبية، تقليد للخالق يعتبر تجديفاً لأننا لا نستطيع «نفخ الروح» في هذه الأشياء المزيّفة.

إن وحدانية الله التي توجد في جوهر الفنّ الإسلامي بأكمله مفهوم مطلق يتجاوز التمثيل الحرفي، لذا لا يمكن التعبير عنها إلا عن طريق الشكل الرمزي، عبر انتظام الهندسة والعربسة وانسجامهما[124]. ويعني ذلك في الحديقة الإسلامية، وفي الفنّ الإسلامي بأكمله، الالتزام الصارم بالمفاهيم الموضّحة أعلاه، وبخاصة مفهوم الوحدانية الذي تنبع منه بساطة التصميم ووضوحه، بالإضافة إلى اجتناب «الاختلاط» على شكل التماثيل وزخارف الحدائق الأخرى.

صحيح أن الحيوانات تظهر أحياناً في الفنّ الإسلامي المبكّر، مثل الأسود في فناء الأسود، لكنها ليست حية جداً هنا؛ فهي تمثّل الصفات الأولية للعظمة والكرامة والقوة – حيث الأسد شعار للملكية بالإضافة إلى ارتباطه بالشمس، الرمز العظيم للروح[125]. غير أن وجود تماثيل الأسود في قصر الحمراء استثناء وليس قاعدة. ويفضّل على العموم تجنّب المنحوتات إذا أردت إنشاء حديقة إسلامية تقليدية.

يجب أيضاً تجنّب الممرّات المتعرّجة، والجداول ذات المنظر الطبيعي، والبحيرات ومساقط الماء ذات الصخور المغطّاة بالحزاز، ونباتات الغابات الإستوائية عند تصميم الحديقة الإسلامية. فهذا ميدان الحديقة اليابانية أو الصينية أو حديقة الريف الإنكليزي، لكنه لا يتماشى مع مبادئ الهندسة المنتظمة التي تميّز الحديقة الإسلامية التقليدية. ويجب أيضاً ألا تدخل في حديقتك الجسور الخشبية المنحنية والسرادقات الخشبية ونبات الخيزران – وهي شائعة جداً في الحدائق الصينية[126]. كما أن الماء الذي يقطر في البرك عبر الخيزران اختصاص ياباني آخر لا ينسجم مع الحديقة الإسلامية. يتناول الفصل الرابع عن الماء ما تدخله وما تجتنبه من الأدوات المائية المتنوّعة جداً. على سبيل المثال، يجب ألا يدخل قناع أسد مثبت على جدار ليقطر منه الماء في حديقتك الإسلامية – ما لم تكن محظوظاً في العثور على أسد حجري من القرن الثاني عشر (أو نسخة جيدة) شبيه بالأسود الموجودة في فناء الأسود في قصر الحمراء.

الصبّار والنباتات اللحيمة الأخرى ليست نباتات لحديقة إسلامية تقليدية، على الرغم من أنها تزرع الآن على نطاق واسع إلى حدٍّ ما في شمال أفريقيا والشرق الأدنى، لذا يجب اجتنابها. إنها جزء من «البرية» لذا لا تدخل في ملاذ الحديقة. كما

أن منشأ معظمها المكسيك وأنحاء أخرى من الأميركتين ولم تحظ بشهرة في العالم الإسلامي إلا مؤخّراً نسبياً – عندما بدأت الموضة والحفاظ على الماء توجّه الزراعة أكثر من التراث. في المغرب، يستخدم الأغاف الأميركي كحاجز في وجه المتطفّلين (انظر الفصل السادس) لكنه لا يُزرع على العموم في حديقة الفناء الداخلي. واليوم تشيع في أوروبا الشمالية وأميركا الشمالية فكرة الحديقة البرية ذات الأنواع المختلفة من الأعشاب أو المروج «الطبيعية»، وكذا الحديقة التي تمتزج مع المناظر الطبيعية المحيطة (وهذه موضة بدأها لانسلوت براون Lancelot Brown قبل مئتي عام). فكل ذلك غريب جداً عن المنظور الإسلامي – وهو أمر مفهوم لأن الطبيعة المحيطة هي التي كان المسلمون الأوائل يلتجئون إلى الحديقة هرباً منها. وآخر ما كانوا يريدونه أن تتغلغل الصحراء إلى ملاذهم الداخلي الذي ينعم بالظلّ والمياه الجارية الباردة. لقد كانت حدائقهم بيئة صناعية مخطّطة بذكاء بغية إنشاء مكان يتناقض تماماً مع العالم الطبيعي القاحل والقاسي.

الخلاصة

إن دراسة المبادئ الأساسية مسبقاً، وفهم منشئها وشيء من معانيها هو الطريقة الوحيدة التي يمكن أن تنتج عنها حديقة إسلامية ناجحة في بيئة «غريبة». ولكي تعبّر الحديقة النهائية عن جوهر الحديقة الإسلامية التقليدية، يجب أن يجتمع لدى المصمّم فهم الرسالة الروحية الأساسية ومبادئ التصميم، إلى جانب المعرفة والخبرة في مناخ المنطقة المحلية وشروط الزراعة فيها، من دون أن ننسى الأمل والدعاء بالتوفيق.

الشكل 64. الأصص الفخارية على طول أحد الممرات في حدائق الحمراء (تحتوي على زهور من جنس اليونيموس).

الفصل الثالث

الأشكال الهندسية وتنسيق المناظر الصلبة والحلى المعمارية

من أهم مظاهر الحديقة الإسلامية علاقتها المنسجمة مع العمارة. يتضح ذلك على وجه الخصوص في الحدائق الحضرية الصغيرة المنفصلة عن محيطها المغاير (بجدران عادة)، على غرار الحديقة الإسلامية المبكّرة. ويجب أن تسهم في هذا الانسجام الجدران والأسيجة الشجرية، إلى جانب النباتات والماء والأشكال المعمارية في المناظر الطبيعية الصلبة. ففي أعقاب التفكير في التصميم الابتدائي، يستطيع المصمّم أن ينفّذ أفكاره عن طريق تطبيق هذه العناصر.

في هذا الفصل نتناول بعض كنوز الأشكال الهندسية وتنسيق المناظر الصلبة والحلية المعمارية الموجودة في مختلف المواد الحرفية

الشكل 65. زليج (بلاط خزفي على الطراز المغربي) على جدار في فاس.

في العالم الإسلامي. وربما تشعر بإغراء استخدام بعض الزليج (بلاط خزفي مغربي، الشكل 65)، أو الجبس المحور أو المشربيات (الشكلان 66 و62)، أو بعض الأشكال الهندسية البسيطة على الأرض بالطوب أو الحجارة أو الأردواز أو غيرها من المواد الطبيعية. إذا كنت محظوظاً بوجود المكان لتصميم حديقة مفتوحة واسعة، مقارنة بالحديقة الصغيرة المحصورة، فربما ترغب في وضع سرادق أو كشك صغير قرب بركة أو نافورة: تشكل حدائق شاليمار في ضواحي لاهور مثالاً رائعاً - إذا كنت طموحاً (انظر «السرادقات والخيام» أدناه والشكلين 116 و131). النوافير وقنوات الماء وأشكال الماء الأخرى هي العناصر الأساسية الشهيرة في الحديقة الإسلامية،

الشكل 66. مشربية بنقوش مختلفة.

وسينظر فيها بتوسّع في الفصل التالي عن الماء. وكما ذُكر سابقاً، إن رؤية الأمثلة في مواقعها هي مصدر الإلهام لأكبر للمصمّم، وإذا تعذّر ذلك، فقد توفّر الصور عن الحدائق والعمارة في أنحاء العالم الإسلامي، فضلاً عن زيارة المتاحف[127]، أفكاراً رائعة. وثمة بعض الأمثلة عن الأشكال الهندسية البسيطة للممرّات أو المناطق الصغيرة المرصوفة مع توصيات عن أماكن إجراء مزيد من البحث.

الهندسة والفن الإسلامي

ما أهمية الأشكال الهندسية في الفن الهندسي على العموم وفي الحدائق الإسلامية على وجه الخصوص؟ إنها تمثّل جوهر الطبيعة عبر نقش مجرّد، وذلك يعني أن لكل شكل هندسي معنى نوعياً يرمز إلى شيء ما. لذا فإن الهندسة ليست مجرّد نقش تزييني جميل يبعث على السرور، بل وسيلة صافية وموضوعية للاحتفاء بالنظام الطبيعي الذي ابتدعه الله. فالفن الإسلامي التقليدي، كما ذكر آنفاً، يتركّز على وحدانية الله، وهي مفهوم مجرّد لا يمكن تمثيله بصورة مباشرة. مع ذلك، فإنه يمكن من خلال النظام والانسجام، كما يتبدّى في التشابك الهندسي والإيقاعي

الشكل 67. لوحة حجرية منقوشة على جدار في مدرسة أبو عنانية في مكناس، تظهر توازناً بين الأشكال الهندسية والزخرفة العربية (العربسة). يمثّل المربع العالم الأرضي في ما تمثّل الدائرة العالم السماوي.

الشكل 68. قبّة مسجد قايتباي، القاهرة.

الشكل 69. سجادة كيليم أناضولي ذات أشكال هندسية زاهية الألوان تستند إلى العدد 6.

(العربسة)، إظهار الطبيعة الجوهرية للعالم المخلوق والوحدة التي تقوم عليها ضمن تعدّدية الأشكال.

يظهر النظام في الحديقة الإسلامية التقليدية عن طريق النسق الهندسي للتصميم الرباعي، الحديقة الرباعية، وتكراره. وهناك بطبيعة الحال تعدّد للنقوش الهندسية الأخرى التي تقوم على أشكال المسدّس والمثمّن واثني عشري الأضلاع والشبكات الهندسية الأخرى، لكن الحديقة الرباعية، كما يوحي اسمها، تقوم أساساً على التصميم المربّع. والهندسة ترمز أيضاً إلى الأشكال النقية في الطبيعة، إلى جانب أنها تعبّر عن النظام، في حين تمثّل العربسة الأشكال المتعرّجة والمتموّجة. وهذان الاثنان، الهندسة والعربسة، عنصران من العناصر الثلاثة الرئيسية للفنّ الإسلامي، حيث الثالث هو فنّ الخطّ. لا يوجد الكثير مما يشترك فيه تجريد الفنّ الإسلامي مع الفن التجريدي الحديث: الأول موضوعي يُعنى بالتذكير بوحدانية الله، فيما الآخر على العموم أكثر تعبيراً عن الذات، ويعكس عادة نفس الفنّان الفرد[128].

توجد النقوش الهندسية بجمالها وتنوّعها غير المحدود في جميع أنحاء العالم الإسلامي، من قباب المساجد إلى السجّاد والأقمشة، والزخارف القرآنية والحفر

في الخشب والخزف، ناهيك عن الزليج (الشكلان 65 و73). وهو ليس وقفاً على الفن الإسلامي – وإنما لغة عامّة تبرز الفنّ الديني لجميع التراثات العظيمة: من منحوتات بوذا إلى وضع رأس مريم العذراء في أيقونات القرون الوسطى، إلى مواقع رقص كرشنا في جدارية في معبد هندي[129].

ربما تتساءل ما علاقة ذلك بإنشاء حديقة إسلامية؟ كل شيء في الواقع. الهندسة هي اللغة الجوهرية للفنّ الديني، إذ إنها أداة إقامة النظام، وما من شك في أن الحديقة الإسلامية نوع من الفن الديني – لذا فإن الهندسة جزء لا يتجزّأ منها. الحديقة الإسلامية تتعلّق بإيقاع الطبيعة الممثّل بالنباتات والأشجار والنظام الذي يفرضه عليها الإنسان باعتباره خليفة الله على الأرض. هذا هو ما يمكن تسميته «الهندسة الحقيقية» (وهو مختلف كثيراً عما تعلّمناه في المدرسة) بالعودة إلى أكاديمية أفلاطون وما وراءها، حيث كانت الهندسة أحد «الفنون الحرّة السبعة»[130]. وكانت تدرّس كأداة لفهم الكون وكوسيلة لتحرير الروح من شواغل العالم – ومن ثم الفنون «الحرة». وقد اتبع إخوان الصفا، الذين نشؤوا في العراق في القرن العاشر، أفكار أفلاطون وكتبوا:

> اعلم يا أخي، بأن النظر في علم الهندسة الحسية يعين على الحذق في الصنائع، والنظر في الهندسة العقلية، ومعرفة خواص العدد والأشكال، يعين على فهم كيفية تأثيرات الأشخاص الفلكية وأصوات الموسيقى في نفوس المستمعين... وفي علم الهندسة العقلية للناظرين طريق إلى الوصول إلى معرفتها بعون الله وهدايته[131].

إن فيثاغورس هو القائل، «أربعة هي أسس الحكمة – الحساب والموسيقى والهندسة والفلك، مرتبة على التوالي»[132]. لكل شكل هندسي، من المثلث والمربع إلى المسدّس والمثمّن والاثني عشري، معانٍ نوعية إلى جانب شكلها الخارجي. والأمر مماثل للأعداد، وسيلي مزيد من تفسير ذلك. يكفي الآن أن ندرك وجود صلة وثيقة في الفنّ الإسلامي بين المعنى الباطن والشكل الظاهر، إذ إن «الرؤية الروحية تجد التعبير عنها في لغة شكلية محدّدة»[133]. وهكذا يتضح عند تصميم حديقة إسلامية أن الهندسة ليست مجرّد أداة مفيدة لوضع مخطط

الشكل 70. نقش هندسي محفور في الخشب ومطعّم بالعاج، القاهرة.

الحديقة بطريقة متناظرة وجيّدة التناسب، أو لرسم نقوش جميلة تسرّ الناظرين: لا شك في أنها تؤدي هاتين المهمتين على نحو جميل إذا اضطلع بهما من هو أهل لهما، لكنها لغة عميقة للفنّ الديني إلى جانب ذلك.

إن مصطلح الهندسة في اليونانية geo-metry يعني قياس الأرض. والأداتان الضروريتان لممارستهما البيكار لرسم الدوائر والمسطرة لرسم الخطوط المستقيمة. الدائرة هي رمز الوحدة الذي يشتقّ منه جميع الأشكال الهندسية الأخرى. ويقال إن الأداتين نفسهما ترمزان إلى دائرة الفلك (الشمس هي إحدى الرموز العظيمة للروح) والخط المستقيم لأفق الأرض. لماذا ينجذب حتى أكثر المشكّكين إلى مشاهدة المغيب والشروق؟ لأننا نشاهد الجمال المثالي للسماء والأرض أمام ناظرينا بكل ما يوحيان به من إعجاب بالمجد والعظمة.

الهندسة والعدد

لفهم الأفكار الجوهرية وراء الحديقة الرباعية، يحسن فهم القليل عن الطبيعة الأساسية للهندسة والأعداد. وهما كما رأينا فنان/علمان شاملان استوعبهما العرب المسلمون عن طريق فيثاغور وأفلاطون. ووفقاً للتراث الفيثاغوري، بالإضافة إلى العديد من التراثات الأخرى بما فيها التراث البابلي والهندي، العدد هو المبدأ الأساسي للكون الذي ينطلق منه الكون الظاهر. وللعدد، على نحو الهندسة، ظاهر واضح أو معنى كمي نستخدمه في الحياة اليومية (تفاحتان، ثلاث أشجار، إلخ)، بالإضافة إلى معنى نوعي داخلي، «ثلاثيته» أو «رباعيته» في سياق الحديقة الرباعية. يتجسّد مفهوم الوحدة في العدد واحد، أو الدائرة في الهندسة. ويجسّد العدد اثنان فكرة الثنائية التي يعبّر عنها هندسياً بنقطتين وخط. في الثنائية يحدث الانفصال، ولا يمكن العودة إلى البداية إلا مع العدد ثلاثة، أو المثلث من الناحية الهندسية. وقد جاء في القرآن، ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ (2: 156). وهكذا يمثّل العدد ثلاثة الروح في رحلتها من الانفصال إلى الكلية وبالتالي فإنه عدد سماوي يوحي بالتوازن والانسجام[134]. لذا عندما يوصي المصمّمون بأن ثلاثة من نوع معيّن من النبات تبدو جميلة معاً، إن ذلك لا يتعلّق بالتصميم فحسب. فكما أسلفنا بإيجاز، هناك الكثير من الأمور التي تجري في الخلفية وتبلغنا عن سبب ذلك.

نصل الآن إلى العدد أربعة،الذي تناولته في الفصل السابق، ويعبّر عنه هندسياً بالمربع أو المكعب. يتم التوصّل إلى الأربعة بجمع عدد إلى نفسه أو ضربه بنفسه: اثنان زائد اثنان أو اثنان مضروباً باثنين، وبالتالي فإنه يمثّل «ما يولد». وكلمة

«طبيعة» تعني «ما يولد»، لذا فإن العدد أربعة يشير إلى الطبيعة والعالم المخلوق. وفي حين أن الدائرة ترمز إلى الوحدة التي لا تنفصم والعالم السماوي، فإن المربع يمثّل الوحدة المنفصمة، «الوحدة في التعدّد» والعالم المادي. ويمثّل المثلث الانتقال من عالم إلى آخر. عندما نفكّر في العدد أربعة وكل ما يرتبط به، مثل العناصر الأربعة (التراب والهواء والنار والماء) والأمزجة الأربعة (الحرارة والبرودة والرطوبة والجفاف)، وأعمار لإنسان الأربعة (الطفولة والشباب والبلوغ والكهولة)، يتبيّن أن جميع هذه الأشياء أرضية. وترمز الكعبة إلى هذا البعد عند المسلمين[135]، وهي تعني المكعّب وتتخذ شكل مكعّب غير كامل إلى حدّ ما.

العدد ثمانية

كتب بيركهاردت، «يمكن النظر إلى العمارة الدينية بأكملها، إلى أي تراث انتمت، بأنها تطوّر للموضوع الجوهري لتحوّل الدائرة إلى مربع»[136]. وكما رأينا أعلاه، تمثل الدائرة السماء والمربّع الأرض، ويمثّل الشكل الرباعي للحديقة

الشكل 71. قاعدة مربعة تتحوّل إلى مثمّن عند القبّة، المسجد الجامع في أصفهان.

الإسلامية الأرض، في حين أن السماء هي نفسها قبّة السماء. وفي العمارة، يتطلّب الانتقال بين القاعدة المربعة والسقف المقبّب وسيطاً من العدد ثمانية في شكله الهندسي، المثمّن، لضمان اتصالهما بسلاسة. وسنرى في الحديقة أن النافورة المركزية، وغالباً ما تكون دائرية، ذات حافة محارية أو من دونها، توضع في الغالب في قاعدة مثمّنة. فما أهمية العدد ثمانية؟ يرتبط العدد ثمانية في الإسلام بالجنة، ويمثّل بعث الإنسان بعد مروره في المراحل أو السماوات السبع ودخوله الجنة: لذا إنه رمز التجدّد والبعث. وفي الكنيسة، غالباً ما يكون جرن المعمودية في الكنيسة مثمّناً، ما يذكّرنا أن المعمودية ليست مجرّد تطهّر وإنما ترمز إلى الانبعاث عبر الدهن بالماء المقدّس. عندما عرج النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى السماء، رأى العرش الذي يحمله ثمانية ملائكة. وفي رسم ابن عربي الكوني لأرض المحشر[137]، يصوّر العرش كنجمة مثمّنة. وقد قسّم الشاعر سعدي قصيدته «حديقة الورد» إلى ثمانية أجزاء، يقابل كل منها إحدى الجنات الثماني[138]. وهناك حدائق في إيران والهند تدعى «هشت بشت»، وتعني «الجنات الثماني»، توجد على سبيل المثال واحدة في أصفهان، وأخرى في أغرا صمّمها الإمبراطور المغولي بابر.

الشكل 72. نافورة في القاعة الذهبية في قصر الحمراء تظهر حوض ماء على شكل محار مروحي في قاعدة مثمّنة.

لا شك في أن المثمّن من أكثر الأشكال المستخدمة في النقوش الهندسية في العالم الإسلامي، وبخاصة في شمال أفريقيا والهند، ويسميه بعضهم «نجمة الإسلام»[139]. لكن لا بد من القول إن كثيراً من الأعداد الأخرى ونظيراتها الهندسية – من المسدّس إلى الاثني عشري – تستخدم في النقوش الهندسية الإسلامية. وزيارة مدينة فاس في المغرب أو قصر الحمراء في إسبانيا تفتح عين المرء على مجموعة مدهشة من النقوش الهندسية الزاهية المصنوعة من الزليج (الأشكال 65 و73 و83). غير أن عدد الحرفيين الماهرين الذين يستوعبون الهندسة ويطبّقونها في مختلف المهارات الحرفية يقل كثيراً عما كان عليه من قبل. وقد أطلقت برامج للمحافظة على استمرارية هذا الفن العظيم وتجديده، لكن الأمر ليس بالسهل في العالم الصناعي[140].

النقوش الهندسية البسيطة

كما ذكر من قبل، تحتاج إلى بيكار ومسطرة لتبدأ بالرسم. وتشكل النقوش البسيطة المبنية على تقسيم الدائرة إلى ستة أجزاء لتشكيل مسدّس بداية جيّدة، إذ إن الدائرة تقسم بالتساوي إلى ستة أجزاء باستخدام نصف قطرها. ومن المثير للاهتمام أن المعماري أو معلّم البناء كان يسمّى في العصور الوسطى «معلّم البيكار». ويرمز العدد ستة إلى الجهات الأربع بالإضافة إلى السمت والنظير (الارتفاع والعمق). كما أنه عدد الخلق، في حين أن العدد سبعة يمثّل يوم الراحة («وبارك الله اليوم السابع وقدسه»، التكوين 2: 3) إلى جانب أشياء أخرى مثل العدد التقليدي للكواكب. يمكن تشكيل النجمة المسدّسة من مثلثين أحدهما فوق الآخر بالمقلوب، وتعرف أحياناً بخاتم داود. لا يتسع نطاق هذا الكتاب لعرض كيفية رسم الأشكال خطوة خطوة، كما يتعذّر الدخول في معنى جميع الأعداد والأشكال الهندسية المستخدمة في الفنّ الإسلامي. غير أنه تعرض هنا بعض الأشكال لرصف الباحات أو الممرات أو الأفنية الصغيرة، وإذا كنت مهتماً في تعلّم رسم نقوش هندسية أكثر تعقيداً، فانظر الحاشية وقائمة المراجع[141].

الشكل 73. زليج، قصر الحمراء.

الشكل 74 (أ – د). نقوش هندسية مختلفة لتشكيل المناظر الصلبة.

التمهّن والحرفـية

من المرجّح أن يكون الحرفيون الماهرون التقليديون المسلمون، بمن فيهم البستانيون المهرة، على دراية بالمعاني الرمزية الكامنة في النقوش الهندسية. ولا شك في أن بعضهم أكثر معرفة من سواه – لكن ليس لنا أن نعرف على وجه اليقين. وتشاهد نقوش رائعة في جميع أنحاء العالم الإسلامي نضرب عليها مثلين اثنين: الجانب الداخلي من قبة مسجد الشاه في أصفهان (الشكل 75) وقبّة مسجد قايتباي في القاهرة (الشكل 68). وهي تنمّ عن معرفة كبيرة بعلم الهندسة ممزوجة بإحساس عميق بالمعاني الدينية. ومن غير المرجّح أن يكون المتمهّنون على دراية بالمعاني الداخلية للتصاميم التي شاركوا في وضعها، إذ يحتمل ألا يطلعوا على هذه المعرفة الموقوفة على العلماء إلا عند بلوغهم مستوى معيّناً، إذا ما اعتُبروا أنهم يتحلّون بما يكفي من المسؤولية والذكاء والتواضع. فقد كانت هذه، كما ذكر في الفصل السابق، معاني أو «تعاليم» سرية تنقل شفاهة بالدرجة الأولى من المعلّم إلى المتدرّب عندما يشعر المعلّم أن الأخير أصبح جاهزاً. وفي الماضي، كان شيخ الطائفة الحرفية معلّماً في المهنة ومعلّماً روحياً أيضاً. وكانت الطوائف الحرفية ذات علاقة وثيقة بالطرق الصوفية في الإسلام مثلما كانت في أوروبا في القرون الوسطى. وعندما يتعلّم المتدرّب حرفته ببطء فإنه يتعلّم أيضاً كيف يهذّب روحه ويضبطها.

من حسن الحظ أن بعض «التعاليم السرية» للبستانيين اليابانيين قد جُمعت في مخطوطة من القرن الحادي عشر وضعها تاجيبانا نو توشيتسونا تحمل اسم «ساكوتيكي» (أي «ملاحظات على صنع الحدائق»)[142]. ونذكر ذلك إذ لا يوجد عمل مقابل مترجم في العالم الإسلامي؛ ومن المرجّح أن تكون مثل هذه التعاليم محفوظة في مخطوطات عربية وفارسية وتركية، لكنها على ما يعرف لم تخضع لأبحاث أو متوافرة للقرّاء الغربيين[143]. توجد رسائل عن الفلاحة في القرون الوسطى (كما ذكر من قبل وسيرد بشيء من التفصيل

الشكل 75. القبة الداخلية لمسجد الشاه في أصفهان.

لاحقاً) لكن المعاني الداخلية التي انتقلت من المعلّم إلى المتدرّب شفاهة أو عن طريق الممارسة والعلاقة الوثيقة ربما لم تعد موجودة إلا في أوساط القليلين. إنها محجوبة عمن يفتقرون إلى الخبرة لكن ربما كشف عنها النقاب ذات يوم. بل إن المعلّمين لا يزالون حتى اليوم لا يكشفون عن معارفهم أمام الغرباء في الأماكن الإسلامية التي لا تزال تحتفظ بتقاليدها الحرفية مثل تركيا والمغرب. قبل بضع سنوات، زار حرفي تركي في «الكندكاري» (ضرب من الأشغال الخشبية المطعّمة) دائرتنا للفن الاسلامي والتقليدي في لندن[144] ولم يدرّس سوى قدر محدّد من خبرته الفنية ومهارته في حرفته، وكان يلوذ بالصمت بأدب عندما يسأل عن المعنى الضمني. وفي عهد قريب، عندما كنت أصمّم حديقة إسلامية، أبدى الحرفي المحلي الذي كلفته بالعمل عليها تردّداً في نقل معرفته إلي إلى أن نشأت بيننا علاقة قائمة على الثقة والتفاهم. وذلك ينسجم مع تقاليد المهنة وهو مفهوم تماماً. إن قيام المعلّم أو الحرفي بنقل المعرفة الثمينة المكتسبة بالعمل الشاق حقّ وأمر مشرّف، لكنه مسؤولية أيضاً وعلى المتدرّب أن يثبت جدارته ليستحق الحصول عليها.

الحرفـية والمهارة في الحديقة

في ضوء ما ورد أعلاه، عند التفكير في إضفاء مزيد من «الزخرفة» على حديقتك، من المفيد أن يكون لديك فكرة عن الحرفية والمهارة اللازمة لتنفيذها.

الشكل 76. حجر يظهر نقش البسملة، وقد قام بتنفيذه آدم سليمان، أحد طلاب برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية (فيتا) في برنسس فاونديشن (انظر الحاشية 140).

فلا يحظى المضمون أو المعنى بأهمية كبرى في الفن التقليدي فحسب، وإنما الأسلوب والمواد التي ينفّذ بها العمل أيضاً. ويجب أن يكون لليدين والقلب والعقل دور كامل في العمل الفني التقليدي. فهو عمل تأمّلي، وعملية ابتكار تعكس عمل الخالق. لذا إذا أردت أن يحظى كل شيء في حديقتك بجمال حقيقي، بحيث تعكس جنّات الفردوس، فإنني أوصي بأن تكلّف حرفياً ماهراً بتنفيذ معظم الأعمال الفنية والحرفية. من المغري، ومن الضروري في الغالب، خفض التكاليف، لكن قد يؤدي ذلك في بعض الحرف إلى مظهر رخيص ومبتذل. يجب أن ينفذ الزليج أو الخط أو النافورة أو الحجارة المنقوشة يدوياً وباستخدام مواد طبيعية قدر الإمكان. وإذا كانت هناك رغبة في بعض الخطوط في الحديقة (انظر القسم التالي)، فيجب عندئذ استخدام نوع من الحجارة أو الأردواز أو الخشب. وإذا تبيّن أن ذلك مكلف جداً، فيفضّل عدم إدخال فنّ الخط إلى الحديقة. لا تستخدم الكتابة الأقل تكلفة على الغرانيت المسفوع بالرمل، وهي آفة يبدو أنها سيطرت على شواهد القبور في المقابر في السنوات الأخيرة. فجمال الحروف المنقوشة يدوياً في الحجارة لا يعادلها أي شيء تصنعه الآلات.

الشكل 77. نقش هندسي بسيط في الحجر في أحد الأفنية في دمشق.

In the name of Allah
Beneficent, the all M

وتستطيع حتى العين غير المدرّبة ملاحظة العناية والحرفية للنقش اليدوي، وفي مثل هذه التفاصيل تظهر العناية وحبّ العمل. وعلى نحو ذلك، يجب أن يكون البلاط الحجري (مثل الزليج وسواه من الأشغال الخزفية) والأصص الفخّارية مصنوعة يدوياً دائماً: الألوان المتساوية التي تحصل عليها في البلاط الذي تنتجه المصانع يبدو باهتاً مقارنة بالأصص اليدوية المزجّجة، مثلما تفتقر أشكال وألوان الأصص المنتجة على نطاق واسع إلى الحياة مقارنة بالأصيص المنتج على دولاب يدوي[145].

خلافاً للفنانين والحرفيين الآخرين، فإن المواد التي يعمل بها البستاني هي الطبيعة نفسها. لذا فإن على البستاني أن يرعى عمله ويحافظ عليه ويجدّده باستمرار بطريقة لا يضطر إليها الرسامون أو الحرفيون. فعندما ينجز عمل الحرفي غير البستاني – مثل تصميم وتنفيذ أرضية رخامية ذات نقوش هندسية – فإن في وسعه أن يتنفّس الصعداء لأن الصيانة فيما بعد تظل في حدودها الدنيا. وتلك ليس حال البستاني.

تجدر الإشارة إلى أن استخدام لفظتي «فنّان» و«حرفي» بطريقة تبادلية لأنهما كانا في العالم الإسلامي التقليدي يعنيان الأمر نفسه – حيث المعنى الأساسي لكلمة «فن» هو مهارة. لم يحدث الفصل بين ما يسمى «الفنون الجميلة» والحرفة إلا حديثاً وهو أمر مضلّل يعني أن الفن لا ينطوي على الحرفة وعدم وجود فن في صنع مشغولة حرفية. وطالما كان البستاني فنّاناً وحرفياً في آن معاً – مثلما كان جميع الفنّانين/ الحرفيين: يصنع شيئاً جميلاً وذا معنى بمهارة عالية ومعرفة وحبّ وتواضع اكتسبها عبر سنوات من التعلّم والخبرة. فلا يمكن الاستغناء عن المهارة البتة، ولا تُكتسب إلا بالإخلاص والممارسة والحبّ.

الشكل 78. خط خزفي، مسجد صقولو محمد باشا في إسطنبول.

فنّ الخط

تتركّز الفنون والحرف في الإسلام حول ثلاثة عناصر أساسية كما ذكر سابقاً: فنّ الخط والهندسة والزخرفة العربية (العربسة). الخطّ هو أرفع الفنون البصرية في الإسلام لأنه يمثل لغة القرآن الذي أنزله الله بالوحي على النبي محمد صلى الله عليه وسلّم. ويتضح ذلك لكل من زار العالم الإسلامي، حيث يزيّن فنّ الخط معظم المباني، من المساجد والمدارس إلى الفنادق

الشكل 79. مشربية، منزل غاير أندرسون في القاهرة.

والبيوت. الخط في المسجد يصوّر عادة أسماء الله الحسنى[146] والصلاة على النبي فضلاً عن آيات من القرآن. ويمكن أن تكون منقوشة في الحجر أو الرخام أو الجبس أو الأشغال المعدنية أو البلاط الخزفي أو الخشب. ويوجد في البيوت الخاصة لفظ الجلالة واسم النبي مرسوماً أو مطبوعاً ومعلّقاً في إطار على الحائط، بالإضافة إلى الشهادة أو البسملة[147].

بما أن فنّ الخط يحظى بهذه المنزلة السامية في العالم الإسلامي، فإنه يوظف بعناية كبيرة في العمارة ولا يستخدم إلا نادراً في الحدائق. تشتهر قصور الحمراء بحدائقها المتتالية بتكرار عبارة «لا غالب إلا الله»[148]. وهي منقوشة مئات، إن لم يكن آلاف، المرات على الجدران إلى جانب اسم الله وآيات من القرآن. كما كان ينقش على النوافير في الحدائق أبيات من الشعر، مع أن ذلك ليس من مظاهر الحدائق العادية، مثل النافورة المرتفعة في فناء الأسود في قصر الحمراء. ويمكن في حديقتك حفر بيت من الشعر على لوح أردواز أو في الحجر وتركيبه على الجدار المحيط بالحديقة، شرط توخي كثير من العناية. ويمكن بدلا من ذلك إدخال فنّ الخط في المشربية[149]،

كما في منزل غاير أندرسون في القاهرة (الشكل 79)، بالإضافة إلى النقوش الهندسية الأكثر شيوعاً. ومن المهم أن يكون الخط مرتفعاً على مستوى البصر أو أعلى من ذلك، إذ لا يجوز السير على النص المقدّس في الإسلام. ويرجع ذلك إلى أن الخط لم يستخدم في الأصل إلا لتمثيل لفظ الجلالة، ولا يزال يعامل حتى اليوم بتبجيل كبير. لذا تماشياً مع التراث الإسلامي، اختر مكاناً مرتفعاً للخط حتى إذا أردت نقش بعض الشعر أو شيئاً غير ديني في حديقتك[150].

الخط غير ضروري عند إنشاء حديقتك الإسلامية، خلافاً للهندسة. لكن الخط المنتقى بعناية، والمنقوش وفقاً لما جاء أعلاه، يمكن أن يسهم في الجوّ التأمّلي الإجمالي. فالمرء يميل إلى أخذ وقت للقراءة والتوقّف واستيعاب الخط المنقوش في الحديقة أكثر مما يأخذه عند جلوسه في المنزل لقراءة كتاب ما. وإذا أخذنا في الحسبان أن أحد الأهداف الرئيسية للحديقة الإسلامية إنشاء نوع من الملاذ، فإن محتوى النقش يصبح شديد الأهمية. إذا كنت مسلماً، فربما ترغب في اختيار آية من القرآن من الآيات العديدة التي تشير إلى الجنة:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾[151].

﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴾[152].

هناك آية أخرى من القرآن من الملائم جداً نقشها فوق مدخل الحديقة أو بوابتها:

﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَٰنًا نَّصِيرًا ﴾[153].

ومن الاحتمالات الأخرى حديث للنبي صلى الله عليه وسلّم، مثل:

«لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا»[154].

ويمكن أن يختار غير المسلمين بطبيعة الحال شيئاً من القرآن أو حديثاً شريفاً أو قصيدة تعبّر عن رسالة شاملة، مثل الشعر المفضل لدي المحفور على العديد من المقاعد في الحدائق:

أشعة الشمس تبعث على السرور
وشدو الطير مدعاة للحبور
في الحديقة يكون المرء لله أقرب
من أي مكان على الأرض يُطلب[155].

وثمة قول شهير ينسب إلى شاعر القرن التاسع عشر، أمير خسرو
«إذا كان من جنة على الأرض، فإنها هنا وليست في مكان آخر»[156].

هناك الكثير من الأقوال التي تدعو إلى التأمّل في تراث العالم الغني بحيث تصبح المشكلة الرئيسية التي تواجهها تضييق اختياراتك. لكن بما أننا معنيون بالحديقة الإسلامية، فإنني أوصي باختيار آية من القرآن تشير إلى الجنة، كما اقترحت أعلاه، أو بيت من الشعر من قصائد العديد من الشعراء المسلمين السابقين العظام.

رابعة العدوية (ت. 801) شاعرة شهيرة من شعراء الصوفية. عندما دعتها خادمتها إلى النظر إلى أزهار الربيع الجميلة في الخارج، ردّت بأن الحدائق والأزهار الحقيقية ليست في الخارج بل داخل القلب[157]. ولعل قول الشاعر سعدي (1184-1292): «الصبر شجرة جذورها مرّة لكن ثمارها حلوة» تذكرة مفيدة لمن أصيب بالإحباط من شيء لم يتحقّق ودخل الحديقة طلبا للسلوى، أو ربما اقتباس من مقدّمة قصيدته الشهيرة «غُلستان» (حديقة الورود):

لا تزهر الوردة إلا ساعة
وحديقتي تزهر حتى قيام الساعة

لا شك في أن سعدي يشير هنا، على غرار رابعة العدوية، إلى الحديقة الداخلية، حديقة القلب. وغالباً ما استخدم جلال الدين رومي (1207-1273)[158]، الحدائق والأشجار والنبات والأزهار كرموز حية للجمال الإلهي في عمله العظيم «المثنوي». وقد أشار، على نحو الشعراء الآخرين، إلى «حديقة القلب»، أي إلى أعمق ما في أنفسنا حيث يجب ألا نتوقّف عن ذكر الله. تلك هي الحديقة التي تدوم إلى الأبد، لأن كل ما في هذا العالم المادي، حتى الحدائق البديعة، إلى زوال.

موادّ تنسيق المناظر الصلبة

تنسيق المناظر الصلبة – ليس هذا المصطلح المفضل لدي لكن يبدو أنه لا يوجد هناك مرادف آخر للأسف – عنصر مهم في تصميم الحديقة الإسلامية الداخلية. وينطبق ذلك على أفنية المنازل في سورية ومصر والأردن والمغرب، وفي أماكن أخرى حيث يوجد الكثير من الإلهام. تستخدم تشكيلة واسعة من المواد الطبيعية في العالم الإسلامي، من الحجارة والحصى إلى الزليج والرخام الملوّن، تبعاً للموارد المحلية[159]. ويجب تجنّب الفسيفساء إذ على الرغم من الأشكال الهندسية القائمة في الأعمال الرومانية أو البيزنطية – مثل الفولوبيلس في المغرب – فإن الأسلوب نفسه يستحضر على الفور حضارة مختلفة تماماً.

الشكلان 80 و81. نقوش في أرضية رخامية في دمشق والقاهرة.

يتميّز التشبيك العربي بتعقيد هندسي وإيقاع يفتقر إليه نظيره الروماني... فللأماكن المملوءة والأماكن الفارغة، والتصميم وخلفيته، قيمة متكافئة ويوازن بعضها بعضاً بطريقة مماثلة لارتداد الخطوط إلى نفسها دائماً، بحيث يتوقّف اهتمام المرء على عنصر تزييني محدّد[160].

الممرات، كما أشير في الفصل السابق، فرصة رائعة لصياغة الأشكال النمطية داخل تصميم الحديقة الرباعي. ويمكن أن تتراوح من الأشكال النمطية البسيطة،

الشكل 82. نقش هندسي فسيفسائي روماني، ڤولوبيلس، في المغرب. «يتميّز التشبيك العربي بتعقيد هندسي والإيقاع يفتقر إليه نظيره الروماني»: طيطس بوركهاردت (انظر الحاشية 160).

الشكل 83. زليج، قصر الحمراء.

مثل حافة زليج ضيّقة (7.5 سم) على جانب ممر حجري طبيعي (انظر الشكل 60)، إلى الأشكال النمطية الأكثر تعقيداً الموجودة في تركيا وسورية والمغرب ومصر والهند (انظر الأشكال 80-81، 85-86، 88-91). من غير المحتمل أن يحظى كثير منا بفرصة وضع مخططات عظيمة كتلك المشاهدة هنا. مع ذلك، من المفيد مشاهدة ما تحقّق في الماضي، إذ يمكن دائماً انتقاء حلية معيّنة واستخدامها في ممرّ في حديقتك أو أي منطقة مرصوفة أخرى.

الشكل 84. زجاج ذو نقش هندسي باعتباره سمة معمارية في حديقة ما (من تصميم وتنفيذ مارتن مولر أحد طلاب برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية (فيتا) في برنسس فاونديشن (انظر الحاشية 140).

ومن المفيد أيضاً التجوّل في المناطق الفيكتورية من لندن (والمدن الكبرى الأخرى) ومعاينة الممرات المفضية إلى البوّابات الأمامية. فلبعض الأشكال الهندسية للبلاط «مظهر» إسلامي، ومع ذلك فإنها إنكليزية تماماً وجزء لا يتجزّأ من البيئة المعمارية المحلية. يرجع ذلك جزئياً إلى العمارة نفسها، وكذلك إلى المواد المستخدمة والنقوش نفسها، وكثير منها يستند إلى تصاميم من القرون الوسطى أو حقبة أقدم. وفي إنكلترا، تتراوح الموادّ بين البلاط الخزفي[161]، والطوب وتشكيلة واسعة من الحجارة، والأردواز، والصوّان، والحصى، تبعاً للموقع الجغرافي. في العالم الإسلامي في شمال أفريقيا والشرق، لا تستخدم النقوش الهندسية بكثرة وتتخذ أشكالاً معقّدة فحسب، وإنما غالباً ما تكون الموادّ أكثر جمالاً. فإلى جانب الطوب والحجارة والحصى والأصداف البحرية – وهي من المواد المفضلة في العهد العثماني – يؤلّف بين الرخام المختلف الألوان والحجارة بطريقة تتسم بالتعقيد والمهارة، كما يشاهد في أفنية المساجد والمنازل في دمشق والقاهرة.

لا بدّ من التفكير ملياً عند اتخاذ قرار بشأن مواد تنسيق المناظر الصلبة: يجب أن تتلاءم مع المكان وأن يمكن استخدامها لإنشاء نقوش إسلامية وإعطاء إيحاء بأن «المنظر» شرقي. على سبيل المثال، ربما يتجنّب المرء استخدام فن الأشغال الحجرية في تاج محل إذ من المرجّح ألا يكون المحيط المعماري ملائماً. لكن يمكن استخدام الأشغال الحجرية بصورة منعزلة، مثل مقعد حجري. ويتوقّف الأمر على العلاقة الحسّاسة مع المحيط وباقي المواد الصلبة المستخدمة في الحديقة أو العمارة الموجودة

الشكلان 85 و86. نافورتان في حديقة شاهجهان المربعة في قلعة لاهور تظهران حجراً ذا نقوش نجمية على الأرض مع زخرفة عربية داخل النافورتين - تفتقران إلى الحياة من دون ماء.

على مقربة. على المرء توخّي العناية عند استخدام أشغال البلاط الخزفي الملوّن، الزليج، إذ إن كثرته تبدو غير ملائمة. وسينظر في ذلك بمزيد من التفصيل في القسم التالي.

إن البلاط ذا النقش البسيط، مثل ذلك المستخدم في ممرّات حدائق الأفنية في مراكش، يمتزج جيداً مع عمارة المنازل الفيكتورية الإدواردية، ويمكن التعامل مع الدرج على نحو مماثل. وقد استخدم كثير من الطوب في الحدائق والأفنية المغربية، ويمكن مشاهدة ذلك في أجزاء من حدائق قصر الحمراء مثل المنطقة المحيطة ببركة (الشكل 93، والدرج المؤدي إلى أعلى من بركة قصر بارتال، الشكل 107). وتجدر الإشارة إلى أن الطوب المستخدم هنا أطول قليلاً وأقّل عرضاً بكثير من الطوب الإنكليزي العادي، لذا فإن النقش السنبلي أكثر بروزاً. مع ذلك من الممكن الحصول على طوب مصنوع يدوياً ذا ألوان ألطف وأشكال أفضل من الطوب المنتج على نطاق واسع. إذا كانت الأموال متوفّرة، يفضّل استخدام الطوب اليدوي – لا سيما إذا كانت هناك رغبة في منطقة كبيرة مزينة بنقوش من الطوب.

المنصّات الخشبية غير ملائمة في الحديقة الإسلامية لأنها تستحضر نوعاً آخر من «المظاهر»، أكثر التصاقاً باليابان أو أميركا الشمالية حيث «المنصة الخشبية» رائجة منذ بعض الوقت. فقد كان الخشب سلعة ثمينة في البلدان العربية، تستورد عادة من شبه القارة الهندية كما هو الحال اليوم، لذا استخدم لأغراض أكثر أهمية من المشي عليه، مثل الحواجب الخشبية التي سبق ذكرها وتسمى المشربيات.

الشكل 87. خط وأشكال هندسية وزخرفة عربية في زليج وجبس محفور: يظهر التوازن بين الثلاثة، المغرب.

الزليج

أشير إلى الزليج (الأشكال 65، و73 و83، و99) عدة مرات من قبل، وهو

أشغال تبليط خزفي تقوم على قصّ الخزف المزجّج بأشكال مختلفة وتركيبه معاً لصنع النقوش الهندسية والزخرفة العربية والخط. وقد أتقن الحرفيون المغاربة هذه الحرفة وبرعوا بها. عند اختيار الألوان والتصميم بعناية، يمكن استخدام الزليج في إنشاء الحدائق الإسلامية في أوروبا وإحداث تأثير عظيم. يمكن أن يعطي القليل منه مظهراً مؤثّراً عندما يوضع بدقّة كحافّة حول أحواض الزهور، أو إلى جانب الدرج، أو كممرّ كما اقتُرح من قبل، أو «كنعل» في أسفل الجدار (الشكل 60). غير أن المساحات الكبيرة من الزليج كما في المغرب، حيث يمكن أن يمكن أن يستخدم على القسم السفلي من جدار ما حتى ارتفاع متر عن الأرض، لا يتلاءم مع المناخات السائدة في شمال أوروبا. فهو يبدو رائعاً في منشئه حيث الألوان الزاهية تشاهد في أفضل أحوالها تحت أشعة الشمس الساطعة، لكن المساحات الكبيرة منه تبدو باهتة وكئيبة في الشمال حيث يسود ضوء الشمس الخافت. تتفاوت ألوان البلاط الخزفي من الأصفر المائل إلى البني والأحمر الداكن إلى درجات الأزرق والأخضر، لكنها لا تكون زاهية أو صارخة البتة بل تبدو كأنها خرجت من الأرض بصورة طبيعية. بل إن قطعة واحدة (مساحتها 0.5 متر مربع تقريباً) من الزليج تضفي رونقاً وجمالاً على جدار في حديقة خلفية تواجه الشمال.

وهكذا ما يهم هنا هو تحقيق التوازن الصحيح: بين مقدار الزليج ولونه، والعمارة، والنباتات. وعندما يتحقّق هذا التوازن فإنه يحوّل المكان إلى فناء مغربي أو أندلسي ويبدو في الوقت نفسه منسجماً مع بيئته. ثمة عوامل عملية أخرى يجب أخذها في الحسبان هنا أيضاً – مثل أنواع النقوش المستخدمة ومقدار أشعة الشمس التي ستسقط عليها في أوقات مختلفة من النهار طوال السنة. لقد قمت مؤخّراً بتصميم حديقة مدخل في غرب لندن تبلغ مساحتها نحو 9 أمتار مربعة، وبما أنها كانت محاطة بالجدران من ثلاثة جوانب (حيث الجانب الرابع هو البيت الفيكتوري على الطراز القوطي)، فقد فكّرت أولاً في استخدام زليج بسيط النقش من ثلاثة ألوان على الجدران الثلاثة

الشكلان 88 و89. نقوش هندسية في الرخام والحجر، دمشق.

الشكلان 90 و91. نقوش هندسية في الرخام والحجر، دمشق.

حتى ارتفاع متر ونصف المتر، كما يشاهد في العديد من البيوت المغربية ذات الأفنية. لكنني أدركت لحسن الحظ أن استخدام مثل هذا المقدار الكبير من الزليج سيبدو غير منسجم مع المكان عند أخذ موقع البيت والمناخ في الحسبان. لو كانت المساحة أكبر فربما لن يبدو التأثير طاغياً جداً، لكنني قرّرت تركيب حدّ ثلاثي الألوان يبلغ عرضه 7.5 سم عند جميع الممرّات وأحواض الزهور، فجاء التأثير بارعاً وجميلاً (من دون أن يسود التواضع) وأضفى مظهراً إسبانياً مغربياً (الشكلان 54 و60). ونظراً لأن الموقع يواجه الشمال والشرق، وتظلّله شجرة دلب مورقة، فإنها ستحجب في الصيف أشعة الشمس وتحول دون أن تسطع على الزليج، لذا اختير ألوان الأخضر والأصفر المائل إلى البني والقشدي، وهو ائتلاف تقليدي يلائم المناخ السائد أيضاً.

انتقاء الموادّ

يمكن أن يكون انتقاء الموادّ الصلبة من بين الخيارات الكثير والجميلة المتاحة اليوم أمراً صعباً – من الحجر الرملي الهندي، إلى الرخام الإيطالي، إلى الأردواز البرازيلي، ناهيك عن ذكر الآجرّ أو حجارة الرصف. يجب عدم الإغفال عن ثلاث نقاط مهمة عند الاختيار: أولاً، ألا تكون المواد متنافرة مع عمارة البيت والمحيط، كما ذكر سابقاً؛ ثانياً، أن تكون طبيعية قدر الإمكان؛ ثالثاً، أن تستحضر تنسيق المناظر الصلبة في الحدائق الإسلامية عن طريق النقوش الهندسية والحدّ من المواد

الشكل 92. بلاط ذو نقوش بسيطة، مراكش.

المؤتلفة. عند تفحّص بعض الحدائق الأندلسية في إسبانيا، يمكن مشاهدة مقدار ما يستطيع أن يفعله المرء بائتلاف بسيط من نوعين من الموادّ مثل الحجارة والحصى أو الحجارة والغرانيت. ويفضّل عدم استخدام أكثر من مادتين أو ثلاث مواد صلبة لتنفيذ تصميم ما، وبخلاف ذلك تواجه خطر فرط الزخرفة – وهو النقيض التام لنظام الحديقة الإسلامية التقليدية وبساطتها. إن حجارة يورك المربّعة المصقولة بديل جميل للحصى أو قطع الغرانيت ويمكن استخدامها مؤتلفة مع حجارة الرصف الكبيرة لإنشاء بعض النقوش البسيطة في مثلثات أو مسدّسات[162]. ربما تكون القيود المالية عاملاً مقرراً في اختيار الموادّ، لكن يمكن تحقيق الكثير حتى عند استخدام ميزانية محدودة. ومن المهم التفكير ملياً في التصميمات الهندسية والموادّ التي تشكل الخيار الأمثل قبل الشروع في المخطط.

الشكل 93. نقوش في طوب محيط ببركة، حدائق قصر الحمراء.

الأردواز، أو ربما مزيج من الأردواز والحصى، من المواد المحتملة لتنسيق المناطق الصلبة، وكلاهما يتلاءم مع البيئة الشمالية ويوحيان أيضاً بوجود تأثير إسلامي. وهناك العديد من الاحتمالات لتنفيذ التصاميم باستخدام الأردواز والحصى أو الآجر والحصى، مثل التصاميم القائمة على المثلثات أو المعيّنات أو النقوش النجمية الأكثر تعقيداً ذات الرؤوس الخماسية أو السداسية أو السباعية أو الثمانية. ويتوقّف ذلك على مقدار الخبرة في رسم النقوش الهندسية، فضلاً عن العلاقة الجيّدة مع الحجّار أو غيره من الحرفيين الذين ينفذّون التصميم. للحصول على توجيه في الرسوم البسيطة، وإذا كنت ترغب في استكشاف الإمكانات الواسعة للهندسة للحصول على مزيد من النقوش المعقّدة، ثمة بضعة كتب منتقاة يمكن الرجوع إليها – على الرغم من أن الدراسة على معلّم مجزية أكثر[163].

الشكل 94. حصى وحجارة مرصوفة، قصر الحمراء.

وللذين لديهم اهتمام في مزيد من الأبحاث بشأن مزيج الثقافتين الإسلامية والأوروبية – المسيحية أساساً – من المفيد تفحّص أسلوب المدجنين في العمارة وتنسيق المناظر في إسبانيا. و«المدجنون» مصطلح أطلق على ثقافة المسلمين الذين عاشوا تحت الحكم المسيحي بعد سقوط الحكم الإسلامي- مثلما يطلق مصطلح «المستعربين» على المسيحيين الذين عاشوا تحت الحكم الإسلامي. من الأمثلة على أسلوب المدجنين قصر بيلاطس في أشبيلية، وقد بناه الحرفيون المغاربة في القرن الخامس عشر للحكام المسيحيين. وهو يظهر مزيجاً غريباً من التأثيرات المغربية والقوطية والنهضوية. ومما يثير الاهتمام أنه لا يعرض محاولة لمزج الأساليب، وإنما مهارة الحرفيين المسلمين في الشكل والرمزية من منظور مسيحي. غير أن النتيجة تفتقر إلى عنصر الوحدة الأساسي من المنظور الإسلامي على الرغم من

أنها جاءت مرضية من الناحية الجمالية. يكمن التحدي عند إقامة حديقة إسلامية في الانسجام مع المحيط، والمحافظة في الوقت نفسه على النقاء والإحساس بالوحدة الذي يشكّل العنصر الرئيسي السري للحديقة الرباعية.

أهمية المواد الطبيعية

لا بد من ذكر سبب أهمية المواد الطبيعية في الحديقة الإسلامية التقليدية، لأن الأمر لا يرجع إلى الحنين والمشاعر. أشير عدة مرات من قبل إلى أن لكل عنصر في الحديقة الإسلامية التقليدية مغزى عميقاً – ينطبق ذلك على الموادّ بقدر ما ينطبق على التصميم والنباتات. يجب أن يرتبط الشكل الخارجي بالمعنى الداخلي، والفائدة بالمغزى الروحي على الدوام. فصناعة أصيص على الدولاب، بكل ما يحمل من مفهوم «التمركز» مهمة جداً من الناحية الرمزية، لأن الحياة الروحانية ترتبط «بتمركز» الروح وتساميها. وستُفقد اللغة الرمزية بأكملها إذا استخدمت أصصاً بلاستيكية أو معدنية حديثة محل الأصص اليدوية. الأصص مصنوعة من المواد الأولية، التراب أو الطين، الذي خُلقنا منه كما جاء في القرآن، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾[164]. وكذلك جاء في التوراة، «وجبل الرب الإله آدم تراباً من الأرض. ونفخ في أنفه نسمة حياة»[165]. وبما أن الفنّ الإسلامي يتعلّق إلى حدٍّ كبير بتشريف المادّة، فإنه يمكن عندئذ أن ندرك أهمية طبيعة الموادّ. وتلك هي السيمياء في الواقع، تحويل المادة الخسيسة إلى شيء ذي قيمة وسامٍ[166].

لا شك في أن هناك التباساً بشأن الموادّ الفنية في العالم الحديث: لم نعد نعرف كيف نميّز المغزى الكوني للحجر أو الحديد أو الخشب. الخشب دافئ وحيوي ولطيف، في حين أن «الحديد عدواني ومشاكس» كما لاحظ أحد المعلّقين[167]. يكثر الحديد في الكنائس اليوم ويقول الكاتب نفسه إنه يعيق «إشعاع القوى الروحانية ويعطي الانطباع بأن الجنة حبيسة». لذا فإن أفضل السبل إلى استخدامه هي إبطال صلابته وعدم مرونته وتخفيفه عبر شغله كما في الدرابزين والشبابيك (الشكلان 2 و98). ربما يكون الحجر بارداً وقاسياً لكن برودته «محايدة ولا مبالية مثل برودة الأبدية»، كما أنه يعبّر في حالته الخام عن شيء قديم ومثير للإعجاب[168]. ويمكن قول الشيء نفسه عن المعادن الثمينة مثل الفضة والذهب. ويصف الكاتب نفسه الخرسانة التي غزت العالم بأكمله، مثل الحديد، بأنها «قاعدة ونوع كمي من حجر زائف. وبها حلّ الثِّقَل المُغْفَل والقاسي محل الجانب الروحاني للأبدية. إذا كان الحجر قاسياً مثل الموت، فإن الخرسانة وحشية مثل الدمار الماحق». ربما يبدو أن هذه الاقتباسات تعبّر عن الرأي بقوة مفرطة، لكن يجدر أخذها في الحسبان عند النظر في الموادّ.

من الناحية العملية، تبلى الموادّ الطبيعية بشكل جميل، فيضفي التعتّق روعة على الحجر والفخّار، حيث تعلوه خضرة خفيفة بمرور الزمن. والخشب يتعفّن في نهاية المطاف في المناخ الرطب، لكن يمكن تفكيكه وإعادة تدويره. وإذا عولج بالزيت جيداً في البداية، يمكن أن يدوم عدة سنوات. أما المواد الأخرى مثل الفولاذ والزنك المغلفن، التي يشيع استخدامها اليوم في الأوعية، فإنها لا تبلى جيداً، ويمكن أن تبدو رثّة وقذرة ما لم تُصَن بعناية. الخرسانة تحتاج إلى الدهان بانتظام للمحافظة على مظهرها النضر، وإلا فإنها تكشف بسرعة عن لونها الرمادي «الميت». «الحجر المصبوب» مزيج من الخرسانة ومسحوق الحجارة ولا يبلى بشكل مرض أيضاً. لكن تجدر الإشارة إلى إدخال تحسينات كبيرة على الإسمنت السنوات الأخيرة، ويتوافر اليوم بعض هذه الحجارة ذات «المظهر الطبيعي» لمن لديه ميزانية محدودة. يمكن تركيب هذه الحجارة في نقوش هندسية مقابل ربع تكلفة الحجارة أو الأردواز أو الغرانيت، على الرغم من أن ذلك يعني التضحية بالمغزى العميق للموادّ.

الشكل 95. أردواز وحصى.

نصائح عملية

تتوقّف الموادّ التي تستخدمها لأرض حديقتك على العديد من الظروف، ولا على المواد المستخدمة في المباني المجاورة أو حقبتها أو أسلوبها فحسب. ما مقدار المساحة؟ وهل تريد مرجاً أخضر، ولو كان صغيراً؟ ما مقدار الظل – هل تطلّ الأشجار على المنطقة بحيث تحدث الجذور مشكلة، من دون ذكر الرطوبة؟ هل هناك أسلاك أو أنابيب ضرورية مثل أنابيب الغاز والماء في الطريق؟ هل الماء متوافر بسهولة؟ هل هناك حيّز لوضع خزّان للنافورة؟ هل الجيران ودودون؟ تذكّر في المدن أن تحسب حساب موقف للسيارة، وذلك ينطوي عادة على إجراءات بيروقراطية طويلة ناهيك عن تكلفته، وما إلى هنالك. لا يشكّل ذلك دليلاً تصميمياً قطعياً بل مجرّد تذكير موجز بوجوب أخذ العديد من العوامل في الحسبان في الظروف الحضرية، أكثر من الريف، إلى جانب العوامل البستانية الأكثر إثارة للاهتمام.

الشكل 96. المشربية، منزل في جدة في المملكة العربية السعودية.

ربما يبدو ذلك فائضاً، لكن من الواجب أخذ الوقت الكافي لإيجاد البنّائين أو المتعهدّين الجيّدين الذين يهتمون بعملهم، وبخاصّة الحجّارين الذين يتطلّب عملهم مهارة عالية. إذا كنت حريصاً على وضع بعض النقوش الهندسية الإسلامية في حديقتك، وأنا أوصي بذلك بشدة لأنه من أبسط الطرق لإضفاء إحساس بالحديقة الإسلامية، فمن الضروري إنتاج بعض الرسوم الجيّدة ذات المقياس الواضح لتقديمها للحرفي، وبعض القوالب عند اللزوم. إن قص الحجارة بالشكل الصحيح الذي يتلاءم مع النقش الهندسي المعروض في التصميم يتطلّب ذكاء ومهارة فنية وقوة بدنية – كما يشهد بذلك كل من استخدم مطرقة وإزميلاً أو مجلاخاً زاوياً. ربما يبدو ذلك بسيطاً لكن إذا طلبت من الحجّار أن يقصّ تصميماً نجمياً مثمّناً مثلاً، أو شيئاً أكثر طموحاً، فيحسن بك أن تعلّم الأبعاد الدقيقة على الأرض بالأوتاد والخيوط أو الدهان. فذلك يجنّبك سوء الفهم ناهيك عن هدر الوقت والمال.

المشربيات

المشربيات طريقة عملية وجميلة لحجب منطقة في الحديقة عن منطقة أخرى. وهي خشب مخروط مشكّل في نقوش هندسية أو حواجب مصنوعة من قدد خشبية تستخدم داخل المنزل وخارجه. وللمشربيات وظائف عديدة: أولاً، فصل منطقة عن أخرى – ربما كان ذلك استخدامها الأصلي كأداة لإضفاء الخصوصية على أجنحة النساء؛ ثانياً، لتوفير ظلّ يقي من الشمس وفي الوقت نفسه يسمح للنسيم بالمرور عبرها – تحدث أشعة الشمس أشكالاً جميلة عندما تمرّ عبرها (الأشكال 62 و66 و79)؛ ثالثاً، مزيج من الأول والثاني يوفّر حاجباً على النوافذ يمنح الظل للمقيمين

الشكل 97. ستار حجري منقوش، إسطنبول.

بالإضافة إلى وسيلة لرؤية ما في الخارج من دون أن يُرى من في الداخل. يوجد قسم النساء في المنزل الكبير تقليدياً في الطبقات العليا وتوضع المشربيات على الشرفات بحيث يتمكّن من رؤية الفناء في الأسفل دون أن تراهن العيون الفضولية. في بعض أنحاء العالم الإسلامي، مثل جدّة في المملكة العربية السعودية، البيوت القديمة (ربما ترجع إلى القرن السابع أو الثامن عشر) ليست بيوتاً ذات أفنية لكنها مرتفعة وذات شرفات تطل على الشارع محجوبة بمشربيات.

كانت المشربيات في الماضي تصنع من قطع صغيرة من الخشب المخروط بمخرطة ثم تجمّع بطريقة يدعم الحجاب بأكمله نفسه بنفسه، حيث تدخل القطع بعضها في بعض من دون غراء. ويعني ذلك السماح للخشب بالتمدّد والتقلّص من دون أن يتشقّق – وهو ما يحصل عند استخدام الغراء. أما اليوم فإنها غالباً ما لا تصنع من الخشب المخروط لتوفير الوقت، بل تصنع مثل المشبّك الخشبي من قطع مستقيمة من الخشب التي تتداخل بعضها في بعض. ولا يزال بالإمكان إنجاز النقوش لكن ذلك بعيد جداً عن مستوى حرفية المشربيات القديمة ودقّة صنعها.

كنت أتناول العشاء مؤخّراً في فندق حديث في العاصمة الأردنية عمان، وكانت منطقة الطعام الخارجية محجوبة عن موقف السيارات ومنطقة الخدمة الموحشة بمشربية ذات نقش بسيط من المربعات مثل المشبّك الخشبي. وقد بدت هذه المشربية البسيطة جذّابة ووفّرت الظل والخصوصية لمنطقة تناول الطعام، فيما سمحت بنفاذ الضوء وهبوب النسيم البارد، بالإضافة إلى حجب المنطقة البشعة عمن يتناولون الطعام ما لم يقتربوا منها. كما أتاحت فرصة لنمو النباتات المعترشة.

على الرغم من أننا في المناخات الشمالية لا نواجه مشكلة حدّة الشمس في الغالب، فإنه يمكن استخدام المشربية بنقوشها الهندسية الإسلامية المميّزة بطرق عديدة في الحديقة الإسلامية «الشمالية». يمكن منح العوارض العلوية والتعريشات – وهي عناصر مفضّلة في الحدائق حيث يحب الناس تمضية الوقت جالسين أو مستمتعين في الخارج – مظهراً إسلامياً مؤثّراً باستخدام الهندسة. من المهمّ في المناخات الشمالية استخدام الخشب الصلب الجيّد والمستدام مثل السنديان، وإذا كان الخشب سيترك في الخارج فمن المهم معالجته بالزيت والورنيش للمحافظة عليه مدة طويلة.

الحجارة المخرّمة والمنقوشة طريقة إسلامية تقليدية أخرى لفصل منطقة عن أخرى، ومن الممتع استخدامها في حديقة المنزل عندما تكون المادّة الرئيسية هي الحجارة[169]. وتوجد هذه الحجارة في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، وبخاصة في الهند وباكستان وتركيا. وإلى جانب الحجارة المخرّمة، فإن الشادور أو الشيني

خانا (انظر الفصل الرابع) يحوّل حديقتك إلى قطعة صغيرة من الهند. لكن تجدر الإشارة إلى أن هذه الأشياء هي للأشخاص الذين لديهم الموارد، لأن المواد والحرفية مكلفة، وربما تكون هناك حاجة إلى استيرادها.

الشبابيك

الشبابيك (الشكلان 2 و98) «حواجب» حديدية مزخرفة توضع في الغالب على النوافذ كبديل للمشربيات الخشبية في بعض مناطق العالم الإسلامي مثل المغرب. وهي تؤدي وظيفة شبيهة بالمشربية، أي أنها تمنع العين الفضولية من رؤية ما في الداخل، وتسمح في الوقت نفسه لمن في الداخل بمشاهدة الحديقة. ولعلها لن تستخدم كثيراً في حديقة إسلامية في المناخات الشمالية، إلا كأدوات للزينة أو الحماية. أما عامل الخصوصية، على الرغم من أنه يحظى بتقدير كبير في مدننا الشديدة الاكتظاظ، فإنه ليس مهماً قدر أهميته في المنزل الإسلامي التقليدي، حيث من الضروري الفصل بين أماكن جلوس الذكور وأماكن اجتماع الأسرة، لا سيما الأمهات والأطفال. ويمكن استخدام الشباك على باب أو نافذة منزل صيفي أو حتى كحظيرة أنيقة. ويتطلّب ذلك الموازنة بين مختلف العوامل، مثل عمارة المنزل والحديقة نفسها وما إلى هنالك.

الشكل 98. شبّاك، فاس.

الجدران واللون

كتب أحد زوّار حديقة ملكية عثمانية في إسطنبول في القرن السابع عشر، «كانت الحديقة ومبانيها وبوّاباتها محاطة بجدار مرتفع كالقلعة»[170]. وغالباً ما كانت حديقة الفناء الإسلامية التقليدية محاطة بجدران مبنية من حجارة محلية أو آجر أو طوب، تبعاً للمنطقة الجغرافية المعنية. ويؤمل ألا تكون الجدران مرتفعة جداً بحيث يشعر زائر الفناء أنه مطوّق أو مصاب برهاب الأماكن المسوّرة، كما حدث مع أحد زوّار حديقة عثمانية ملكية أخرى:

عند دخول البوّابة المذّهبة، وجدت نفسي في حديقة على الطراز التركي ذات

الشكل99. فناء مدرسة يظهر الارتفاع المعتاد للزليج.

أحواض أزهار محاطة بأسيجة شجيرات البقس وممرات تحفّها الأصداف البحرية. وحول بركة ذات نافورة يسبح فيها السمك الذهبي توجد أشجار السرو والبرتقال على شكل أهرام. وترتفع خلفها مصاطب على الطراز نفسه تضم بيوتاً زجاجية وسرادقات، غير أنها محاطة جميعاً بأسوار عالية. كانت مدهونة بالأخضر، لكنها مع ذلك تعطي المرء إحساساً برهاب الأماكن الضيّقة. وكانت النوافذ المواجهة للبوسفور تضمّ شبيكات كثيفة الشغل بالإضافة إلى قضبان طويلة يمكن النظر إلى الخارج من خلالها من دون رؤية ما في الداخل. وكان جناح الحريم بنوافذه المشبّكة يتكوّن من طبقتين، لكن نوافذ الطبقة الثالثة من القصر كانت مغطاة بإحكام حتى أعلاها [171].

الشكل 100. حديقة ماجورال في مراكش، تظهر النباتات الجميلة وحافة البركة المطلية بالأزرق.

هذه تذكرة بالتوصّل إلى التوازن بين الخصوصية وعدم الشعور بالحصار. الجدران المكسوة بالملاط والمطلية بالألوان الخفيفة أو الزاهية طريقة سريعة وغير مكلفة لالتقاط شيء من جوّ الحديقة المتوسطية – لكن غير إسلامية بالضرورة، كما تقدّم في الفصل السابق. فجدران حديقة فناء منزل مسلم في فاس أو مكّة أو دمشق مثلاً لا تطلى بأكملها بألوان زاهية، بل تكون على العموم بيضاء أو قشدية أو ذات لون حجري طبيعي. الألوان يوفّرها بلاط الزليج عادة. اللون الأزرق الداكن للجدران المطلية وحواف الماء في حديقة ماجورال في مراكش تبدو جميلة في مناخ تسطع فيه الشمس، وتترك أثراً قوياً في ذاكرة الزائر. لكن إذا كنت ترمي إلى حديقة إسلامية أصيلة، فربما يكون من الأفضل أن تتجنّب طلاء الجدران أو الأسيجة بأي لون قوي، سواء أكان أزرق أم أحمر أم أصفر أم أخضر، إذا كانت حديقتك موجودة في مناخ شمالي حيث الضوء ألطف على العينين. في البلدان الحارّة تستطيع الألوان الزاهية تحمّل شدّة الضوء لكنها تبدو في الشمال باهتة ومتّسخة. ويبدو أن الألوان الزاهية في هذه البلدان القاحلة تستخدم حيث تقل الخضرة أو المياه المتدفّقة: إنها نوع من البديل عن الخضرة، مثلما تبدو النساء الهنديات الفقيرات للمرء مثل الأميرات عندما يرتدين الساري الجميل ذا الألوان الزاهية. وهو في كلا الحالتين تعبير عن الفرح في منظر طبيعي مُجدب.

تحتاج جدران الأفنية في المنازل الإسلامية إلى أن تكون محايدة كي لا تنافس بلاط الزليج الزاهي الألوان، وتصاميم الأرض الرخامية، والرصيف المزخرف الذي يمكن أن يشاهد في بعض المدن. تتيح هذه فسيفساء من الألوان: تمتاز البيوت الدمشقية بهذه الحرفة الأخيرة (الشكل 55). وتعرف جدران مدينة مراكش بأنها ذات لون صلصالي أحمر، وهو لون التراب المحيط، لكنه ليس لوناً صارخاً البتة إذ ينسجم تماماً مع الريف المحيط. لذا فإن العبرة هي التفكير ملياً قبل اتخاذ قرار بشأن دهان أزرق زاهٍ أو أصفر زاهٍ لتدخل البهجة إلى نفسك على أمل تحوّل منطقة ميدا فيل في لندن إلى مراكش بميزانية صغيرة. النتيجة التي ستحصل عليها على الأرجح هي منظر مؤثّر في الصيف لكنه سيبدو غير منسجم مع المكان في الخريف. لكن ما من شك في أن الألوان الأكثر قرباً إلى الأرض مثل الأصفر المائل إلى البني والأخضر والقشدي، على سبيل المثال، يمكن أن تبدو جميلة على مدار السنة تحت السماء الشمالية. ثمة تقليد إنكليزي يقضي بطلاء المنازل المطلة على البحر بألوان مختلفة وتجدر الإشارة إلى أن هذه المنازل تطلى على الأغلب بالألوان الخفيفة، لا القوية الزاهية.

الشكل 101. البركة الكبيرة في مقدّمة سرادق قصر شهل سوتون في أصفهان.

السرادقات والخيام

السرادقات أو الأكشاك (من التركية كُشك) جزء لا يتجّزأ من الحدائق الكبيرة في شبه القارّة الهندية مثل حدائق شاليمار في لاهور، بالإضافة إلى الحدائق الكبيرة في فارس وتركيا العثمانية وشمال أفريقيا وأماكن أخرى من العالم الإسلامي. يوجد في حدائق شاليمار العديد من السرادقات، ومعظمها ذات فتحات واسعة مقنطرة كي يستمتع الجالسون فيها بالنسيم البارد الذي يهب فوق الماء، وفي الوقت نفسه يشاهدون منظر المدرّجات المائية الرائع من مكان ظليل. وهناك أيضاً سرادقات قصور أكثر فخامة تضمّ غرفة أو غرفاً داخلية محمية، مع شرفة تربط المنطقة الداخلية بالخارج مثل السرادق في حديقة شهل ساتون (الأربعين عموداً) في أصفهان. هنا يوجد سرادق القصر الفخم عند أعلى بركة واسعة راكدة، وتنعكس أعمدة الشرفة العشرين (خفّض عددها الآن) على ماء البركة لتصبح أربعين عموداً، ومن ثم الاسم.

هذه أفكار كبيرة قد لا تتلاءم مع حديقتك. لكن ربما تقدّم إلهاماً لتصميم نموذج أكثر بساطة إذا كنت محظوظاً بتوافر الحيّز الكافي والموقع الملائم. ويمكن

الشكل 102. منمنمة فارسية تظهر سرادقاً مربعاً مفتوحاً وبركة مثمّنة في المقدّمة وأشجار سرو وأشجار فاكهة مزهرة في الخلفية، القرن السابع، من شاهنامة هاوتون

أن تقدّم الأكشاك العثمانية الصغيرة، مثل تلك الموجودة في سراي الباب العالي في إسطنبول، أفكاراً واقعية أكثر لتصميم «منزلك الصيفي»[172] أو الكشك الظاهر في المنمنمة الفارسية المبينة في الشكل 102. في المناخات الشمالية يجب أن يكون المنزل الصيفي، كما نشير إلى السرادق، مغلقاً أكثر لدرء الريح والمطر، وتمديد فترة استخدامه الموسمية. إذا كانت لديك حديقة إسلامية مسوّرة تشعّ عليها الشمس في قسم من النهار على الأقل، فربما يكون السرادق الصغير حلاً عملياً وجميلاً للجلوس في الحديقة وتوفير مكان للقراءة أو الراحة أو التأمّل في الظلّ. غير أن السرادقات مكلفة، حتى إذا كانت بسيطة ومصنوعة من الخشب. تشكل الخيمة على الطراز الشرقي احتمالاً قوياً. فقد شكّلت الخيام مصدراً واضحاً للحماية للذين يتحرّكون باستمرار (مع الجيش أو الحاشية)، مثل الإمبراطور بابر أو السلطان محمد الفاتح. كانوا يختارون أفضل البيئات التي يجدونها لنصب خيامهم، وإقامة الحدائق حولها في بعض الأحيان. هنا كانت تعقد الاجتماعات السياسية والدبلوماسية، بالإضافة إلى قضاء بعض الوقت للراحة والتسلية. وقد قدّم أحد زوّار إسطنبول في القرن التاسع عشر وصفاً مثيراً للاهتمام للحدائق والخيام الملكية:

الشكل 103. شارع صنّاع الخيام، القاهرة القديمة.

شكّلت خيمة حريرية كبيرة مزيّنة بالزخارف العربية (العربسة) امتداداً للسقف، وامتزجت ممرّات الحديقة، المزيّنة بفسيفساء من أصداف البحر والحصى الملوّن، بالأزهار المنتظمة في أحواض ذات نقوش زاهية لتشكّل سجّادة جميلة. من الصعب معرفة أين تنتهي الغرفة وتبدأ الحديقة، وهل تحاورك النافورة بخريرها في الغرفة أو أن المقعد الواطئ الطويل الذي تجلس عليه موجود في الحديقة. والنسيم العليل الذي يهبّ من البوسفور عبر النافذة المشبّكة المفتوحة فيملأ الغرفة ويمتزج مع العطور الزكية التي تفوح من الحديقة المشمسة...[173].

هناك شركات متخصّصة في الخيام الهندية أو العثمانية الجميلة التي يمكن نصبها في الحديقة في أشهر الصيف وحفظها في المخزن في الشتاء[174]. تمنح هذه الخيام حديقتك مظهراً شرقياً على الفور وتوحي بالتمدد على الوسائد المبثوثة على البسط في داخلها. ولن تحتاج بعد ذلك إلا إلى مشروبات باردة لذيذة أو شاي بالنعناع وربما شيشة حتى تنتقل إلى عالم يتوقّف فيه الزمن وأنت متكئ على مسند وغارق في سكينة المكان والتأمّل (والكسل).

المظلّات

يمكن أيضاً استخدام المظلات الكبيرة بدلاً من الخيام. وربما نلاحظ في المنمنمات استخدام مزيج من خيمة ومظلة في بعض الأحيان. لم تكن هذه الخيام والمظلات، كتلك البسيطة الدائرية ذات العمود المركزي التي ترتكز على منصب، المعهودة لدينا اليوم، لكنها كانت مستطيلة أو مربّعة تنصب على ثلاثة أو أربعة أعمدة مثل الخيمة البدوية التقليدية المفتوحة من الجانب. لكن خلافاً للخيمة البدوية المصنوعة من شعر الماعز الخشن، فإنها مصنوعة من قماش منقوش ومزخرف زاهي الألوان، ربما مزيج من الحرير والقطن. وفي مصر، لا تزال المعلّقات والمظلات والخيام القطنية المزركشة والموشّاة بالنقوش الهندسية والخطوط تستعمل على نطاق واسع اليوم، وكثير منها لا يزال يصنع في شارع صانعي الخيام في القاهرة.

المقاعد

كتب أحد زوّار حديقة قصر ملكي في إسطنبول، «هناك سجّاد عجمي نفيس مفروش ومقاعد مرتفعة ذات نمارق مخمليّة مطرّزة بالذهب»[175]. ربما لن تكون هذه متاحة لمعظم القرّاء، لكن من المدهش كيف تشكّل الملاءات القطنية الهندية بديلاً جيداً عندما تبثّ الوسائد والنمارق عليها. يجب أن تتكوّن أماكن الجلوس في الحديقة الإسلامية، كلما أمكن ذلك، من مقاعد منخفضة أو وسائد كبيرة أو بساط أو كيليم قديم مفروش على الأرض، إذا ما توافر، ويفضّل وضعه فوق شيء صامد للماء لأن الأرض تكون رطبة دائماً في أوروبا الشمالية، حتى في نوبات الصيف الحارّة. عندما كان السلطان يجلس في إحدى حدائقه، فإنما يجلس على عرش أو مقعد كبير في سرادق، تحيط به الحاشية وقوفاً احتراماً له.

لا يوجد كثير من الأثاث في البيت الإسلامي التقليدي، حيث تجرى كثير من الأنشطة على الأرض: تناول الطعام، والصلاة، والجلوس على الوسائد أو المقاعد الواطئة لشرب الشاي أو تناول القهوة والحديث. أرض المنزل مكان طاهر تقام فيه الصلاة، وذلك هو السبب الذي يدعو إلى نزع الأحذية قبل دخول بيوت المسلمين. لكن على الرغم من أن الطاولات والكراسي تتناقض مع البيئة الإسلامية، فإنها تؤدي وظيفة عملية جداً في الأماكن الكثيرة الأمطار. إذا كنت ترغب في مقعد خشبي طويل في حديقتك، فبإمكانك تصميم نقش هندسي بسيط لمسند المقعد وتكليف نجار ماهر بتنفيذه لإضفاء شيء من الطابع الإسلامي.

التعريشات والشرفات

عند تفحّص الرسوم المنمنمة المغولية والفارسية والعثمانية ما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، بالإضافة إلى الرسومات والصور المحفورة الأوروبية للحدائق الإسلامية، يبدو أن السرادق أو الكشك أو الخيمة كانت أكثر شهرة من التعريشة والنباتات المتسلّقة التي يعتزّ بها الأوروبيون كثيراً[176]. في إنكلترا، على نحو البلدان الإسلامية، كان الظل مهماً في الحدائق التيودورية والإليزابيثية، وكانت السيدات حتى أواسط القرن العشرين يحرصن على المحافظة على بشرتهن الباهتة لأنهن يعتبرن السمرة سوقية وتوحي بأنّهن ربما يكدحن في العراء - وتلك أفظع الفظاعات. ولم تصبح السمرة التي تنشد طوال السنة رائجة إلا في النصف الثاني من القرن العشرين.

تشاهد التعريشات النفقية المغطّاة بالكرمة أو الورود في الرسومات الأوروبية المبكّرة، مثل التصوير الفلمكني في القرن الخامس عشر لقصة بوكاسيو الذي تظهر فيه تعريشة نفقية مغطّاة بالكرمة التي يتدلّى منها العنب[177]. ربما تتطلّب الحديقة الإسلامية في المناخات الحارّة وقاية قوية من الشمس على شكل سرادق مبني من الحجر. لكن التعريشات موجودة في الحدائق الشرقية، كما وصف جهانكير في مذكّراته: «عندما دخلت الحديقة وجدتني في مكان مظلّل تحفّه من الجانبين ورود قرمزية ترتفع خلفها أشجار السرو والتنّوب والدلب المنظّمة بأشكال متنوّعة»[178]. ويتلاءم نفق الدفلى الذي يرجع إلى أواخر القرن التاسع عشر أو أوائل القرن العشرين في حدائق جنّة العريف مع الحاجة الأولية للظلّ في الحديقة الإسلامية، وبخاصة أن هذه الحديقة مبنية على سفح تلّ يتعرّض للشمس طوال النهار (الشكل 104).

الشكل 104. نفق من الدفلى، حدائق جنّة العريف.

إذا كنت تعتزم إنشاء حديقة إسلامية في شمال أوروبا، فإن

التعريشة الممتدّة من المنزل والمغطاة بكرمة للزينة تقدّم الإجابة عن التوق إلى الظل في الحديقة الإسلامية كما أنها تمتزج جيداً مع التقاليد الأوروبية. لا يستطيع سوى القليل منا احتمال تكاليف السرادق الحجري على الطراز المغولي، أو لدينا متسع له، لكن التعريشة أو الشرفة المغطاة بالكرمة أو الياسمين أو الورود (تستخدم ورود قديمة، مثل الورد الفرنسي ذي الأصول الشرقية والورد الدمشقي، إذا أمكن – انظر الفصل السادس)، تشكّل بديلاً جيداً. يمكن أن تضفّر النباتات المتسلّقة حول هيكل ذي أعمدة من خشب الصفصاف أو البندق المزين بنقوش هندسية بسيطة، ما يقيم زواجاً مرضياً بين التراثين الشرقي والغربي.

على الرغم من أننا معنيون بحديقة الفناء المحصور بالدرجة الأولى، فإنه تجدر الإشارة إلى أن الحدائق الإسلامية الكبيرة كانت تسعى إلى تحقيق المناظر الجميلة بقدر ما تسعى إلى العزلة – وتقدّم حدائق قصر الحمراء أحد أبرز الأمثلة على ذلك. فعندما يتجوّل المرء من فناء إلى آخر، فإنه يصادف قنطرةً أو شرفة أو مطلاًّ تبدو منه المناظر الخلاّبة لحدائق جنّة العريف وجبال سييرا نيفادا البعيدة، لكن لا يستطيع أحد استراق النظر إلى الداخل (انظر الفصل الرابع والشكل 121). في تراث الحدائق الغربية، تشكّل الشرفة بناء منفصلاً عن المنزل، موضوعة في مكان ما في الحديقة يطلّ على أفضل المناظر لكنّه يمنح قدراً من العزلة أيضاً. وثمة وسيلة أكثر تواضعاً هي توفّر فتحة بسيطة في جدار أو سياج تتيح النظر إلى الخارج. وكما كتب فيلييه ستيوارت، «غالباً ما تنجح الحدائق الهندية في توفير السحر المزدوج للعزلة التامّة والإطلالة الواسعة على العالم من دون جدران، إذا كان موقع الأرض يسمح بذلك»[179].

المستنبتات الزجاجية

في مناخ أوروبا الشمالية، حظيت البيوت الزجاجية بشهرة كبيرة منذ منتصف القرن التاسع عشر على الأقل. وهي أقل شهرة بكثير في البلدان الإسلامية بسبب ارتفاع الحرارة. لتمديد وقت الإزهار والاستمتاع بالنباتات الغضّة، قد يكون المستنبت الزجاجي خياراً مغرياً إذا كان لديك متسع من المكان والمال. ويمكن القول إن المستنبت الزجاجي بديل شمالي للسرادق الإسلامي في شهور الشتاء، إلى جانب البيت الصيفي والتعريشة في الأشهر الدافئة. ولا شك في أن المستنبت الزجاجي الذي يمتدّ من البيت ويضمّ أشجار الجهنّمية (البوغنفيلية) والياسمين والحمضيات والرمّان، بالإضافة إلى نافورة صغيرة لطيفة تحيط بها بعض البلاطات ذات النقوش

الهندسية، يشكّل إضافة مرضية لأي منزل. وستمتدّ الاستفادة منه فترة أطول بكثير من البيت الصيفي أو التعريشة. ويمكن التفكير في الجلوس على وسائد مريحة والاستماع إلى صوت النافورة والاستمتاع برائحة الياسمين الذكية التي تفوح في الهواء والحديقة الإسلامية المحيطة التي تسرّ الناظر – على الرغم من أن المكان محصور وليس مفتوحاً على السماء.

الأصص والجرار والآنية والأوعية...

... أو أي اسم آخر تحبّ أن تسميها أدوات ملائمة جداً في الحديقة الإسلامية. كما أنها مفيدة جداً لا لأن الأصص نفسها تبدو جميلة، بل لأنه يمكن نقلها تبعاً لحركة الشمس، شرط ألا تكون كبيرة جداً. في البيت العربي الإسلامي التقليدي، كان الفناء يصمّم بحيث يحصل على أكبر قدر ممكن من الظل في أشهر الصيف وأكبر قدر من أشعة الشمس في أشهر الشتاء، وفي وسع ساكنيه إعادة ترتيب أماكن جلوسهم وتناول وجبتهم وفقاً لذلك. وهكذا يمكن تحريك الأصص في المناخ البارد والرطب طوال النهار لإتاحة المجال أمام الأزهار والأعشاب التي تحبّ أشعة الشمس، مثل المريمية وإكليل الجبل والخُزامى والزنبق، لتحصل على أكبر قدر من أشعة الشمس الدافئة.

وفي اعتقادي، يجب الاقتصار على الأصص المصنوعة من الفخّار (الشكل 64) أو الحجر أو الخزف[180]، وعدم استخدام الأصص المعدنية الرائجة اليوم في الحديقة الإسلامية. فهذه ربما تناسب الحديقة الحديثة، لكنها لا تناسب الحديقة الإسلامية التقليدية. ويجب ألا تكون الأصص المزجّجة مسيطرة، وأن يكون اللون باهتاً وليس زاهياً أو صارخاً، ينافس ألوان الأزهار. ويمكن أيضاً استخدام أنصاف البراميل الخشبية لأشجار الحمضيات أو الرمّان التي يجب نقلها إلى الداخل قبل مجيء الصقيع. بل ربما يكون من المستحسن توفير أنصاف البراميل للنباتات الحسّاسة التي توضع في الداخل في أثناء فترات الطقس السيئ، لأنها لا تتعفّن أو تنهار بسرعة. ويجب أن تكون الأصص الفخّارية مصنوعة يدوياً، كما أوضحنا آنفاً، وليست من إنتاج المصانع كما هي الحال في الحدائق الكبيرة. بل يمكن ببذل بعض الجهد الحصول على أصص مصنوعة يدوياً وغير مكلفة جداً. فهي لا تسهم بشيء من الجمال الحقيقي في حديقتك فحسب، بل إنك بذلك تدعم الحرفيين الأفراد أو المشاغل الصغيرة الذين يحتاجون إلى من يرعاهم في عالم تسيطر عليه عمالقة السوق.

الإضاءة

هذا موضوع واسع ومهم لا يتسع المقام لإيفائه حقه في هذا الكتاب. لكن باختصار، من المهمّ جداً اختيار الإضاءة المناسبة في حديقتك الإسلامية لأنها تضفي الكثير على الجوّ في الليل. وعلى غرار جميع نواحي الحديقة الإسلامية، يجب أن تكون الإضاءة خافتة، تسهم في الجوّ التأمّلي الإجمالي. من الناحية المثالية، أوصي باستخدام الشموع أو الأضواء الليلية أو مصابيح البارافين فقط، إذ ليس هناك إضاءة حديثة تضاهي جمال ورومانسية الشعلة المرتعشة في الحديقة في الليل[181]. وقد وصف كناهايا لال Kanahaya Lal، وهو مهندس ومؤرّخ من القرن التاسع عشر، تجمّعاً في شاليمار باغ (الحدائق الموجودة في ضواحي لاهور التي أقامها شاه جهان في القرن السابع عشر): «كانت الإضاءة جيدة في الحديقة بحيث تعطي مفعول ضوء النهار في الليل. فقد علّقت أوعية في كل شجرة تحتوي كل منها على خمسين مصباحاً. وبدت الجدران حمراء بتأثير الضوء». وكتب مؤرّخ آخر يصف حدائق شاليمار عن «السراج»، «المصباح الزيتي الفخاري في الريف الذي تشكّل أضواؤه الخافتة وسيلة الإنارة الأكثر فعّالية في العالم»[182]. اليوم يمكن تقليد هذا الضوء اللطيف بسهولة عن طريق الشمع أو الأضواء الليلية الموضوعة في جرار المربّى، وهي توفّر أجمل الخيارات وأقلّها تكلفة. لكنها تنطوي على بعض المشقّة بالطبع، وإذا كان لديك أطفال أو حيوانات، فيجب النظر في ناحية السلامة. لقد قرأت مؤخّراً وصفاً رائعاً عن أولاد يطيّرون طياراتهم الورقية في الليل في أواخر العهد الڤيكتوري في إنكلترا. كانوا يربطون أطراف الشموع بأطراف طيارتهم الورقية: «وكانت الأنوار الخافتة تطفو وترتعش مقابل عتمة السماء وأعالي الأشجار الداكنة»[183]. لكن ربما لا تحظى بالاهتمام إذا اقترحت أن يقوم الأطفال بذلك لإضفاء الجوّ الملائم على حديقتك!

هناك مجموعة واسعة من المصابيح التي توضع فيها الأضواء الليلية أو الشموع، لكن أكثر ما يلائم الحديقة الإسلامية منها المصابيح المعدنية أو الفخّارية المغربية أو الهندية أو المصرية أو القناديل التي تحمل نقوشاً هندسية. يمكن شراء هذه القناديل عند السفر إلى الخارج إذا أمكن: وهي تتوافر على نطاق واسع في أسواق مراكش وفاس والقاهرة ودمشق وإسطنبول وسواها. كما يوجد عدة أماكن في بريطانيا وأوروبا وأميركا الشمالية تستوردها من الخارج[184]. ويمكن تثبيت المصابيح نفسها بصورة دائمة في الجدران واستبدال أضواء الليل والشموع عند اللزوم. لكن إذا كنت تفضّل الكهرباء لملاءمتها وسلامتها، فستحتاج إلى كهربائي متمرّس لتركيبها. وأوصي في هذه الحالة بالمصابيح الشبيهة بالشمع ذات الفلطية المنخفضة. فهي تصدر نوراً خافتاً يشعّ من المصابيح أو القناديل وتضفي على الحديقة

بهجة وجمالاً يستحضر شيئاً من الجوّ الإسلامي الشرقي على الرغم من الافتقار إلى الشموع المرتعشة. يمكن تعليق قناديل صغيرة في الأشجار بطريقة أكثر حنكة ومهارة من أنوار شجرة الميلاد – كما هو الحال في حدائق شاليمار[185]. ثمة بديل آخر هو الألياف البصرية، وهي أجهزة إضاءة تنشأ عن مصدر واحد موجود بعيداً في علبة ضوء، ويقوم عاكس خاص بتركيز الضوء في الألياف الزجاجية الفردية ما يمكنّها من الإشعاع من دون إصدار حرارة أو أشعة فوق بنفسجية. ويمكن استخدام الألياف البصرية لإضفاء مؤثّرات ضوئية عظيمة على القنوات المائية والنوافير[186].

كلما قرأ المرء المزيد من الروايات المعاصرة عن الحدائق الإسلامية المبكّرة وإضاءتها الساحرة ومخططاتها الرائعة، ازداد إدراكه أن التكنولوجيا الحديثة – على الرغم من الراحة التي توفّرها – لا تداني جمال الأزمنة السابقة ورومانسيتها. وتوضح الاقتباسات العديدة ـ التي أدرجتها نورهان أتاسوي في كتابها الرائع عن الحدائق العثمانية ـ تلك الحقيقة بجلاء وتجعل المرء يتمنّى لو أنه شهد تلك الأمسيات الساحرة. لم يكن مئات البستانيين يحرصون على إيقاد آلاف الشموع في الاحتفالات الليلية، بل هناك أيضاً العنادل وطيور الكناري التي يسمع «الجالسون شدوها أينما جلسوا في الحديقة»، والطواويس التي تجول بحرية، والأرانب البيضاء النقية (لم يكن يسمح إلا بالأرانب البيضاء) التي تتنطّط حيث يحلو لها، والأراجيح التي تُركب في الليالي القمراء، والولائم الشهية، والموسيقيون الذين يعزفون الألحان الشجية، والأشعار التي تلقى، والغناء – الذي يتركّز موضوعه على الأزهار عادة – والنزهات بين الأزهار، والأشجار المزهرة والفاكهة التي تقطفها وتأكلها كما يطيب لك: إنها جنة على الأرض بالفعل[187].

أخيراً، ربما يرغب المرء في استخدام إنارة الزجاج الملوّن تبعاً لما أورده أمير روسي في وصفه حدائق شاليمار في سنة 1842:

> «ذهبت إلى شير سنغ في حديقة شاليمار، حيث كان يقيم منذ عدة أيام، أستأذنه بالانصراف، فأقام لنا حفلة رائعة. أضيئت الحديقة بأكملها من حواف النوافير والقنوات المائية إلى أغصان أشجار البرتقال. وقد أضفت كرات من الزجاج الملوّن موضوعة خلف هذه الشموع الألوان الخضراء أو الحمراء على المياه المتلألئة. أضف إلى ذلك كله الألعاب النارية المتواصلة، والحاشية العسكرية، وممرات الحديقة المغطاة بشالات الكشمير التي تدوسها الجياد، وعبق زهر البرتقال، وتمايل الراقصات الذي يخلب الألباب. فلا يجد المرء مفراً من القول مثل طوم المسكين في مسرحية الملك لير، «اللهم أدم علينا حواسنا الخمس»[188].

الشكل 105. قناة مائية
وبركتان في قصر بارتال
في الحمراء.

الفصل الرابع

المـــاء

تختبئ روح الحدائق الأوروبية في الأزهار والعشب والأشجار، لكن روح الحديقة الشرقية لا توجد في أي من هذه الأشياء بل تتمحور حول المياه الجارية التي تظهر جمالها بمفردها[189].

لا شك في أن الماء هو العنصر الأهم في الحديقة الإسلامية، على المستويين المادي والمجرّد. بل إن حوض ماء حجري أو خزفي لا يزيد قطره على نصف متر لتشرب منه الطيور أفضل من عدم وجود الماء حتى إذا كانت مساحة حديقتك لا تزيد على 5 أمتار مربّعة. ويمكن تنظيفه وتغيير مائه كل أسبوع وستكون الطيور شاكرة – وستكون أنت شاكراً للطيور. وثمة قول إسلامي إن الطيور ترفع رأسها كلما شربت قطرة ماء تسبيحاً للخالق[190].

الشكل 106. نافورة في وسط ساحة الترجّل، جنّة العريف.

يسلّط هذا الفصل بعض الضوء على سبب أهمية الماء في الحديقة الإسلامية، من الناحيتين العملية والرمزية. ثانياً، يتناول الطرق المختلفة التي يستخدم فيها في بعض أنحاء العالم الإسلامي. وأخيراً ننظر في كيفية استعارة بعض هذه الأفكار لتنفيذها في حديقتك. وثمة عاملان مهمّان يجب أخذهما في الحسبان عند تفسير هذه الأفكار وتطبيقها في موقعك: اختلاف المناخ والبيئة. لا يتناول هذا الكتاب النواحي العملية لحفر الأرض من أجل صنع بركة، أو قنوات مائية، أو تركيب نافورة، إذ هناك العديد من الكتب الجيّدة التي تعنى بهذه الموضوعات[191].

الماء في الحديقة الإسلامية موضوع منتظم، وذلك يعني أنه لا يحاول محاكاة الطبيعة بجداول متعرّجة عبر الأراضي الحرجية أو البرك «الطبيعية». يمكن أن يتخذ الماء أشكالاً مختلفة، من نافورة دائرية بسيطة في مركز فناء صغير إلى القنوات المائية والبرك والنوافير المتنوّعة. غير أن الخطوط المستقيمة والهندسة هي السائدة على نحو كبير في تصميم الحديقة ككل. يوجد في الحدائق الملكية الكبيرة، مثل حدائق شاليمار في كشمير ولاهور، طرق أكثر تفصيلاً لتوجيه الماء: عبر مساقط الماء بين مستويين، أو على قطع الحجارة المنقوشة (السلسبيل في العربية والشادور في الفارسية)، أو عبر فجوات حجرية منتظمة في صفوف (شيني خانة، انظر أدناه). في حدائق قصر الحمراء وجنّة العريف، يوجّه الماء على أدراج في كل جانب إلى أسفل نحو المركز (الشكل 107). وهناك نوافير وبرك مختلفة الأشكال، لكنها تتخذ تصميماً هندسياً منتظماً دائماً، مثل المستطيل أو تكون مفصّصة أو دائرية، لكنها لا تتخذ شكل الكلوة البتة (الشكلان 108 و109). وسيُنظر في هذه الأشكال

الرسمية لاحقاً في هذا الفصل. غير أن هناك استثناء واحداً يُثبت قاعدة الهندسة وانتظام الماء في الحديقة الإسلامية، وهو الدرج المائي الرائع فوق حديقة السلطانة في جنّة العريف. هنا يتدفّق الماء في أعلى الجدران الحجرية المجوّفة المشكّلة بطريقة انسيابية عضوية تذكّر بعروق النباتات المتسلّقة في الطبيعة (الشكل 110).

كتب أحد المؤلّفين، «لقد اعتمد وجود الحدائق على الريّ في شبه الجزيرة العربية وفارس والهند، ونظام الريّ هو الذي منح الحديقة شكلها»[192]، وهو محقّ في ذلك إلى حدٍّ ما. إن استخدام الخطوط المستقيمة هو أفضل أشكال الريّ من حيث الناحية العملية والفعالية، لكن العملي والروحاني ينسجمان معاً في الثقافة الإسلامية التقليدية، كما ذُكر مرّات عديدة نظراً لأهمية ذلك في إقامة حديقة إسلامية. لا شك في أن للمياه الجارية في المناخ الحارّ خصائص علاجية إلى جانب الاستخدامات العملية للتخطيط الهندسي والسمات الرمزية. فالهواء المحيط بالمياه

الشكل 107. الماء يتدفّق وسط الدرج في قصر الحمراء.

الشكل 108. نافورة مفصّصة منتظمة، جنّة العريف.

الجارية أنظف دائماً وأكثر برودة، لا سيما في الحيّز المغلق، وذلك أمر مستساغ ومنعش في البيئة الحارّة والرطبة. ويمكن أن يكون لصوت الماء في النوافير تأثير مهدّئ يبعث على السكينة، عندما يُتحكّم فيه بعناية ليصبح لطيفاً وشجياً بدلاً من أن يكون صاخباً ومتدفّقاً. كما أن التباهي في استخدام الماء في الحدائق من خلال البرك والنوافير في البلدان التي تقدّر الماء بمثابة «سلعة» كان ولا يزال من طرق إظهار الثروة والمكانة[193].

تتحدّد وجهة نظرنا من الماء إلى حدٍّ كبير بالمناخ الذي نشأنا فيه. وهذا الكتاب موجّه إلى القرّاء في شمال أوروبا والبلدان ذات المناخ المعتدل المماثل بالدرجة الأولى. ويعني ذلك، كما يعرف جيداً من يعيش في المملكة المتحدة، سقوط المطر بغزارة تصل إلى 100 سم في السنة. الماء لا يعني لسكّان هذه المناخات المعتدلة الأمر نفسه لسكان العديد من البلدان الإسلامية الحارّة[194]. وقد أخبرني صديق بدوي مؤخّراً أن الماء ثمين جداً عندهم بحيث إن مفرداتهم تطوّرت وفقاً لذلك حيث يوجد العديد من المصطلحات الخاصة التي تصف كل حركة للماء. واقترح حسن فتحي، المعماري المصري الكبير الذي عمل على إحياء التراث المعماري الإسلامي، أن النافورة في بلد حارّ تساوي في أهميتها النار المكشوفة في بلد بارد – من حيث الاستخدام العملي والأهمية الرمزية على السواء. وهناك الكثير الذي يقال عن هذه المقارنة إذ إنها توضح الضرورة الحاسمة للماء أمام من يشتكي منا من المطر ويأخذ الماء كأمر مسلّم به. إن العيش في هذه الظروف اليسيرة نسبياً يجعلنا لا ندرك معنى التواجد في مكان يعتبر تجنّب الشمس معياراً بدلاً من الإسراع إلى الاستمتاع بأشعّتها مثلما اعتدنا نحن سكان شمال أوروبا المحرومون من الشمس.

الشكل 109. نافورة مثمّنة منتظمة، جنّة العريف.

لذا يجب إعمال الفكر والخيال وتوخّي الحذر عند انتقاء الشكل الذي يتخذه الماء: الخيال لأن المرء بحاجة إلى النفاذ خلف الغشاوة الفعلية التي يحدثها المطر وإدراك أنه لا يزال هناك مجال للماء في الحديقة، والحذر إذ يجب عدم المبالغة في الأمر بحيث لا يجد المرء نفسه في النهاية أنه يعيش في ما يشبه الكهف الرطب والبارد بعيداً عن المثال الإسلامي الذي يطمح إليه. وكما يعرف العديد من القرّاء الذين يستمتعون في المشي في الحدائق في

الشتاء أو زيارتها، فإن المرور قرب نافورة متدفّقة يزيد الشعور المنفّر بالبرد والرطوبة فيسرع الخطى قدر المستطاع، لا سيما إذا تطاير الماء نحوك بفعل الريح. وتلك تجربة بائسة تناقض الهدف الأصلي تماماً. لذا فإن النوافير في المناخات الباردة مخصّصة لأشهر الصيف ويجب وقفها في الشتاء، وترك ما يكفي من الماء فيها للطيور[195].

الرمزية

يوجد الماء في معظم تراثات الحدائق، من الياباني والصيني، إلى المسيحي القروسطي والإيطالي في عصر النهضة، وهي تشدّد جميعاً على هذه الناحية أو تلك. ما الذي يشدّنا كثيراً إلى الماء؟ على الرغم من مناخنا المبلّل بالمطر، فإن إدخال «معلم مائي» ما يبدو أكثر شهرة من ذي قبل. الإجابة عميقة جداً وتتجاوز المتطلّبات العملية للريّ والوضوء والشرب، والمتعة الحسية الناجمة عن غمس يدك في نافورة والإحساس بتدفّق الماء عبر أصابعك. هناك الجمال والغموض الذي يجذبنا نحو الماء في الحديقة، أياً يكن الشكل الذي يتخذه، سواء أكان نافورة أو بركة راكدة كبيرة، أم مسقط ماء، أم قناة ضيّقة. لقد فهم العرب والفرس قبل الإسلام ذلك جيداً، ولا شك في أن المعنى الكامل للماء يصبح جلياً في تراث الحدائق الذي نشأ من دين ظهر في الصحراء.

الشكل 110. درج مائي، جنّة العريف

بما أن العرب اعتادوا البيئة القاسية، فإنهم أضفوا القداسة على الماء والظلّ قبل ظهور الإسلام بوقت طويل. ومن المثير للاهتمام أن البدوي استخدم عدة كلمات لوصف الماء، لا لأنه موجود بكثرة (مثل شعب الإنويت وكلماتهم الدالة على الثلج أو اللابلانديين والكلمات التي تصف الرنّة) بل بسبب ندرته وقيمته الثمينة. إننا نعلم أن لا حياة على الأرض من دون ماء، وقد جاء في سفر التكوين أن الأرض «كانت خربة وخالية وعلى وجه الغَمر ظلمة وروح الله

الشكل 111. نافورة حجرية، جنّة العريف.

يرف على وجه المياه»[196]، وجاء في القرآن، ﴿أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾[197]. ونحن مرتبطون ارتباطاً وثيقاً بهذا العنصر، حيث يتكوّن البشر من الماء إلى حدّ كبير – 70 بالمئة تقريباً. وهناك الكثير من الإشارات إلى الماء في القرآن – حيث يذكر إلى جانب كل عجائب الطبيعة مثل «السماوات والأرض»، و«الليل والنهار»، و«الشمس والقمر»، كإحدى آيات الله، كما يذكّرنا القرآن دائماً من أين جاء الماء ويدعونا إلى عدم أخذه كشيء مسلّم به: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾[198]؛ ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾[199]. ينظر إلى الماء أنه هبة ونعمة من الله ويعتبر من الأدلة على رحمة الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[200]. وعندما ولدت السيدة مريم عيسى تحت ظل النخلة، أعيدت الطمأنينة إليها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[201]. لا شك في أن ذلك ساهم في قداسة الماء الجاري وأهمية الجدول أو قناة الماء في الحديقة الإسلامية. وما هذه الآيات إلا جزء يسير من الآيات التي تتحدّث عن الماء في القرآن، ومن المهم الاستشهاد بها لإعطاء غير المسلمين فكرة عن معنى الماء الذي يتجاوز مفهومه المادي لدى المسلم الفطن.

يُجمل دور الماء المزدوج عدم وجود انقسام بين الحياة اليومية العملية والاحتياجات الروحانية، حيث إنه يحيي وينظّف بالمعنى الواضح، فضلاً عن أنه ينشّط الروح ويطهّرها[202]. فلا يستخدم الماء لتنظيف أنفسنا من الأوساخ المادية فحسب وإنما «لغسل ذنوبنا»، كما في العمادة المسيحية. وثمة موقف مماثل في الإسلام. فليس على المسلمين الوضوء بعناية قبل الصلوات الخمس فحسب، لكن هذا الوضوء تطهير رمزي للنفس والبدن أيضاً، وعودة إلى حالة الطهر استعداداً لأداء الصلاة[203]. ولعل «النظافة من الإيمان» هو القول الإسلامي المماثل لقول «النظافة تلي التقوى» بالإنكليزية[204]. والماء يرمز إلى الروح على مستوى عميق، وذلك مفهوم يظهر في الثقافات المسيحية والهندوسية واليابانية، فضلاً عن الثقافة الإسلامية. ولا شك في أن ذلك من الأسباب الرئيسية التي تجذبنا إليه على الرغم من أننا لا ندرك ذلك في الغالب[205]. عندما نتجوّل في حديقة ما، فإننا نجلس قرب الماء في

نهاية المطاف إذ نشعر هناك بالراحة والهدوء اللذين نشعر بهما في البيت. وهو يسرّ العين ويبهج القلب وينعش النفس.

تستخدم النافورة في وسط الحديقة الإسلامية، كما في فناء المسجد، للوضوء والشرب، وتمثّل إحدى النوافير في الجنّة. كما أنها ترمز إلى مصدر مياه الروح الدائمة التدفّق، التي تطهّر النفس وتجدّدها باستمرار، مثلما يتجدّد ماء النبع عند مصدره. على الروح الإنسانية احتمال الكثير في العالم الحديث، وغالباً ما تكون متوتّرة وبحاجة إلى ما يبلسمها ويجدّدها. والماء في الحديقة يعكس تقلّبات النفس ويبلسمها، ويساعد في وضع المشاكل في نصابها الصحيح ويذكّرنا بأن تجارب الحياة، مثل الحياة نفسها، عابرة كالأشياء التي يعكسها الماء. وفي مصطلحات الصوفية[206] يستعيد المرء توازن النفس وطمأنينتها بذكر الله. وقد نُقش القول التالي في أحد قصور الحمراء: «النافورة في داخلي، مثل روح المؤمن، مغمورة بذكر الله»[207].

إن هذه السمة التطهيرية للماء رمز قوي للهندوس أيضاً الذين يرون أن ماء الحياة يتدفّق في نهر الغانج، ومصدره الهملايا، جبال الآلهة[208]:

> كل من استحمّ في الغانج بقلب نادم غفرت ذنوبه: يجد التطهّر الداخلي هنا دعماً رمزياً في التطهّر الخارجي المتأتي من ماء النهر المقدّس. كما لو أن الماء المطهّر جاء من السماء، إذ إن أصله في الجليد السرمردي في قمّة العالم يماثل رمزاً للأصل السماوي للنعمة الإلهية، لأن «الماء الحيّ» ينبع من السلام الخالد الذي لا يتغير ولا يتبدّل[209].

الشكل 112. نافورة دائرية، جنّة العريف.

الشكل 113. بركة أمام فناء الريحان، الحمراء.

يعتبر اليابانيون الماء مقدّساً أيضاً، ويحجّون إلى مساقط المياه ويمضون الساعات وهم يحدّقون في برك المعابد لأنهم يدركون قواه التطهيرية تمام الإدراك. وتقول القصة أيضاً إن الحكيم الصيني هسويو حلم أن الإمبراطور يريد منحه مملكته، فهرب إلى الجبال ليغسل أذنيه في أحد مساقط المياه[210].

إن التجليات المختلفة للماء في الحديقة الإسلامية هي انعكاسات لانسياب النفس التي تتغيّر بين لحظة وأخرى – من النشاط واليقظة إلى الاستكانة والتجدّد إلى جانب العديد من التباينات فيما بينها. الماء يقطر بلطف، أو يسقط في الشلالات الصغيرة، أو يرش من النوافير، أو يتدفّق على البلاط الحجري المنقوش (الشادور، الشكل 139)، ويجري في القنوات، أو يبقى ساكناً في البرك ويعكس السماء فوقه. وتجتمع خصائص الحركة والسكون، بالإضافة إلى الانعكاسات على صفحة الماء، لتكوّن بيئة منسجمة تجذب الناظر وتدخل السكينة إلى نفسه. في إحدى اللحظات، يكون الانعكاس واضحاً جداً في بركة ساكنة، وبعد لحظة تحطّم نسمة ريح تلك الصورة. فنتذكّر فكرة مركزية في الإسلام – أن العالم وهم، وانعكاس قصير لعالم الآخرة الأبدي. وقد كتب القديس بولس أن الشخص الروحاني ينظر خلف المرئي إلى غير المرئي: «إننا لا ننظر إلى الأشياء المنظورة بل إلى الأشياء غير المنظورة، لأن الأشياء المنظورة محدودة بالزمن لكن الأشياء غير المنظورة أبدية»[211]. ومن الأدوار الرئيسية للماء والانعكاسات في الحديقة الإسلامية تذكيرنا بذلك. عندما تنعكس شجرة – أو أي شيء آخر – على صفحة الماء فإنها تظهر معكوسة، بل هي في الواقع

صورة لصورة إذ إن الشجرة الأرضية هي في الواقع صورة باهتة «للشجرة الحقيقية» الأصلية في الجنة. «الذكي الذي يرى صورة شجرة في بركة ما يرفع رأسه لرؤية الشجرة نفسها. والحكيم الذي يرى شجرة فينظر وراءها إلى الشجرة الأصلية التي تقف معكوسة في مركز الكون»[212].

في الشعر الصوفي، مثل شعر جلال الدين رومي، ثمة تشديد أيضاً على غير المنظور و«الحديقة الداخلية» – الشيء المنظور الذي ندركه بعيننا زائل مثل انعكاس على صفحة الماء:

> توجد البساتين والخضرة الحقيقية في جوهر الروح: وما انعكاسها الخارجي إلا مثل الانعكاس على الماء الجاري.
>
> لا يوجد في الماء سوى خيال للبستان يهتزّ بسبب خاصية الماء الدقيقة.
>
> البساتين والثمار الحقيقية موجودة داخل القلب: ولا يسقط على الماء والأرض إلا انعكاس جمالها وبهجتها[213].

يوجد الفنّ والتأمّل جنباً إلى جنب في الإسلام، ولا يستثنى من ذلك فن الحدائق. ولفهم محيط الحديقة الإسلامية، لا بد من أخذ الوقت الكافي لمعايشتها، وليس المرور عبرها بسرعة وإلقاء نظرة على نباتاتها وتدوين الملاحظات عن تصميمها أو نوافيرها. على الزائر، إذا أمكن، أن يجلس ويتفكّر، ويسمح للانعكاسات على الماء أن تحرّك نفسه وتهزّها. فربما تفتح الحديقة قلوبنا وأنفسنا على نعمة الخالق عند الإقبال عليها بعقل متفتح. ولا شك في أن هذا التركيز على الخصائص السماوية للحديقة الإسلامية هو الذي يجذب، من دون وعي في الغالب، محبّي الحدائق ذوي الخلفيات الغربية.

النوافير

النافورة في الحديقة الإسلامية لا تُطلب لجمالها أو الطراوة التي تضفيها، لكنها بحدّ ذاتها تذكّر بالأصل الموصوف للجنة في القرآن. ففي الجنتين الأوليين اللتين تصفهما سورة الرحمن توجد «عينان تجريان»، وفي الجنتين الأخريين توجد «عينان نضّاختان». والجنتان الأوليان «مدهامتان»، أي شديدتا الاخضرار ما يوحي بأنهما أقرب إلى الله[214]. وفي آيات أخرى من القرآن تسمّى العيون في الجنّة بأسماء مثل «تسنيم»[215]، أي الارتفاع والعلوّ، والكوثر، أي الوفرة، وكلاهما بنكهة المسك. وتذكر أيضاً عين تسمّى سلسبيلاً[216]، وهي بنكهة الزنجبيل.

عند تركيب النافورة في حديقتك الإسلامية، من المهمّ التحكّم بتدفّق المياه بحيث تجري بلطف في الحوض دائماً. وذلك للتذكير بالمياه الدائمة التدفّق في الجنّة، ووفرة ماء الكوثر. ويمكن الاحتفاظ بتنكيه الماء بالمسك أو الزنجبيل للمناسبات الخاصّة (انظر النوافير المعطّرة أدناه). وهذه النوافير، على نحو الفاكهة في الجنّة، ترمز إلى رحلة الروح في المسار الروحاني[217].

وهكذا فإن حركة الماء وسكونها عنصر مهمّ في الحدائق الإسلامية، يعكس فكرة انسياب الروح بالإضافة إلى التفاعل بين العالم المادي المتغيّر والعالم الإلهي غير المتغيّر. وقد رأى بعضهم أن النوافير الإسلامية الأولى ربما كانت من نوع شادروان – سلسبيل التي تجسّد مفهوم الحركة والسكون. تبدأ نافورة الشادروان – سلسبيل كنافورة جدارية (سلسبيل)، وهي صنبور بسيط يتدفّق منه الماء على بلاطة رخامية مائلة منقوشة (شادروان أو شادور بالفارسية)، ومن هناك ينتقل الماء إلى قناة ضيّقة حيث يجري بسرعة، ثم تنفتح القناة على بركة مربعة أو مثمّنة فيتباطأ إلى أن يتوقّف عن الجريان ويسكن. وربما يواصل التدفّق عبر مسقط ماء صغير إلى بركة كبيرة إذا كان الموقع يسمح بذلك أو تحت الأرض لري حدائق الأزهار أو الخضراوات البعيدة. ومن أقدم الأمثلة الباقية على مثل هذا النوع من النوافير ما يشاهد في قصر لا زيزا في مدينة باليرمو الصقلية (الشكل 114). من الواضح أن هؤلاء الرعاة والحرفيين المعلّمين الأوائل كانوا يحبّون الجمع بين خصائص الحركة النشيطة والسكون التي يبديها الماء بجمال أخّاذ. إذا كان لدى مصمّم الحديقة الإسلامية المتحمّس اليوم الأموال الكافية فمن الرائع أن يعهد لنقّاش ببناء شادروان – سلسبيل مماثل ونقشه[218].

يشير الرحالة الأندلسي ابن جبير إلى نافورتين في دمشق: واحدة في مدرسة الكلاّسة (بنيت في سنة 1156 ولم تعد موجودة) قرب المسجد الأموي: «في وسطه صحن، قد استدار فيه صهريج من الرخام كبير، يجري الماء فيه دائماً من صحفة رخام أبيض مثمنة قد قامت وسط الصهريج على رأس عمود مثقوب يصعد الماء منه إليها»[219]. والأخرى في مدرسة نور الدين التي بنيت في القرن الثاني عشر، حيث «ينصب

الشكل 114. رسم لنافورة جدارية، قصر لا زيزا، باليرمو، صقلية.

الشكل 115. فناء ماريستان نور الدين، دمشق.

فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة إلى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار». ومما يؤسف له أن هذا الشادروان قد رصف لكنه لا يزال فناء جميلاً ووادعاً ذا بركة كبيرة في وسطه (الشكل 115).

غالباً ما يقابل انسياب الماء وتباين حركته الدائم في الحديقة بسكون الحجر ويقارن بالتماع المعادن الثمينة والجواهر. وهناك العديد من الإشارات إلى النوافير في القصور الملكية في أعمال الشاعر الصقلي ابن حمديس (توفي في سنة 1172). وهو يصف البرك في قصر المنصور في بجاية

«والماء منه سبائك من فضة ذابت على درجات شادروان»[220].

النوافير المعطّرة

ذُكر في القرآن أن عين تسنيم ونهر الكوثر منكّهان بالمسك. ولهذا السبب، إلى جانب الريحان، وهونبات عطر ذكر في سورة الرحمن، فإن الأزهار الزكية الرائحة مهمة جداً في الحديقة الإسلامية الأرضية. وهذه العطور الزكية ما هي إلا تجربة مسبقة لعطور جنّات الفردوس وربما تذكّر بجنّات عدن. فكّر في المنبّه القوي التي تثيره بعض الروائح في الذاكرة. وقد اشتُهرت البلدان العربية في أوروبا - منذ القرن السادس عشر على الأقل - بزيوتها العطرية الرائعة، وأشار إليها شكسبير في مكبث عندما تصيح ليدي مكبث: «هذه يد على صغرها لا تطهّرها جميع العطور العربية»[221]. ويلاحظ اليوم أن العطور العربية التي يتعطّر بها رجال الخليج أقوى رائحة عادة من تلك التي يضعها الرجال في الغرب. كما أن حرق البخور تقليد شرقي إذ يأتي معظم

البخور من أشجار ونباتات تنمو في تلك الناحية من العالم. ومن أوضح الأمثلة على ذلك اللُّبان؛ وهو البخور الذي يحرق على العموم في الكنائس الأرثوذكسية والقبطية والكاثوليكية اليوم كتذكرة للهدية التي قدّمها أحد الملوك إلى الطفل يسوع؛ والعود، وهو أعظم أنواع البخور.

الماء المستخدم بتحفّظ

من المهم أن ننظر في النوافير الإسلامية المبكّرة التي ذكرت أعلاه لأنها تبرز الفكرة التي أشير إليها سابقاً بأن الماء يستخدم بتحفّظ في الحديقة الإسلامية على العموم. وكما لاحظ راسل بيج، «يكون الماء دائماً في موضعه حين يستخدم لتعزيز الانسجام في الحديقة أو لإقامة صلة بينها وبين محيطها. إنني لا أحب الإقحام المصطنع للمنظر الطبيعي، وثمة إغراء في الغالب يدفع إلى استخدام الماء خارج سياقه»[222]. ينطبق هذا الشعور على وجه الخصوص على الماء في الحديقة الإسلامية حيث يجب عدم استخدامه كأداة لإبراز براعة الأسلوب. وقد أصبح ذلك رائجاً جداً في المدن في جميع أنحاء العالم اليوم، حيث شوّهت العديد من الدوّارات أو الساحات العامة بالمبالغة في «الإنشاءات» المائية. ويرجع هذا الأمر إلى أواخر عصر النهضة والعصر الباروكي. وقد وصف راسل بيج حديقة أقامها لو نوتر Le Notre خارج باريس:

> لا شيء في هذا المنظر الطبيعي اللطيف وغير المثير أعدّني لعنف هذه الحديقة حيث استخدم تلّ اصطناعي في نهاية المنظور لترتيب شلالات فوّارة ونوافير غير معدودة. وقد استخدم الماء بكل طريقة يمكن تخيّلها لإنشاء مشهد مثير جداً للإعجاب لكنه مزعج، حتى ليشعر المرء أنه منفصل عن محيطه ومتنافر جداً معه[223].

هذا وصف جيد جداً يوضح كيف لا يستخدم الماء في الحديقة الإسلامية التقليدية، لذا يجب تجنّبه في جميع الأحوال عند التفكير في الشكل الذي يتخذه الماء في حديقتك. في الحدائق الإسلامية يعامل الماء بحبّ واحترام، وبطريقة رزينة تُبرز معنى جماله وعظمته الحقيقية، فهو ليس مثيراً للإعجاب بطريقة مزعجة وإنما مريحة وصافية. فالنوافير تستخدم بتحفّظ بدلاً من مساقط المياه الفوّارة، وبطريقة منسجمة تماماً مع المناظر المحيطة. سينظر في هذا المفهوم بمزيد من التفصيل قسم «الماء في حديقتك».

حدائق شاليمار

ربما تفكّر، «ماذا عن مساقط المياه في حدائق شاليمار خارج لاهور؟» ناهيك عن نموذجها الأولي، أي حدائق شاليمار في كشمير، وفي كليهما ثلاث مصاطب مائية واسعة ونوافير وسرادقات. لكن على الرغم من أن هذه المصاطب المائية والنوافير مدهشة في الحجم، فإنها لا تنطوي على مبالغة: فهي لا تتنافر مع محيطها، وفي حالة كشمير تتشكّل من خلفية مشهدية رائعة للجبال المكلّلة بالثلج. هنا تُبرز عظمة الجبال جمال الماء. أما النوافير في حدائق شاليمار في لاهور فإنها عبارة عن صنابير بسيطة مخدّدة ذات رشاشات أحادية للماء مرتّبة في خطوط منتظمة عبر المصاطب العظيمة. لا يحافظ هنا على التوازن بين سكون الماء وحركته فحسب وإنما يوجد انسجام أيضاً بين الماء والعمارة (السرادقات الحجرية والحجرية الرملية) والمنظر الطبيعي. ويسود فيها جوّ من الهدوء العظيم على الرغم من كل عظمتها الملكية.

الشكل 116. حدائق شاليمار، لاهور.

الشكل 117. سرو وقناة دائرة محفورة حول القاعدة لضمان أقل قدر ممكن من الهدر.

الشكل 118. أشجار برتقال وقناة ريّ في مسجد قرطبة.

بنيت حدائق شاليمار في لاهور في أقل من ثمانية عشر شهراً، وأمر ببنائها شاه جهان بين سنتي 1641 و1642، وحدائق شاليمار في كشمير قبل ذلك بقليل في عهد والده جهانكير، بدءاً من سنة 1620. وهاتان الحديقتان هما الاستثناء[224]، لا القاعدة، إذ إنهما بنيتا لمتعة العائلة الملكية وحاشيتها الكبيرة. إنهما ليستا المكان الشخصي والحميم المعهود عن العمارة الإسلامية الحضرية التقليدية التي تحتوي على طراز الحديقة الإسلامية الذي نركّز عليه هنا، الحديقة الرباعية. مع ذلك، من المدهش قراءة أوصاف هذه الحدائق المغولية لأنها تثير في الذهن الرفاه والسرور اللذين تجمع بينهما الجنة، وهذه هي السمة المميّزة لجميع الحدائق الإسلامية

الحقيقية. وقد كتب أحمد نبي خان عن سرور الإمبراطور عندما زار الحديقة المقامة حديثاً في لاهور في سنة 1642:

> سرّ شاه جهان كثيراً بجمال المكان الصافي، والجوّ الزكي الرائحة، والتدفّق الدائم للماء المترقرق، فيما تصدح أصوات الموسيقى الناعمة التي تعزفها فتيات يرتدين ثياباً زاهية وتقف كل منهن بمفردها هنا وهناك، أو يجلسن في مجموعات في السرادق وسط النوافير. وكنّ يصدحن بأغاني الحب وقصائد تمتدح الإمبراطور[225].

لا غرو في أنه سُرّ واغتبط. كان حاكم شاه جهان في لاهور والمصمّم الرئيسي للحدائق، علي مردان خان، نبيلاً فارسياً يدرك جيداً النواحي العملية للماء وقداسته. وتحتفي الحدائق بجمال الماء ومباهجه، بالإضافة إلى خصائصه العظيمة ورمزيته الروحانية العميقة. وقد فسّر اسم شاليمار بأنه يعني «منزل الحبّ» أو «منزل النعمة والجمال». وعندما يزورها المرء اليوم يشعر بقليل من الحب على شكل الصيانة التي لا يمكن أن يخطئها.

الشكل 119. جدول متدفّق من جبال سييرا نيفادا نحو جنّة العريف.

التاريخ والجغرافـيا

ذكر في الفصل الأول أن العبارة الأكثر تكرّراً في الوصف القرآني لجنات الفردوس هي ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[226]. وقد أعيد إنتاج هذا المفهوم في الحدائق الإسلامية في كل أنحاء العالم الإسلامي، حيث يجري الماء في قنوات تحت الممرات كي يسير الزائر فوقها. ذلك حل عملي لمشكلات الري في البلدان التي يسودها مناخ حارّ وجافّ، إلى جانب ترداد صدى الأوصاف القرآنية للجنة. عند مراقبة هذه الحدائق، غالباً ما يرى المرء قنوات دائرية صغيرة محفورة حول قواعد الأشجار أو الشجيرات الكبيرة كل على حدة تحت مستوى الأرض. يحفظ ذلك قدر ما أمكن من الماء للنبات ولا يسمح له بأن يتسرّب بعيداً. وترتبط هذه القنوات في بعض الأحيان، لكن ليس دائماً، بقنوات أخرى وبالمجرى الرئيسي، تبعاً لطريقة الري وحجم الحديقة. يمكن تنفيذ ذلك على العموم إذا كانت الحديقة كبيرة نوعاً ما، ربما تبلغ مساحتها فداناً، وتتفرّع قنوات الماء الضيّقة من المجرى الرئيسي للوصول إلى مختلف نواحي الحديقة. ويبرز ذلك بطبيعة الحال التصميم الهندسي الذي تم تناوله في بداية هذا الفصل والفصل الثاني.

غالباً ما كان يتم الري خارج الحديقة تحت الأرض لتجنّب التبخّر. على سبيل المثال، كان المصدر الوحيد للماء في الماضي في فارس وأفغانستان في معظم أوقات السنة (ولا يزال يستخدم حتى اليوم في بعض الأنحاء) الواحات الجوفية أو أنظمة الري مثل القنوات. وتعتمد هذه على ذوبان الثلج وتدفق الماء من الجبال وتجمّعه في أسفلها في آبار تحت الأرض. ينتقل الماء بعد ذلك تحت الأرض في شبكة عظيمة من القنوات المائية التي تعتمد على الجاذبية الأرضية في انتقال الماء بعيداً عن الجبال نحو القرى والبلدان. وفي طهران اليوم، يشكل الماء البارد المتدفّق عبر القنوات المفتوحة بجانب الطرق بعد ذوبان الثلج في الربيع مشهداً رائعاً.

يكشف وصف لحديقة «مشهورة بجمالها وثمارها» في خوي في إيران من أواخر القرن الثامن عشر عن استخدام القنوات: «تتكوّن من زقاق جميل من أشجار الشينار يفضي إلى منزل للراحة والمتعة... مبني على ارتفاع ست مصاطب، يسقط من كل منها شلال ماء يجري عبر القنوات من الجبال المجاورة. وعلى اليمين والشمال توجد غابة من الأشجار المثمرة من كل نوع ووصف، ويكثر العشب عند جذورها»[227].

فيما يلي وصف موجز لكيفية استخدام الماء في مختلف أنحاء العالم الإسلامي. ومن المأمول أن تكون بعض الأمثلة ملهمة لمن يريد أن يصبح مصمّم حديقة إسلامية.

إسبانيا

نظام السواقي

هذا شبيه بالأقنية، على الرغم من أنه ليس تحت الأرض على العموم. وهو نظام عبقري قديم لقنوات الري لا يزال يستخدم في أنحاء في جنوب إسبانيا اليوم، ويدعم حياة العديد من القرى والمجتمعات الزراعية النائية. لفهم مهارة صنعة نظام السواقي وأهميته المستمرّة في ريف إسبانيا، من المشوّق قراءة ملاحظات رجل إنكليزي أقام في ألبوخاراس (على حدود الأندلس، موطن غرناطة) في السنوات العشر الأخيرة أو نحو ذلك:

الشكل 120. قناة مائية في برج الماء، الحمراء.

هناك مئات الأميال من السواقي في ألبوخاراس، والممرّات على جانبيها مليئة بالأعشاب ومجموعة غنية من الأزهار الجبلية – الجنطيانا، والجُريس، والديجيتال، والسفرس – ما يجعل السير متعة تتخلّلها مناظر تخفق لها القلوب... وعلى ارتفاع شاهق في الجبال، على بعد كبير من القرى، تكون السواقي جداول عريضة من الماء الصافي البارد الذي يحلو للشاربين، ويتدفّق بعيداً عن أي مصدر محتمل للتلوّث... يعتمد مئات المزارعين على هذه القنوات، لذا نشأ نظام اجتماعي محكم حولها لضمان توزيعها بالتساوي. لكل ساقية رئيس ينتخب كل عام، وأمين صندوق، وساقٍ... إذا كانت أرضك تتمتع بحقوق الري من الساقية، يخصّص لك وقت معيّن وكمية محدّدة من الماء. ربما تكون غير محظوظ (أو لا تحظى بعطف الرئيس) وتحصل مثلاً على سبع عشرة دقيقة من ثلث الساقية

في الثالثة وعشر دقائق من صباح يوم الخميس. وبناء على ذلك تخرج إلى بستان البرتقال وخضرواتك واضعاً المصباح في فمك ومعولك على كتفك. في الثالثة وعشر دقائق – لا تسع دقائق أو إحدى عشرة دقيقة – تفتح الكوّة فيتدفّق الماء إلى أرضك[228].

تقدّم هذه القطعة انطباعاً حيّاً عن حال السواقي اليوم، وكيف يمثّل الماء شيئاً ثميناً يصعب تصوّره. من السهل الاعتقاد أن العديد من الخلافات والنزاعات العنيفة تقع من أجل حقوق الماء في البلدان التي يكون للماء فيها «ثمن يفوق ثمن الياقوت». وقد أبلغت مؤخّراً عن نزاع في مصر كاد يؤدّي إلى جريمة قتل في واحة الفيوم، على بعد ساعتين بالسيارة عن جنوب القاهرة.

الشكل 121. منظر من خلال نافذة ناتئة في قصر الحمراء تطلّ على قصر جنة العريف، وتبدو الحديقة المعروفة باسم فناء الساقية.

قصر الحمراء وجنّة العريف

أنشأ العرب المسلمون غالبية هذه السواقي في جنوب إسبانيا منذ القرن الثامن وما يليه، وحافظ عليها الكاثوليك عندما أعادوا السيطرة على المنطقة. غير أن الرومان أدخلوا في بعض المناطق أنظمة مائية من دون شك، لكن ثمة اتفاق عام على أن العرب هم الذين طوّروا نظام السواقي إلى مستوى رفيع من التقدّم. وتكفي زيارة واحدة إلى قصر الحمراء في جنوب إسبانيا لإظهار عبقريتهم. هناك في القرن الثالث عشر، استغّل بنو نصر مسقط الماء الهائل الناجم عن ذوبان الثلج في جبال سييرا نيفادا. عندما وصل المسلمون إلى غرناطة، التي تجمع بين مناخ الجبل والمناخ المتوسّطي، اعتقدوا أنهم وجدوا جنّة الله على الأرض. أدركوا إمكانات مياه الجبل وابتكروا نظاماً معقّداً وبارعاً من القنوات والخزّانات على تل الشمس فوق الحمراء[229]. وقد روت هذه المياه جميع الحدائق في جنّة العريف. ومن هنا كان الماء، ولا يزال، يوجّه في ساقية حيث يوجد برج الماء إلى القناة الملكية ليتدفّق نحو أفنية قصر الحمراء وحدائقه. ما من مكان يلحظ فيه الماء ويسرّ العيون ويشنّف الآذان ويدخل السكينة في النفس أكثر من هذا المكان.

الشكل 122. منظر للمنطقة المزروعة المواجهة لقصر الحمراء، على سفح تلة الشمس التي توجد عليها جنّة العريف.

بنيت الحدائق والسرادق في جنّة العريف لتكون بمثابة خلوة ريفية ملائمة لملوك بني نصر، وهي على مسافة قريبة جداً، بحيث يلجؤون إليها بيسر هرباً من زحمة قصر الحمراء وشواغله. والعريف تعني البنّاء أو المعمار. عند النظر في الجمال الفائق للقصور المغربية في الحمراء، ووحدة التصميم التي تربط فناء قصر بآخر، بالإضافة إلى الخلوة الصيفية في جنة العريف، يتبيّن جلياً أنها من بنات أفكار حكّام وحرفيين ماهرين لديهم معرفة وعلم يختص بهما العلماء. لا تزال حدائق جنّة العريف، أعاد تصميمها وزراعتها فرانسيسكو بريتو مورينو Francisco Prieto Moreno بين سنتي 1930 و1950، تزرع منذ القرن الثالث عشر. وكانت تتكوّن من بساتين فاكهة وخضروات، فضلاً عن أشجار وأزهار للزينة – يزرع فيها كل ما يحتاج إليه المقيمون في الحمراء. ولا تزال المنطقة نفسها تُزرع ويمكن رؤيتها من قصور الحمراء (الشكل 122).

جولة في قصور وحدائق الحمراء وجنّة العريف

كتب طيطوس بيركهاردت:

> لا تسمح عمارة قصر الحمراء للزائر بالدخول بادي التأثّر؛ ولا تضخّم تجربة السلطة خارج المقياس الإنساني؛ إنها عادية تماماً، وشفّافة، وهادئة، مثل الهندسة التي يقول عنها أفلاطون إنه لا ينبغي لأحد أن يدخل قصر الحكمة من دونها[230].

يجدر تذكّر هذه الملاحظة عن «المقياس الإنساني» عند النظر في الماء في قصر الحمراء: الماء ليس سرّ حياة حديقة هذا القصر فحسب، بل إنه يستخدم، مثل العمارة، على مقياس إنساني دائماً. عند زيارة قصور الحمراء اليوم، يشهد المرء أول تجربة للماء على مقياس إنساني حميم عند دخول أول فناء، القاعة الذهبية. النافورة الموجودة في وسطها مثال نموذجي على التصميم الإسلامي المتوازن والقليل الزخرفة: إنها عبارة عن حوض محاري منخفض كبير من المرمر الباهت، يبلغ قطرها ما بين متر ونصف ومترين. حافة الحوض منحنية وتضمّ ستين حنية مروحية، وهو عدد من مضاعفات اثني عشر، العدد الشمسي الذي يربط هذه القاعة بفناء الأسود. يبقبق الماء بلطف من صنبور على شكل «برعم زهرة لوتس» في الوسط، فيصدر مقدار «الخرير» المناسب تماماً. هو دائم التدفّق، مثل مياه الجنّة الخالدة، على تجويف مثمّن يتمركز الحوض فيه (الشكل 123).

الفناء التالي هو فناء الريحان (الشكل 42) حيث توجد بركة مستطيلة كبيرة راكدة ذات نافورة بسيطة على شكل مفتاح على طرفيها، يقطر منها الماء بلطف. ويوجد حول سياجي الريحان قناتان ضيّقتان مستقيمتان تجريان متناظرتين إحداهما مقابل الأخرى. وهذا الفناء مثال رائع على الانسجام بين العمارة والماء والنبات، وتوفّر مجالاً ملائماً جداً للتأمّل[231]. على الرغم من أن آلاف الزوّار يمرون في قصر الحمراء (6000 يومياً)، فلا يزال من الممكن، إذا لبث هناك بعض الوقت، أن تنعم بالسلام والانسجام الذي يسود في هذا القصر العجيب.

الشكل 123. القاعة الذهبية، قصر الحمراء.

الشكل 124. فناء الريحان، الحمراء: نافورة على شكل مفتاح، توجد واحدة عند كل من طرفي البركة.

الشكل 125. فناء الريحان، الحمراء: منظر جانبي يظهر التشكيل الموازن النموذجي للماء والسياج النباتي والجدار المزيّن.

بعد ذلك نصل إلى فناء الأسود، حيث النافورة المركزية حوض كبير يحمله اثنا عشر أسداً إلى جانب أربع قنوات ماء تتدفّق من أربع نوافير، واحدة في كل جانب (الأشكال 6، و31–32، و63). وذلك إيحاء رائع بأنهار جنّة عدن الأربعة الموصوفة في القرآن، بالإضافة إلى أحاديث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم). وقد تم تناول ذلك في الفصل الثاني في اقتباس من طيطوس بيركهاردت، لكن من المفيد أيضاً قراءة ما كتبه الرومانسي واشنطن إيرفنغ[232]:

> تبرز في الوسط النافورة الشهيرة في الأغاني والقصص. لا تزال أحواض المرمر تسكب قطرات الماس، والأسود الاثنا عشر التي تحملها تصبّ جداولها البلورية كما في أيام أبي عبد الله. تحفّ أحواض الزهور بالفناء وتحيط بها القناطر العربية الخفيفة ذات الأشغال المخرّمة، التي تحملها أعمدة رفيعة من الرخام الأبيض.

من المثير للاهتمام أن إيرفنغ ذكر «أحواض الزهور» إذ من دونها، كما لوحظ في الفصل الثاني، يبدو هذا الفناء كئيباً.

من أفنية قصور الحمراء يسير الزائر عبر حديقتي فنائي الحديد المشبّك ولنداراخا (لعلها مشتقة من عين دار عائشة)، ويوجد في كليهما نافورة مركزية. وعلى الرغم من أن فناء لنداراخا صمّمه الكاثوليك بعد مرور نحو ثلاثين سنة على وفاة أبي عبد الله، آخر ملوك غرناطة، فإنه مثال جيد على الائتلاف الإسلامي للعمارة والماء والنباتات. النباتات عبارة عن سياج منتظم بسيط من البقس وأشجار

الشكل 126. حديقة لنداراخا (عين دار عائشة)، الحمراء.

صنوبرية باسقة وأشجار حمضيات. وثمة رواق معمّد أنيق على ثلاثة جوانب، حيث يُدخل الجلوس هنا بعض الوقت والشرب في الجوّ اللطيف، والاستماع إلى خرير النافورة، السكينة إلى النفس. الإحساس بالعزلة كبير جداً لأن القصر مرتفع جداً في أحد الجوانب ومهيب، ومن المثير للاهتمام أن نعرف أنه قبل سقوط غرناطة، كان الرواق مفتوحاً على أحد الجانبين بحيث يستطيع المرء النظر إلى الحي العربي من المدينة في الأسفل. ويبدو أن النباتات تغيّرت قليلاً عن وقت إيرفنغ الذي وصف لنداراخا بأنها «الفناء أو الحديقة الصغيرة المنعزلة بنافورتها المرمرية، وأجمات الورد والريحان والليمون والبرتقال» (الشكل 126)[233].

عند الخروج من القصور، يصل الزائر إلى بركة كبيرة راكدة أمام سرادق بارتال وبرج الحريم. وعلى نحو البركة في فناء الريحان، ثمة نافورة صغيرة مماثلة على شكل مفتاح عند طرفي البركة وقناة ماء تحدث مقدار الصوت الملائم. وهناك حدائق خارج هذا الفناء ذات برك رسمية وقنوات مائية ومشاهد رائعة لجنّة العريف (الشكل 121). وعلى الرغم من أنها ترجع إلى القرنين التاسع عشر والعشرين وذات نباتات غير ملهمة، فإنها لا تزال تحتفظ بالجوّ الإسلامي الهادئ، وعبقرية المكان (انظر الفصل الثالث). يسير الزوّار عبر هذه الحدائق فيعبرون جسراً قرب القناة

وبرج الماء إلى حدائق جنّة العريف. وهناك العديد من النوافير الرسمية والبرك الجميلة في هذه الحدائق تقدّم العديد من الأفكار لحديقتك (الأشكال 106، و108-109، و111-112، و128).

فناء الساقية هو الجوهرة في قلب جنّة العريف. توجد هذه الحديقة على سفح التل، ويُتوجّه إليها عبر فناء صغير يسمّى ساحة الترجّل، توجد في وسطها نافورة دائرية محارية صغيرة (الشكل 106). ثم يرتقي الزائر بضع درجات، ويتوجّه إلى اليسار ويرتقي سلّماً مظلماً ضيّقاً بعد ولوج قنطرة صغيرة. وفي أثناء ذلك يتصاعد الإحساس بالترقّب والغموض. وفجأة ينفتح ممرّ مقنطر صغير على جنّة حقيقية على الأرض. هنا نتذوّق ما يعد به الله الذين يخشون ربّهم، ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾. الجلوس في هذه الحديقة بعض الوقت واستيعاب صفائها ببطء يتيح لصوت الماء إخفات كل ما يشغل النفس؛ ويخيّم الإحساس الغامر بالسلام ولا يسع الزائر إلا الدخول في حالة من التأمّل والصفاء (الأشكال 40، 50، 51، 52، 56).

على الرغم من التغييرات الكبيرة التي خضع لها قصر الحمراء وجنّة العريف في القرون التي تلت إنشاءهما في القرن الثالث عشر، فإنهما لا يزالان يردّدان صدى إسلامياً قوياً. ومع أن الملكين الكاثوليكيين، فرديناند وإيزابيلا، أدركا أنهما استوليا على كنز يتكوّن من القصر والحدائق في سنة 1492، فإن الأجيال التالية لم تولهما عناية كبيرة. فعانت قصور الحمراء وحدائقه من الدمار والإهمال حتى آخر القرن التاسع عشر، عندما بُدئت إعادة تأهيلهما. وقد وصف واشنطن إيرفنغ ما حدث بعد أن هجرته العائلة الملكية في القرن الثامن عشر:

الشكل 127. قصر بارتال والبركة، الحمراء

أصبحت قاعاته الجميلة مهملة وحلّ الخراب ببعضها، وذبلت الحدائق ويبست وتوقّفت بعض النوافير. وامتلأت مساكنه بمقيمين منحلّين وغير خاضعين للقانون[234].

مع ذلك لا يزال قصر الحمراء وجنّة العريف محتفظين بجوّهما الخاصّ جداً، على الرغم من القرون التي مرّت حتى الآن، وآلاف السيّاح الذين يزورونهما يومياً. وكلّما أطال المرء المكوث، ازداد تغلغل السلام والجمال في نفسه. وما من شكّ في أن هذا الجوّ راجع إلى حدٍّ كبير إلى وجود الماء الحاضر في جميع الأشكال التي يمكن تصوّرها أينما مشى المرء. والكلمة الأخيرة هنا تعود إلى إيرفنغ:

الشكل 128. نافورة، حدائق الحمراء.

يدور مقدار وفير من الماء، المجلوب من الجبال عن طريق سواقٍ مغربية، في جميع أنحاء القصر، فيزوّد حمّاماته وبرك السمك، ويتلألأ في النوافير داخل قاعاته أو يُسمع خريره في القنوات على طول الأرصفة الرخامية. وبعدما يقدّم التحية للبناء الملكي ويزور حدائقه ومراعيه، يتدفّق عبر الجادة الطويلة إلى المدينة، فيخرّ في القنوات، ويتدفّق من النوافير ويحافظ على الخضرة الدائمة في تلك البساتين التي تحيط بتلّ الحمراء بأكمله بالنباتات المعترشة وتجمّله[235].

مدينة الزهراء

لعل إنشاء مدينة الزهراء، القصر الخرب منذ مدة طويلة وحدائقه الواسعة

خارج مدينة قرطبة، إلى جانب قصر الحمراء، من أفضل الأمثلة على طول باع المسلمين بالماء. أنشأ هذه المدينة عبد الرحمن الثالث في سنة 936، ولم يكن ذلك ممكناً لولا جلب الماء بمهارة من التلال. كان لا بدّ من جرّ الماء على طول مجرى مائي واسع مكوّن من قناطر وأنفاق لاجتياز الأرض غير المنبسطة وصولاً إلى المدينة. بني القصر على أسس رومانية، وكان مأثرة عظيمة – وبخاصة أن المدينة الرائعة وفقاً لجميع المقاييس، لم تعمّر طويلاً. فسقطت ضحية ضعف الحكم والتمرّد والنهب، وأحرقت في سنة 1010، بعد مرور أقل من مئة عام على إنشائها. وكانت تضمّ كل شيء، من دواوين الحكومة والمساجد والأسواق والأماكن السكنية إلى جانب حديقة حيوانات تضمّ السباع والجمال والغزلان وبرك سمك واسعة، ويبدو أن السمك فيها كان يأكل اثني عشر ألف رغيف كل يوم[236]. وكان هناك العديد من الحدائق والبساتين أيضاً. وتكشف الحفريات أن قنوات الماء كانت تقسم الحدائق إلى أنصاف أو أرباع: قسّمت «الحديقة الصغيرة»، وهي حديقة خاصّة، إلى نصفين غير متساويين، في حين أن «الحديقة العليا» كانت أكبر حجماً وأكثر انفتاحا، وقد قسّمت وفقاً لمخطّط رباعي. ومن المثير للاهتمام أن التقسيم الهندسي عن طريق قنوات الماء قد كيّف في وقت مبكّر مع الحدائق المفتوحة على الداخل والحدائق المفتوحة على الخارج.

الشكل 129. حديقة النجمة، فاس: اجتماع الزليج الزاهي الألوان، والافتقار إلى الماء، وعدم كفاية النباتات يمنح هذه الحديقة تشكيلاً غير متوازن.

المنازل الصغيرة

المنزل ذو الفناء معلم مميّز في غرناطة وقرطبة وإشبيلية والمدن الأخرى في الأندلس قبل سقوطها نهائياً في يد الكاثوليك بسيطرتهم على غرناطة في سنة 1492. وعلى نحو المنزل العربي الإسلامي التقليدي في شمال أفريقيا والشرق، مثل الهفيلي في شمال الهند، يشكل الفناء بحدّ ذاته نوعاً من الجنّة الصغيرة، حيث المكوّن الرئيسي هو الماء الجاري، لا الأشجار أو الأزهار. وقد كتب الرحّالة البندقي أندريا نفاغيرو Andrea Navagero (1483-1529) بعدما لاحظ المنازل في الحيّ العربي في غرناطة: «على الرغم من أنها تختبئ في الغالب بين الأشجار الموجودة في حديقتها، فإنها عندما تجتمع معاً تشكّل مدينة أخرى مثل غرناطة. صحيح أنها صغيرة، لكنها جميعاً تحتوي على الماء والورود، والنسرين والريحان، وهي هادئة جداً»[237].

في أعقاب سقوط الأندلس، أدرك الملوك الكاثوليك مهارة المسلمين (أو الموريسكو (المغاربة) كما كانوا يسمّون في إسبانيا) في الري. وفي القرن السادس عشر، كتب سكرتير فيليب الثاني، «ليس هناك ركن أو قطعة أرض يجب ألا يعهد بها إلى المسلمين لأنهم وحدهم كفيلون بجلب الخصوبة والوفرة إليها، فهم يعرفون كيف يزرعونها جيداً»[238].

المغرب

على نحو حدائق شاليمار خارج لاهور، فإن الحديقتين العامّتين الكبيرتين عند طرف مراكش، حديقة أغدال (الشكل 11) وحديقة المنارة (الشكل 10)، تتكوّنان من الماء بصورة رئيسية. تتركّز الأولى حول بركة واسعة، صهريج الهنا، تبلغ مساحتها 500 متر مربّع تقريباً، إلى جانب العديد من برك الري الصغيرة. (لا يبدو ذلك هنياً البتة! فقد لقي السلطان سيدي محمد حتفه في البركة عندما انقلب قاربه في سنة 1873، وكُتب على الشاهد فوق قبره، «توفي في صهريج الماء على أمل أن يكون الآتي أفضل»)[239]. يوجد في حديقة المنارة حوض مركزي مرتفع تبلغ مساحته 30 متراً مربعاً تقريباً، وهاتان الحديقتان ليستا حديقتين بالمعنى التقليدي، إذ لا تضمّان أحواضاً للزهور، وشجيرات ونباتات موسمية، بل تركّزان على أشجار الفاكهة والزيتون. زُرع حول محيط بركة حديقة أغدال أشجار البرتقال والليمون والتين والمشمش والرمّان والزيتون، تقسّمها قنوات الري ذات الممرات المرتفعة إلى قطع مربّعة منتظمة. يصل الماء إلى الحديقة عبر نظام مماثل لذلك الموجود في فارس وإسبانيا: من الثلج الذائب في جبال أطلس، على بعد خمسين ميلاً جنوب المدينة، حيث يجمع في آبار في وادي أوريكا وينتقل في قنوات تحت الأرض إلى حديقة أغدال. ولعل هذا النظام يرجع إلى تاريخ إنشاء مراكش في القرن الحادي عشر، ولا يزال يستخدم لكن بعد إدخال كثير من الإصلاح والترميم عليه. وتبدو هذه الحديقة غير محبوبة ومهجورة خلافاً لحديقة المنارة. هنا تمشي العائلات حول البركة المركزية المرتفعة، في حين توفّر بساتين الزيتون أسفلها مكاناً فسيحاً وظليلاً كي يتناول فيه السكان المحليون الطعام أو يمشون بين الأشجار (الشكل 12، انظر المقدمة).

الحدائق الصغيرة في المدن المغربية، مثل مراكش وفاس، حدائق فناء تقليدية في الغالب تضمّ نافورة مركزية، وربما بضع شجيرات ونباتات في أصص. وثمة حديقة كبيرة غير عادية من القرن التاسع عشر في فاس، وهي جزء من قصر بناه الباشا عبد الكريم، توقّفت نوافيرها عن العمل. على الرغم من وجود الزليج الزاهي

الألوان، والتشكيل الهندسي القوي المكوّن من نجوم مثمّنة، وبعض النباتات، فإن المكان يبدو كئيباً من دون ماء (الشكل 129). كما أنها تقدّم درساً في عدم المبالغة في استخدام الزليج وتوفير ما يكفي من النباتات لإحداث توازن بين صرامة الهندسة وفيض الطبيعة. يوجد هنا قنوات ضيّقة بين الأحواض الهندسية المرتفعة قليلاً، ربما أنشئت أصلاً لاحتجاز الماء الفائض؛ غير أنه لا يوجد ماء فيها ما يجذب المرء إلى المشي عبرها لكن ذلك صعب نظراً لضيقها. من الواضح أن المشي ليس مقصوداً، بل النظر إلى هذا التشكيل المنتظم من ارتفاع طابقين حيث يحصل المشاهد على منظر عام للمكان.

سورية

من الممتع والمثقّف قراءة روايات الرحّالة عن المدن القديمة مثل دمشق وأصفهان وغرناطة. تظهر ملاحظات الغرباء أهمية الماء في الحدائق من النواحي المادية والجمالية والروحانية. وتوضح بريجيد كينان Brigid Keenan بجلاء في كتابها الرائع عن مدينة دمشق القديمة أن الماء هو شريان حياتها[240]. نمت المدينة في

الشكل 130. الفناء الرئيسي، قصر العظم، دمشق.

الواحة الغضة التي تدعى الغوطة، والتي نشأت بفعل تدفّق مياه نهر بردى من الجبال. يبلغ اتساع هذه المنطقة الخضراء والخصبة نحو خمسين كيلومتراً، وتتباين تبايناً حاداً مع الصحراء المحيطة بها. منذ القدم وجّه الآراميون واليونانيون والرومان النهر في قنوات وجداول لري الحدائق والمنازل. وقد كتب المؤرّخ العربي المقدسي في سنة 985 أن دمشق «بلد قد خرقته الأنهار، وأحدقت به الأشجار. وكثرت به الثمار، مع رخص أسعار وثلج وأضداد. لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فوّاراتها»[241]. وبعد تسعمئة سنة، عبّر الرحالة الإنكليزي ألكسندر كنغليك Alexander Kinglake عن المشاعر نفسها ملاحظاً أن:

> عصير مدينتها السيل البارد الذي يتدفّق من سفوح جبال لبنان الشرقية المثلجة. وعلى مقربة من حافة النهر على طول سبعة أميال من الأغصان المتشابكة والظلال الوارفة، تمتد المدينة على اتساعها[242].

وقد شاهد الشاعر الفرنسي دي لا مارتين، عند مروره عبر دمشق من التلّ المشرف على المدينة:

> أغرب وأروع مشهد يراه إنسان؛ إنه دمشق... غابة من المآذن من كل الأشكال، تزوّدها بالماء فروع نهرها السبعة، وجداول لا حصر لها، إلى أن يغيب المشهد في متاهة حدائق الأزهار والأشجار[243].

اليوم لا تزال دمشق القديمة مدينة جميلة، لكن «متاهة حدائق الأزهار والأشجار» تقلّصت كثيراً أمام هجوم المدينة الحديثة. غير أنك إذا تغلغلت خلف الجدران العالية والجوانب الخارجية المتداعية، تكشف الأفنية الداخلية عن واحات غضّة وحدائق مليئة بالأشجار والشجيرات والبرك والنوافير، وجنّات مستترة توفّر ملاذاً من المدينة المزدحمة بالإضافة إلى أفكار ملهمة للحديقة التي تعتزم إنشاءها (الأشكال 15، 16، 130).

فارس

يذكر راسل بيج رؤيته وسط إيران عندما طار فوقها في أوائل الستينيات (1960 نيات):

> وسط الضباب الرقيق اللانهائي المتلوّن بألوان السماء والجبال والصحراء الزهرية والصفراء والرمادية، شاهدت خيطاً من الماء الأزرق المائل إلى الأبيض تحفّه أشجار الحور الخضراء المائلة إلى الصفرة. وسرعان ما أصبح

الشكل 131. سرادق وشادور، حدائق شاليمار، لاهور.

الخيط نهراً واتسع خط الأشجار إلى بساتين وغابات وما هي إلى هنيهة حتى انكشفت هذه الواحة على قباب أصفهان الزرقاء والفيروزية. هنا عند الحافة الغربية للهضبة الآسيوية المرتفعة يعتبر الماء بالغ الأهمية. ويضمّ كل بيت حديقة وارفة من أشجار الدلب والحور والسفرجل والبندق التي تظلّل شجيرات الورود الصفراء والبرتقالية والحمراء العطرة[244].

ثم يتابع ليصف جادة الحديقة الرباعية (ذكرت في الفصل الثاني) في أصفهان حيث «تجري قناة مدرّجة دقيقة وسط الحديقة الرباعية المظلّلة بأشجار الدلب، ولعلها الطريق الموكبية الأجمل في العالم، وتنتظم كل الحدائق تقريباً حول بركة مركزية تحمل قنواتها الفرعية الأربع الماء إلى كل ناحية في الحديقة ثم إلى جذور كل شجرة ونبتة».

ويكفي وصفه ليدفع المرء إلى البكاء لأن الشارع المختنق بحركة المرور اليوم يتناقض تناقضاً صارخاً مع المشهد العجيب الذي يصفه لنا.

قبل راسل بيج بثلاثمئة سنة، قدّم السير توماس هربرت Thomas Herbert، الملحق بالسفارة البريطانية في إيران في القرن السابع عشر، وصفاً للماء في حديقة قرب أصفهان:

> في مركز الحديقة أو وسطها يوجد حوض كبير ذو اثني عشر جانباً متساوياً. يبلغ طول كل جانب خمس أقدام، تحيط بها أنابيب من الرصاص يتدفّق منها الماء بأشكال مختلفة: يستمر تدفّق الماء حتى البوابة الشمالية، حيث يوجد بناء مرتفع يطلّ على المشهد ويستخدم لأنواع أخرى من التسلية. وهو مزخرف بطريقة غريبة من الخارج ومقسّم من الداخل إلى ست غرف. والقسم السفلي مزيّن بخزّانات من الرخام الأبيض تنفث نسيماً بارداً باستيعابها الكثير من الماء الرائق ما يجعلها تبقبق بتقييد الحركة. ويجرّ الماء إليه عبر قناة من الجبال الشاهقة[245].

إن وصف هربرت «للحوض» الكبير رائع، بالإضافة إلى «البناء» (نوع من السرادق) المقسّم إلى ست غرف، وكذا النسيم البارد الناجم عن بقبقة المياه :بتقييد حركتها».

الماء في حديقتك

يتوقّف الشكل المحدّد الذي يتخذه الماء في حديقتك الإسلامية على العديد من العوامل: أولاً أخذ العوامل التي تم تناولها في الفصل الثاني عن التصميم الأولي للحديقة في الحسبان؛ ثانياً، عوامل مثل حجم الحديقة وموقعها، وسواء إذا كنت في مكان حضري أو ريفي أو بينهما. وعلى نحو النباتات، عندما تقرّر أين تضع النافورة عليك أن تراعي الشكل، ومقدار الشمس والظل، وهل توجد شجرة تشرف عليها، وأين ستضع المضخّة والخزّان. إننا معتادون جداً على المضخّات الكهربائية اليوم بحيث نصاب بالدهشة عند التفكير في أن الماء الذي يجرّ إلى قصور الحمراء والمدينة يعتمد اعتماداً تاماً على الجاذبية. إذا كنت تعتزم إنشاء قنوات يتدفّق فيها الماء أو برك راكدة، يجب عندئذ تحليل وضع الأرض بعناية: ربما يتعيّن عليك تسويتها من أجل البركة ثم إمالتها قليلاً من أجل تدفّق الماء. ربما يبدو ذلك واضحاً جداً، لكن مثل هذه الأمور العملية شديدة الأهمية عند اتخاذ القرارات الأولية بشأن الماء في حديقتك[246].

الأشكال 132، 133، 134. (من أعلى إلى أسفل). نوافير مختلفة في قصر الحمراء وجنّة العريف قد تفيد كنماذج ملهمة في حديقتك.

بما أن الماء عنصر منتظم دائماً في الحديقة الإسلامية، فإن الشكل الذي يتخذه في حديقتك مقرّر سلفاً. فهو يقوم على خطوط منتظمة ويتسم بنوع من النقاء الذي اكتسب منه البستانيون المعاصرون «التبسيطيون» الكثير من الإلهام. ليس هناك صخور عليها حزاز أخضر أو نباتات موضوعة بطريقة غير رسمية على حافتها. كما أن مساقط الماء لا تسقط من فوق صخور مرتفعة مثل تلك التي يجدها المرء في الحدائق اليابانية أو الصينية، ولكن من مصطبة إلى أخرى بطريقة واضحة ومنتظمة.

النوافير في حديقتك

إن وصف الرحّالة الوارد أعلاه يقدّم أفكاراً رائعة عما كانت تبدو عليه الحدائق قبل قرون، وربما يقدّم أيضاً أفكاراً لحديقتك. كما أن أحواض المياه التي أشير إليها في بعض الروايات، مثل تلك التي كتبها توماس هربرت أعلاه عن حديقة بالقرب من أصفهان تبدو في العادة مرفوعة وذات شكل هندسي – ذات اثني عشر جانباً أو مثمّنة أو دائرية. وأي شيء مماثل يشكّل قطعة مركزية جميلة في حديقتك الإسلامية، لكنها ربما تكلّف كثيراً إلى حدٍّ ما إذا كانت مصنوعة من الرخام، وتقل التكلفة إذا كانت مصنوعة من حجارة محلية، ومع ذلك فإنها ليست باهظة الثمن. ومن المرجّح أن تكون النافورة المركزية أو الحوض أو البركة مع جميع أشغال السباكة – تركيب الخزّان والمضخّة مع الأشغال الكهربائية الملائمة، ومدّ الأنابيب، بالإضافة إلى الحفر، أكثر البنود تكلفة في حديقتك. ويجب أخذ ذلك في الحسبان منذ البداية، لأن النافورة هي أيضاً أهم عنصر في حديقتك الإسلامية. لا تعتبر الناحية العملية للنافورة – تبريد الهواء وتوفير الماء للوضوء – مهمّة جداً في المناخات الشمالية لأن الطقس لا يصبح حارّاً لجعل النافورة تجربة ممتعة حقاً إلا في بضعة أشهر من السنة.

الشكل 135. تفاصيل نافورة، القاعة الذهبية، قصر الحمراء.

الشكل 136. صنابير نوافير هندية (نقلاً عن الرسوم الواردة في كتاب سجّاد كوسار «العمارة والمناظر الطبيعية» Sajjad Kausar *Architecture and Landscape*، انظر الحاشية 177).

إن تصفّح الكتب ذات الصور الجيدة يلي السفر إلى الخارج وزيارة الحدائق الإسلامية من حيث الأهمية للحصول على الإلهام. ولعل المكان الوحيد، من بين الأماكن التي زرتها، الذي يحتوي على أعظم تنوّع للنوافير الجميلة والبسيطة هو قصور الحمراء وجنة العريف وحدائقها. فهذه النوافير هي الأكثر إلهاماً لي، ويرجع ذلك جزئياً إلى أنها ليست فخمة جداً أو معقّدة. فهي مصنوعة عادة من الرخام العادي أو الحجارة، ويمكنك أن ترى من الصور المعروضة هنا مقدار تواضعها وروعتها. ويمكن أن يكون قول راسل بيج «ما أصغر ما يمكن أن أصنع؟» شعاراً للمسلمين المغاربة لأن البساطة والجمال متناغمان في هذه النوافير (الأشكال 106، 107، 108-109، 111-112، 123-124، 128، 132-135).

إن نافورة مماثلة لإحدى هذه النوافير، حتى إذا كانت صغيرة ودائرية ربما يبلغ قطرها نصف متر وذات حافة مموجّة، موضوعة على قاعدة دائرية أو مربعة، تمنح حديقتك على الفور طابعاً أندلسياً أو مغربياً (الشكل 135، وانظر الفصل السابع حيث تظهر الإيضاحات عن حديقة السجّادة في هايغروف النافورة المركزية المحارية على الطراز المغربي أو الأندلسي). غير أن حفر مثل هذه النافورة في الغرب أكثر تكلفة على الأرجح من شرائها من أحد البلدان المذكورة سابقاً مثل الهند أو باكستان أو المغرب، حتى عند أخذ نفقات النقل في الحسبان. لكن إذا عثرت على نقّاش جيد في بلدك، وكانت لديك، أو لدى زبائنك، القدرات المالية، فستحصل على نتيجة جيدة إذا عهدت بها إليه. وينصح برسم مخطط واضح ذي مقاس كبير أو إنشاء قالب للتصميم وبحث المواد والتفاصيل والنقل والتركيب – وتكلفة عمل الحرفي مسبقاً. وهناك أيضاً بضع شركات متخصّصة في استيراد الفنون والأشغال الحرفية من البلدان الشرقية والإسلامية، ولا شكّ في أنها جديرة بالبحث عنها.

من المهمّ النظر في تصميم الفوّهة في النافورة المركزية. يمكن أن تتفاوت الفوّهات من الحجر المشغول إلى برعم اللوتس البسيط والأنيق المصنوع أيضاً من الحجر المنقوش أو الرخام عادة. ولا تنسَ أن تأخذ في الحسبان مقدار ارتفاع

الفوّهة عن الماء. ومن المفيد مراقبة النوافير الأخرى بعناية قبل مقدار ارتفاع نافورتك. للحصول على تدفّق بارز، يجب اختيار فوّهة أو صنبور مرتفع (الشكل 116)، لكن للحصول على تدفّق «إسلامي» ذي خرير لطيف، يجب أن ترتفع الفوهة نحو 5 سنتيمترات فوق مستوى الماء، ويمكن بعد ذلك تعديل المضخّة لتحقيق تأثير «البقبقة» المناسب.

في معظم الحالات، عندما يكون تدفّق المياه طبيعياً، أي أن سرعة انتقالها تتحدّد بدرجة الميلان وكمية الماء، عندئذ يجب ألا تكون «فوّارة» النافورة عنيفة جداً، ما لم تكن نافورتك عند كعب جبل، ولن تكون كذلك في معظم الحالات[247]. قبل استخدام المضخّات الكهربائية، كان ضغط الماء منخفضاً عادة لذا ترفع الخزّانات لتوفير الارتفاع الكافي للماء من أجل تدفّق النافورة بنجاح. لذا فإن الظروف العملية هي التي أملت النتيجة الجمالية إلى حدٍّ كبير. وذلك مماثل للعمارة الإسلامية، حيث قبل الاستخدام الواسع للخرسانة المسبقة الإجهاد، كان حجم القبّة يتحدّد بحجم وقوة الجدران المربّعة التي تستند إليها. العمارة وتصميم الحدائق الإسلامية التقليدية لا تعنى بإبراز العظمة التقنية: بل تعني بالمقياس الإنساني واحترام المواد والماء بحدّ ذاته. يجب عدم المغالاة في حديقتك الإسلامية، وينطبق ذلك على الماء بقدر ما ينطبق على كل شيء آخر، حيث ينعدم فقدان التناسب أو التنافر بين العناصر: يحظى التوازن والتناغم بينها جميعاً بالإضافة إلى الموقع نفسه بالأهمية القصوى. ويشكّل تدفّق الماء في معظم نوافير قصر الحمراء وجنّة العريف درساً في كيفية الحصول على «الخرير» المثالي.

الشكل 137. صنبور نافورة، حدائق شاليمار، لاهور.

البرك في حديقتك

البركة البسيطة المربعة أو المستطيلة التي تبلغ أبعادها متراً بمتر أو اثنين من الأفكار التي تلائم الحديقة الصغيرة. ربما يكون الماء ساكناً تقريباً حيث لا يكاد يقطر في طرف ويخرج من الطرف الآخر – مثل نسخة صغيرة من البركة الموجودة فوق قصر بارتال في الحمراء (الشكل 93). ولا تحتاج إلى عمق يزيد على نصف متر أو أقل، لأنك لن تضع كثيراً من النباتات فيها، ربما قليلاً من زنبق الماء الأبيض *Nymphaea alba*. وإذا كانت البركة كبيرة بالقدر الكافي، أو كانت الحديقة في مناخ مماثل لمناخ الشرق الأوسط والبركة تتعرّض لأشعة الشمس، فربما ترغب في تجربة زراعة اللوتس الأبيض *Nelumbo nucifera*. الزنبق واللوتس لا يحبان الماء

الشكل 138. شادور، حدائق شاليمار، لاهور.

المتحرّك كما هو معروف، لذا فإن البركة الراكدة مناسبة لهما. يجب أن يكون الحدّ المحيط بالبركة من الحجر أو الرخام أو مادة طبيعية أخرى، بعرض 20 سم تقريباً للبركة الصغيرة. وإذا كانت البركة كبيرة، يبلغ طول ضلعها 5 أمتار مثلاً، فيجب أن تكون الحافة أكبر قليلاً، 30 سم على الأقل. الحدّ الضيّق سيبدو حقيراً أو غير متناسب. ومن الأفكار المفيدة وضع الحجر أو الطوب عند الحافّة ومعاينته بنفسك في الموقع لتوكيد العرض الدقيق.

البركة (أو الحوض، انظر أعلاه) المرفوعة احتمال آخر أيضاً. وقد تكون مثمّناً مرتفعاً بمقدار 80 سم أو أكثر، مصنوعاً من الرخام ومطعّماً ببعض الأشغال على الطريقة السورية أو الهندية (انظر الشكل 55). وعلى المرء أن يتوخّى العناية هنا بشأن المحيط، لأن هذه النافورة ذات الطراز الإسلامي البارز تبدو في غير موضعها

إلى جانب بيت ڤيكتوري مصنوع من الطوب. لكن إذا كانت موضوعة في منطقة مسوّرة محاطة بسياج كبير من نبات الطقسوس أو الريحان الأكثر التصاقاً بالبحر المتوسّط، فقد تبدو جميلة جداً (انظر الفصل الخامس للاطلاع على مزيد من الأفكار بشأن الأسيجة النباتية الدائمة الخضرة وذات الأوراق المتساقطة لإنشاء مناطق مسوّرة). إن مثل هذا النوع من الأحواض المرتفعة مكلف، ويمكن إيجاده في مزاد علني أو متجر للتحف، أو يمكن إيجاد حرفي يستطيع تنفيذ تصميمك. وبخلاف ذلك، لا بدّ من استيراده من مصر أو سورية أو الهند أو المغرب.

الشكل 139. شادور منقوش ينقل الماء من أسفل منصّة للجلوس (شابوترا) إلى بركة ذات نوافير، نشأت باغ، كشمير.

يجب استخدام الموادّ الطبيعية لأنها تكمّل الماء وتتآلف مع الطبيعة المحيطة بطريقة لطيفة ومريحة. يختار بعض المصمّمين اليوم الزنك أو الفولاذ أو الألمنيوم، ولا بأس في ذلك للحديقة الحديثة. ويستخدم الزجاج، وهو ليس مادة جديدة، في التصاميم المائية ذات «المظهر الحديث». وقد يبدو ذلك جيداً أيضاً. لكننا نعنى هنا بالحديقة الإسلامية الأصيلة، حيث تبدو الموادّ الحديثة متنافرة وفي غير موضعها. يجب أن تسود الحجارة الطبيعية أو الرخام أو الحصى أو الطوب أو الأردواز. إن ائتلاف البركة الراكدة في وسط حديقة صغيرة مع الحجارة الطبيعية المحيطة بها لا يعكس السماء المتغيّرة والأشجار فحسب، وإنما يمكن أن يشكّل عاملاً توحيدياً أيضاً. يمكن أن يتكامل مع العناصر الأخرى في الحديقة مثل الممرّات والنباتات بالإضافة إلى التركيبة بأكملها داخل المكان.

الشادور والشيني خانة والشابوترا

فكّر البستانيون الإسلاميون في العديد من الأدوات المبتكرة لنقل الماء وجعله يرشرش أو يتقاطر أو يبقبق أو يصدر خريراً أو ينساب متعرّجاً أو يتدفّق أو يسقط ليصنع أشكالاً أو يبقى ساكناً أو يوجّه في قنوات ضيّقة أو عريضة – كل طريقة يمكن تصوّرها من النوافير الدائرية البسيطة إلى المصاطب العظيمة المتقنة في حدائق شاليمار في كشمير أو لاهور (الشكلان 131 و138).

الشكل 140. ماء يسقط فوق تشيني خانة، شاليمار باغ، كشمير.

إلى جانب الطرز المختلفة للنوافير، ربما تكون هذه الأدوات الثلاث، الشادروان والشيني خانة والشابوترا، من أكثر الطرق فعالية لاستخدام مقدار صغير من الماء بأقصى فائدة – بالإضافة إلى السماح للحكّام والبستانيين المسلمين بالاستمتاع بالماء وما يوفّره من بهجة. لقد ذكرت هذه الأدوات باقتضاب من قبل لكن سنجمل هنا القول: الشادور كلمة فارسية تعني الشال أو الحجاب، ويستخدم اليوم للدلالة على

الشكل 141. منصة جلوس (شابوترا)

النقاب الأسود في الغالب الذي ترتديه الكثير من الإيرانيات اليوم. وهو يشير في الحديقة إلى لوح حجري أو رخامي، منقوش عادة بتصاميم هندسية بحيث يتخذ الماء أشكالاً عندما يسقط في بركة أو قناة أسفله. وهو منظر يستحق المشاهدة عندما يتلألأ ضوء الشمس على الماء ذي الأشكال المتشابكة الذي يجري فوق الشادور. إن فكرة «حجاب» الماء جميلة وتردّد صدى الاعتقاد الإسلامي العميق بأن العالم المخلوق «يحجب» الخالق ويظهره في آن معاً: الله مستتر وظاهر، وغير منظور ومنظور في آن معاً. ويرجع إلينا أمر اختراق «الحجاب» المرئي (أو آلاف الحجب كما يقول الصوفيون) للتقرّب إلى الله.

إذا كانت حديقتك منحدرة، فإن الشادور يصبح أمراً سهلاً، إذ يمكن إنشاء المصاطب وإقامة شادور واحد أو أكثر على المصاطب المنحدرة. وهي تتفاوت في الحجم وثراء التصميم: يوجد أربعة شادورات في حدائق شاليمار في لاهور، تتراوح بين الحجر الرملي الصغير (يرتفع 25 سم) المنقوش بتصميم متعرّج – التشكيل الهندسي المتموّج – إلى الشادور الرخامي الأبيض المنقوش بأشكال صدفية مطعّمة بحجارة سوداء. لكن إذا لم تكن حديقتك منحدرة، ومع ذلك تريد إقامة شادور من دون تجشّم عناء حفر الأرض وتكاليفه، فإن الشادروان السلسبيل (المذكور في الصفحة 144) الذي يشكّل اللوح الحجري المنقوش جزءاً لا يتجزّأ منه يعتبر بديلاً جيداً. وغالباً ما استخدم هذا النوع في مصر والأنحاء الأخرى من العالم الإسلامي لتوسيع المساحة السطحية للماء الجاري. ويفيد ذلك في زيادة معدّل التبخّر في الطقس الحارّ، ما يبرّد الهواء القادم من أماكن التهوئة ذات المواقع المختارة بعناية. وقد وفّر ذلك في البيت الإسلامي التقليدي المبني حول فناء مركزي وسيلة فعّالة جداً لتكييف الهواء الطبيعي.

لا يوجد الماء كحجاب في الشادوران وإنما يوجد أيضاً في الماء الجاري فوق حافّة النافورة وفوق الشيني خانة[248]. الشيني خانة كوّة صغيرة، أو بالأحرى عدة كوى صغيرة محفورة في صفوف في الحجر خلف مسقط ماء. في المناسبات الليلية الخاصة، توضع الشموع أو مصابيح الزيت في كل من الكوى بحيث يلتمع ضوء اللهب المرتعش عبر حجاب الماء الساقط، ما يعطي مشهداً جميلاً ورومانسياً. في النهار، توضع الأزهار أحياناً في جرار في الكوى. وعلى غرار الشادور، يمكن وضع الشيني خانة حيث يوجد اختلاف في المستوى، فيسقط الماء أمامها على بركة في الأسفل. ويبدو أنها كانت المكان المفضّل لدى شاه جهان في الحديقة. وفي حدائق شاليمار في لاهور يوجد شيني خانة بين المصطبة المتوسّطة والسفلى، وكان هناك في الأصل واحدة بين المصطبة العليا والمتوسّطة.

إذا كانت حديقتك كبيرة بالقدر الكافي والمال لا يشكّل عقبة، فستكون فرصة رائعة أن تدخل شادوراً أو شيني خانة، أو كليهما، حيث يوجد اختلاف في المستوى أو مقابل جدار. ويمكن تكليف نقّاش جيّد بإنشائها أو استيرادها من الهند أو باكستان[249].

الشابوترا منصة حجرية أو رخامية موضوعة على حافة بركة أو مرفوعة في وسطها. يشعر السلطان أو الإمبراطور الجالس عليها بأنه محاط بالماء تماماً وطافٍ عليها. يمكنه هنا أن يجلس ويتأمّل من دون إزعاج. وبما أنه لا يوجد في بعض الحالات «جسر» فوق الماء للوصول إلى الشابوترا، فربما يرفع الحاكم في كرسي محمول للوصول إليها. وإذا كان لديك الموارد المادية، فسيكون من الترف إنشاء شابوترا، جزيرتك الصغيرة، وسط بركة كبيرة ساكنة. يمكنك هنا أن تأتي بالسجّاد وتجلس وتتأمّل، أو تحضر أصدقاءك للحديث والأكل والشرب وقضاء ساعات ممتعة وسط الماء. المشكلة الوحيدة هي إقناع الآخرين بالتخويض في الماء جيئة وذهاباً مع بعض المؤن.

من المثير للاهتمام أن هذه المعالم الثلاثة، الشادور والشيني خانة والشابوترا، تبدو طرقاً إسلامية خاصة لاستخدام الماء في الحدائق. أما النوافير، فإنها مشتركة بشكل أو آخر في جميع تراثات الحدائق. وهي ترى في الحدائق الأوروبية، وإن لم تكن كثيرة في البلدان الشمالية لأسباب مناخية واضحة. وهي أيضاً ليست نموذجية جداً في الحدائق اليابانية أو الصينية التي تركّز على مساقط المياه والجداول على العموم، وهي النسخ اليابانية للنافورة التي تتشكّل من الخيزران المجوّف الجميل[250].

الماء على الطريقة الإسلامية في الحدائق الأوروبية

من المثير للاهتمام النظر في الحدائق في أوروبا حيث يستخدم الماء على الطريقة الإسلامية. هناك العديد من الحدائق في إنكلترا: على سبيل المثال: هستركومب في سومرست (الشكل 61) التي صمّمها جكِل ولويتنز Jekyll and Luytens مثيرة جداً للإلهام بجدوليها «الشرقي والغربي». وهما قناتان طويلتان مستقيمتان ضيّقتان على جانبيهما حافة حجرية عريضة، تحيطان بروضة غائرة كبيرة ذات تصميم هندسي رباعي كثير النباتات. وقد زرع الجدولان بنباتات محبّة للماء مثل الزنبق وزهرة الأروم (*Zantedeschia aethiopica*). ويظهر هذان العنصران معاً، الجدولان والنباتات، ائتلافاً مثيراً للاهتمام من القنوات المائية

الإسلامية والطريقة الإنكليزية للزراعة. وهو ائتلاف ناجح على الرغم من أن النباتات تقلّل من «المظهر» الإسلامي الصرف. غير أنه يحقّق شيئاً أكثر أهمية – الانصهار الناجح للأساليب. إذا كنت ترغب في تقديم أسلوب إسلامي أكثر أصالة، فعليك تجنّب مثل هذه النباتات، والسماح بإبراز الماء نفسه. في المناخات الشرقية الدافئة حيث الماء ثمين، تبرز الرغبة في رؤية الماء نفسه والاستمتاع به، لا حجبه بالنباتات. ربما استوحى لويتنز الحدائق التي رآها عندما كان يعمل في الهند، في حين أن غيرترود جكِل ربما رأى في هذين الجدولين فرصة للزراعة. تعتبر حديقة هستركومب مثالاً جميلاً على التزاوج بين أساليب البستنة والإلهام للذين يرغبون في تكييف الجماليات الإسلامية مع الموقع الإنكليزي[251].

الشكل 142. قناة ماء على الطراز الإسلامي في ديفون في غرب إنكلترا.

من الحدائق الأخرى التي تجدر زيارتها في إنكلترا كولتون فيشاكر في ديفون، ولعلها ذات مظهر إسلامي أقوى من حديقة هستركومب، حيث ينحدر فيها مجرى مائي واحد بصورة طبيعية، وسيزنكوت في غلوسسترشاير. وتضم حديقة أرو كوتدج في هيرفوردشاير مجرى مائياً طويلاً ومستقيماً ذي تصميم إسلامي، يحفّه الأردواز وأسيجة مرتفعة من نبات الطقسوس. وقد صنع بعض أصدقائي في ديفون مؤخّراً مجرى مائياً ضيّقاً تحفّه حجارة محلية، ويقع في أرض قليلة الانحدار، وهو ينقل الماء من المنزل الصيفي إلى مكان ذي مستوى قليل الاختلاف، ما يسمح للماء بالسقوط على مصطبة أسفله (الشكل 142).

لقد استعارت جميع هذه الحدائق مفهوم المجرى المائي المنتظم من الحديقة الإسلامية. وهو في المناخات المعتدلة ذو غاية جمالية فحسب ولا يؤدي أي وظيفة ري حيوية كما كان الحال في فارس وبلاد ما بين النهرين. ومن المثير للاهتمام أن نعرف أن أنظمة ريّ مماثلة استخدمت في الغابات الاستوائية في الأمازون. في هذه الحالة، كانت الأرض تتعرّض لفيضان النهر السنوي، لذا تزرع المحاصيل في أحواض مرتفعة لتجنّب الفيضان، وتتكرّر فيها قنوات الماء الرباعية نفسها[252].

الخلاصة

بعد أن شهدت المملكة المتحدة وأوروبا واحداً من أشدّ فصول الصيف حرارة (2003)، بدأت قيمة الماء تصل إلى تلك الأماكن، لا سيما إلى البستانيين المعتادين على المطر المنتظم. الصورة الحية التالية عن تأثير الماء في حياة الصحراء لا تبدو بعيدة جداً عن أرضنا الجميلة الخضراء. وقد كتبها محمد أسد، وهو يهودي ألماني اعتنق الإسلام في العشرينيات (1920نيات) وكتب عن أسفاره وتجاربه في كتابه «الطريق إلى مكة» *The Road to Makkah*:

> كنا قد توقّفنا لأداء صلاة الظهر. وفيما كنت أغسل يدي ووجهي وقدميّ من قربة ماء جلدية، سقطت بضع قطرات من الماء على حزمة من العشب الجافّ عند قدميّ، وقد أذبلتها أشعة الشمس وأذوتها وجعلتها صفراء اللون. لكن عندما قطر الماء فوقها، سرت رعشة في نصولها المتغضّنة، وشاهدت كيف تفتّحت ببطء وهي ترتجف. سقطت بضع قطرات أخرى فتحرّكت النصول الصغيرة والتفّت ثم انتصبت ببطء وهي ترتجف على وجل... حبست أنفاسي وأنا أصبّ مزيداً من الماء على حزمة العشب. فقد تحرّكت بسرعة أكبر وبمزيد من العنف، كما لو أن قوة خفية تدفعها للنهوض من حلمها بالموت. انكمشت نصولها وتمدّدت مثل أذرع نجمة بحر – ما أروعه من مشهد! – وبدا كأن نوبة من الهذيان الخجل الذي لا يمكن مقاومته قد غمرتها، أو قليل من المتعة الحسية: وهكذا دبّت الحياة منتصرة في ما كان ميتاً قبل برهة، فدخلته بصورة مرئية وانفعالية وطاغية في عظمتها.
>
> الحياة في جلالها... غالباً ما تشعر بها في الصحراء. لأن من الصعب، بل العسير، المحافظة عليها، فإنها تبدو دائماً كالهدية والكنز والمفاجأة. فالصحراء تفاجئك دائماً مع أنك ربما تعرفها منذ سنين. وفي بعض الأحيان عندما تعتقد أن في وسعك مشاهدتها بكل قسوتها وخوائها، تستيقظ من حلمها، وتتنفّس – فيخرج عشب أخضر باهت طري فجأة حيث لم يكن بالأمس سوى الرمل والحصى المتشقّقة[253].

الشكل 143. حديقة لنداراخا (عين دار عائشة)، قصر الحمراء من خلال أحد العقود.

الفصل الخامس

الأشجار والشجيرات

كل ورقة على غصن شجرة كتاب يشير لكل ذي بصيرة إلى الخالق[254].

سعدي (1184-1292م)

هناك خمس شجرات وشجيرات تتبادر إلى الذهن دائماً عند التفكير في حدائق الشرق الأوسط أو المتوسّط أو شمال أفريقيا - ليست جميعها نباتات إسلامية - وهي تحمل أسماء جميلة: الجكراندا، والبوغنفيلية (وهي نبتة معترشة أكثر مما هي شجيرة) والرصاصية، والدفلى، والخطمية. ثم هناك شجرة السرو وشجرة الشينار (الدلب الشرقي *Platanus orientalis*، الشكل 144) وأشجار الفاكهة التي تزهر في الربيع وأشجار الجوز، من دون أن ننسى شجرة الزيتون الأنيقة ذات الأوراق الباهتة[255]. وللحصول على

الشكل 144. قبّة أشجار الشينار التي توفّر الظل قرب طهران.

العطر على المرء إضافة الياسمين والغاردينيا وكثير من أنواع الحمضيات والياسمين الهندي والورد. ومجرّد ذكرها بصوت عالٍ يجعل المرء يفكّر في الأمسيات الدافئة بصحبة الأصدقاء قرب النافورة في حديقة يفوح منها العطر، وشرب الشاي بالنعناع وربما تدخين النرجيلة. عند كتابة ذلك في شهر شباط/فبراير في إنكلترا فيما الثلج يتساقط في الخارج والبرودة قارسة، من الصعب إدراك كيف يمكن أن ينشئ المرء جواً مماثلاً هنا. في محاولاتنا إنشاء حديقة إسلامية في بيئة غير إسلامية – إذا كان يمكن قول مثل هذا الشيء – علينا ألا ننجرف بعيداً ونزرع الشجيرات الدخيلة المحبّة للحرارة المذكورة أعلاه لنكتشف أنها ماتت عند أول شتاء. يجب إيجاد تسوية، لا في ما يتعلّق بالنوافير والماء فحسب، كما ذكر في الفصل السابق، وإنما في ما يتعلّق بالنباتات أيضاً. لذا على المرء على العموم، عند التفكير في الشجيرات والأشجار التي يختارها لحديقة مستلهمة من الحديقة الإسلامية في المناخ الشمالي، أن ينشد الواقعية والبراغماتية بدلاً من المثالية والرومانسية. وعلى الرغم من أن درجات الحرارة تهبط دون الصفر في العديد من أنحاء العالم الإسلامي مثل بعض أنحاء الأردن وسورية ولبنان وتركيا وإيران، فلا يمكن اجتناب الواقع بأن هذه البلدان تشهد أيضاً في الصيف ساعات أطول من شمس النهار ودرجات حرارة أعلى بكثير من تلك التي يشهدها شمال أوروبا.

إن الأشجار والشجيرات المذكورة أعلاه قد تحيا جيداً إذا لم تهبط درجة الحرارة دون 6 درجات تحت الصفر تقريباً، ودرجات الحرارة تبقى فوق ذلك

على العموم في المملكة المتحدة اليوم – في المقاطعات الجنوبية على الأقل. لكن هل تزدهر وتسهم في إضفاء ذلك الجوّ الشرقي المنشود العابق بالرائحة الذكية والمليء بالصفاء؟ لا شك في أن هذه النباتات (والمزيد مما سيقترح لاحقاً) تتطلّب كي تزدهر في الخارج أماكن محمية وجيدة التصريف مواجهة للجنوب أو الجنوب الغربي (كما اقترح ابن ليون، انظر الفصل الثالث)، ويفضّل بجانب جدار دافئ. ومع ذلك فإن احتمال بقائها وتجاوزها الصقيع القارس قد لا يستحقّ العناء. إن تغطية شجيرة معترشة مثل البوغنفيلية (*Bougainvillea spenctabilis*، توجد مزيد من التفاصيل في الفصل التالي، الشكل 145) أو الرصاصية (*Plumbago auriculata* أو *P. capensis*) بالصوف ليس خياراً في الواقع ما لم تكن ترغب بشدّة في زراعتها ولا تمانع في التمايل على السلّم. وبعد ما تقدّم، قد تكون من المحظوظين وتجد أن الرصاصية تنمو بقوة. على سبيل المثال، ثمة عيّنة رائعة تتسلّق جداراً مواجهاً للجنوب في حديقة تشلسي الطبية في لندن.

من المعروف أن أشجار الحمضيات والزيتون تحمل غلّة وفيرة من الثمار في بلدان الشرق الأدنى والمتوسّط، لكن ذلك في شمال أوروبا الاستثناء وليس القاعدة. وتحتاج أشجار الحمضيات على وجه الخصوص، وهي تذكّر كثيراً بالحدائق الإسلامية، إلى كثير من الرعاية، وتتطلّب في الغالب قضاء الشتاء في أماكن مغطّاة. غير أن الميزة الكبيرة التي لدينا، والتي تعوّض جزئياً عن الافتقار إلى أشعة الشمس، هي مورد المياه الوفير، المتاح من مياه المنزل والمطر، ومن الينابيع أو الآبار القديمة بالنسبة إلى بعض المحظوظين.

يعرف جميع البستانيين أنه قد تكون هناك اختلافات كبيرة في درجات الحرارة ضمن منطقة صغيرة نوعاً ما، وبخاصة عندما يحدث تفاوت في الارتفاع.

الشكل 145. الجهنّمية، وهي اسم على مسمّى، قرب مرّاكش.

على سبيل المثال، الحديقة في التلال المحيطة بالعاصمة الأردنية عمّان تنخفض حرارتها عدّة درجات في أثناء الصقيع عن تلك الموجودة في السهول أدناها، وفي العقبة في جنوب البلاد لا يوجد صقيع البتة. كما قد يكون هناك تغيّرات دقيقة في ظروف زراعة النبات في كل ركن من أركان الحديقة تقريباً – نوع التربة فضلاً عن درجة الحرارة. ويكتشف المرء من خلال التجربة والخطأ وكثير من الصبر[256]، الظروف المثلى لزراعة كثير من النباتات. إذا كنت من المحظوظين بحديقة مواجهة للجنوب أو الجنوب الغربي، ومحمية من الرياح القارسة الشمالية والشرقية، فستتاح لك الفرصة لزراعة بعض الشجيرات والأشجار المحبّة للحرارة والنموذجية في الحدائق الإسلامية من دون الاضطرار بالضرورة إلى إدخالها إلى الأماكن المغطاة في الشتاء. ومع تكاثر الحديث عن «الاحترار العالمي» مؤخّراً، ووجود أدلة عليه في الواقع (انظر أدناه)، فإن إمكانية حدوث تلك الفرصة ستتزايد على ما يبدو. لكن إذا كان موقع حديقتك ظليلاً أساساً ويواجه الشمال والشرق، فإن فرص نموّ النباتات المتوسّطية تنخفض كثيراً. والطريقة الوحيدة للنجاح حقاً في إنشاء حديقة إسلامية هي التركيز بالدرجة الأولى على الخطة الهندسية الرسمية والمناظر الطبيعية الصلبة مع نافورة صغيرة أو شادور (انظر الفصل الرابع)، يمكن إغلاقها عندما يبرد الطقس ويصبح رطباً. وعلى الرغم من أن النباتات ستقتصر على الشجيرات والأزهار التي تحتمل الظلّ، فإنه يمكن الإيحاء بالجوّ الإسلامي من خلال النقوش الإسلامية الجميلة في الحجارة أو الطوب أو الخزف (انظر الفصل الثالث لمزيد من الاقتراحات والشكل 54) المحيطة بمخطط الحديقة الرباعية الرسمي.

تغيّر المناخ

كُتب وحُكي الكثير عن تغيّر المناخ في جميع أنحاء العالم، ولا شك في أن فصل الشتاء في المملكة المتحدة، على وجه الخصوص، أصبح أكثر دفئاً بالتدريج مما كان عليه في الثلاثين أو الأربعين سنة الماضية. ويبدو أننا لن نشهد زيادة كبيرة في الساعات المشمسة في الصيف لكننا شهدنا بالتأكيد تراجعاً في تساقط الثلج وموجات الصقيع في الشتاء، ومزيداً من المطر. وقد ذهب أحد التقارير إلى حدِّ القول إن «سمعة المملكة المتحدة بأكملها كأرض خضراء جميلة معرّضة للخطر»[257]. يبدو ذلك دراماتيكياً ويدقّ أجراس الخطر، لكن ثمة أدلّة على أن متوسّط درجة الحرارة سيرتفع تدريجياً نحو 2–5 درجات مئوية في الصيف و2–3 درجات مئوية في الشتاء في الخمسين سنة القادمة. وذلك مفيد من منظور الحديقة لإسلامية في المناطق الشمالية إذ مع تراجع حدة الصقيع، سيزداد عدد النباتات والأشجار المعهودة في الحدائق الإسلامية التي تعيش

في الخارج – مثل الزيتون والرمان والحمضيات والنخيل والدفلى وحتى البوغنفيلية في المناخ الدافئ الجزئي لمدينة لندن. غير أن النباتات التي تتطلّب شتاء بارداً، مثل بعض الشجيرات المثمرة كالكشمش، والأزهار التي تنفر من الحرارة الشديدة كالدلفينيوم، لن تنمو بارتياح في جنوب المملكة المتحدة.

المصادر

إذاً ما الشجيرات والأشجار التي يمكن أن تزرع في مناخاتنا الشمالية وتحدّثنا عن الحدائق الإسلامية لكنها لا تتطلّب كثيراً من التدليل؟ لتقديم ما أرجو أن يكون دليلاً موجزاً مفيداً – للأزهار في الفصل القادم بالإضافة إلى الشجيرات والأشجار في هذا الفصل – درست ستة مصادر رئيسية:

أولاً وقبل كل شيء القرآن. فالأشجار والنباتات المذكورة بالاسم في القرآن الكريم مهمة جداً للبستانيين المسلمين الورعين، لأن رعايتها ومراقبتها وهي تزهر وتذوي وتموت يذكّر بإقامتنا المؤقّتة في هذه الدنيا، ويقدّم شيئاً من مذاق الجمال الخالد والمتعة في جنة الآخرة.

ثانياً، قوائم النباتات التي وضعها علماء النبات المسلمون الأندلسيون المتقدّمون مثل ابن وافد (توفي سنة 1075)، وابن بصّال (نحو سنة 1080) وابن العوّام (نحو سنة 1180)[258]، بالإضافة إلى الأعمال العلمية والفلسفية اليونانية والشرقية القديمة. ومنها «الحشائش» لديسقوريدس (وهو طبيب روماني ولد في القرن الأول الميلادي، انظر الفصل الأول)، وهو من أهم كتب العالم الإسلامي في القرون الوسطى لدراسة النباتات وخصائصها. وثمة كتاب آخر من القرن الثالث عشر بالعربية «كتاب الدرياق» الذي استُقي جزئياً من دراسات يونانية قديمة ويقدّم صوراً منمنمة للأعشاب والنباتات واستخداماتها الطبية. وقدّم ابن البيطار المالقي (توفي سنة 1248) ـ وهو بستاني وعالم نبات مهم آخر ـ وصفاً لنحو ألف وأربعمئة نبتة في موسوعته «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، بالإضافة إلى «أبي علم النبات العربي» أبي حنيفة الدينوري (نحو 820–895). وما من شك في أن الأندلس قادت الطريق في هذه الفترة (نحو 1000–1400) في مسائل البستنة والزراعة والعلوم وعلم النبات.

ثالثاً، روايات السفراء والرحّالة والحوليات التاريخية المحلية – مثل السير جون تشاردن John Chardin (توفي سنة 1713)، ودي بوسبك (القرن السابع عشر)، وأوليا شلبي التركي (القرن السابع عشر)[259] – بالإضافة إلى مذكّرات الحكّام

الشكل 146. منمنمة فارسية تبدو فيها شجرتا سرو وشجرة فاكهة مزهرة، وشجرة صفصاف، وشجرة توت تلتف حولها كرمة تحمل كثيراً من عناقيد العنب، وعدة نباتات مزهرة. من الشاهنامة في القرن السادس عشر.

المسلمين المحبّين للحدائق، مثل الإمبراطور المغولي بابر (توفي سنة 1530) والسلطان العثماني محمد الفاتح (توفي سنة 1481)، وقد سمي كذلك لأنه فتح القسطنطينية التي تعذّر فتحها طويلاً في سنة 1453، وأعاد تسميتها إسطنبول. وكان محبّاً للحدائق أيضاً، ويقال إنه استخدم آلاف البستانيين في قصره الجديد الذي عرف باسم «دار السعادة». ولاحظ أحد كتاب الحوليات المعاصرين أنه «امتدت على كل جانب حدائق واسعة وجميلة جداً، زُرع فيها كل نوع يمكن تخيّله من النباتات والفاكهة. وتتدفّق المياه العذبة والرائقة بوفرة في جميع جنباته. وتشدو فيها الطيور من الأنواع المغرّدة والصالحة للأكل، وتجوبها قطعان الحيوانات الداجنة والبرية على السواء»[260].

المصدر الرابع هو قصائد العديد من الشعراء، والعلماء، والصوفيين، مثل جلال الدين رومي (1207-1273)، وسعدي (1184-1292)، والفردوسي (940- نحو 1020)، ونظامي (توفي نحو 1209). وُلد سعدي وتوفي في شيراز في فارس وأشهر أعماله «البستان» و«حديقة الورود». واسم الفردوسي هو أبو القاسم منصور، لكن السلطان سماه الفردوسي إذ يقال إن كتابات الشاعر حوّلت القصر إلى فردوس. وقد كتب «الشاهنامة» الشهيرة و«يوسف وزليخة». وتشمل «خمسة» نظامي ملحمة ليلى والمجنون الشهيرة التي استخدمت فيها النباتات والأزهار لنقل المعنى المستتر (انظر الفصل السادس). وأعمال رومي أكثر من أن تحصى، وقد أشير إليها عدّة مرات في هذا الكتاب. ومن الموضوعات المركزية التي تتمحور حولها كتاباته أن جمال الأشجار والأزهار المفردة ما هو إلا انعكاس عظيم للحقيقة العميقة التي تنفذ في جميع الخلق. إن الارتباط المجازي بين الطبيعة وروح الإنسان خاصية مميّزة دائمة للشعراء الفارسيين تذكّرنا بأن الفنّ الحقيقي، بما في ذلك فن الحدائق، يعنى بمعرفة أنفسنا وتسبيح الخالق. كتب رومي:

الأشجار تلهج بالتسبيح
والطير تشدو بالدعاء
وينحني البنفسج للسجود[261]

على الرغم من أن شعر جميع هؤلاء الشعراء العظام (وهناك كثير غير الذين ورد ذكرهم هنا) رومانسي في الغالب ويحتوي على معانٍ روحانية رمزية، فإنه يقدّم في الغالب أوصافاً دقيقة للأشجار والشجيرات والأزهار التي تزرع في العالم الإسلامي. كما توفّر للقارئ معلومات رائعة عن النباتات التي زرعت في الحدائق الإسلامية المبكّرة.

المصدر الخامس هو الرسوم المنمنمة الفارسية والعثمانية والهندية: فهذه الرسوم لا تسحر الرائي بجوّ العالم الآخر فحسب، بل تثير اهتمامنا أيضاً لأن العديد منها يصوّر الحدائق التي تزرع فيها الأشجار والنباتات المحدّدة.

المصدر السادس والأخير لاختيار الأشجار والنباتات التي تزرع في «الحديقة الإسلامية في الشمال» هو الحدائق الموجودة في العالم الإسلامي اليوم. تلك الحدائق التي أنشئت، كما ذُكر آنفاً، منذ القرن العاشر تقريباً حتى نهاية القرن السابع عشر. وبعد هذه الأزمنة بدأت الحدائق الأوروبية تؤثّر في الحدائق الإسلامية الشرقية بطريقة ملحوظة، لذا يفضّل تفحّص تلك الحدائق المبكّرة قدر ما أمكن. كما أنه ليس هناك كثير من الأشخاص الذين يعترضون على أن أعظم الحدائق الإسلامية

أنشئت قبل القرن الثامن عشر. ربما يبدو تفحّص هذه الحدائق أوضح المصادر بل المصدر الذي يجب أن يُبتدأ به. لكن بما أن النباتات تغيّرت في معظم الحالات على مرّ القرون، وغالباً ما حصل خطأ في إعادة زراعتها، فإن وظيفتها الرئيسية اليوم أنها تقدّم أمثلة على التصميم، وتدفّق المياه، وزراعة الأشجار في بعض الحالات، بدلاً من الحصول على أفكار بشأن الشجيرات والأزهار. بعد قول ذلك، عند النظر في الأشجار الملائمة التي تختار منها عند إنشاء حديقة إسلامية، من المفيد تفحّص حدائق مثل باغي فين في إيران التي لم تتغيّر كثيراً، أو حدائق تاج محل. وفي كلا الحالتين لا تكون النباتات المفصّلة (وأعني بذلك الشجيرات الصغيرة والنباتات المزهرة) مهمة مقارنة بالتصميم الرسمي والأشجار والماء.

المعلومات المستقاة من هذه المصادر بالإضافة إلى الملاحظات المدوّنة عند زيارة العالم الإسلامي، والملاحظات العملية بشأن فرص المواقع وقيودها تقدّم - على ما يرجو للقارئ - أفكاراً ينطلق منها، فضلاً عن معايير محدّدة لانتقاء نباتات حديقتك. ويبدو أنه لم ينظر في النباتات الأصلية في العديد من الحدائق المصانة أو التي أعيد ترميمها اليوم[262]. ولا أعني بذلك أن على المرء أن يحاول دون تفكير زراعة تلك النباتات التي كانت تزرع في الأصل فحسب، لكن يجدر النظر في قوائم النباتات المبكّرة والمصادر الأخرى، كما نفعل هنا. إن ملاحظة الأجناس، وفي بعض الأحيان، الأنواع التي زرعت واعتُني بها في الحدائق الإسلامية المبكّرة يقدّم للمرء دليلاً وإلهاماً تُستقى منه الأفكار التي يمكن التمسّك بها نوعاً ما وفقاً للذوق الشخصي. فالخيار غير محدود في النهاية: إنه واسع ومتنوّع، كما سيتبيّن في هذا الفصل والذي يليه. ويؤمل أن تثير حديقتك الناتجة صوراً في الذهن من الرسوم المنمنمة الإسلامية والشعر، بالإضافة إلى آيات من القرآن، وأن تزدهر مع ذلك في مناخ بارد ورطب. في الصفحات التالية نتفحّص الاقتراحات بشأن أي من الأشجار والشجيرات المذكورة أعلاه يمكن أن تزرع تحت السماء غير المشمسة ونقدّم توصيات بشأن البدائل الملائمة.

دليل موجز للأشجار والشجيرات

لا شك في أن الزراعة تأتي في المقام الثاني بعد الشكل في الحديقة الإسلامية. ويجب ألا تثير النباتات كثيراً من المصاعب، إذا كان المخطط الأرضي صحيحاً والنافورة أو البركة المركزية في مكانها وتعمل بسلاسة. بعد الفراغ من هذين المكوّنين، يأتي دور الأشجار والشجيرات، والنباتات الهيكلية والحدية – كما في جميع الحدائق. يمكن القول في الواقع، كما شهدنا في الفصول السابقة، إن الفناء العربي

الإسلامي الذي يضمّ نافورة بسيطة في مركزه، وربما شجرة برتقال أو اثنتين، يشكّل حديقة إسلامية. لذا على الرغم من جميع الأشجار والشجيرات المعروضة في المصادر الإسلامية، فإن مخطط الحديقة وظروفها العملية وإطارها تملي إلى حدّ كبير ما الذي يزرع وأين (أجناس على الأقل، إن لم يكن أنواع وضروب مستنبتة) وما الذي يحتاج إلى بدائل بسبب اختلاف المناخ. على سبيل المثال، يذكر الشعر الفارسي كثيراً رائحة النباتات الذكية في الحدائق الإسلامية، ويتحدّث القرآن عن الريحان أو النباتات الزكية الرائحة[263]. لذا إلى جانب جميع أزهار الربيع والصيف العطرة (انظر الفصل التالي)، لمَ لا يُزرع في أشهر الشتاء وبداية الربيع قدر ما أمكن من هذه الأشجار والشجيرات الرائعة التي تزدهر في نصف الكرة الشمالي؟ شجيرات مثل *Chimonanthus praecox*، ولحاء الشتاء *Drimys winteri*، وهي نبتة دائمة الخضرة تحمل أزهاراً بيضاء قشدية عطرة في الربيع، والعديد من أنواع الدفنة، بما في ذلك *Daphne bholua*، والأزارة *Azara microphylla* التي تحمل أزهاراً بعطر الفانيليا في أواخر الشتاء، والمشتركة *Hamamelis mollis*، والعديد من نبات الأفلوس مثل *V.x bodnantense* أو *V. farreri*، وبقس الميلاد *Saccococca spp* والشجيرة الصينية ذات العطر الفوّاح *Edgworthia chrysantha* المستخدمة في صناعة الورق. وثمة نوعان من نبات الكليرودندروم الذي يعيش في المناطق المعتدلة *Clerodendrum bungii* و*C. Trichotomum* يحملان أزهاراً زكية الرائحة حتى أواخر الصيف وأوائل الخريف. وأنا أحب الأخيرة التي تحمل أزهاراً بيضاء نجمية الشكل. وهناك العديد من النباتات الأخرى بطبيعة الحال، ولم أذكر سوى القليل من النباتات المفضّلة لدي. وليس من بينها على حدّ علمي ما ورد ذكره في القوائم العربية، لكنها مع ذلك تتلاءم بصورة جيدة مع الحديقة الإسلامية. ولا شك في أنه لو عرضت هذه الشجيرات على بستاني في الأندلس في القرون الوسطى لتلقّفها بسعادة.

وهكذا فإن هذا الدليل الموجز - دليل للأشجار والشجيرات - وفي الفصل التالي تذكر نباتات أخرى تشمل الأزهار والأعشاب والمعترشات والخضراوات الملائمة للحديقة الإسلامية «الشمالية». وهو ليس مخططاً مفصّلاً صارماً يحدد أن هذه هي النباتات التي يمكن زراعتها فقط، وإلا تصبح أصالة الحديقة معرّضة للتشكيك. النباتات لا تُعنى بما هو صحيح من الناحية التاريخية أو الجغرافية أو الثقافية. ومع أنها يجب أن تستند قدر الإمكان إلى ما نعرفه عن النباتات في الحدائق الإسلامية، فلا بد من وجود مرونة مصحوبة بالفهم: المرونة بسبب الاختلافات المناخية والجغرافية، والفهم بمعنى عدم إغفال الموضوع الرئيسي للحديقة الإسلامية: انعكاس دنيوي عابر لجنّة الآخرة الخالدة.

القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم [264] ورمزية الشجرة

في سنوات الإسلام الأولى، وضع أبو بكر، صاحب النبي محمد صلى الله عليه وسلّم ورفيقه المقرّب، وأول خليفة للمسلمين بعد وفاة النبي، قواعد الحرب. ولا تنهى هذه القواعد عن التعرّض للرهبان والراهبات، وقتل الأطفال والشيوخ والنساء فحسب، وإنما تنهى عن قطع الأشجار أيضاً[265]. وكما ذكر في الفصل الثاني، هناك أحاديث للنبي صلى الله عليه وسلم تشدّد على أن غرس النباتات أو الأشجار التي تنتج الغذاء فيه صدقة[266]. وهناك حديث آخر للنبي صلى الله عليه وسلم، «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل».

وكتب أحد المؤلفين أن شجرة المعرفة في العهد القديم وشجرة الخلود وشجرة سدرة المنتهى في القرآن «تصبح في نهاية المطاف واحدة مع شجرة طوبى»[267]. وهناك شجر السدر المهمّ جداً في القرآن ، وقد رأى كثيرون أنه شجر الأرز *Cedrus libani*، في حين يرى بعضهم أنه سدرة المنتهى المذكورة في سورة النجم (الآيات 13-18):

﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾

ويعتقد بعضهم أن سدرة المنتهى هي شجرة العنّاب (*Ziziphus mauritiana* أو *Ziziphus spina-christi*) [268]. وليس من الممكن إجراء دراسة معمّقة لتفسيرات الايات القرآنية التي تذكر السدر وسدرة المنتهى هنا[269]. لكن بالنسبة إلى المسلم الجادّ الذي يزرع حديقة، أو ربما يصمّم المناظر الطبيعية لمقبرة أو حول مسجد، من المهم معرفة شيء عن الأشجار التي تحظى بتقدير كبير في القرآن وكتابات العلماء المسلمين. إن زراعة شجرة أرز *Cedrus libani* – إذا توفّر المكان – ملائم من الناحية الروحانية للحديقة الإسلامية بالإضافة إلى جمالها وجلالها. وقد عرف الأرز اللبناني بأنه «ملك الغابات»، وذكر عدة مرات في الكتاب المقدّس، كما أنه شجرة يجلّها المسيحيون كثيراً. وقد جاء في سفر المزامير: «تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذي نصبه»[270].

كما أن شجرة طوبى مهمة جداً في الفكر الإسلامي، وهي غير مذكورة في القرآن لكنها معروفة بأنها من أشجار الجنة في الحديث. وهناك حديث عن رجل سأل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم، «ما طوبى»؟ فأجاب النبي، «شجرة في الجنة مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنّة تخرج من أكمامها»[271]. ويروي حديث آخر،

«جاء أعرابي إلى النبي فسأله عن الجنّة وذكر الحوض فقال: «فيها فاكهة؟» قال: «نعم شجرة تدعى طوبى». قال: «يا رسول الله أي شجر أرضنا تشبه؟» قال: «لا تشبه شيئاً من شجر أرضك»[272].

وجاء في القرآن:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾[273].

الذكر في الإسلام أمر أساسي لتطهير القلب والتقرّب إلى الله. ومن المفيد قراءة تفسير الدكتور مارتن لِنغز Martin Lings العميق للآية المذكورة أعلاه:

أفضل الأمثلة على الكلمة الطيّبة اسم الله الذي يردّد في الذكر تطلّعاً إلى أعلى نحو الحقّ. والأصل الثابت للشجرة هو الذكر نفسه الذي يردّد بغية الوصول إلى هدف ثابت. وتمثّل الفروع في السماء التأثير الهائل للذكر في أثناء عبوره إلى أعلى عبر الكون بأكمله. وثمر الشجرة هو الحق الذي يردّد الذكر باسمه[274].

الشكل 147. شجرة أرز في رواق كاتدرائية سالزبري.

والكلمة الخبيثة بالمقارنة كما جاء في القرآن، ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[275].

وكما يمكن الاستنتاج من هذا الوصف الموجز لرمزية الشجرة في الإسلام، هناك العديد من طبقات المعاني المرتبطة بالشجرة، ولا يتسع المقام لتناولها في هذا الكتاب. لكنه تذكرة لنا أن كل ما يزرع في الحديقة الإسلامية لا يقصد به فقط تنبيه حواسنا وإنعاش أنفسنا، وإنما يحمل أيضاً رسالة مستترة «لقوم يبصرون».

ويذكر القرآن العديد من الأشجار والنباتات الأخرى التي توجد على الأرض، خلافاً لشجرة طوبى الغامضة، وتفيد العديد منها كدليل للمسلمين وغير المسلمين على السواء في ما يتعلّق بالأنواع التي تزرع في حديقتهم. ويمكن أن يضيف فهمها الكثير إلى الاستمتاع بها. سأذكر أدناه أهم تلك النباتات فضلاً عن تلك التي يرجّح أن تنمو بقوة وتبدو جميلة في الحدائق الموجودة في المناخات الباردة[276].

الأشجار المهمة في الحديقة الإسلامية

إن أهم الأشجار التي تزرع في الحديقة الإسلامية من الناحية الدينية - إذا سمح المناخ بذلك – هي الأشجار الأربع المذكورة في سورة الرحمن التي تضمّ أطول وصف للجنة في القرآن (انظر الفصل الأول). وهذه الأشجار هي النخيل *Phoenix dactylifera*، والتين *Ficus carica*، والزيتون *Olea europea*، والرمّان *Punica granatum*. لا تسعد هذه الأشجار الأربع في المناخات الباردة والرطبة بطبيعة الحال، لذا عليك توخّي الحذر ثانية قبل أن تحاول زراعتها في حديقتك الإسلامية.

النخيل

يقال إن النخيل (انظر الشكل 148) ملك الواحة، وقد ذكر في القرآن (والكتاب المقدّس أيضاً). ووفقاً لمثل عربي قديم فإن استعمالاته عديدة عدد أيام السنة – غذائية وطبية وإنشائية. ويحظى بتقدير كبير في الإسلام لارتباطه بالسيدة مريم ومولد سيدنا عيسى. فقد كانت مريم في «مكان قصيّ» عندما أوشكت على الوضع، ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾. فاغتمّت وسمعت صوتاً يناديها، ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾[277]. وهكذا فإن النخلة، التي تقدّر أصلاً لأهميتها واحتمالها العيش في الصحراء، اتخذت الآن بعداً دينياً أعمق.

الشكل 148. شجرة نخيل.

النخلة شجرة طويلة وجليلة، يصل ارتفاعها إلى 30 متراً عندما تزرع في مصر وأنحاء أخرى من العالم الإسلامي، لا سيما المملكة العربية السعودية وإيران والعراق. ومن الملفت أنه على الرغم من ارتفاع النخلة فإن جذورها لا تخترق الأرض أكثر من متر ونصف المتر. لذا فإنها ليست قوية مقارنة بالنباتات الأخرى التي تعيش في الصحراء مثل الأثل. ولا يمكن زراعتها في شمال أوروبا إلا في قليل من المناطق المحمية مثل جنوب غرب إنكلترا أو أيرلندا، ولن تهنأ بالعيش هناك لأن المناخ الرطب لا يلائمها. وتبدو النخلة الأصلية *Phoenix canariensis* مستاءة بالنسبة إلي عندما تزرع تحت سماء مكفهرّة. لكن إذا كنت مصمّماً على زراعة شجرة نخيل – إنها في

النهاية من أهم الأشجار في الجنّة – فثمة بديلان جميلان يتمتعان بقدرة جيدة على التحمّل. أولاً، هناك نخلة تشوزان *Trachycarpus fortunei* التي تزرع في إنكلترا منذ القرن التاسع عشر، وتتحمّل درجات حرارة تبلغ – 9 درجات مئوية أو أدنى عندما تكبر. ثانياً، نخلة المروحة الأوروبية *Chamaerops humolis* التي تتحمّل درجات حرارة تبلغ – 9 درجات مئوية.

لكن هاتين الشجرتين بديلان رديئان للنخلة المهيبة، ولا يقارنان البتة بالشجرة الحقيقية الرائعة مع أن لديهما ميزة القدرة على البقاء في حديقتك الإسلامية في الشمال. أنا شخصياً أضحّي بالنخلة في حديقتي الإسلامية في إنكلترا. فهي لا تبدو في مكانها في مناظرنا الطبيعية الخضراء الغضّة، مع أن الشجرتين المذكورتين أعلاه، إلى جانب النخلة الكرنبية *Cordyline australis* أصبحت شائعة في النصف الجنوبي من المملكة المتحدة.

شجرة التين

إن نوع التين *Ficus carica* هو الوحيد الذي يمكن زراعته على نطاق واسع في المملكة المتحدة. ويجب أن يكون في موقع محمي دافئ كي يحمل ثماراً. ومن المرجّح أن يكون التين قد زرع هنا منذ أيام الرومان، على الرغم من أن أولى الإشارات إليه ترجع إلى سنة 1525 عندما جلب مطران لمبث بالاس عدة أشجار من إيطاليا وزرعها، وعاشت واحدة أو اثنتان منها. لذا إذا كان لديك حديقة ذات اتجاه جنوبي أو جنوبي غربي، فازرع شجرة تين إزاء أدفأ الجدران وربما تنمو وترتفع مثل الأشجار الأولى في لمبث بالاس، بلغ ارتفاعها 16 متراً[278]. واصل التين *Ficus carica* من البلدان المتوسطية الشرقية، ثم وُطّن في جنوب أوروبا وبخاصة اليونان وإيطاليا. ويبدو أن أفلاطون أحبه كثيراً بحيث أطلق عليه لقب «فيلوسوكوس»، أي محب (فيلو) التين (سوكوس)[279].

هناك العديد من أنواع التين الدخيلة في الشرق الأدنى وآسيا، مثل التين المقدّس *Ficus religiosa* والتين البنغالي *Ficus benghalensis*[280]. وهذان النوعان من التين أكثر ارتباطاً بالبوذية والهندوسية من الإسلام، لا سيما التين المقدّس، ويقال إن بوذا كان يجلس تحت تلك الشجرة عندما تلقّى النور. ويزرع تين *Ficus retusa* و*Ficus elastica* كأشجار للشوارع في شمال أفريقيا والشرق الأوسط من مراكش والقاهرة إلى دمشق وعمان ويبدو أنه يزدهر على الرغم من التلوّث بحركة

المرور. غير أن هذه الأنواع بحاجة إلى دفء أكثر من تين *Ficus carica*، التي يقال إنها شجرة التين في جنّة عدن التي خاط منها آدم وحواء «أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر»[281]. لذا فإن شجرة التين ضرورية في حديقتك الإسلامية، شرط أن يكون لديك المكان الملائم، لأنها ليست من الأشجار المهمة في الجنة في القرآن فحسب، بل لأنها تبدو في موطنها في الشمال بعد أن جرّبت واختُبرت في المملكة المتحدة منذ قرون.

ثمة سورة في القرآن تدعى «سورة التين»، وهي من أواخر السور، السورة 95. يقول مطلعها: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. وللتين استعمالات متعدّدة غذائية وطبية على السواء، وعندما أهدي إلي النبي صلى الله عليه وسلّم طبق من تين قال: «كلوا، وأكل منه، وقال: لو قلت: إن فاكهة نزلت من الجنة، قلت هذه، لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوا منها...»[282].

شجرة الزيتون

الزيتون من الأشجار الأربعة المذكورة في القرآن بعد التين (انظر الشكل 9)، والشجرة التالية التي يرجّح أن تزدهر في المناخات الشمالية. وبفضل تزايد الشتاءات المعتدلة، يبدو أن الزيتون ينمو على نحو معقول في جنوب إنكلترا. وكما هو متوقّع، على نحو التين والنباتات المتوسطية الأخرى، فإن الزيتون يحتاج إلى موقع جيد مشمس وحسن التصريف، ويفضّل أن يكون خلفه جدار يعمل بمثابة مشعاع. شجرة الزيتون الموجودة في حديقة تشلسي الطبية في لندن عيّنة ضخمة (يبلغ ارتفاعها 10 أمتار تقريباً) وناضجة ورائعة، وربما زرعت في أواخر القرن التاسع عشر.

للزيتون معنى رمزي هائل عند المسلمين لأنه مذكور فيما يعرف بآية النور في القرآن الكريم:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[283]

وقوله تعالى إن شجرة الزيتون «لا شرقية ولا غربية» يفسّر هنا بأنها تنمو في جميع أنحاء العالم، من أوروبا وأفريقيا في الغرب إلى أفغانستان وإيران في الشرق[284]. والأعمق من ذلك أن هذه الآية تقتضي مركزية الشجرة، «وبالتالي فإنها مفتوحة للتفسير بأنها شجرة طوبى» المشار إليها أعلاه[285]. وهناك عدة معانٍ أخرى تنسب إلى شجرة الزيتون، وأشهرها أن غصن الزيتون يرمز إلى السلام في قصة

الحمامة التي أرسلها النبي نوح من الفلك ورجعت «وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها»[286]. فعلم نوح أن المياه قد شحت عن الأرض، ويعني ذلك أن غضب الله زال أيضاً. ومنذ ذلك الوقت مثّل الزيتون والحمام السلام والوحدة.

وفي العهد القديم، يستخدم زيت الزيتون لدهن الأشياء (دهن موسى قبّة العهد ومحتوياتها) والأشخاص (الكهنة والملوك) كأداة للتكريس[287]. وثمة حديث للنبي صلى الله عليه وسلم: «كلوا الزيت وادّهنوا به فإنه من شجرة مباركة»[288]. واستناداً إلى الآية المذكورة أعلاه بشكل جزئي، تتميّز سجادة الصلاة في الإسلام بالمحراب، حيث ينسج أحياناً وفي وسطه مصباح معلّق وأحياناً شجرة تجريدية. ومن المستحيل عادة تحديد هذه الشجرة لأنها رمز لشجرة أصلية، وليست ملاحظة في الطبيعة. غير أنه على الرغم من ذلك، يطرح في بعض الأحيان أنها تمثّل شجرة التين في آية النور. كما أن وجود شجرة في محراب سجادة الصلاة يحمل أيضاً الإيحاء بأن المحراب بوّابة العبور إلى الجنّة.

شجرة الزيتون الناضجة تحتمل البرد بقدر معقول وتزعم الأبحاث الحديثة أنها تحتمل الصقيع مثل التين تقريباً، شرط أن تزرع في موقع محمي. إذا لم يكن لديك مثل هذا الموقع المشمس والمحمي، فإن البديل هو زراعة شجرة زيتون في وعاء يمكن نقله إلى الداخل في الشتاء (على افتراض أن لديك الحيّز الكافي في الداخل). ومن الضروب المستنبتة من الزيتون *Olea europea* التي يوصى بها للزراعة في الأصص «أغلندو»، وهو ضرب بطيء النموّ يصل إلى ارتفاع مترين، و«بوتيلان»، و«سيبريسينو» و«اليوناني»[289]. إن تشذيب الزيتون يعني إزالة بعض الأغصان عندما تنمو وتصبح كثيفة أو طويلة، ويبدو أن شجرة الزيتون المشذبة جيداً هي الشجرة التي يستطيع أن يطير عبرها السنونو من دون أن يحفّ جناحاه بأغصانها[290].

الرمّان

يستطيع الرمّان الذي تتساقط أوراقه *Punica granta* (الشكل 149) احتمال درجات حرارة تصل إلى 7- درجات مئوية، لكنه يكره الرطوبة، لذا يحتاج في شمال أوروبا إلى ظروف مواتية إضافية: الدفء والشمس والحماية وتربة جيدة التصريف. وعلى نحو الحمضيات (انظر أدناه) ربما يكون من الأفضل إيثار السلامة والحفاظ على شجيرتك أو شجرتك الصغيرة (يصل ارتفاعه إلى 5 أمتار) في وعاء كبير ونقلها إلى الداخل في الشتاء. ويمكنك اختيار الرمّان القزم *Punica granatum* var. «Nana»، وما من شك في أنه سيستقدم نكهة الشرق إلى حديقتك[291]. وعلى نحو الزيتون، من غير المرجّح أن تحمل نبتك ثماراً ما لم يحتفظ بها في بيت زجاجي،

الشكل 149. شجرة رمّان.

لكنها تتمتّع بمزايا عديدة أخرى لتزكيتها ليس أقلها أوراقها الحمراء المائلة إلى البرونزي التي تليها أزهار حمراء زاهية في أوائل الصيف تمتزج جيداً مع الحدائق في شمال أوروبا.

ذكر الرمّان ثلاث مرات في القرآن، إحداها في سياق وصف الجنّة في سورة الرحمن (انظر الفصل الأول)[292]. المغزى الأولي للرمّان من الناحية الرمزية أنه يمثّل التنوّع في الوحدة والوحدة في التنوّع – يرجع ذلك إلى بذوره العديدة في شكل دائري واحد، وذلك أيضاً سبب ارتباطه بالخصوبة. وبما أن الرسالة المركزية للقرآن هي وحدانية الله ووحدة الكون، فليس من المفاجئ أن يعتبر بعض الباطنيين الرمّان

أعلى الفاكهة في الجنة[293]. وهناك أيضاً حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم[*]: «ما من رمانة إلا وفيها حبة من رمان الجنة»[294] لذا إذا كانت لديك التسهيلات، فيجدر بك أن تتجشّم عناء زراعة الرمّان. وفي حديقة السجادة الخاصة بأمير ويلز في غلوسسترشاير (انظر الفصل السابع) جرّبوا ترك ثلاث أشجار رمّان في الخارج في الشتاء (2002-2003) من دون حماية، فعاشت اثنتان منها. وفي الشتاءات التالية ستمنح بعض أشكال الحماية، ربما الصوف.

وصل الرمّان إلى إنكلترا في أوائل القرن الرابع عشر. ويوجد موطنه في أنحاء من آسيا، منها إيران وأفغانستان والهند وسورية، وقد وصل إلى أوروبا عبر العرب الأوائل في الأندلس. والرمان، على غرار الأشجار الثلاث العظيمة الأخرى في الجنّة – النخيل والزيتون والتين – غني بالخصائص الغذائية والطبية، ومصدر غني للفيتامينات. لقد أسس عبد الرحمن الأول الحكم الأموي في قرطبة في سنة 756، بعد أن هرب من العباسيين في سورية. وعاش في الأندلس بقية حياته في حنين إلى الوطن، وبخاصة فاكهته الرائعة. وذات يوم وصل إليه بعض الرمّان كهدية في حالة رديئة بعد اجتياز الطريق من سورية. أعجب بها بستاني الأمير الإسباني واعتنى ببذورها، ونجح في نهاية المطاف في زراعة شجرة حملت ثماراً جميلة وشهيّة، «وزرع الناس بساتين منها»[295]. ولفظة granada هي في الواقع الكلمة الإسبانية التي تعني رمّان، واليوم لا يزرع الرمّان فحسب بوفرة في قرطبة، وإنما تمثّل النبتة في الحصى (الشكل 150) ونباتات تشكيل المناظر في حدائق جنّة العريف.

ملاحظات

إلى جانب الأشجار الأربع التي ذكرت أعلاه، ثمة أشجار وشجيرات أخرى ذكرت في القرآن يمكن أن تنمو في المناخ البارد والرطب. إذا تركنا جانباً الآن الأشجار المحدّدة في القرآن وركّزنا على التفسير المرن الذي توحي به المصادر الأخرى المشار إليها هنا، فسنتمكّن عندئذ من الحصول على مظهر الحديقة الإسلامية من دون المخاطرة بالنباتات الدخيلة الحساسة. ولا يحتاج الأمر إلا إلى مزيد من التفكير والتخطيط.

عند نقل نباتات الحدائق الإسلامية إلى مناخات مختلفة، يجب أن يكون هناك «إحساس بانتماء» النباتات[296]، كما قال راسل بيج وكثير من البستانيين من قبله.

(*) ورد هذا الحديث بروايات مختلفة، وجميعها ضعيفة – المترجم.

الشكل 150. رمّـان من الحصى، في جنّة العريف.

لذا عند إنشاء هذه الحديقة في مناخ أكثر اعتدالاً من الأراضي المرتبطة بالإسلام عادة[297]، يجب أن يؤخذ في الحسبان ألا تبدو النباتات في غير محلّها. ويجب عدم إغفال ذلك عند اختيار الأشجار والشجيرات لحديقتك.

عند معاينة الرسوم المنمنمة، يتبيّن أن ثلاثاً من أكثر الأشجار تصويراً هي الشينار أو الدلب *Platanus orientalis*، والسرو المتوسّطي *Cupressus sempervirens*، وشجرة فاكهة أو جوز مزهرة مثل الكرز أو اللوز (أحد الأنواع العديدة من جنس البرقوقيات *Prunus*). يمكن أن تزرع جميع هذه الأشجار في الحدائق الشمالية بسهولة شرط أن يكون لديك متسع. وهذه الأشجار الثلاث هي التي سنتناولها فيما يلي بمزيد من التفصيل.

الشينار أو شجرة الدلب الشرقي [298]

يوجد في القرآن، والشعر الفارسي أيضاً، ذكر متكرّر للأشجار الوارفة الظلال (﴿وظلٍّ ممدود﴾ و﴿ذواتا أفنان﴾) [299] في الجنّة، وشجرة الدلب (الشينار، الشكل 144) هي التي تمنح هذا الظل. وربما أدخلت هذه الشجرة إلى إنكلترا في القرن الرابع عشر. وعلى غرار نسيبتها شجرة الدلب اللندنية (*Platanus x hispanica*، وهي هجين بين الدلب الشرقي والدلب الغربي) فإنها ذات أوراق كبيرة مفصّصة، تشكّل أنماطاً جميلة على الأرض عندما تخترقها أشعة الشمس. ويتميّز الدلب الشرقي بأن «فصوص» الأوراق أطول وأنحف قليلاً من أوراق الدلب اللندني. وغالباً ما تقارن بيد البشر، وهكذا فإنها وفقاً لجلال الدين رومي رائدة جميع نباتات الحدائق في تسبيح الخالق [300]. إذا كانت لديك حديقة كبيرة بالقدر الكافي، فيجب أن تختار بعض أنواع شجرة الدلب. هناك العديد من البدائل الجيدة لشجرة الدلب الشرقي والتي لديها أوراق ظليلة لكنها ربما تنمو بسهولة في تربتنا: التوت *Morus nigra*، وهي شجرة شهيرة في الحدائق الإسلامية، والعديد من أنواع القيقب مثل القيقب الأحمر *Acer rubrum*، الذي يوفّر أوراقاً حمراء داكنة في الخريف، والقيقب النرويجي *Acer platanoides*، والميعة السائلة الأميركية *Liquidambar styraciflua*، ويعطي لوناً جميلاً في الخريف أيضاً، والدلب اللندني نفسه بطبيعة الحال.

السرو وبدائله

يوفّر السرو *Cupressus sempervirens* لوناً داكناً رائعاً مريحاً للنظر عند النظر إليه من مكان صحراوي جاف ورتيب، أو من التلال في جنوب إسبانيا (الشكل 151). ويمكن مما يبدو عليه السرو في المنمنمات والشعر، فضلاً عن «الحياة الحقيقية» في العديد من البلدان الإسلامية (شمال أفريقيا والشرق الأدنى وإيران)، الادعاء بصورة مبرّرة أنه من المكوّنات الأساسية للحديقة الإسلامية. وقد وصل إلى إنكلترا لأول مرة في القرن الرابع عشر، لذا فإنه الآن جزء لا يتجزّأ من مناظرنا الطبيعية. لكن على الرغم من زراعته هنا منذ عدة مئات من السنين، فإنه يبدو بلا شك في موطنه في منطقة المتوسّط والشرق الأدنى أكثر مما يبدو في الشمال. لذا يجب زراعة السرو بحذر كي يبدو كأنه ينتمي إلى المكان ولمنحه التأثير الذي نريد - أي النموّ بارتياح في موقعه - والإيحاء في الوقت نفسه بالحديقة

الإسلامية في الشرق. ولهذه الغاية، يجب التفكير في العمارة والمزروعات القريبة بانتباه، بالإضافة إلى طبيعة المكان، هل هو حضري أو ريفي أو في منزلة بين الاثنتين. على سبيل المثال، أعتقد أن السرو يبدو مدهشاً وفي مكانه الملائم عندما يوضع مع عمارة القرن العشرين من طراز بوهاوس أو العمارة «الأحدث»، ولا يبدو كذلك عندما يزرع في حديقة منزل من القرن التاسع ذي شرفات من الطوب الأحمر. ربما يخالفني العديد من القرّاء الرأي بطبيعة الحال: ليس هناك أحكام مطلقة هنا. إنما أريد أن أشدّد على الأهمية الكبرى للمحيط. ومن أسباب النجاح الكبير لحديقة السجّادة (انظر الفصل السابع) في هايغروف أنها «قائمة بنفسها» تماماً، أي معزولة خلف جدران على الطراز المتوسّطي ولا تحاول أن تكون جزءاً من ريف غلوسسترشاير حيث توجد.

الشكل 151. شجرة سرو تسمو ببهاء في مشهد طبيعي من المغرب.

السرو الإيطالي النحيف والباسق *Cupressus sempervirens* (لا يوجد شكله المسمّى بالزان الأبيض *Fastigiata* في البرية)[301] مألوف جداً في المناظر الطبيعية في المتوسّط وأنحاء من آسيا – حيث موطنه كلا المنطقتين – ولعله السرو المصوّر في الرسوم المنمنمة الإسلامية، ومن ثم النوع المزروع في كثير من الحدائق الإسلامية المبكّرة. ربما لا يكون ملائماً لحديقتك في شمال أوروبا لسبب أو لآخر – مثل الريح الشرقية الباردة. لذا هناك العديد من البدائل المحتملة للسرو الإيطالي في حديقتك الإسلامية الشمالية – الطقسوس الإيرلندي *Taxus baccata* هو المفضّل لدي. وعلى الرغم من أنه ليس نحيلاً ورشيقاً مثل السرو، فإن شكله المنتصب والأخضر الداكن الكثيف يمنحه مظهراً عمودياً جميلاً أقوى وأصلب، ويبدو في موطنه في شمال أوروبا. وهو يميل إلى أن يصبح ثخيناً عند النضج، لكن العناية بالتشذيب تمكّن من المحافظة على شكله المخروطي. ومن البدائل الممكنة للسرو المتوسّطي: العديد من الضروب المستنبتة لسرو لوسن، مثل *Chamaecyparis lawsoniana* و *C. l.* «*Grayswood Pillar*» و«*Pottenii*» *C. l.*. وهناك أنواع السرو الثلاثة، سرو أريزونا الهرمي «*Pyramidalis*» *Cupressus arizonica* وسرو نيفادا «*Nevadensis*» *C. a.* و *C. abramsiana*؛ وأنواع شتى من العرعر، مثل العرعر الشائع *Juniperus communis* أو العرعر المخروطي «*Pyramidalis*» *J. c.*؛ وأرز البخور المرتفع والنحيل *Calocedrus decurrens*، الذي اشتهر كثيراً في بريطانيا في القرن التاسع عشر. وجميع هذه الأنواع

مخروطيات عمودية دائمة الخضرة تلائم شمال أوروبا، وتستحضر صورة الحديقة الإسلامية التقليدية عندما تزرع مع التخطيط والماء الصحيحين.

هناك أيضاً العديد من البدائل للمخروطيات، مثل الزان الأبيض المتساقط الأوراق *Carpinus betlulus*، وهو شجرة جميلة غالباً ما تستخدم في المملكة المتحدة كشجرة للشوارع أو الجادات القصيرة. غير أن الشكل المخروطي يتحوّل في السنين القليلة الأولى إلى شكل إجاصي، وهو على الرغم من جماله ليس الشكل الذي نسعى إليه في الحديقة الإسلامية. الزان العمودي *C. b.*«Columnaris»، الذي يحتفظ بشكله العمودي، بديل أفضل. ومن الأشجار الأخرى ذات الأوراق المتساقطة والشكل المخروطي التي يمكن تجربتها في الحديقة الإسلامية الشمالية السنديان الإنكليزي *Quercus robur*، «fastigiata» والإجاص *Pyrus callyreena* «Chanticleer»، والزان المخروطي *Fagus sylvatica* «Dawyck»، والقيقب *Acer campestre* «William Coldwell» والبتيلية الثلاثية الأوراق *Ptelea trifoliate* المخروطية. وانظر حالياً في الشجرة الدائمة الخضرة «Nymansay » *Eucryphia nymansensis x* لجادة قصيرة في حديقة إسلامية في جنوب شرق إنكلترا. فأزهارها البيضاء القشدية والعطرة ذات الشكل القدحي تغطي الشجرة العمودية في آب/أغسطس – طريق مختصر لمشهد نموذجي في الرسوم المنمنمة التي تصوّر شجرة مرتفعة دائمة الخضرة وشجرة فاكهة مزهرة في الربيع[302].

الشكل 152. شجرة طقسوس (*Taxus baccata*)، ديفون.

السرو والأشجار المزهرة في الربيع التي تزرع معاً وترمز إلى الخلود وسرعة الزوال على التوالي، بالإضافة إلى النواحي الذكرية الأنثوية[303]. وقد كتبت فيليير ستيوارت في كتابها عن الحدائق المغولية:

> من أفضل الموضوعات وأجملها على الإطلاق شجرة السرو والشجرة المثمرة المتشابكتان، وهو موضوع متكرّر في السجاد والبلاط والمطرّزات والرسومات. وقد أخذ مباشرة من جادات الحدائق، حيث تمثّل أشجار السرو والأشجار المثمرة المزروعة على التناوب الرموز المفضّلة للحياة

الشكل 153. جادّة الزان الأبيض *(Carpinus betula)* في غرب لندن.

والموت والخلود. الخلفية الخضراء الداكنة لشجرة السرو، رمز الموت والحياة، تتناقض مع الأزهار الوردية المتماوجة لشجرة اللوز أو البرقوق الفضي المزهر، رمزي الحياة والأمل[304].

إذا أردت إعادة إنشاء هذا المشهد الجميل، فعليك أن تزرع على مقربة من السرو أو بديل السرو شجرة مثمرة أو شجرة جوز مزهرة في الربيع، مثل اللوز ذي الرائحة الخفيفة *Prunus dulcis*[305] أو الكرز (الشكل 154). وأوصي بزراعة الكرز الزيني الإنكليزي، الكرز البري، *Prunus avium* أو كرز العصافير *Prunus padus* أو الاثنين معاً (تبعاً للمساحة لديك). وهناك العديد من الأنواع المستنبتة التي تختار منها، ولمعظمها شكل غير رسمي دائري مقارنة بالشكل العمودي الكثيف للسرو. وكثير من الكرز الذي يزرع في المملكة المتحدة ياباني الأصل (مثل كرز «تاي هوكو» الرائع أو الكرز الأبيض العظيم أو الكرز المفضّل لدي «Umineki» *P. incisa x speciosa*). وهذه ليست معطرة في العادة، وعلى الرغم من جمالها الأخاذ عندما تزهر أو عندما تبدأ أوراقها بالتساقط في الخريف، فإنها لا تعطي الانطباع الصحيح عن حديقتك الإسلامية في الشمال. لذا يفضّل تجنّب الكرز الياباني في هذه الحديقة والالتزام بالكرز المحلي أو اختيار شجرة مثمرة أخرى مثل التفاح أو الإجاص أوالخوخ أو التفاح البري (انظر الصفحة التالية).

يشاهد المرء اليوم، في شمال أفريقيا على وجه الخصوص، الجهنّمية الزاهية، مقارنة بالأشجار المثمرة، وهي تتسلّق شجرة سرو داكنة، وذلك مشهد رائع، وبخاصة إزاء سماء المتوسّط الزرقاء. يمكن تحقيق السحر الشرقي لهذا المشهد في أشهر الصيف القليلة التي نستمتع بها في الشمال، وإن كان بطريقة ألطف بسبب ضعف أشعة الشمس عندنا. ومن طرق الاقتراب من تحقيق هذا المشهد استخدام الجلبان العطر الذكي الرائحة (انظر الفصل التالي) وجعله يتسلّق شجرة سرو أنيقة (الشكل 173). وعندئذ تدبّ الحياة حقاً في الرسوم المنمنمة.

الشكل 154. شجرة كرز حلو (*Prunus avium*)

الأشجار المثمرة وأشجار الجوز

الجنّة التي يصفها القرآن وفيرة الفاكهة، ويستطيع من يدخلونها الحصول على قدر ما يريدون منها ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ [306] و ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [307]. وفي رسائل البستانيين العظام المذكورة أعلاه، ابن بصال وابن العوّام وابن وافد[308]، تُذكر العديد من الأشجار المثمرة وأشجار الجوز المزروعة. ومعظم هذه الأشجار، مثل البرقوق *Prunus domistica*، والكرز الحامض *Prunus cerasus*، والبرقوق الشامي *Prunus damascena* ، والبرقوق الشوكي *Prunus spinosa*، والسفرجل *Chaenomeles*، والإجاص *Pyrus communis*، والتفاح والتفاح البري *Malus spp*.، والمشملا *Mespilus germanica*، والجوز *Juglans regia*، والتوت *Morus nigra*، والقطلب *Arbutus unedo*، والكستناء *Corylus avellana*، تبدو في موطنها في الأماكن الشمالية، وهي تزرع هناك منذ قرون.

لا شك في أن الأنواع الهجينة التي تزرع اليوم في مناخنا قد تكون مختلفة عن تلك التي زرعت قبل مئات السنين في الأراضي الجنوبية أو الشرقية، فقد أدخل الكثير في الألف سنة الأخيرة أو نحو ذلك. ولا يطرح ذلك مشكلة لأننا لا نحاول تصميم حديقة إسلامية دقيقة تاريخياً ومضبوطة من الناحية البستانية. بل إن هدفنا الرئيسي إنشاء حديقة مستوحاة من الحدائق الإسلامية المبكّرة، تتركّز

حول الماء والظلّ والتأمّل، ولا تبدو في غير مكانها في المناخ الأوروبي الشمالي. لذا كما ذكر آنفاً في هذا الفصل، لا ضرورة لأن تكون أجناس الأشجار والشجيرات المنتقاة لحديقتك هي نفسها التي زرعت في الحدائق الإسلامية الأولى، لكن يجب أن يكون هناك سبب وجيه لانتقائها بالنظر إلى غايتنا الرئيسية. وحتى إذا أردت اختيار أجناس زرعت في تلك الحدائق في الأصل، فإن لديك خيارات واسعة من الأنواع بالإضافة إلى بعض الأنواع المستنبتة المنتقاة بعناية. وسيأتي اختيارك الأخير من الأشجار والشجيرات بناء على الموازنة الدقيقة بين تلك التي زرعت في الأصل، وتفضيلاتك، والظروف المناخية المحلية. على سبيل المثال، كان يوصى في السابق (انظر الدليل الموجز أعلاه) بالعديد من الشجيرات لا لأنها نموذجية في الحدائق الإسلامية، بل لأنها عطرة، والنباتات العطرة تحظى بتقدير كبير في هذه الحدائق. وسيستند اختيارك إلى هدفك بأن تكون جزءاً لا يتجزّأ من الحديقة الإسلامية لسبب أو لآخر وأن تنتمي إلى المناخ الشمالي في الوقت نفسه.

ثمة اختلاف كبير بين المناخ الجنوبي والمناخ الشمالي عند زراعة الأشجار المثمرة، وهو أنه عندما تزرع الأشجار المثمرة أو أشجار الجوز الدخيلة، مثل الخوخ الفارسي*Prunus persica*[309] والفستق *Pistacia vera* والمشمش *Prunus armeniaca* في مناخ بارد فإنها لا تنتج كثيراً من الثمر ما لم تزرع في مكان محمي ومعرّض للشمس أو في بيت زجاجي. لذا فإنها قد تكون للزينة بدلاً من الثمار.

الشكل 155. شجرة إجاص معرّشة، ديفون.

إذا كنت تفضّل أن تكون حديقتك أكثر إنتاجية – وهو ما كانت عليه الحديقة الإسلامية أصلاً – فاختر أنواعاً غير دخيلة ومع ذلك شهية من التفاح والإجاص والبرقوق. فقد ترسّخت هذه الأشجار في إنكلترا منذ القرون الوسطى أو أبكر، ويمكن زراعتها في بستان مكشوف أو إلى جانب جدار مواجه للجنوب أو الجنوب الغربي بطرق عديدة، مثل المعرّشة أو المشذّبة على شكل مروحة. وهناك العديد من الضروب المستنبتة منها، وسيستند اختيارك إلى ذوقك وتوافرها وظروف الزراعة[310]. ويمكن أيضاً تعريشها على العقود لتشكيل تعريشات رائعة تمتلئ بالأزهار في الربيع، وتليها الثمار في وقت لاحق من الموسم.

الإنكليز، على غرار المسلمين، مزارعون حريصون على زراعة الفاكهة منذ قرون وهناك العديد من السجلات من القرون الوسطى عن بساتين تفاح وإجاص مزدهرة في الأديرة ومنازل النبلاء. بل إن أحد الكتاب يسجّل في لندن أن «لدى المواطنين في كل مكان، باستثناء المنازل في الضواحي، حدائق وبساتين مزروعة بالأشجار الكبيرة والجميلة المتجاورة»[311]. ويبدو ذلك شبيهاً ببعض أوصاف الحدائق الإسلامية التي تذكر فيها الأشجار المثمرة دائماً، وغالباً ما تصوّر في سجادات الحدائق (الشكل 210) بالإضافة إلى الرسوم المنمنمة.

في أعقاب فتح إسطنبول، أمر محمد الفاتح بإقامة حديقة ذات «أكشاك وبرك ونوافير» على ضفاف البوسفور في ما كان كرماً في السابق. وقد كتب أوليا شلبي:

> «يمكن أن يسكر المرء من حلاوة رائحة اثنتي عشرة ألف شجرة سرو مزروعة هنا على نمط رقعة الشطرنج. وزيّنت الحديقة بآلاف الأشجار المثمرة، وأشجار الدلب، والصفصاف، والبقس والفستق التي تظلّلها من الشمس. وينبثق الماء من النوافير ليل نهار مثل ينابيع جنّة عدن. وتشدو العنادل بألحان تغذّي الروح. ومن بين جميع الفاكهة المزروعة، يحظى المشمش والدرّاق بثناء خاص»[312].

على نطاق أكثر تواضعاً بكثير من السلاطين العثمانيين، إذا كانت لديك حديقة كبيرة بالقدر الكافي، فإن شجرة التوت *Morus nigra*، وهي من أشهر الأشجار في الحديقة الإسلامية لأن أوراقها الكبيرة التي تشبه القلب توفّر الظلّ المنشود، تشكّل عيّنة رائعة. فهي ليست فقط ذات قدرة على التحمّل، بالإضافة إلى تحمّلها للحرارة، بل تعطي ثمراً متساقطاً حتى في المناخات غير المشمسة. ويوفّر الطقسوس الإيرلندي *Taxus baccata* المزروع على مقربة من شجرة توت منظراً متبايناً ونسيجاً مختلفاً. ويمكن أن تستحضر رؤية هاتين الشجرتين مزروعتين في مرج توجد بركة وربما نافورة في وسطه وتحيط به حجارة طبيعية بدايات الحديقة الإسلامية، في حين تبدو في مكانها تماماً في إنكلترا أو أي بيئة شمالية أخرى.

الحمضيات

أشجار الحمضيات، كما يعرف كل من سافر إلى شمال أفريقيا والشرق الأدنى، من المعالم الأساسية في الحديقة أو الفناء الإسلامي الصغير. لكن في المناخ البارد والرطب، لا يمكن زراعة الحمضيات إلا في أوعية بحيث تنقل إلى الداخل في الشتاء. ولتحقيق ذلك أنت بحاجة إلى بيت زجاجي تحفظها فيه في الشتاء، حيث لا تهبط درجة حرارته دون خمس درجات تحت الصفر. وستكافأ كثيراً على جهدك إذ ليس هناك ما يماثل عطر نورات البرتقال الذي يحمله الهواء لاستحضار ليالي الشرق الساحرة والدافئة[313].

هناك العديد من أشجار الحمضيات التي تختار منها، وأول الاقتراحات شجرة البرتقال الحلو *Citrus sinensis*، ويوجد منها العديد من الأنواع المزروعة أو البرتقال المرّ (أبو صفير) *C. aurantium*، الذي يمكن أن يصنع من ثمره المربّى. وهاتان الشجرتان هما أكثر أنواع الحمضيات قدرة على التحمّل (يمكن أن تبقى على

الشكل 156. ياسمين غريب (*Pittosporum tobira*)، يسمى أحياناً برتقالاً زائفاً.

قيد الحياة في البرد الذي لا يقل عن 5 درجات دون الصفر) إلى جانب الكلمنتين (انظر الصفحة السابقة) ويمكن أن تزرع في الخارج في المناخ الشمالي إذا وضعت في موقع محمي ذي اتجاه جنوبي وتربة جيدة التصريف.

يقال إن الكلمنتين *x Cintrofortunella microcarpa* يتحمّل 7 درجات تحت الصفر وهو على العموم أكثر النباتات التي يوصى بها في طقس شمال أوروبا. وعلى نحو شجرة البرتقال، تتميّز أزهار الكلمنتين بعطرها وتنتج ثمرة يمكن استخدامها في صنع المربّى. ومن أنواع الحمضيات الأخرى الأقل قدرة على التحمّل (ربما - 3 درجات مئوية): الليمون البرتقالي الورق *Citrus aurantifolia*، والليمون *C. lemon*، والماندرين (يوسف أفندي) *C. reticulata*، والكريفون (ليمون الجنّة) *C. x paradisi*، وجميعها تتطلّب حماية في الشتاء.

بدائل الحمضيات

إذا كان لديك المكان الملائم فإن شجيرة الياسمين الغريب الجميلة الدائمة الخضرة *Pittosporum tobira* والتي تحتمل الصقيع بديل للحمضيات التي تتطلّب صيانة عالية وتعطي أزهارها البيضاء القشدية النجمية الشكل رائحة ذكية في الربيع (الشكل 156).

الشكل 157. أزهار برتقال مكسيكي.

البرتقال المكسيكي *Choisya ternata* (الشكل 157) من البدائل القادرة على التحمّل للحمضيات التي تحتاج إلى صيانة عالية، وهو شجيرة صلبة رائعة وسهلة الزراعة. تزرع على نطاق واسع في المناخات الباردة فضلاً على منطقة المتوسّط لأنه ينمو بارتياح في الحالتين، كما أنه يتحمّل الجفاف بقدر معقول. أوراقه الدائمة الخضرة واللامعة وشكله الدائري قابلة للتشذيب لتشكيل سياج غير رسمي. وينتج في الربيع أزهاراً عطرة بيضاء قشدية رائعة شبيهة بأزهار البرتقال، وغالباً ما تعاود الظهور ثانية في وقت لاحق من الموسم.

الشكل 158. زهرة النجمية الجميلة (*Philadelphus*).

ثمة بديل قديم آخر رائع لشجرة البرتقال، وهو البرتقال الزائف (أنواع *Philadelphus* وضروبه المستنبتة) الذي يتميّز برائحة ذكية شبيهة جداً برائحة أزهار البرتقال نفسها. وهناك العديد من الضروب المستنبتة منه: «الجرسي النجمي» بأزهاره البيضاء القشدية ذات الرائحة الفوّاحة طوال الليل والنهار. وعلى الرغم من أن عمر أزهار أنواع *Philadelphus* قصير، بين أواسط إلى نهاية شهر حزيران/يونيو إلى الأسبوع الأول من شهر تموز/يوليو فقط، فإن عبيرها يستحقّ الحيّز الذي تشغله.

هناك أيضاً شجرة البرتقال اليابانية غير المألوفة وذات القدرة الكبيرة على التحمّل *Poncirus trifoliate*. وهي شجيرة شائكة متساقطة الأوراق تنتج أزهاراً عطرة في الربيع وأحياناً ثانية في الخريف (مثل البرتقال المكسيكي *Choysia*) وتحمل ثماراً شبيهة بالبرتقال. يمكن أن تشكّل سياجاً حامياً إذا شذّبت جيداً بعد الإزهار في أوائل الصيف.

توجد شجرة البرتقال على الدوام في الفناءات المحلية في فاس ومرّاكش وقرطبة وإشبيلية ودمشق، بالإضافة إلى أفنية المساجد كما في مسجد الكتبية الذي رمّم مؤخّراً في مراكش و«فناء البرتقال الشهير» قرب المسجد الكبير في قرطبة (الشكل 46). ويقال هنا إن أقدم شجرة برتقال في إسبانيا لا تزال تعيش منذ القرن الحادي عشر. ولعل البرتقال أو الليمون أو البرتقال الثلاثي الأوراق هو الشجرة التي يرجّح وجودها حتى في أصغر الأفنية في المدن أعلاه. ومن المشاهد الرائعة الملاحظة في دمشق مؤخّراً رجل مسنّ يجلس على كرسي خشبي هزّاز تحت الظل اليسير الذي توفّره شجرة حمضيات صغيرة.

الشكل 159. شجرة برتقال، قصر الحمراء.

الأشجار الأخرى

الطلح والأثل والأعناب

ذُكر الطلح[314] في القرآن، وهو السنط أو الأقاقيا، بالإضافة إلى ﴿جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾[315]. ويقال إن الطلح هو الموز أيضاً[316]، لكن يعتقد على العموم بأنه السنط *Acacia seyal*[317] أو *Acacia arabica*، وهو شجرة شائكة دائمة الخضرة لا تستطيع أكلها سوى الجمال لأنها تتمتّع بقدرة فريدة على نزع أوراق الشجر من دون أن تتأثّر بالأشواك. ويمكن في انكلترا والمناخات الشمالية زراعة الميموزا *Acacia dealbata* بدلاً من السنط. وهي الشجرة التي يعتقد أن النبي صلى الله عليه وسلّم وقّع تحتها صلح الحديبية، كما أنها الشجرة التي ألقى عليها النبي شعره بعد حلق رأسه في المناسبة نفسها[318]. ومن البدائل الأخرى السهلة الزراعة الأقاقيا الزائفة المتساقطة الأوراق *Robinia pseudoacacia* التي

يوجد منها العديد من الأنواع المستنبتة، وأشهرها «الفريسيا»، وهو شجرة جميلة ذات أوراق صفراء كمدة توفّر ظلاً خفيفاً.

الأثل مذكور أيضاً في القرآن. ويمكن أن يصل ارتفاع أطوله *Tamarix aphylla* إلى 10 أمتار، كما أن جذوره طويلة جداً لتمكّنه من تحمّل الجفاف والريح ورذاذ البحر. ويمكنه وفقاً لما ذكر في القرآن تحمّل الطوفان لأن نباتات ﴿خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ هي الوحيدة التي بقيت بعد «سيل العرم»[319]. وأنواع الأثل الأخرى صغيرة إلى متوسّطة الحجم ذات أغصان رشيقة هيفاء وأوراق شبيهة بالريش وتحمل أزهاراً بيضاء أو زهرية باهتة في الربيع أو الخريف تبعاً للنوع أو وقت التشذيب. وهي أشجار متينة كما أنها أساسية في الحواجز الدائرة في الظروف الحارة والصحراوية، كما أنها تحتمل انخفاض الحرارة إلى 9- درجات مئوية. لذا يمكن زراعتها في معظم أنحاء المملكة المتحدة.

إن أثل *Tamarix gallica* (يسمى أيضاً نبتة المن والسلوى، إذ هناك من يعتقد أن الصمغ الحلو الذي يستخرج من الأثل هو المن والسلوى المذكور في القرآن)[320] من أقوى الأنواع على الاحتمال وربما يكون من الأفضل زراعته في المناخات الشمالية. لكن عليك التنبّه إلى أن جذوره الوتدية الطويلة الباحثة عن الماء قد تحرم النباتات المجاورة من الماء والمواد المغذية الضرورية. ويجب زراعته في تربة رملية في موقع مشمس.

ذُكر العنب في القرآن عدة مرات[321]، بالإضافة إلى قوائم النباتات، كما صوّر في العديد من الرسوم المنمنمة، ملتفاً في بعض الأحيان على أشجار أخرى مثل التوت. من السهل زراعة الكرمة في المملكة المتحدة، حتى إذا كان العنب نفسه صغيراً جداً، ما لم تزرع في بيوت زجاجية. لكن لزراعة الكرمة لأغراض الزينة عبر الأشجار أو على تعريشات فإن كرمة *Vitis coignetiae* من أفضل الأنواع، حيث تتحوّل أوراقها الكبيرة التي توفّر الظلّ إلى اللون الأحمر القرمزي في الخريف. وإذا كنت تشعر بالطموح وتودّ إعادة إنشاء رسم منمنم يصوّر كرمة مثمرة ملتفة حول شجرة توت (الشكل 146) فإن نوعي *Vitis vinifera* «Brant» أو *Vitis vinifera* «Purpurea» – ولكليهما أوراق تتخذ ألواناً جميلة في الخريف – هما اللذان يجدر بك تجربتهما. يمكن تعريش الكرمة – بمشقّة – على شجرة توت وستبدو في أواسط الصيف شبيهة بصورة مرسومة[322].

مزيد من الأشجار، والجادات

من الأشجار الأخرى القادرة على التحمّل والمرتبطة بالحدائق الإسلامية من خلال ورودها في الكتب المبكّرة، أو تصويرها في الرسوم، أو ذكرها في الشعر، على

الرغم من عدم ذكرها في القرآن: شجرة يهوذا[323] *Cercis siliquastrum*، والمُران *Fraxinus excelsior*، والبلّوط الأخضر *Quercus ilex*، والفلّين *Quercus suber*، والدردار *Ulmus*، والغار *Laurus nobilis*. وتتميّز الحديقة الإسلامية بالعديد من المخروطيات، إلى جانب السرو، ويمكن أن تزرع مع توخّي العناية في المناخات الباردة. على سبيل المثال الصنوبر *Pinus pinea* وصنوبر حلب *Pinus halapensis* يتحمّلان الصقيع حتى - 8 درجات مئوية. وجميع هذه الأشجار واردة في كتب البستنة المبكّرة بالإضافة إلى تصويرها في الرسوم أو ذكرها في الأشعار، غير أنها لا ترد في القرآن خلافاً للأشجار السابقة. ثمة شجرة أخرى (في قائمة ابن بصال) يوصى بها في الحديقة الإسلامية الشمالية وتدعى الغُبيراء *Sorbus domestica*. موطن هذه الشجرة جنوب أوروبا وشمال أفريقيا وغرب آسيا، وتزرع العديد من أنواع الغبيراء في المملكة المتحدة منذ قرون، ولعل أكثرها شهرة غبيراء الحابلين *Sorbus aucuparia*. وغالباً ما زرعت غبيراء الحابلين في المملكة المتحدة قرب المنازل إذ اعتُقد تقليدياً أنها تحمي من الشرور والمرض وتجلب الحظ[324]. لذا يمكن اقتراح أن تكون غبيراء الحابلين المكافئ البريطاني للخرزة الزرقاء أو كف فاطمة اللذين غالباً ما يعلّقان في البيوت الإسلامية في العديد من أنحاء العالم الإسلامي للحماية من العين الحاسدة. ومن أنواع الغبيراء المحلية الأخرى التي تسهل زراعتها الشجرة البيضاء *S. aria*، التي لديها غطاء زغبي أبيض تحت أوراقها.

كتب أوليا شلبي واصفاً بويوكدير، وهي أرض الصيد المفضّلة لدى السلاطين العثمانيين، «أنعم الله بأشجار الدلب والحور والسرو والصفصاف الكبيرة التي تعانق السماء. ووفّر العشب الأخضر مكاناً واسعاً للجلوس، فيما جعل الماء الجاري هذا المكان رائعاً للنزهة»[325]. الحور *Populus alba* (سمي كذلك لأن لحاءه أبيض) من الأشجار المفضّلة في الحدائق الإسلامية المبكّرة. وهو يوفّر حماية جيدة من الريح، ويحتمل نسائم البحر المالحة بالإضافة إلى الجفاف، ويتسم بالبهاء والجلال عندما يكبر، ويصدر حفيفاً مميّزاً عندما تهبّ عليه الرياح. وللحور نسيب قريب شائع في فرنسا يدعى الحور الإيطالي *Populus nigra* var *Italica*. ويعرف الحور بالإسبانية باسم alamos، حيث تعني لفظة alameda الجادة الصغيرة. وقد أصبحت الجادات أو الطرق المشجّرة بأشجار مثل الحور شائعة في الحدائق الملكية في إسبانيا وسائر أوروبا منذ القرن السادس عشر. وعلى الرغم من أن ممشى السرو في جنّة العريف زرع في القرن التاسع عشر فإنه مثال جيد على الجادة الرسمية المستوحاة من الحديقة الإسلامية (الشكل 160). وعلى نحو ذلك، زرع الأمراء والسلاطين الأثرياء والأقوياء في الهند وفارس وتركيا الجادات التي تتوسّطها مياه جارية أو راكدة.

وتفخر باغي فين في كاشان، وهي حديقة إسلامية رسمية ترجع إلى القرن السادس عشر بجادتها المهيبة من أشجار السرو والدردار المزروعة على جانبي قناة ماء متدفّق مركزية.

عند تفحّص الصور الفوتوغرافية للحدائق المغولية في أواخر القرن التاسع عشر، مثل حديقة ضريح جهانكير (الشكل 18)، يمكننا أن نلاحظ تكرّر هذه الفكرة، على الرغم من أن الأشجار في هذه الحالة شجيرات ذات شكل منتظم تنمو على جانبي قناة سريعة التدفّق. وتتكوّن حديقة تاج محل أساساً من جادة من السرو على جانبي قناة ماء تضم صفاً من النوافير في مركزها، وبركة مرتفعة في وسط الجادة تنشئ تصميماً رباعياً (الشكلان 5 و172). وكانت الجادة، ولا تزال، تحظى بشهرة كبيرة في المملكة المتحدة وشمال أوروبا لدى من لديهم متسع: للطرق المؤدية إلى البيوت الكبيرة، أو الشوارع، أو حتى المماشي الواسعة، ولصرف الانتباه بعيداً عن البيت عبر الحقول نحو نقطة بؤرية – تمثال أو بناء فخم. والفكرة الأخيرة غير إسلامية البتة. فالنقطة البؤرية في الحديقة الإسلامية هي الماء بأحد أشكاله، أو السرادق، أو في مواقع استثنائية واسعة مثل كشمير وأنحاء من إيران وتركيا وسواها، تجذب العين إلى الأفق البعيد مع الجبال. وما من شك في أن ما يحوّل جادة من الأشجار من شيء أوروبي إلى شيء إسلامي هو قناة الماء في المركز. ومن الرائع زراعة جادة من أشجار الحور الإيطالي في حديقة إسلامية كبيرة في شمال أوروبا على جانبي قناة ماء سريعة التدفّق تتخلّلها برك أو حتى شادورات. ويمكن على نطاق ضيّق بدلاً من ذلك زراعة الزان العمودي «Columnaris» *C. b.* أو أرز البخور *Calocedrus decurrens* على جانبي مجرى مائي.

الشكل 160. جادّة السرو، جنّة العريف.

في أواخر القرن التاسع عشر، بدأ الميل إلى الانتظام في أوروبا يتراجع أمام الموضة الجديدة لمخططات المناظر الطبيعية الكبيرة، وقطعت الأشجار لإتاحة المجال أمام المناظر. وكانت الفكرة العامة أن تؤدي الحديقة بسلاسة إلى الريف

خارجها (غالباً باستخدام أسيجة منخفضة بحيث لا يكون هناك فاصل ظاهر بين الاثنين)، ومن أشهر دعاة هذه الموضة في إنكلترا «كيبَبلتي» براون «Capability» Brown وهمفري ربتون Humphrey Repton. ومن المثير للاهتمام أن شخصية السيد رستوف التي ابتدعتها جين أوستن Jane Austin تقول، «لقد قطعت شجرتان أو ثلاث أشجار جميلة قديمة كانت قائمة قرب المنزل، ففتح ذلك المجال بشكل مدهش، ما يجعلني أعتقد أن ربتون، أو أي شخص من هذا النوع، سيجعل الجادة في أسفل ساذرتون»[326]. كل ذلك غريب إلى حدٍّ ما عن المثال الإسلامي الذي يرمي على العموم إلى حصر الواحة الغضّة في الداخل – بعيداً عن البيئة القاسية في الخارجية. وعلى الرغم من أن المنظر الجميل مهمّ جداً في الحديقة الإسلامية، فإن ذلك يقتصر على قلّة محظوظة في العيش في مواقع رائعة ولا يشكّل أولوية: الماء والظلّ والعزلة تأتي أولاً.

تكرّر تصوير الصفصاف *Salix* في المنمنمات الفارسية وذكره في الشعر، وهو عادة الصفصاف المتهدّل الأغصان *S. babylonica* أو على العموم الآن *S. x sepulcralis*، الذي تبدو أوراقه الخضراء الريشية جميلة عندما تزرع قرب السرو الداكن. ويعتبر الصفصاف تقليدياً رمزاً للحزن، في حين أن مرونة أغصانه رمز للشباب. ويحتفي سعدي، الشاعر الفارسي من القرن الثالث عشر، بهذه الخاصية الأخيرة قصيدة تذكّرنا بحقيقة العمر المتقدّم:

غصن الصفصاف يذكّر المرء أن الشباب
يمكن أن ينحني بسهولة نحو الحقيقة
والماجنون الشيبة يستحقون مصيراً قاتماً
لأنهم لا يستقيمون إلا في النار[327]

لا تزدهر الأشجار المحبّة للشمس مثل الجكراندا *Jacaranda acutifolia* أو *J. mimosifolia* المذكورة في بداية الفصل في مناخ شمالي إلا في مكان محمي ومشمس لأنها لا تحتمل الصقيع دون - 3 درجات مئوية. لكن إذا كنت تتوق إلى أزهارها الشبيهة بالليلك والخزامى في الربيع فلا يجدر بك محاولة زراعتها ما لم تكن تمتلك مثل هذا المكان. وشجرة الخروب *Ceratonia siliqua*، وهي شجرة دائمة الخضرة مذكورة في القوائم القروسطية وتشيع زراعتها في جميع أنحاء الشرق الأوسط (وكشجرة للشوارع في لوس أنجلس إلى جانب النخيل وتين *Ficus retusa*)، تحتمل الصقيع حتى - 5 درجات. وعلى نحو الجكراندا يفضّل الاستمتاع بها عندما تسافر.

الأشجار الاستوائية

إن زراعة أشجار مثل الموز *Musa* والمانغو *Mangifera indica* والياسمين الهندي *Plumeria*، بالإضافة إلى الأنواع الدخيلة من التين التي ذكرت آنفاً في هذا الفصل مثل التين المقدّس *Ficus religiosa* والتين البنغالي *Ficus benghalensis* تمثّل تحدياً كبيراً في حديقتك الإسلامية الشمالية. وهي لن تنمو في مناخنا البارد والرطب فحسب، وإنما على غرار النخيل لا تبدو في مكانها أيضاً تحت سمائنا الرمادية. لذا إذا كنت راغباً في حديقة إسلامية ذات نباتات دخيلة واستوائية أكثر، نباتات مألوفة في شبه القارّة الهندية والشرق الأقصى، فأنت بحاجة إلى مستنبت زجاجي تنقل إليه النباتات في الشتاء. ومع ذلك فإن الأشجار الكبيرة تحتاج إلى مجهود هائل ناهيك عن التكلفة. كما أنه على الرغم مما يمكن تسميته «عالماً إسلامياً آسيوياً»، فإن هذا الأسلوب الزراعي الاستوائي يشي بالحديقة الهندية والهندوسية والبوذية أكثر مما يشي بالحديقة الإسلامية التقليدية وحديقة الشرق الأدنى والشرق الأوسط وشمال أفريقيا التي نتطلّع إليها بحثاً عن الإلهام هنا.

على الرغم من النفور من الأشجار الدخيلة، فإنه من الممكن زراعتها في المناطق ذات المناخ اللطيف في المملكة المتحدة مثلما فعل كثيرون بقدر معيّن من النجاح. تزرع أنواع الموز، وبخاصة *Musa basjoo* منذ سنين في الحدائق التي لا تتعرّض للصقيع في المدن الجنوبية وجنوب غرب إنكلترا. ويمكن زراعتها إلى جانب نخلتين أو ثلاث من النخيل المذكور آنفاً – من دون أن نغفل أنها تعطي «مظهراً» مختلفاً، كما لاحظنا أعلاه.

الشكل 161. زهرة ياسمين هندي.

شاهد بابر، أول إمبراطور مغولي في الهند (توفي في سنة 1530)، شجرة الموز لأول مرة عندما فتح الهند. وعندما عاد إلى كابل في سنة 1580، إلى إحدى الحدائق التي صمّمها، حديقة الوفاء، أمر بإرسال شجرة موز إليه هناك، بالإضافة إلى قصب السكر *Saccharum officinarum* إلى بخارى وباداغشان. وعلى الرغم من أن المقام لا يتسع هنا للحديث عن ذلك، فإن من المثير للاهتمام إجراء مقارنة بين الرسوم المنمنمة المغولية والفارسية والعثمانية، إذ إن هناك أشجاراً

مختلفة اختلافاً واضحاً في الرسوم المنمنمة المغولية. فهي تضمّ الأشجار الدخيلة والاستوائية التي تناولناها هنا، مثل الموز والمانغو والتين المقدّس، بالإضافة إلى نخلة جوز الهند *Cocos nucifera* والباندان العطر *Pandanus odoratissimus* والياسمين الهندي (يصل ارتفاعه إلى 3-4 أمتار). والياسمين الهندي بأزهاره القشدية والصفراء الشمعية ذات البتلات الخمس لا يمكن زراعته إلا في مستنبت زجاجي في المناخ الشمالي لأنه يحبّ الحرارة والرطوبة - يزدهر في المملكة العربية السعودية أكثر من الغرب (الشكل 161).

الشجيرات والأشجار الصغيرة

الشجيرات الدخيلة المحبّة للحرارة التي ذكرت آنفاً، وترد في قوائم النباتات القروسطية التي اقتبس منها سابقاً هي الدفلى[328] *Nerium oleander* والخطمية *Hibiscus rosa-sinensis* أو *H. mutabilis* أو *H. syriacuse*، والرصاصية *Plumbago auriculata* والغاردينيا *Gardenia jasminoides*. يمكن زراعة الدفلى في شمال أوروبا ولكن في الحدائق المحمية التي تواجه الجنوب وربما تتطلّب في الخارج الحماية في الشتاء. لكن الجكراندا والغاردينيا ومعظم أنواع الخطمية تحتاج إلى حماية بالتأكيد إذا لم تزرع في الداخل. وتسهم كل هذه الشجيرات أو أي منها في إضفاء جوّ متوسّطي وإسلامي على حديقتك، لكن تذكّر أنها تتطلّب رعاية شديدة في المناخات الشمالية. أنواع الخطمية ذات القدرة على التحمّل والتي تنمو على نطاق واسع إلى حدٍّ ما في جنوب بريطانيا الآن (منذ القرن السادس عشر في الواقع)

الشكل 162. أسيجة بقس بأشكال هندسية منتظمة.

الشكل 163. أزهار نجمية جميلة تنمو بوفرة داخل سياج منتظم من البقس في القصر، قرطبة.

هي الخطمية ذات الأوراق المتساقطة *H. syriacuse*، ويتوافر منها ضربان مستنبتان «الطائر الأزرق» و«القلب الأحمر» على نطاق واسع. إذا كانت لديك بقعة مشمسة ومحمية، فإن أحد هذين الضربين أو كليهما ضروري لأنه يضفي على الحديقة لمسة شرقية. وتوجد أنواع الخطمية الدائمة الخضرة ذات القدرة الضئيلة على التحمّل بألوان عديدة أخرى، أكثرها شهرة في مصر وبلدان الشرق الأدنى الأخرى الأحمر الداكن *H.rosa-sinensis* «بريليَنت» الذي يزرع في السياجات غير الرسمية (يصل ارتفاعه إلى 3 أمتار).

تشمل أجناس الشجيرات الأخرى الواردة في قائمة ابن العوّام[329]، والتي يمكن زراعتها بسهولة في حديقتك الإسلامية الشمالية الرتم، والعوسج والزعرور البري والليلك الفارسي. وقد ذكر الرتم الأحمر *Ruscus aculeatus* بالاسم، وهو شجيرة رائعة لأنها دائمة الخضرة وتتحمّل المواقع الجافّة والظليلة فضلاً عن الشمس، وتحمل عنبات حمراء داكنة جميلة في الصيف بعد فترة إزهار قصيرة. ويمكن أيضاً اختيار أنواع أخرى من الرتم مثل الرتم الأناناسي الرائع *Cytisus battandieri*، الذي ينمو في جبال أطلس. غالباً ما ينمو هذا الرتم ليصبح شجرة صغيرة ولديه أزهار سنبلية صفراء عطرة شبيهة بالأناناس. وهناك أيضاً الرتم المتين الذي يزهر في الربيع *Cystisus x praecox*، والرتم الإسباني الذي يحتمل الصقيع ويزهر في الصيف *Genista hispanica*، وكلاهما يلائمان حديقتك الإسلامية جيداً لأن موطنهما أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا الصغرى. وهناك العديد من أنواع الزعرور البري أو شجرة «نوار» *Crateagus* spp، بعضها موطنه شمال أفريقيا وغرب آسيا مثل *C. azarolus* وزعرورنا المحلي *C. monogyna*، وموطنه أوروبا وشمال أفريقيا وغرب

آسيا. لذا يمكنك أن تزرع سياجاً من الزعرور البري وأنت تعلم تماماً أنه مألوف في إنكلترا حيث زرع بالآلاف في أثناء تسوير الأراضي (القرن السادس عشر إلى التاسع عشر)، فضلاً عن أنه أدخل في الحدائق الإسلامية المبكّرة في الأندلس وشمال أفريقيا والشرق الأدنى. والزعرور البري من بين أكثر الشجيرات قدرة على التحمّل والتكيّف، إذ يحتمل الأرض الجافة والرطوبة، والشمس والظل. وهي تشكّل بأشواكها الحادة حاجزاً يصعب اختراقه، فضلاً عن أنها تبدو جميلة في أواخر الربيع عندما تغطيها الأزهار. ومن الشجيرات الأخرى المتوطّنة في المملكة المتحدة وأوروبا، والواردة في قائمة ابن العوّام، العوسج الشائع *Rhamnus cathartica* الذي يستخدم للأسيجة النباتية مثل الزعرور البري. وثمة عوسج أكثر لفتاً للأنظار *R. imeretina* موطنه القوقاز ذو أوراق خضراء داكنة تتحوّل إلى أرجواني مائل إلى البرونز في الخريف. ثم هناك الليلك الفارسي الجميل أو التوت الصيني *Melia azedarach*، وهي شجيرة كبيرة أو شجرة صغيرة تحبّ الشمس ويجب ألا تزرع في المناخات الشمالية إلا إزاء جدار مشمس جنوبي الاتجاه. وتحمل في الربيع أزهاراً ليلكية فاتحة جميلة جرسية الشكل.

ومن الشجيرات الأخرى التي تتميّز بقدرة معقولة على الاحتمال وتلائم جيداً حديقتك الإسلامية الشمالية، مع أنها غير مذكورة على وجه التحديد في قوائم النباتات المبكّرة، شجيرة العلّيق الفضي *Convolvulus cneorum* ذات الأزهار البيضاء العطرة، والخزامى القطنية *Santolina chamaecyparissus* ذات الأوراق الفضية الرمادية الصغيرة والأزهار الزرقاء السماوية التي تظهر طوال الصيف، والشجيرة المشرقة *Senecio* (مرادفها *Brachyglottis «sunshine»*، وغالباً ما تشذّب أزهارها الصفراء الزاهية للمحافظة على جمال الشجيرة ذات الأوراق الرمادية)، ومريمية القدس *Phlomis fruticosa*، والفاجوا *Feijoa sellowiana*. ومن الشجيرات الجميلة ذات الأوراق الفضية الرمادية الزئبقية *Elaegnus Quicksilver*، وهي شبيهة بشجرة زيتون صغيرة عن بعد لكنها تتميّز بقدرتها على الاحتمال. (لشجيرة الإجاص ذي الأوراق الصفصافية *Pyrus salicifolia* مظهر مماثل لكنه أكثر تدلياً). وهناك أيضاً جنس رائع من الشجيرات الدائمة الخضرة *Ceanothus* التي على الرغم من أن منشأها كاليفورنيا فإنها تتلاءم مع الحديقة الإسلامية في الشمال لتميّزها بأزهارها التي تتفاوت ألوانها من الأزرق السماوي الفاتح إلى النيلي الداكن في الربيع والصيف، إذ إن الأزرق من الألوان المفضّلة في الفن الإسلامي لأنه لون السماء.

بعض الشجيرات الواردة أعلاه بعيدة جداً عن أي فكرة محدّدة عن الحديقة الإسلامية ولا تسهم في جوّ الحديقة الإسلامية المتوسطية أو الشرق أوسطية الذي نحاول إنشاءه. إننا لا نهدف إلى إنشاء صورة طبق الأصل عن الحديقة الإسلامية التقليدية، وإنما جوّها التأمّلي الذي يتركّز على الماء والظلّ: وتأتي الرائحة والألوان والأزهار ثانياً. وما دمت تتمسّك بالتصميم الأساسي وتحافظ على هدف أن تكون حديقتك انعكاساً للجنّة، فإن النباتات يمكن أن تكون مرنة نسبياً. وتبعاً لمشروعك، وحجم الحديقة والمباني ذات الصلة، عليك أن تتميّز بالحكمة على الدوام لإقامة توازن بين الموقع والظروف التي لا تتغيّر وهدف إنشاء شيء مستوحى من الحديقة الإسلامية التقليدية ويشبهها.

الشكل 164. أسيجة بقس تحدّ ممرّات مستقيمة وتحيط بالعديد من الشجيرات والأشجار. القصر، قرطبة. التصميم المنتظم والنباتات الوفيرة، بالإضافة إلى الماء كعامل مركزي، تشكّل حديقة إسلامية ناجحة. بالتخطيط المتأنّي يمكن تحقيق هذا النوع من التصميم والزراعة بسهولة في مناخ شمال أوروبا.

طالما اهتمّ الحكام والبستانيون المسلمون في زراعة نباتات جديدة إذا كانت جميلة وعطرة على وجه الخصوص. (سيتم التوسّع في النباتات والأزهار في الفصل التالي.) وهناك العديد من الشجيرات شبه القادرة على الاحتمال، إلى جانب الواردة أعلاه، التي يمكن زراعتها في المناخات الشمالية، إذا وضعت في مكان ملائم، لتردّد صدى الحديقة الإسلامية التقليدية. على سبيل المثال، إن الأوراق العطرية لشجيرة الريحان تستحضر الجوّ المتوسّطي، ناهيك عن أنها تذكّر بفناء الريحان في قصر الحمراء (الشكلان 42 و125). في الأصل، كان يوجد نباتات أكثر بكثير في فناء الريحان لتلطيف العمارة، على نحو فناء الأسود. وفي هذا الفناء تزرع شجيرات الريحان كأسيجة مربعة على جانبي البركة التي تتدفّق قناة ماء ضيّقة حول حوافها. وهي تشكّل إطاراً داكناً للماء وتوفّر للمرء بعض الراحة المرحّب بها من وهج الشمس على الحجارة الباهتة. وربما تكون هذه الأسيجة من الريحان الشائع *Myrtus communis* أو النوع الأكثر اكتنازاً *M. communis susp. Tarentina*، وهو عبارة عن شجيرة كثيفة الأوراق تحمل أزهاراً عطرة في تموز/يوليو وآب/أغسطس

يليها عنبات بيضاء بدلاً من العنبات السوداء التي يحملها الريحان الشائع. والريحان حساس لذا فإنه بحاجة إلى موقع مشمس جيد التصريف في المناخات الشمالية. وثمة بديل أكثر قدرة على تحمّل بعض الظلّ وهو الريحان التشيلي *M. cheken* الذي يتميّز بأوراقه الزاهية ويمكن أن يماثل حجمه شجرة صغيرة.

ثمة بديل جيد للريحان في الظروف الظليلة في حديقتك الإسلامية الشمالية وهو بقس الميلاد *Sarcococca confusea* أو *S. hookeriana var. digyna*. ويحمل كلاهما أزهاراً بيضاء عطرة في الشهر الأخير من السنة تدوم نحو شهر، وتفوح منه الرائحة العطرة في الهواء في صباحات الشتاء الباردة. الأسيجة، على نحو الممرات وقنوات الماء، يمكن أن تسهم في إبراز الهيكل الهندسي للحديقة الإسلامية. وتستخدم محدثة تأثيراً كبيراً في الزراعة الحديثة للحدائق في قصور الحمراء وحولها (الشكل 162 والفصل الثاني)، مثل الحدائق خارج قصر بارتال وحديقة لنداراخا (الشكل 143). ومن الشجيرات المفيدة لإبراز الانتظام والهندسة، والمذكورة أيضاً في القوائم القروسطية، البقس *Buxus sempervirens* واليونيموس (من أفضل الخيارات اليوم اليونيموس الياباني *Euonymus japonicus «Macrophyllus»*) والغار *Laurus nobilis*. تتميّز الحديقة الإسلامية التقليدية – ومن السهل تقليد ذلك في حديقتك الإسلامية الشمالية لأنه مماثل لمخططات الزراعة على الطريقة الإنكليزية – بوجود النباتات الوفيرة والغضة وغير المنتظمة داخل هيكل منتظم ما (الشكل 163، انظر الفصل السادس): كأنها هندسة «الحياة الحقيقية» والعربسة. وقد طبّقت هذه الفكرة في قصر قرطبة باستخدام شجيرات مزهرة كبيرة رائعة (من نوع البرتقال الزائف *Philadelphus*) تمتدّ فوق الأسيجة الرسمية التي تشكّل ممرات رباعية تتوسطها نافورة (الشكلان 36 و164).

يمكنك في حديقتك الإسلامية الشمالية أن تحدث تغييراً في الأسيجة الرسمية باستخدام بدائل مثل الطقسوس *Taxus baccata*، والزان الأبيض *Carpinus betulus*، مع العلم أن هذه الشجيرة ليست دائمة الخضرة، والبهشية *Ilex aquifolium*، وحتى شجيرة الرِّباط *Ligustrum* التي تشكّل سياجاً منتظماً جيداً. ويشكّل اليونيموس المجنّح *Euonymus alatus* سياجاً جيداً منخفضاً (يبلغ ارتفاعه نحو متر)، ويتحوّل لون أوراقه إلى الأحمر الزاهي في الخريف. كما يشكّل النسرين *Rosa rubiginosa* أو الويبورنوم *Viburnum tinus* أو الكاميليا سياجاً أقل كثافة ولا يتسم بالمظهر الإسلامي. ويمكن زراعة إكليل الجبل أو الخزامى (انظر الفصل السادس) للحصول على سياج غير منتظم أقل انخفاضاً، ربما على جانبي ممر ما. وتوفّر شجيرات الكاميليا سياجاً دائم الخضرة لامعاً يمنح قدراً من الخصوصية،

لكنها أكثر ارتباطاً بالشرق الأقصى من الشرق الأوسط. لذا إذا كنت تريد المحافظة على المظهر الإسلامي النموذجي، يفضّل التمسّك بالغار لإنشاء سياج مرتفع. وإذا كانت حديقتك دافئة وتواجه الجنوب، فإن الياسمين الغريب *Pittosporum tobira* شجيرة رائعة كما ذكر أعلاه ويمكن زراعتها وتشكيلها كسياج غير رسمي. ويجدر التفكير بأنواع أخرى من هذا الجنس (مثل *P. tenuifolium*) لأنها تعيش في المناطق اللطيفة في شمال أوروبا، ومع ذلك فإنها تستحضر الجوّ المتوسّطي/الشرقي.

ومثلما يجب ألا يكون هناك أي تماثيل في الحديقة الإسلامية، فإنه يجب تقييد فنّ تقليم الأشجار بالأشكال الهندسية مثل الأشكال البيضوية الكبيرة المكوّنة من الطقسوس المشذّب في حديقة ضريح جهانكير (الشكل 18)، وأشكال الطقسوس الدائرية في قلعة لاهور، والنجوم السداسية المشكّلة من البقس المقلّم في حدائق قصر الحمراء، والأهرامات أو المكعّبات المكوّنة من البقس المقلّم المذكورة في الروايات عن الحدائق العثمانية[330]. ويجب ألا تقلّم الأسيجة لتشكيل حيوانات أو طيور أو أشخاص (انظر الفصل السادس).

ثمة احتمال لإنشاء حديقة ظليلة تواجه الشمال أو الشمال الشرقي، إذا كان لديك المكان، بالتركيز على الأشجار المثمرة – الزينية والمنتجة على السواء – إلى جانب النباتات البصلية الربيعية المنخفضة. يتلاءم ذلك مع المثال الإسلامي، بالإضافة إلى أنه ملائم لمثل هذا النوع من المكان. لكن إذا كان لديك مكان مشمس قليلاً وحيّز صغير – فناء وسط مبان مرتفعة مثلاً – فعليك إذا كنت تريد إنشاء حديقة إسلامية أن تركّز كما ذُكر آنفاً على النقوش الهندسية في المناظر الطبيعية الصلبة مع زراعة بعض النباتات التي تحتمل الظلّ في أوعية كبيرة، لا سيما الشجيرات الدائمة الخضرة مثل البقس والبرتقال المكسيكي *Choysia ternata*، ونوع من الأفلوس *viburnum* مثل *V. tinus*، والأوسمنثوس مثل *Osmanthus x burkwodi*، وربما بعض المعترشات التي تحتمل الظل مثل صريمة الجدي الدائمة الخضرة *Lonicera japonica* أو ياسمين البرّ مثل *Clematis alpina*، وشوك النار *Pyracantha cocinea*.

ثمة نباتات أخرى ذكرت في بداية هذا الفصل، مثل الياسمين والجهنّمية، سيرد ذكرها في الفصل التالي إلى النباتات العشبية والمعترشات والأعشاب. وتشمل هذه الشجيرات العشبية مثل إكليل الجبل والخزامى والمريمية، بالإضافة إلى موجز عن الخضراوات – وهي عنصر مهمّ في تراث الحدائق الإسلامية.

الشكل 165. بلاط خزفي عثماني يصوّر أزهارا نمطية بما فيها التوليب، والياقوتية والورد.

الفصل الساس

النباتات والأزهار

كأس التوليب الرشيقة
صنعتها يد الله الواحد الأحد
ملأى بخمر عتيقة
فوق ساق من يشب

أنواري (توفي نحو سنة 1190)[331]

إن فكرة «الحديقة البرية» غريبة تماماً عن المفهوم الإسلامي للحديقة، حيث يشكّل الابتعاد عن «البرية» أحد العوامل الرئيسية الدافعة لإقامتها. فمعظم أوروبا تتمتع على العموم بمناخ معتدل نسبياً لكن الأراضي التي يمكن القول إن الحديقة الإسلامية «وُلدت فيها» وترعرت – شبه الجزيرة العربية، وفارس، والعراق، وسورية،

ومصر – تشهد مناخاً متطرّفاً حيث غالباً ما تصل درجة الحرارة في الصحراء إلى 49° مئوية في الظلّ. لذا فإن الهدف الرئيسي للحديقة هو إنشاء ملاذ يختلف ما أمكن عن الصحراء ويمكن فيها نسيان هذه الحرارة المتطرّفة بعض الوقت وسط الظلّ البارد والماء الجاري. وليس للبرّية – وهي في هذه الحالة بيئة قاحلة وشبه قاحلة – مكان في هذه المنطقة المسوّرة. لذا لم تكن النباتات والأزهار التي يرغب الناس في زراعتها في جنائنهم المعزولة ترتبط بأحوال الصحراء: نباتات مثل الصبّار (الأنواع المختلفة من الأغاف أو اليكّة) وتلك التي تحتوي على الأشواك. إن أهمية المنطقة المحمية، المعزولة بالجدران أو بحزام من الأشجار الباسقة مثل السرو (*Cupressus sempervirens*) أو الحور (*Populus alba* عادة) التي أشير إليها في الفصل السابق، لا تظهر جلية إلا للمراقب المسافر في الصحراء أو أرض صخرية قاحلة، مثل الطريق عبر وادي الأردن أو الطريق من القاهرة إلى الفيوم أو الطريق بين جدّة ومكّة. هذه الطرق مألوفة للسفر وليست أماكن منعزلة، لكن بعيداً عن الطريق – في وادي الأردن على وجه الخصوص – ثمة مناطق مزروعة خضراء تتباين بشدّة مع محيطها. وهي منفصلة عن الأرض الصحراوية غير المتناهية بجدران وأشجار وتترك انطباعاً قوياً جداً. فخَضار الأشجار الداكن يريح عيني الناظر من وهج الشمس الساطع على الأرض الرملية الرتيبة (الشكلان 166 و151).

الشكل 166. وادي الأردن وتظهر فيه شجرة وحيدة من بعيد.

المناظر الطبيعية الحضرية في هذا العالم المحموم تحتاج أيضاً إلى الفصل والحماية، قدر الإمكان، من التطفّل على واحة الحياة العائلية الشخصية والحديقة في داخلها مهما كانت صغيرة. المبدأ واحد ولا يتغيّر سوى الإطار. يتيح الإطار الجديد من الحدائق الصغيرة داخل المدن المبنية الكثير من الفرص لزراعة ملاذ أخضر على نمط حديقة الفناء الإسلامية الأصلية المسوّرة.

عند إنشاء حديقة إسلامية في بريطانيا أو أي مكان آخر ذي مناخ مماثل، على المرء أن يولي مزيداً من الاهتمام للعوامل «الإيكولوجية والجيولوجية والمناخية، بالإضافة إلى الشروط الجمالية الأخرى مثل انسجام الألوان والأشكال والسمات»[332].

الشكل 167. فنون الأزهار: خشخاش وأزهار نمطية أخرى في المطرّزة الأوزباكستانية.

ويرجع ذلك إلى حدٍّ ما إلى أنه يقوم بزراعة مفهوم «غريب». لقد بُحث ذلك آنفاً في الكتاب ولا حاجة إلى مزيد من التفصيل هنا. لكنني أرغب فقط في التأكيد أن على المرء أن يحرص قدر الإمكان على أن توحي النباتات والأزهار، مثل الشجيرات والأشجار، بالانتماء إلى المكان[333]، وتذكّر في الوقت نفسه بالجوّ الأساسي للحديقة الإسلامية التقليدية. بعد اتخاذ قرار بشأن التصميم والتخطيط والماء وتشكيل المناظر الطبيعية الصلبة، وانتقاء الأشجار والشجيرات، يمكنك قضاء وقت رائع في اختيار النباتات المزهرة الصغيرة – المعمّرة والحولية والمعترشة والأعشاب والخضروات – التي تضفي اللمسات الأخيرة على هذه الغاية المزدوجة. وسيكون اقتراح النباتات التي تفي بهذه المعايير الموضوع الرئيسي لهذا الفصل، بعد إيراد مدخل تاريخي موجز.

المصادر

إن المصادر التي تقدّم المشورة بشأن هذه النباتات هي المصادر نفسها المستخدمة للأشجار والشجيرات التي ذُكرت في الفصل السابق: القرآن وقوائم النباتات في القرون الوسطى، وأوصاف الرحّالة، والروايات التاريخية الأخرى، والرسوم المنمنمة الإسلامية، والشعر. لقد تغيّرت النباتات في الحدائق الإسلامية اليوم كثيراً على العموم، فلم تعد مفيدة جداً كمصدر للإلهام (ربما باستثناء بعض الأشجار، مثل السرو والبرتقال والريحان وربما النخيل في جنّة العريف في قصر

الحمراء، ولعلها «آخر النباتات الأصلية» التي دامت أكثر من ستمئة عام)[334]. غير أن المظاهر المختلفة للفنّ الإسلامي تشكّل بديلاً جيداً: بما أن الأزهار موضوع شائع جداً مصوّر في جميع الوسائط الفنية والحرفية المحتملة (انظر قسم «الأزهار في الفنّ الإسلامي» أدناه)، فسيشار إلى هذه الوسائط على نطاق واسع. تُظهر المعلومات التي جُمعت من هذه المصادر أن كثيراً من الأزهار والأعشاب والخضراوات المذكورة مماثلة لما لدينا، ولا يبدو أن مشكلة قلّة أشعّة الشمس والحرارة تؤثّر كثيراً كما هي الحال مع العديد من الأشجار والشجيرات الملاحظة في الفصل السابق. الحديقة في الإسلام يجب أن تكون منتجة وجميلة في الوقت نفسه، على نحو مماثل للحدائق في أوروبا في القرون الوسطى، بل إن الخضراوات والأزهار كانت تُزرع على مقربة من بعضها بعضاً حتى النصف الثاني من القرن العشرين، باستثناء بعض المنازل الفخمة ومنازل الميسورين[335]؛ وتشكّل حديقة البيت الريفي الفيكتوري مثالاً كلاسيكياً على ذلك. تتكوّن مثل هذه الحدائق من مزيج من الخضروات والأزهار، وقد كانت الخضراوات شديدة الأهمية لأن الناس يعتمدون عليها للعيش.

موسم الإزهار

كثير من النباتات التي تُزرع في الحدائق الإسلامية، وليست جميعها، معتادة على نمط المُناخ المتوسّطي الحارّ والجافّ في الصيف والبارد والرطب في الشتاء، وهو مناخ مختلف كثيراً عن المناخ الأوروبي الشمالي الذي يتميّز بصيف قصير وشتاء بارد وماطر في معظم أوقات السنة[336]. لذا فإن موسم زراعة النباتات وإزهارها من العوامل التي يجب أخذها في الحسبان عند اختيارها لحديقتك الإسلامية في الشمال. وهذه الفترة هي أواخر الربيع والصيف في شمال أوروبا، حيث تُزهر معظم النباتات ويكون هناك ما يكفي من أشعّة الشمس لتوفير الغذاء الذي يساعدها على الإزهار. لكن الحال ليس كذلك عادة في البلدان الواقعة في الجنوب والشرق. ففي مصر على سبيل المثال (وغيرها من بلدان الشرق الأدنى وشمال أفريقيا)، يكون الصيف شديد الحرارة والتربة جافّة جداً بحيث يشكّل فترة إسبات زراعي. غير أن الخريف والربيع، والشتاء إلى حدٍّ ما، تشهد إزهار مجموعة كبيرة من النباتات. كما أن فترة الإزهار في هذه البلدان طويلة، أو تحدث مرتين، في الربيع والخريف – يبدو أن الرمّان والخبّيزة، على سبيل المثال لا الحصر، يزهران في معظم السنة.

ربما تتساءل ما علاقة ذلك بحديقتك الإسلامية في الشمال. إنه مثير للاهتمام لأن وجود فترة إزهار طويلة يفسّر إلى حدٍّ ما لماذا يشار دائماً إلى الأزهار

المفضّلة نفسها مراراً وتكراراً في المنمنمات الإسلامية والشعر: الورد والتوليب والياقوتية والقرنفل والنرجس البري والبنفسج هي بعض الأزهار الرئيسية التي أحبّها المسلمون الأوائل. وستوصف هذه الأزهار المفضّلة بمزيد من التفصيل لاحقاً في هذا الفصل. كتبت الرحّالة الإنكليزية جوليا باردو Julia Pardoe في القرن التاسع عشر أن «الشرقيين يحبّون الأزهار حباً جمّاً». وقد لاحظت في إسطنبول أن:

> هناك حديقة أزهار في كل قصر جميل على البوسفور... حيث تُزرع الشجيرات التي تعطي ألف نوع ونوع من الورود الجميلة... وهناك أيضاً صفوف من التعريشات المغطّاة ببراعم الورود على طول طريق جميل، وأزهار تمتلئ بها الأصص الفخّارية الحمراء، وصفوف من القرنفل، وكثير من الأكاسيا التي تسرّ الناظرين[337].

إننا معتادون في شمال أوروبا على الأداء السريع الزوال لمعظم أزهار الربيع مع بعض التعويض على شكل بعض الأزهار المعمّرة أو الحولية التي تدوم طوال الصيف وجزء من الخريف، إذا ما قُطفت أو أزيلت رؤوسها الميتة باستمرار. ومن المزايا الأخرى لارتفاع الحرارة وأشعة الشمس في معظم البلدان الإسلامية أن رائحة العديد من الأزهار العطرة، لا سيما الورد، أقوى بكثير من تلك التي تُزرع في الشمال[338]. وقد لاحظت أن رائحة بعض الأزهار لا تقلّ قوة في إنكلترا عما هي عليه في مصر، مثل الجُلبان العطر (*Lathyrus odoratus*) والياسمين الشائع (*Jasminum officinale*) والياسمين الزهري (*Jasminum polyanthemum*)، وبعض الريحان وبيلسان الماء.

الشكل 168. اللون الديني الأخضر المذكور كثيراً في الأوصاف القرآنية لجنّات الفردوس، ونحن نأخذه كلون مسلّم به في مروجنا الخضراء الطبيعية على الرغم من أن الصيف الحار والجاف الذي شهدته معظم أوروبا في سنة 2003 أحال العشب من اللون الأخضر الغضّ إلى البني بسرعة (انظر ص 271-273).

لذا فإن حديقتك الإسلامية الشمالية قد لا تكون زاهية أو عطِرة مدّة طويلة من الوقت مثل نموذجها الأولي المزروع في المناخات الدافئة، لكنها ستكون مماثلة لهُا في الجمال، بنضارتها ونباتاتها الغضّة التي تنمو تحت المطر الغزير. هذا المطر الغزير يحمل معه السمات السماوية التي غالباً ما تذكر في الأوصاف القرآنية للجنة واللون الأخضر الديني (الشكل 168).

معلومات أساسية

أدى تفاعل الوحي القرآني مع مختلف الثقافات في دار الإسلام على مرّ الزمن إلى تطوّر ضرب من الفنّ والعمارة الإسلامية الواضحة. وإلى جانب هذا التطوّر الثقافي، طرأ تقدّم كبير في فن وعلم هندسة الماء والزراعة والفلاحة وعلم النبات. وتجلّت هذه المعرفة والابتكارات في تصميم الحدائق الملحوظ مثلاً في حدائق شاليمار (القرن السابع عشر) أو جنة العريف في غرناطة (القرون الثالث عشر إلى الخامس عشر). وقد لقيت مساعي علماء النبات والبستانيين والعشّابين العرب دعماً كبيراً من الخليفة العباسي هارون الرشيد (764–809) الذي نصح بيت الحكمة في بغداد بترجمة المصادر اليونانية واللاتينية المختلفة، وأشهرها «الحشائش والأدوية» *Materia Medica* للطبيب الروماني ديسقوريدس (انظر الفصل الثاني).

إلى جانب الأعمال المهمة التي كتبها المسلمون العرب أنفسهم وذُكرت في الفصل الخامس[339]، ثمة مقالة فارسية عن الفلاحة بعنوان «إرشاد الزارع» وضعها قاسم بن يوسف في هرات (أفغانستان) في سنة 1515. وهي رواية مثيرة للاهتمام لأنه كتب عندما رأى في الحلم شيخاً صوفياً يدعى الخواجة عبد الله الأنصاري يأمره بتأليف مثل هذا العمل تعبيراً عن الشكر لله. وقد أخذ ابن يوسف رؤياه على محمل الجدّ ورجع إلى القرآن والعلماء والصوفيين قبل الشروع بكتابة هذه المقالة. وهي تضمّ معلومات عملية رائعة، بما في ذلك التمييز بين التربة الجيّدة والرديئة، وتخطيط الحديقة الرباعية وسرادقها، والأوقات الملائمة تنجيمياً للزراعة، وغير ذلك من الإرشادات المفيدة[340].

التجربة الزراعية

إن تكرّر ورود الأزهار نفسها في الشعر والرسم الإسلامي يجب ألا يجعلنا نفترض عدم حدوث تجارب زراعية. بل إن العديد من الحكّام أبدوا شغفاً في توسيع مجموعة النباتات في حدائقهم – مثل عبد الرحمن، الحاكم الأموي الأول في الأندلس (756–788). فقد شجّع على إدخال أكبر قدر ممكن من النباتات الجديدة التي يستطيع السفراء والبستانيون اكتشافها. وبعث عبد الرحمن الرسل إلى الخارج لإحضار النباتات إلى ضيعته، الرصافة، التي أصبحت شهيرة بسبب جودة نباتاتها المتنوّعة[341].

من الحكّام الآخرين المعروفين بشغفهم في الزراعة بابر، أول إمبراطور

مغولي (1526-1530). فقد دفعه اهتمامه الشديد بالحدائق بعد فتح الهند إلى البحث باستمرار عن أماكن ملائمة لإقامة الحدائق الجميلة. ومن المعروف أنه كان يحب النباتات على اختلافها، من الورود والنرجس إلى الأشجار المثمرة والخضروات، وهو ما عبّر عنه في مذكّراته ببلاغة. وقد كتب في أغرا أن لديه «في كل ناحية ورداً ونرجساً مرتّبة ترتيباً منتظماً» وأنه أدخل أزهاراً جديدة: «في هذه النواحي تتخذ الدفلى لوناً زهرياً مائلاً للاصفرار، أما في غاليار فلونها أحمر داكن جميل. وقد أخذت بعضها إلى أغرا وزرعتها في الحدائق هناك»[342]. ومن خلفائه شاهجهان الذي بنى تاج محل (الشكل 172) وحدائق شاليمار في لاهور، وجهانكير الذي كان مفتوناً بالحدائق أيضاً. وتتحدّث مذكّراته عن أزهار كشمير، والنرجس والبنفسج والتوليب - لم يتعرّف إلى الأخيرة ودعاها «الأزهار الغريبة» - غير أن سلفه كان أكثر علماً فأحصى سبعة عشر نوعاً مختلفاً من التوليب البري في تلال كابل.

كان السلطان العثماني محمد الثاني شغوفاً أيضاً بالحدائق، وعلى غرار بابر، يحبّ المشاركة بنفسه في تخطيط حدائقه وحفرها وزراعتها، لا سيما في قصره الجديد في إسطنبول (يني سراي) الذي أكمل في سنة 1465. ومن المعروف أنه كان يوفد الرسل شرقاً وغرباً لإحضار النباتات النادرة إلى حديقته. ولاحظ رحالة متأخّر أن الحديقة تضمّ «مزيجاً رائعاً من الأشجار البهيجة والأشجار المثمرة وسواها، بالإضافة إلى مختلف أنواع الأزهار والأعشاب»[343].

غير أن التجارب الزراعية لم تكن مجالاً للرسامين والشعراء. بل فضلّوا التمسّك بجمال الأزهار التي عرفوها وأحبّوها ورومانسيتها ورمزيتها. وهذه هي الأزهار الرئيسية التي سنركّز عليها عند اختيار النباتات والأزهار للحديقة الإسلامية الشمالية. وسيسهّل أخذ ذلك في الحسبان الأمور عليك عند زراعة حديقتك الإسلامية. فلا حاجة بك إلى البحث عن النباتات الغريبة والنادرة، لأن الأزهار التي أحبّها المسلمون الأوائل هي الأزهار التي كانت محبوبة في أوروبا على العموم - ولا تزال في الحالتين - على الرغم من أن جانباً كبيراً من المهتمين بالبستنة أصبح مدمناً على زراعة مزيد من الأزهار المهجّنة الزاهية الألوان. عند زراعة حديقتك الإسلامية، عليك تجنّب ضروب المزروعات التي تبتعد كثيراً عن أنواعها الأم[344]، إلى جانب الأعشاب أو النباتات الريّانة الدخيلة مثل الأغاف أو التين الشوكي (الصبّار). وعلى الرغم من أن النبتة الأخيرة تحظى بشهرة اليوم وتزرع بنجاح في بعض المناطق ذات المناخ اللطيف في شمال أوروبا وبعض الحدائق الحديثة في الشرق الإسلامي، فإنها كانت جزءاً من «البرية» وأبقيت بعيداً عن الحدائق الإسلامية التقليدية. كما أن أنواع الأعشاب الكثيرة الرائجة اليوم، بصرف النظر عن جمالها، ليست ملائمة

للحديقة الإسلامية التقليدية، لكن ثمة مجالاً لوجود أقسام تزرع فيها نباتات الربيع غير الرسمية تحت الأشجار المثمرة، مثل مزيج النرجس والزعفران والسورنجان وبخور مريم والتوليب (انظر «أزهار الربيع» أدناه). تميل الطبيعة الإنسانية إلى الرغبة في الأشياء المختلفة عما لدينا – في المناخات المعتدلة نرغب في الدخيل على شكل النخيل أو الموز أو الجهنّمية (البوغنفيلية)، وفي المناخات الصحراوية يرغبون في الخضرة الغضّة والمياه التي تكثر لدينا. لذا يجدر بك في الحديقة الإسلامية الالتزام بزراعة الأجناس الواردة في الروايات التاريخية والمقالات عن النباتات فضلاً عن المصادر الأخرى. فذلك يقدّم فرصاً كبيرة للحصول على مجموعة واسعة من النباتات، كما سنرى بمزيد من التفصيل لاحقاً في هذا الفصل.

الأزهار في الشعر وروايات الرحّالة ومذكّرات السلاطين

يكشف الاستعراض الأولي لمصادرنا عن حبّ المسلمين العظيم لجميع الأزهار المحبّبة والمعروفة التي يمكنك التفكير فيها، والمذكورة أعلاه. وتبرز الوردة على جميع هذه الأزهار وتبزّها مكانة. وهي أعظم الأزهار شأناً في الإسلام، وسنتناول بعض السمات الرمزية المتعدّدة الطبقات التي تتمتّع بها لاحقاً في هذا الفصل. وهذه الأزهار وكثير غيرها، مثل الخشخاش والياقوتية والتوليب والقرنفل والسوسن، هي التي ترد كثيراً في الشعر وتصوّر في الفنون الإسلامية. وكما كتب الفردوسي في «الشهنامة» في سنة 1000 ميلادية تقريباً:

أزهار التوليب والياقوتية تعجّ
في كل مرج وفجّ
تزهر كروضة في بهائها
يرعاها طيب مناخها

الشكل 169. وردة «توسكانيا العظيمة» (انظر الصفحات 254-256).

الشكل 170. توليب براستنس (انظر الصفحة 249).

وكتب حافظ (توفي سنة 1389):
ألا أحضر المقعد حيث الورود
في سنا الحديقة تسود...[345]

عندما فتح المسلمون الأندلس في القرنين الثامن والتاسع، بدؤوا بزراعة الحدائق على الفور تقريباً، وبدت لهم الأرض شديدة الخصوبة – لا سيما حول غرناطة – مقارنة بأرض شبه الجزيرة العربية القاحلة. وبحلول القرن الحادي عشر أصبحت الحدائق الموضوع الأكثر شهرة في الشعر العربي الأندلسي، وأصبح للحديقة اسم خاص بها، الروضية. غير أن القصائد، بصرف النظر عن جمالها ورومنسيتها كما تبدو للعقلية الأوروبية الميّالة للنثر، لم تكن خيالاً مجنّحاً بأكملها وطالما توافقت مع المحيط الفعلي الذي أفصحت عنه أوصاف المراقبين. لم يبقَ من تلك الحدائق اليوم سوى جزء قليل، لكن العديد من المدن كانت تزهو في القرون الأولى للإسلام بكثير من الحدائق وليس أصفهان الشهيرة فحسب، كما أوضح أندرو واطسون Andrew Watson:

يصف الجغرافيون الأوائل البصرة بأنها فينيسيا حقيقية حيث القنوات تقطع الحدائق والبساتين ميلاً بعد ميل. ويقال إن نصيبين، وهي مدينة في بلاد ما بين النهرين، كانت تضمّ 40،000 حديقة أشجار مثمرة، ودمشق 11،000 حديقة، والفسطاط (القاهرة القديمة)، بمبانيها المتعدّدة الطبقات، آلاف الحدائق الخاصة التي يتميّز بعضها بالروعة. وفي شمال أفريقيا، يكتشف المرء الكثير من الحدائق داخل مدن مثل تونس وتلمسان ومراكش وحولها[346].

في القرن السابع عشر كانت أصفهان في أوجها، وقد سُحر بها السير توماس هربرت Thomas Herbert، الملحق بالسفارة البريطانية في فارس:

تتميّز الحدائق هنا بالعظمة والبهاء ولا تضاهيها في ذلك أي مدينة في آسيا. على مقربة من المدينة توجد غابة كبيرة جداً، لكنها جميلة جداً وشديدة الخضرة بحيث يمكن أن تدعوها فردوساً آخر... تمرّ بجادّة الجهار باغ عبر شارع يبلغ طوله نحو ميلين، وعرضه مماثل لعرض شارع هولبورن في لندن، وتشكّل جدران الحدائق على الجانبين جزءاً كبيراً من الشارع، ومع ذلك تتناثر هنا وهناك المنازل الصيفية التي تتفيّأ بأشجار الشينار وتتزيّن بها[347].

الشكل 171. السوسن الأصفر (Iris pseudacorus) (انظر ص 252).

لقد أشير آنفاً إلى تدهور جادّة الجهار باغ في أصفهان، لكن ثمة اتجاهاً في السنوات القليلة الماضية إلى استعادة بعض الحدائق المجاورة، مثل الحديقة المحيطة بقصر شهل سوتون.

كتب الرحّالة السير جون تشاردن John Chardin في القرن السابع عشر: «يوجد في فارس جميع أنواع الأزهار التي يجدها المرء في فرنسا وأوروبا» وتشمل لائحته الورود «بألوان خمسة: الأبيض والأصفر والأحمر والورد الإسباني والأحمر المائل إلى البرتقالي»، والياسمين، والتوليب، والشقّار، والحوذان، و«سبعة أو ثمانية أنواع مختلفة من النرجس»، وزنبق الوادي، والزنبق، و«البنفسج بجميع ألوانه»، والقرنفل، والمكحّلة، والمنثور[348]. يشار إلى الورد عادة بالكلمة الفارسية غُل، وهي تعني «زهرة» أيضاً، والغُلستان تعني حديقة الورود. وازدهر ضرب من الشعر يعرف باسم شعر «الغُل والبلبل» (الورد والبلابل). وقد وضع الحِمْيَري، وهو بستاني أندلسي من القرن

الحادي عشر، أزهاراً مماثلة في لائحته، بالإضافة إلى الريحان، والخيري (المنثور الأصفر)، والسوسن، والخشخاش، وزنبق الماء، والأقحوان، والقرنفل، والدفلى. كما أدرج العديد من الأعشاب مثل المردقوش، والزعتر، والنعناع، والزعفران، والعديد من الأشجار المثمرة التي أسميت في الفصل السابق[349].

في القرن السادس عشر، زار الرحّالة الفرنسي دو فرسن – كاناي *du Fresne-Canaye*، الحدائق السلطانية في تركيا، ولاحظ ما يلي:

> من الصعب وصف شغف الأتراك بالأزهار: إنهم يحملونها في أيديهم، أو يلفّونها داخل طيّات عمائمهم. وكلما وجد السلاطين شجرة أجمل من سواها يسارعون إلى زراعة الأزهار من كل لون وعطر في ظلّها. وهناك أنواع كثيرة جداً من الأزهار في حدائقهم بحيث ليس على المرء سوى أن يمدّ يده ليجمع باقة من مختلف الألوان التي يمكن تخيّلها. وتحفّ أشجار السرو بالممرّات الضيّقة التي يسير فيها السلاطين بمفردهم[350].

الشكل 172. تاج محل – منظر من إحدى زوايا الحديقة.

وفي مناسبة أخرى لاحظ الكاتب نفسه أن الأتراك يحبّون الورود كثيراً لدرجة أنهم يأكلونها! فهم يأكلون عند الفطور هلام الورد اللذيذ جداً كما أشار.

وفي وقت لاحق، في القرن التاسع عشر، كتب إدوارد لير Eduard Lear وصفاً رائعاً لحديقة تاج محلّ:

> يا لها من حديقة! ويا لها من أزهار!... التلازم والتباين بين أشجار السرو الخضراء الداكنة والأشجار الصفراء المائلة إلى الخضرة من كل الأنواع! ثم تأثير أسراب الببغاوات الخضراء الزاهية التي تجوب المكان مثل الزمرّد، وتأثير البونسيانة القرمزية والأزهار الكثيرة التي تبرز مشرقة من الأخضر الداكن. ويوجد الكثير من نباتات البونسيتة ذات الأوراق القرمزية، وتتسلّق البوغنفيلية ذات الأزهار البنفسجية أشجار السرو[351].

هذه الملاحظة الأخيرة، كما أشرنا سابقاً، تنقل صورة فورية قوية عن الحديقة الإسلامية. وبقليل من العناية يمكن تقليد ذلك في حديقتك ولكن ربما بنبات الجُلبان العطر (*Lathyrus odoratus*، انظر الصورة) بدلاً من البوغنفيلية التي نادراً ما تعيش في المناخات الشمالية.

تبدو إشارة لير إلى الألوان الزاهية التي تقابل الأخضر الداكن، أو «تبرز مشرقة منها»، مثيرة للاهتمام. ولا شك في أنه يمكن محاكاة ذلك في حديقتك بسهولة على الرغم من أنه سيكون أقلّ تأثيراً تحت أشعة الشمس في المناطق الشمالية. لكن لدينا في الشمال أفضلية عظيمة في طول فترة الشفق ما يتيح لنا مزيداً من الوقت لاستيعاب الجمال الأخّاذ وكثافة اللون فيما تهبط الظلمة بالتدريج. وفي هذا الوقت من النهار أيضاً، تبرز أوراق النباتات الرمادية والأزهار البيضاء «متوهّجة» مقابل خلفية داكنة.

الشكل 173. جُلبان عطر (*Lathyrus odoratus*) يتسلّق شجرة سرو في حديقة السجادة، تشلسي، 2001).

الشكلان 174 - 175. بلاط خزفي عثماني يصوّر أزهاراً نمطية تضمّ التوليب والياقوتية والورود.

الأزهار في الفنّ الإسلامي

رأينا أن الحدائق الإسلامية تتمحور حول الماء والظلّ في الدرجة الأولى، تخليداً لأهميتهما لدين نشأ في منطقة صحراوية. ويمكن القول إن الأزهار هي العنصر الأقل أهمية في هذه الحدائق – وذلك صحيح إلى حدٍّ ما. مع ذلك، كما لاحظنا بالفعل، في وسعنا القول إن الثقافة الإسلامية على العموم أولت الأزهار الكثير من الاهتمام، وبخاصة في تركيا العثمانية حيث بلغ حبّ الأزهار حدّ الشغف ولم يكن يأتي في المرتبة التالية بعد التصميم والماء والظلّ[352]. «الأتراك يحبّون الأزهار حبّاً جمّاً. وربما تنفق السيّدة كل المال الذي لديها على زهرة تضعها في شعرها» و«الأتراك يحبّون الأزهار. وهم يحملون زهرة دائماً في يدهم أو يثبّتونها في عمامتهم»[353].

في القرون القليلة الأولى للإسلام، بعدما بسط هذا الدين ملكه على فارس وبيزنطة والأناضول وشرقاً حتى الهند، بالإضافة إلى شمال أفريقيا والأندلس غرباً، استوعب كثيراً من حبّ

الأزهار السائد في تلك الثقافات. وإلى جانب الشعر، احتفى فنّ التصوير الإسلامي بالأزهار والنباتات: فتمثّلت في كل الحرف والوسائط، من الصور الإيضاحية للكتب، والأقمشة والسجّاد، إلى البلاط الخزفي والفخاريات والجبس المحفور والخشب، والمعادن المنقوشة والجلد المزخرف. ولعل الخزف والقماش العثماني والفارسي هو الأكثر شهرة في تصوير الوردة والتوليب والقرنفلة والمكحّلة. يمكن هنا تحديد هذه الأزهار، لكن غالباً ما تصوّر – لا سيما في الفنّ الأندلسي – على شكل «عربسة» (إسلمي أو رومي بالتركية)، وهو تطبيق مفصل لأشكال هندسية متكررة تمثّل النباتات والحيوانات (الشكل 87). في الفنّ الإسلامي، تلخّص العربسة الطبيعة وتمثّل جوهرها الداخلي بأشكال مجرّدة بدلاً من الطبيعة بشكلها الخارجي المرئي. وعندما تتفحّص تصميم عربسة لا يمكنك تحديده بأنه نوع معيّن من النبات أو الأزهار – ذلك ليس الهدف: بل الهدف تمثيل الطبيعة ككل، الإيقاعات الطبيعية العضوية للكون.

الفنّ الأوروبي يظهر حبّه للأزهار والحدائق، ولكن بطريقة مختلفة جداً. ففي اللوحات الهولندية من القرن السابع عشر، غالباً ما تكون الأزهار المصوّرة بعناية هي نفسها التي يفضّلها الفنّانون المسلمون. غير أن اهتمام المصوّر، مثل يان دافيدز دي هيم Jan Davidsz de Heem، ينصبّ على الواقعية والتفاصيل، ومقدار ذكاء الفنّان في خلق وهم الزهرة «الحقيقية». يقابل ذلك تصوير منمنم إسلامي لا يحاول الإتيان بصورة «شبه حية» بل يسعى إلى التقاط «روحها العطرة»[354] (الأشكال 26 و102 و146). ومن الأسباب الرئيسية التي تقف خلف هذا المنظور المسطّح الإقرار بأن التصوير وسط ثنائي البعد وأن محاولة التعبير عن «الواقع» هي خلق لوهم، وهذا الوهم يستحوذ على الخيال ويصبح «الشيء الحقيقي» نفسه، أي وثناً. ومن أدوار الفنّ الإسلامي التقليدي الاستحواذ على الخيال وتوجيهه إلى أعلى نحو السماء، نحو الخالق، بدلاً من توجيهه إلى العالم وإبراز الوهم. فالطبيعة ما هي إلا انعكاس لعظمة الخالق، وليست غاية بحدّ ذاتها. وهكذا يجب تجنّب واقعية الفن في الإسلام. ووفقاً لأحد أحاديث النبي صلى الله عليه وسلّم، فإن من صوّر صورة في الدنيا كُلّف أن ينفخ فيها الروح يوم القيامة، وليس بنافخ، وعندما يعجز عن ذلك سيعذّب عذاباً شديداً.

طلب أحد أعظم الكتّاب عن الفنّ الإسلامي في القرن العشرين، وهو نحّات في التراث الغربي، ذات يوم التتلمذ على يدي أحد حرفيي الزخرفة في شمال أفريقيا، فسأله المعلّم، «ماذا تصنع إذا طُلب منك زخرفة جدار عادي كهذا»؟ فردّ الكاتب، «أصنع تصميماً لأشجار الكرمة وأملأ تعرّجاتها برسوم للغزلان والأرانب البرية». فقال الحرفي العربي، «الغزلان والأرانب البريّة وسواها من الحيوانات موجودة في

أماكن أخرى في الطبيعة، فلماذا تصوّرها هنا؟ لكن الفن أن ترسم رسم ثلاثة نقوش هندسية للورود، واحد بأحد عشر قطعة واثنان بثماني قطع واربطها معاً بطريقة تملأ المكان تماماً، ذلك هو الفنّ»[355].

لذا فإن الرسوم المنمنمة الإسلامية لا تحتوي على تصاوير طبيعية بسبب الإيمان العميق بأن هذا العالم مؤقّت ووهمي. وهي لا تصوّر العالم المادي الذي نسكنه الآن، بل تقدّم رؤية الناظر للكون الخيالي الأقرب لعالم السماء.

الجوّ الخاصّ للحديقة الإسلامية

أجازف بالقول إن هذا هو المكوّن الخاص للحديقة الإسلامية التقليدية: فهي تمتلك جواً من العالم الآخر أينما كانت – من أفغانستان إلى الجزائر، ومن الهند إلى المملكة المتحدة على ما يؤمل - يمنح الزائر لمحة عن السلام والمتعة اللذين سيحظى بهما عندما يغادر هذا العالم. وهي تحتفظ إلى حدٍّ ما بهذا الشعور بوجود شيء يتجاوز ما تشاهده العين، شيء غامض ومستتر وديني في نهاية المطاف، حتى عندما يستقبل المرء ضيوفه بدلاً من التأمّل. وكما ذكر آنفاً، فإن كلمة جنّة تعني مستتر أو سري، إلى جانب معنى الحديقة. إن الأزهار في الحديقة الإسلامية لا تزرع من أجل شكلها ولون بتلاتها ورائحتها الزكية فحسب، وإنما أيضاً لأن شكلها الخارجي يخفي ويكشف في الوقت نفسه - لمن يرى – جمال صنع الخالق، حيث البديع من أسماء الله الحسنى[356]. إن جمالها رمز: في الحديقة الإسلامية يوجد دائماً عنصر الرمزية غير الموجود عادة في الحديقة الأوروبية بعد عصر النهضة.

تعكس البيوت القديمة ذات الأفنية في إنكلترا وأوروبا الشمالية المجتمع المتركّز أكثر على الجانب الروحاني الذي كان موجوداً في القرون الوسطى، وهو أكثر شبهاً بالمجتمع الإسلامي التقليدي. ومثلما توجد تشابهات كثيرة بين الفنّ الأوروبي القروسطي والفنّ الإسلامي التقليدي[357]، فإنه يمكن استخلاص العديد من التشابهات بين حديقة الدير المسوّرة والحديقة الإسلامية الرباعية. وقد تمّ تناول تلك التشابهات في مكان آخر من هذا الكتاب (انظر الفصول 1-3). من المثير للاهتمام إعادة إحياء حدائق الأديرة أو إعادة إنشائها اليوم، وذلك يظهر البحوث التي أجريت على استخدام الأعشاب والخضروات والأزهار في القرون الوسطى وفهم استخداماتها، بالإضافة إلى فهم التصميم الرباعي الذي يشكّل رمزاً شاملاً للعالم الطبيعي. فقد تم تصميم سلسلة من حدائق الأعشاب وفقاً لمخططات رباعية في دير بكفاست في غرب إنكلترا، مع تفسير لرمزية النباتات والأعشاب والأزهار المزروعة، وثمة مثال

الشكل 176. لوحة معاصرة بأسلوب المنمنمات التقليدي تظهر شجرة سرو تلتف حولها شجرة مزهرة، تصوير الطالب السابق في برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية سابات رفعت (انظر الحاشية 140).

على إعادة إنشاء حديقة «أعشاب» ملكية من القرن الثالث عشر في حديقة الملكة إلينور في قلعة ونشستر[358]. كما أنشئت في موربث (بشمال إنكلترا) حديقة أعشاب من القرن السادس عشر تخليداً لذكرى وليام تيرنر William Turner الذي ألّف كتاباً من ثلاثة أجزاء عن الأعشاب وأهداه إلى الملكة إليزابيث الأولى.

الأزهار والحبّ والأزهار والرمزية

يفيض شعور غامر بالراحة والاسترخاء والرومانسية، فضلاً عن الحنين الروحاني، عند قراءة القصائد الفارسية عن الحدائق، ومشاهدة المنمنمات الفارسية والعثمانية والهندية التي غالباً ما تتشابك فيها الحدائق والأزهار والحبّ. ولن تجد إلا في فارس فقط، بتاريخها العريق المليء بالحدائق الرائعة، جندياً شاباً بلباسه الرسمي وبندقيته، ينشد القصائد عن الأزهار فيما يقوم بحراسة مركز للمؤتمرات[359]. وعند الجلوس في المطاعم والمقاهي في إيران اليوم، يطوف الأولاد الصغار حول الطاولات عارضين قصاصات ورق طبعت عليها أشعار تتغنّى في الغالب بالحدائق والحبّ. وهناك برامج مسابقات في إيران، أعلى مرتبة من برامج المسابقات التي اعتدنا عليها هنا، مخصّصة بأكملها للشعر - وغالباً ما يكون موضوعها الحدائق والحبّ – يمكن القول إنها مندمجة مع أرواحهم كتراث حيّ.

عند زيارة إسطنبول في القرن التاسع عشر، لاحظ الرسّام الإنكليزي توماس ألوم Thomas Allom أن حبّ الأتراك للأزهار يمتدّ إلى نوع من اللغة الرمزية. فكل زهرة تحمل معنى، على سبيل المثال، أزهار البرتقال تعني الأمل، ويرمز التوليب للخيانة، ويمثّل آذريون الحدائق اليأس. وكانت باقات الزهور ترسل بدلاً من رسائل الحبّ وتعتبر طريقة للتعبير عن مقدار الحبّ الذي يكنّه كل من الحبيبين للآخر[360].

الشكل 177. حدائق قصر الحمراء.

غالباً ما تخلّد قصّة ليلى والمجنون، وهما الحبيبان اللذان رأى كل منهما الآخر مرّتين، كما كتبت كونستانس فيليير ستيوارت Constance Villiers Stuart، برمزية النباتات في الحدائق:

> الشجرتان المثمرتان القصيرتان المزروعتان وسط أحواض الزهور تمثّلان الحبيبين السعيدين في الجنة؛ ويرمز إلى الفكرة نفسها بشجرتي سرو، أو ما يسمّى أشجار النخيل الذكر والأنثى التي تزرع أزواجاً على العموم... الرمز الدنيوي الحزين للمجنون هو الصفصاف المتهدّل الأغصان الذي تنمو ليلاه، زنبق الماء، بعيداً عن متناوله.

وغالباً ما تزرع شجرتا سرو كشعار لهما، وأجمل الشعارات وأظرفها ليلى في هودجها المحمول على ظهر الجمل، شجيرة الورد المزروعة على أكمة صغيرة. البنفسج الداكن يعني لمعة شعرها الأسود الداكن وعطره، والياسمين جيدها المستدير الأبيض، و«السرو النحيف» خصرها، والتوليب والورد شفتيها ووجنتيها، والنرجس المهدّب عينيها[361].

الورد

يقال إن الورد خلق من قطرة عرق سقطت من جبين النبي صلى الله عليه وسلّم في أثناء معراجه إلى السماء، لذا ينظر إليه بأنه يجسّد الجمال والجلال على الأرض. وقد استكمل هذا القول لاحقاً بالزعم أن أنواع الورود الأخرى خلقت من قطرات العرق التي سقطت من أنحاء مختلفة من جسده. وقد كتب رُزبهان البقلي الشيرازي (توفي سنة 1209) من شيراز أن «على من يريد أن يرى روعة الخالق أن ينظر إلى الورد الأحمر»[362]. والبقلي هو الذي أكّد أن الورد هو الزهر المفضّل لدى النبي. يمثّل شوك الورد التجارب والمسار الروحاني وغضب الله، في حين تمثّل الزهرة نفسها رحمة الله ومحبّته. وفي ديوان جلال الدين رومي، أصبح الشوك مقدّساً بالطواف حول وجه الزهرة. والحديقة لدى رومي من أقوى رموز الجمال الإلهي التي «تظهر وتحجب في آن البستاني السرمدي وجماله الأبدي»[363]. وقد وصف الشاعر الهندي محمد إقبال (توفي سنة 1937) النبي بأنه وردة اتحدت مع أمته، فهو المركز والبتلات أصحابه. كما أن الورد يمثّل سلام الروح.

الشكل 178. الوردة الغالية (انظر الصفحة 254 وما يليها).

التوليب

لعل التوليب الزهرة الأكثر ارتباطاً بالحديقة الإسلامية بعد الورد – ما من حديقة محترمة على طراز الحديقة الإسلامية يمكن أن تخلو من التوليب. أحب الأتراك العثمانيون التوليب وقدّروه، وأصبح في عهد سليمان القانوني أحبّ الأزهار لديهم، تحيط به هالة صوفية، بل إن شهرته فاقت شهرة الورد. نشأت ارتباطات التوليب الصوفية إلى حدٍّ ما من اسمه «لاله» بالتركية، وهو مشتق من الفارسية لال بمعنى أحمر، ويعرف في عالم الشرق الأوسط بهذا الاسم أو بتحريفات قريبة منه. وتتكوّن حروف «لاله» من حروف لفظة الله أو الهلال، رمز الإسلام. وثمة أسطورة فارسية أحبّ فيها البطل، فرهاد، شابّة تدعى شيرين، لكنّها رفضت حبّه. فتوجّه إلى الصحراء باكياً ومات – فتحوّلت دموعه إلى أزهار التوليب أو «اللاله» أينما سقطت. غير أن كلمة توليب بالإنكليزية مشتقة من لفظة تولبنت التركية التي تعني عمامة، لأن شكل الزهرة يشبه شكل العمامة[364]. كما أن شكل الزهرة الأنيق يمثّل شكل المصباح أو الكأس أحياناً. وتشكّل زيارة قصر الباب العالي أو المسجد الأزرق أو قصر صوقولو محمد باشا في إسطنبول (الشكلان 175-174) الغنية ببلاطها الملوّن الذي يصوّر التوليب ونباتات أخرى، شهادة على تعلّق العثماني بهذه الزهرة. اللون الغالب في البلاط الفارسي والتركي هو السماوي، بكل درجاته اللونية. غير أن الحرفيين الأتراك الماهرين في مدينة إزنيق اكتشفوا في القرن السادس عشر

الشكل 179. توليب وست بوينت ذات الشكل القدحي (انظر الصفحة 249).

التزجيج الأحمر الغني الذي لا يضاهى، ويقال إن اللون القرمزي للتوليب البري هو الذي أوحى به (انظر أدناه). وقد وصل السفير النمساوي دي بوسبك إلى إسطنبول في أواسط القرن السادس عشر ودهش من عدد الأزهار التي رآها هناك وعلّق بأن «الأتراك مفتونون بحبّ الأزهار حتى إنهم منعوا الجنود من السير عليها». وكان دي بوسبك أول من أدخل التوليب إلى أوروبا، ما أثار في نهاية المطاف الشغف العظيم بالتوليب في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر[365]. وقد ازدهرت أزهار التوليب في شمال أوروبا منذ ذلك الوقت، ومن المفارقة أن الهجائن والأنواع الهولندية أصبحت اليوم أكثر شهرة في تركيا من ضروب التوليب الجميلة التي نشأ الكثير منها في تركيا والمناطق المحيطة بها مثل كازاخستان وتركستان وإيران وأفغانستان.

الأزهار الأخرى

ينظر إلى البنفسج عادة بأنه يمثّل التواضع بسبب رأسه المطأطئ كما لو أنه ماثل أمام سيّده. وغالباً ما ينظر إلى الخشخاش بأنه رمز الحياة الدائمة بسبب قدرته على البقاء في سبات تحت الأرض لمدّة سنوات ثم معاودة الحياة عندما تقلب التربة (تشكل زهرة الخشخاش رمز عيد الذكرى في الغرب). وينظر إلى النرجس بأنه كسول، ويشبّه السرو أحياناً بقامة المحبوبة الطويلة الرشيقة، إلى جانب أنه يمثّل الديمومة. ويرمز نفل المروج أو البرسيم إلى الرحمة لدى بعض الشعراء: «جاء النفل كحجاب للرحمة/لينشر قوانين الأرض بالعدل»[366]. وقد قارن الشعراء أحياناً الخطمية التي تزهر طوال السنة في المناخات الحارّة بالورد، الذي يتهم بأنه «غدّار»، فيما تمثّل الخطمية الوفاء والإخلاص.

يمكن من هذه اللمحة الموجزة عن رمزية الأزهار التوصّل إلى أن هناك مجالاً كبيراً لخيال الشعراء وللمعاني الشائعة على العموم. ولأزهار أخرى رمزية خاصة في الإسلام لا يتسع المقام للتوسّع فيها. غير أن المعنى الرئيسي الذي استخدمه معظم الشعراء والصوفيين أن كل زهرة تسبّح الله وأنها انعكاس للنموذج الأصلي المثالي في جنّات الخلد:

كل شجرة وشجيرة تقف مستعدّة للانحناء أمامه

وكل عشبة ونصل نجيل يلهج تسبيحاً بحمده

رحمان بابا، شاعر أفغاني من القرن الثامن عشر[367]

كيف تزرع في حديقتك الإسلامية

قبل الشروع في تقديم التوصيات بشأن النباتات التي تنمو في حديقتك الإسلامية الشمالية، تجدر الإشارة إلى بعض النواحي المتعلّقة بأسلوب الزراعة. عندما تذكر «الحديقة الإسلامية» أمام معظم الأشخاص، يلاحظون أولاً أن الماء هو العنصر الأكثر أهمية، وثانياً أن الحدائق منتظمة – وهاتان الملاحظتان صحيحتان كما رأينا – غير أن صفة الانتظام تلازم المخطط الهندسي ولا حاجة إلى توسيعها لتشمل النباتات. ولو كان الحال كذلك، لانتهت حديقتك إلى أن تكون مفرطة التنظيم والترتيب وتذكّر بأسلوب البلدية لتنظيم الأحواض على شكل السجّادة. يبدو هذا الأسلوب رائعاً وزاهياً في المكان الصحيح، حيث يجمّل الحدائق والساحات العامّة الكبيرة، لكنه ليس الأسلوب الملائم للحديقة الإسلامية التقليدية. وقد أوضحت كونستانس فيلبير ستيوارت ذلك في كتابها عن الحدائق المغولية:

> يجب عدم الخلط بين أحواض الزهور المغولية وأسلوب أحواض السجّادة الإنكليزي في أواسط العصر الفيكتوري – أوراق نباتات صغيرة ملونة وأزهار مشغولة في أنماط رتيبة على طول حافة أو جانب – فالأولى أزهار مختلفة الأطوال وذات ألوان منتقاة بعناية، مثل أحواض الزنبق في تاج محل، وحديقة الورد الأحمر لذكريات جهانكير، والنرجس والشقّار والتوليب الذي طالما أدخل السرور على بابر[368].

الشكل 180. حدّ حديقة السجادة، تشلسي، 2001، يظهر التأثير النقطي للنباتات.

وهكذا، على الرغم من أن الحديقة الإسلامية التقليدية منظّمة في مخطّطها، ونباتاتها مرتبة في أقسام، فإن النباتات المزهرة لم تكن مقسّمة بصرامة، كما يمكن الاستخلاص من مصادرنا. غير أن ملاحظات مذكّرات الرحالة متباينة: فقد كتب زائر نمساوي لقصر أسكودار في إسطنبول في القرن السابع عشر: «كانت الحديقة جنّة من أحواض الأعشاب والأزهار الزكية الرائحة وجميع أنواع الأشجار»[369]، في حين كتب زائر للحديقة نفسها على ما يبدو: «هناك سرادق رائع لا يستخدمه إلا السلطان في الصيف. وكان الماء المتدفّق من نافورة في وسط الحديقة يبقيه بارداً في الأيام الحارّة... لم تكن الحديقة مقسّمة إلى زريعات. ولم تكن تضمّ أحواض زهور، بل الخضروات هي المزروعات الرئيسية

هنا. وهناك أشجار السرو والصنوبر، ويمكن مشاهدة هذه الأشجار في جميع أنحاء المدينة حيث تظلّل أفنية جميع البيوت»[370]. ووفقاً للكاتبة التي أوردت هذه المقتطفات في كتابها، كانت الحدائق العثمانية مختلفة عن الحدائق في بقية العالم الإسلامي: فهي لا تلتزم بأي مخطط رسمي كما أن نباتاتها تبدو «طبيعية» أكثر، و«تسعى إلى المحافظة على مظهر المكان الذي ربما تطوّر بصورة طبيعية»[371]. وقد أجرت المؤلفة بعض الأبحاث الرائعة ويؤكّد كتابها على ما يبدو أن الحدائق العثمانية تطوّرت وفق خطوط مختلفة عن الحديقة الرباعية في فارس وشبه القارّة الهندية والشرق الأدنى وشمال أفريقيا والأندلس التي ركّزنا عليها هنا.

غير أننا ملتزمون هنا بالترتيب الهندسي للحديقة الرباعية وتحويراته، ويمكنك فيها زراعة الكثير من النباتات والألوان غير الرسمية – ربما يشكل ذلك توازناً جميلاً بين النزعة الرسمية والنزعة الطبيعية العثمانية. يمنح ذلك المرء حرية في الزراعة كما أشارت فيليير ستيوارت إلى تفوق ما يمكن تصوّره: المهم المحافظة على هذا التوازن بين الرسمي وغير الرسمي، وبين التقيّد والتحرّر. يجب وضع النباتات على نحو انسيابي لطيف وفقاً لأسلوب غيرترود جكِل والحدّ العشبي المرتفع المعتاد في البيت الريفي الإنكليزي، وإنما على طريقة «حديقة السجادة» أو «سجّادة الحديقة» حيث الانتظام المتكرّر الناجم عن الألوان والأحجام والقوام – تمتزج النباتات المعمّرة والثنائية الحول والحولية معاً، وتحدّد الشجيرات أو الأشجار الدائمة الخضرة (مثل الريحان أو السرو أو البقس أو الطقسوس) زوايا التصميم. ولذلك بعض الشبه بأسلوب زراعة حديقة البيت الريفي الذي تشتهر به إنكلترا. وربما كان أسلوب حديقة البيت الريفي الإنكليزي أقل ترتيباً ولا يلتفت كثيراً إلى الارتفاع والقوام واللون، ولا يلتزم كثيراً بتصميم إجمالي منضبط ذي حدود واضحة المعالم. غير أن المفهوم الفعلي للزراعة المختلطة لكثير من الأزهار معاً في المكان نفسه، ولكن ليس في الحوض نفسه، ما يعطي تأثير سجّادة نباتية، ليس مغايراً تماماً (الشكلان 180 -181). في حديقة البيت الريفي الفيكتورية لم تكن تزرع سوى الأزهار المألوفة والمحبوبة، أزهار عرفها الفنّانون المسلمون وأقرّوها، «جميع أزهار البيت الريفي الجميلة القديمة، والقرنفل، وقرنفل الشاعر، والمنثور الأصفر، وأذن الفأر في الربيع، والخطمي وأقحوان الخريف في الخريف. ثم هناك الخزامي وحبق الراعي الذي يسمّى أحياناً «حب الأولاد»... ولكل حديقة ورودها»[372]. وكانت الأعشاب تزرع أيضاً، أعشاب مماثلة لتلك التي تزرع في الحديقة الإسلامية (انظر أدناه) – جميع الأعشاب الشهيرة مثل إكليل الجبل، والزعتر، والبقدونس والمريمية والنعناع والبابونج والترنجان والسذاب (الفيجن). وكانت النسوة يعتنين بالأعشاب والأزهار على العموم، بينما يعتني الرجال بالخضروات.

الشكل 181. حديقة في جنوب شرق إنكلترا تظهر التأثير النقطي المتوازن للألوان الرئيسية الثلاثة في أزهار الزعفرانية (الحمراء) والدلفينيون (الأزرق) والزنبق الأصفر (*Iris pseudacorus*).

عند زراعة النباتات أو بذر البذور بنفسك، من المستحسن مزج الأزهار الزاهية الألوان مع النباتات الخضراء والرمادية إذا أمكن ذلك (مثل أنواع الأرطميسيا والفربيون – أنظر أدناه)، وإلا تصبح الألوان قوية جداً وتتنافس معاً على لفت الانتباه. الأسيجة النباتية أو الجدران الخلفية تقلّل كثيراً من الألوان الزاهية أو القوية. وذلك مبدأ عام شائع للتصميم الجيد للحدائق، وليس وقفاً على الحدائق الإسلامية.

في الحديقة الحضرية الصغيرة، يمكن الاستفادة كثيراً من الأصص والأوعية وتحريكها وفقاً لموقع الشمس والوقت الذي تزهر فيه النباتات سنوياً (انظر الأصص والأوعية في الفصل الثالث). وحتى في هذه الحدائق الصغيرة، يمكن زراعة الحدود بين الشجيرات على طريقة «حديقة السجّادة» (انظر الفصل السابع). إذا كانت لديك حديقة أكبر، تجنّب أيضاً الأحواض الحدية العشبية المرتفعة على الطريقة الإنكليزية، خفّض الأحواض وازرعها بمزيج واسع من النباتات المعمّرة والحولية ذات الألوان المختارة بعناية لإعطاء تأثير السجّادة[373].

انتقاء النباتات لحديقتك الإسلامية

من الجائز القول على العموم إن عليك زراعة أنواع النباتات المدرجة في قوائم النباتات القديمة، بدلاً من الأنواع الهجينة اللاحقة. لكن هذه ليست قاعدة صارمة، كما يلاحظ في اقتراحات الشجيرات والأشجار في الفصل السابق، وإنما توجيه لتجنّب الأنواع الهجينة المفرطة الزخرفة التي ليس لها مكان في الجمال البارع للحديقة الإسلامية التأملية. في ظل الحماسة الشديدة لتطوير مزيد من الأزهار «المثالية»، كتب اللورد نورثبورن Northbourne في سنة 1970، «ثمة ميل عام نحو استبدال التباهي بالأناقة، والفجاجة بالبراعة، والصخب بالجمال، والكمية بالنوعية. ويبدو أن الناس لا يرغبون في النظر إلى الزهرة، بل يريدون أن تصدم عيونهم»[374]. هذا الميل مناقض جداً للحديقة الإسلامية التقليدية، التي يجب ألا تصدمك، بل أن تتبدّى لك تدريجياً بهدوء وروية. فتسهم الأشجار والشجيرات، والأزهار والفاكهة، والماء قبل كل شيء، في الجو الصافي الذي يبتعد عن الصخب والبهرجة.

الشكل 182. حديقة أعشاب، هلمنغهام هول، سوفولك.

توضح معاجم النباتات الجيدة وفهارسها بجلاء ما هي أنواع النباتات ومن أين تأتي. وقد أشرت أدناه، في العديد من النباتات المزهرة المذكورة، بالإضافة إلى الأعشاب والنباتات المعترشة، إلى الأنواع التي نشأت في العالم الإسلامي، وبالتالي فمن المرجّح أنها زرعت في الحدائق الأولى[375]. في بعض الحالات، اخترت قليلاً من النباتات المفضّلة التي تلائم شروط النموّ، ولا تبدو في غير محلّها في الحديقة الإسلامية. غير أنه من الصعب أحياناً العثور على أصناف النباتات لأن زراعة الأنواع الهجينة الشهيرة مجزية تجارياً (مثل المكحّلة، انظر أدناه). في هذه الحالة يحتاج المرء إلى إجراء مزيد من البحث وتتبّع الأنواع في كتاب «دليل النباتات» *Plant Finder*[376]، إذ من المرجّح ألا توجد في المشاتل المحلية. في حالات الورد والزنبق والتوليب، أدرجت المزيد من المعلومات لأنها الأجناس الثلاثة الأكثر أهمية في الحديقة الإسلامية والتي سيرغب معظم الأشخاص انتقاء بعض الأنواع منها.

يُعنى هذا الفصل والذي سبقه بالدرجة الأولى بأن يوصل إلى القارئ مجموعة من المعلومات عن النباتات المألوفة في الحدائق الإسلامية المتوسطية والشرقية القديمة، بالإضافة إلى النباتات الملائمة للزراعة في الظروف الشمالية. غير أن هذه المجموعة المختارة ليست وافية لأن ذلك يعني إدراج قائمة ذات نفس موسوعي، إذ إن كثيراً من النباتات المزهرة التي يتركّز الاهتمام عليها هنا منشؤها العالم الإسلامي (من دون ذكر الخضراوات والشجيرات والأشجار). كما أننا غير معنيين كثيراً بانتقاء الأنواع الدقيقة التي زرعت تاريخياً في القرون الوسطى في سورية أو شمال أفريقيا أو الأندلس، لأننا لا نرمي إلى إعادة إنشاء حديقة إسلامية قروسطية دقيقة من الناحية الآثارية. لكن يؤمل أن تلتقط حديقتك الإسلامية الشمالية شيئاً من جوّ الحدائق الإسلامية القديمة، وتستحضر صوراً من النماذج الأصلية لجنات الفردوس.

الأعشاب

تشغل الأزهار العطرة والأعشاب العطرية موقعاً متقدّماً في قائمة النباتات الأساسية التي تزرعها في حديقتك الإسلامية. فالريحان، وهو من الأعشاب العطرية، لم يذكر في القرآن في سورة الرحمن[377] فحسب، وإنما هناك أيضاً حديث النبي صلى الله عليه وسلم «إنما حبب إلي من دنياكم النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة»[378]. وذلك ينزل العطر منزلة رفيعة، وكما ذكر في الفصل الرابع، فإن عيون الماء في الجنة منكّهة. ويشيع أيضاً استخدام البخور في المنازل الإسلامية لسهولة مناله، في حين لا يزال ينظر إليه في العالم الغربي بأنه غريب وغير مألوف[379].

في الحديقة الإسلامية التقليدية، على غرار حدائق الأعشاب في شمال أوروبا، لا تزرع الأعشاب لرائحتها الذكية ومساهمتها في جمال الحديقة بصورة عامة فحسب، وإنما للطهي والأغراض الطبية أيضاً. وقد وضعت العديد من الكتب الجيدة عن الأعشاب وحدائق الأعشاب والحدائق المنظّمة في القرون الوسطى وحدائق الأديرة[380]، وهي تصف خصائص الأعشاب المختلفة وكيفية زراعتها في أماكن منفصلة وفي أنماط هندسية منتظمة، تفصل بينها أسيجة نباتية منخفضة عادة. وبالرجوع إلى رسوم المنمنمات والرسائل القديمة عن النباتات وسجّادات الحدائق (انظر الفصل السابع)، يبدو على الأرجح أن الأعشاب في الحدائق الإسلامية زرعت أيضاً في أماكن منفصلة، لكن لا بدّ من إجراء مزيد من الأبحاث في المخطوطات القديمة العربية والفارسية والتركية[381]. وقد تكون زراعة الأعشاب ملفتة للنظر عند الحدود بين النباتات المزهرة والشجيرات الأخرى في حديقتك، التي قد لا تكون كبيرة بالقدر الكافي للسماح بزراعتها في أماكن منفصلة للأعشاب.

إن الملاحظة الرئيسية التي نسجّلها هنا هي أن الأعشاب المزروعة في الحدائق الإسلامية مماثلة تقريباً على العموم للأعشاب التي تزرع في المملكة المتحدة وسواها من شمال أوروبا منذ العهد الروماني. ويعني ذلك أنه قد يكون في وسعك أن تزرع بسهولة نسبية جميع الأعشاب المعروفة والمحبوبة (انظر أدناه) وأنت مطمئن إلى أنها توجد أيضاً في الحديقة الإسلامية. عندما زرت مؤخّراً دير بكلند في جنوب غرب إنكلترا، بجدرانه الحجرية المهيبة وأسيجة الطقسوس، وجدت أن حديقته العشبية من أجمل الحدائق التي شاهدتها. كانت كل عشبة مزروعة في مكان منفصل متعلّقة بجدران الحظيرة العظيمة التي تشبه الكاتدرائية، وتبدو طبيعية جداً وسعيدة بمكانها، خلافاً للعديد من الحدائق العشبية. في هذه المنطقة من أراضي الدير، كان الجو هادئاً بصورة استثنائية ويذكّر بالجو التأمّلي للحديقة الإسلامية، على الرغم من عدم وجود الماء.

الريحان

الريحان الوارد ذكره في القرآن هو الحبق المعروف ذو الرائحة الزكية (*Ocimum basilicum*، من اليونانية بمعنى عطري أو ملكي). تستخدم أوراقه ذات الرائحة الطيبة كثيراً في الطهي، فضلاً عن أنها تبعد الذباب عن المطبخ. ينمو الريحان في البرية في شبه الجزيرة العربية والهند وفارس أيضاً، حيث يعرف

باسم «ملك الأعشاب». وفي المناخات الشمالية يزرع الريحان عادة كنبات حولي في أصيص عند عتبة نافذة مواجهة للجنوب أو الغرب، لكن يمكن زراعته في الخارج في حديقتك الإسلامية شرط أن يكون لديك منطقة مشمسة تصرّف الماء جيداً. بالإضافة إلى الرائحة الزكية وتطييب الطعام، يستخدم الريحان لأغراض طبية عديدة، ويعتبر زيته العطري منبّهاً ومدرّاً للبول[382].

الخزامى وإكليل الجبل وإبرة الراعي

ثمة حكاية عن أن مريم العذراء (التي أفرد لها سورة كاملة في القرآن الكريم) نشرت ملابس سيدنا عيسى لتجفّ على شجيرة رمادية عادية. وبعد أن التقطتها ظهر على الشجيرة رؤوس صغيرة لأزهار زرقاء ذات عبير ذكي. كانت تلك النبتة الخزامى (*Lavandula*، مشتقة من اللاتينية بمعنى «غسل»). وهناك قصة مماثلة بشأن إكليل الجبل (*Rosmarinus officianalis*)، التي تحوّلت أزهارها إلى زرقاء بعد أن نشرت مريم العذراء ملابسها عليها لتجفّ. ربما من الأفضل لحديقتك أن

الشكل 183. أكليل الجبل (*Rosmarinus officianalis*).

الشكل 184. الخزامى (*Lavandula stoechas*).

تختار أنواع الخزامى التي تنبت في البرية في إيطاليا ومنطقة البحر المتوسّط، وهي تزرع في إنكلترا منذ القرون الوسطى – مثل الخزامى الشائعة *L. officianalis* أو نوع الخزامى الذي وصل متأخّراً *L. dentata*. ومن أشهر ضروبها اليوم *Lavandula angustifolia* التي تمتاز بأزهارها الداكنة وسوقها الهشّة و*L. dentata* ذات الأوراق الرمادية الناعمة والأزهار الزرقاء والرائحة القوية[383].

تقول بيرديتا في مسرحية «حكاية شتاء» لشكسبير، «إكليل الجبل للذكرى»، وقد كانت العشبة المفضّلة للسير توماس مور الذي كتب، «أما إكليل الجبل، فأدعها تعرّش على جميع جدران حديقتي، ليس لأن النحل لدي يحبّها فحسب وإنما لأنها العشبة المقدّسة للحب والذكرى، وبالتالي للصداقة»[384]. وعلى الرغم من أنها غير مذكورة تحديداً في قوائم النباتات الإسلامية الأولى التي نشير إليها بصورة رئيسية، فإنها عشبة أساسية في حديقتك الإسلامية. فموطنها منطقة البحر المتوسّط وتحمل أزهاراً زرقاء بمختلف الدرجات اللونية وذكية الرائحة، وتلك خاصية مهمة جداً للنباتات في الحديقة الإسلامية. وعلى الرغم من وجود ثلاثة أنواع فقط من إكليل الجبل، وأكثرها شيوعاً *Rosmarinus officianalis*، فإن هناك العديد من الضروب المستنبتة المتوافرة اليوم ذات الأزهار الشديدة الزرقة. ولإكليل الجبل العديد من الاستخدامات المطبخية والطبية ويصنع منها شاي منشّط لذيذ.

ثمة حكاية أخرى في الإسلام تتعلّق بالنبي وإبرة الراعي. يقال إنه كان يسير في يوم قائظ، ثم استراح فخلع ثوبه وغسله في بركة قريبة نما حولها بعض نبات الخطمي (لعله *Althaea* أو *Alcea officianalis*، والكلمة مشتقة من اليونانية وتعني العلاج، وللخضاب الموجود في الأزهار والزيت العطري خصائص علاجية). ثم نشر الثوب على أغصان شجرة قريبة حتى يجفّ، فقطر الماء على إحدى نباتات الخطمي تحته. فتحوّلت على الفور إلى إبرة الراعي الحمراء، في حين بقيت نباتات الخطمي الأخرى على حالها[385].

الأعشاب الأخرى

ترد الأعشاب التالية جميعاً في قوائم ابن بصّال وابن العوّام[386]، وقد جرّبت جميعها واختبرت في المناخات الشمالية منذ قرون. لذا لديك مجموعة متنوّعة واسعة من الأعشاب التي تختار من بينها، شرط أن تفرد لها أكثر الأماكن دفئاً وأحسنها تصريفاً للماء في حديقتك: المريمية (*Salvia officianalis*) تشيع زراعتها في

المملكة المتحدة وتستخدم لكثير من الأغراض بما في ذلك كمطهّر وللمساعدة في مقاومة الشيخوخة[387]. وتستخدم الكزبرة *Coriandrum sativum* للجهاز الهضمي، ويمكن استخدام المردقوش *Origanum majorana* لتفريج الصداع. ويساعد النعناع، بنوعيه الشائع والفلفلي، في تهدئة المعدة، وربما يصنع من النعناع المغربي أفضل شاي في العالم. وربما يفرّج الترنجان *Melissa officianalis* التوتّر، ويمكن استخدام الزعتر *Thymus vulgaris* كعلاج للسعال، كما يمكن استخدام الشمّار *Foeniculum vulgaris* كعلاج لسوء الهضم، والأرطميسية بنوعيها *Artemesia abrotanum* و*Artemesia absinthanum* لتنبيه الهضم، ويقال إن وضع غصن جافّ منها بين الملابس يطرد العث.

وهناك بعد ذلك الثوم الذي يمكن استخدامه كعامل فعال مضاد للجراثيم والفيروسات. ويقال إن شعيرات الزعفران البرتقالية المستمدّة من الزعفران *Crocus sativus* تبهج الناس[388]. والبابونج *Chamaemelum nobilis* معروف بخصائصه المهدّئة. وتقول الحكاية الشعبية إذا اقتُلع اللُّفاح *Mandragora offcinarum* من جذوره يُطلق صرخة رهيبة تدفع مقتلعه إلى الانتحار. وللخطمي *Althaea officianalis* خصائص مهدّئة فعّالة تستخدم لمشاكل الجهاز الهضمي وسواه. وربما تستخدم الخبّازى *Malva sylvestris* بطرق مماثلة للخطمي لكن ليس لها تأثيره الفعال. والشبث *Anethum graveolens* علاج لتطبّل (انتفاخ) المعدة. والبقدونس *Petrolselinum crispum* مصدر غني للفيتامين سي. ويمكن أن يهدّئ الراسَن *Inula helenium* الأنسجة الداخلية ويحميها. والسذاب *Ruta graveolens*، الذي اشتقّ اسمه من اليونانية بمعنى «حرّر»، اكتسب اسمه في الأزمنة القديمة لقدرته على تحرير المرء من المرض. لكن يجب التعامل معه بعناية لأنه مهيّج للبشرة. وهناك أيضاً آذريون الحدائق *Calendula officianalis*، وهو نبتة حولية شهيرة في الحدائق الإنكليزية منذ أن أدخل من جنوب أوروبا في العصور الوسطى أو قبل ذلك. والشؤنيز الدمشقي *Nigella damascena* أو الشؤنيز الإسباني *Nigella hispanica*، ذو الأزهار الزرقاء الأكبر قليلاً والأكثر دكنة، غير معروف في المملكة المتحدة، لكن بذوره السوداء مشهورة في الشرق الأدنى والأوسط ويصنع منها زيت في بعض الأحيان. وتعرف في شبه الجزيرة العربية باسم حبة البركة (الحبّة السوداء) ويقال بأنها دواء لكل داء[389].

ملاحظات على المناخ والمظهر

تتميّز جميع النباتات في معظم بلدان العالم الإسلامي التي ننظر فيها بأن فترة إزهارها أطول من فترة الإزهار في شمال أوروبا، وبعضها يسبت في قيظ الصيف ويعود إلى الحياة ثانية في الخريف ويستمرّ في الإزهار حتى كانون الأول/ ديسمبر. وفي بعض هذه البلدان، ربما تزهر الورود والياسمين وأزهار الربيع، مثل النرجس والبنفسج، في أوقات متماثلة – يصوّر الورد والنرجس في بعض الأحيان بأنهما يزهران معاً في المنمنمات الإسلامية، كما أنهما يرتبطان معاً في الشعر. هذا الأمر غير ممكن في المناخات الشمالية على العموم، ما لم تجبر الورود ويعرقل النرجس، وذلك معروف لدى العارضين في معارض الزهور[390].

يمكن على العموم أن تزرع أزهار الربيع، التي ذكر أنها أساسية في الحديقة الإسلامية، في شبه الظل. غير أن معظم أزهار الصيف تحتاج إلى أكبر قدر ممكن من أشعة الشمس في مناخنا المعتدل. وما من شك في أن الحديقة المواجهة للجنوب أو الغرب وذات التصريف الجيد هي الموقع الأمثل لحديقتك الإسلامية في نصف الكرة الشمالي. ويعني ذلك أن في وسعك زراعة النباتات المحبة للشمس المرتبطة بالحدائق الإسلامية في البحر المتوسّط والشرق الذي يليه من دون القلق بشأن قدرتها على التحمّل: نباتات مثل الأرطيميسية ذات الأوراق الرمادية، والخزامى، وإكليل الجبل والمريمية والياسمين – على سبيل ذكر قليل من أكثرها شهرة. وتزرع كل هذه النباتات في شمال أوروبا وتزدهر شرط أن يختار موقعها بعناية.

لذا إذا استثنينا الأعشاب الواردة أعلاه، ما هي الأزهار والنباتات الأخرى التي عليك زراعتها في حديقتك الإسلامية في الشمال؟ عند التنبّه إلى أن الأزهار الواردة في الشعر والفن الإسلامي هي الأكثر شهرة، فسيلاحظ أن اختيار الأزهار والأعشاب لحديقتك أسهل من اختيار الأشجار والشجيرات لأن العديد منها متماثل. لذا ليس على المرء القلق كثيراً أولاً بشأن إمكانية بقائها في مناخ مختلف، وثانياً، إذا ما كانت ستبدو كأنها تنتمي إلى المكان أم لا. فالإجابة عن كلا التساؤلين هي «نعم» إلى حدٍّ كبير. وحتى إذا كنت تقوم بإنشاء حديقتك في مناخ بارد تتساقط فيه الأمطار بكثرة، ثمة إمكانية كبيرة لتحقيق المظهر والجوّ الذي نرمي إليه. إذا كان التخطيط الهندسي صحيحاً، وهناك شكل من أشكال الماء والظلّ، فستكون طليق اليد في زراعة ما تبقى من النباتات.

أزهار الربيع

التوليب

ما من شك في أن الأزهار الأساسية للحديقة الإسلامية، إلى جانب الورد، التي ذكرت مراراً وتكراراً في الشعر والأوصاف التاريخية، هي ما نسمّيه أزهار الربيع، وكثير منها ينمو من بصلات أو قُرمات أو درنات أو جذامير. هناك أولاً التوليب، الزهرة المفضّلة عند الأتراك، ويوجد منها نحو مئة نوع وآلاف الضروب المستنبتة. وبما أن هناك خيارات كثيرة من بين الأنواع، وكثير منه منشؤه العالم الإسلامي، فليس من الصعب اختيار عدد منها لحديقتك. على سبيل المثال، توليب *Tulipa greigii* من تركستان، و*T. sprengeri* من تركيا، و*T. praestens* من أواسط آسيا، وربما أنواع مستنبتة منها لا تبتعد كثيراً عن مثيلاتها البرية. إذا أردت الحصول على زخرفة لونية في حديقتك الإسلامية الشمالية، فعليك اختيار توليب *T. praestens* الصغير والدقيق (الشكل 170) الذي تتميّز أزهاره بلون أحمر داكن رائع وبتلات مستدقّة ويبدو رائعاً مع الأوراق الخضراء الغضّة في أوائل الربيع، كما أنه يظهر كل سنة من دون اهتمام زائد. ويجب أن تزرع في العشب تحت أشجار الفاكهة لتتمتّع بالظل. وهناك الأنواع الأطول والأكثر «تعقيداً» مثل التوليب الأبيض (الشكل 185) أو توليب وست بوينت (الشكل 179). وهما لا يزرعان مع العشب، بل في وعاء أو حوض للأزهار. وثمة نوعان آخران من التوليب يبدوان جميلين عندما يزرعان بين الأعشاب وهما التوليب الوردي الزهري والأبيض *T. clusiana* (من إيران والعراق وأفغانستان) وتوليب *T.turkestanica* من تركستان وشمال غرب الصين، ويتميّز بسوق متعدّدة الأغصان وربما يزهر باكراً في شباط/فبراير.

الشكل 185. توليب أبيض

النرجس والنسرين

النرجس من الأزهار الأخرى المفضّلة في الحدائق الإسلامية التقليدية. وهناك تقديرات تتراوح بين خمسين وسبعين نوعاً من النرجس (وآلاف الضروب المستنبتة)، وغالبيتها متوطّن في جنوب أوروبا وشمال أفريقيا، على الرغم من أن النرجس الكاذب *Narcissus pseudonarcissus* هو النرجس البري في غرب أوروبا والمملكة المتحدة. إنه نوع صغير وجميل من النرجس الأصفر الباهت، وهو عندنا أجمل من أي نوع أكبر أو مزدوج الأزهار، وتجب زراعته إذا أمكن في حديقتك الإسلامية لأنه شبيه بالنرجس البري في منطقة البحر المتوسّط. وعلى نحو التوليب، عليك أن تتطلع إلى الأنواع غير المنمّقة قدر الإمكان بدلاً من الأنواع الهجينة الذابلة. ومن الأنواع الأخرى التي يوصى بزراعتها في منطقة الأشجار المثمرة في الحديقة (إذا كنت محظوظاً بوجود واحدة)[391]، تحت أشجار الفاكهة أو داخل الحدود المشكّلة من الأزهار: *N. tazetta*، من منطقة البحر المتوسط؛ و*N. triandrus* (هذا النوع غير معروف في الزراعة، لذا فإن «دموع الملائكة» بديل جيد) ومنشؤه البرتغال وإسبانيا ولبنان وإيران؛ و*N. humilis*، ينمو في البرية في إسبانيا والجزائر والمغرب؛ و*N. poeticus* وهو ذو بتلات بيضاء جميلة قوية العطر موطنه منطقة البحر المتوسط؛ ونرجس أطلس *N. atlanticus*، من جبال أطلس في المغرب؛ والنسرين *N. jonquilla*، موطنه إسبانيا والبرتغال. ويمكن أيضاً زراعة الضروب المستنبتة المتوافرة من نرجس *N. cyclamineus*، مثل «ذهب فبراير» لأنها صغيرة ورقيقة وعطرة ومماثلة للنرجس البري الذي ينمو في كل أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية[392].

الزعفران والسورنجان

الزعفران والسورنجان من نباتات الربيع البصلية الأخرى. هناك أكثر من ثمانين نوعاً من الزعفران، لا سيما تلك التي منشؤها منطقة البحر المتوسط وشمال أفريقيا وأنحاء من آسيا. وتشمل الزعفران الجادي *Crocus sativus*، بالإضافة إلى *C. speciosus*، وكلاهما ينموان في البرية في تركيا والقوقاز، و*C. tommasinianus* من أوروبا الشرقية و*C. aleppicus* من الشرق الأدنى. ويمكن زراعة أي من هذه الأنواع في حديقتك الإسلامية لإضفاء ألوان زاهية على الخريف والربيع. ويبدو أن هناك تقديرات تتراوح بين خمسة وستين وثمانين نوعاً من السورنجان، وكثير منها من كولشيس، وهي منطقة جبلية قريبة من البحر الأسود في جورجيا، كما أن موطنها أوروبا. يأتي السورنجان *Colchicum speciosum* من تركيا والقوقاز، ويأتي *C. luteum* من أواسط آسيا وشمال الهند وأفغانستان، ويوجد موطن *C.*

autumnale في أوروبا والمملكة المتحدة. ولعل سورنجان *Colchicum speciosum* من أشهر أنواع السورنجان وأجملها وأسهلها زراعة وتجب زراعته تحت الأشجار ذات الأوراق المتساقطة وليس عند الحدود. كما أن السورنجان البيزنطي جيد للزراعة في التربة الجافة تحت الأشجار.

المكحّلة والبلبوس

من حسن الحظ أن هناك قليلاً من أنواع المكحّلة التي تزرع (على الرغم من كثرة ضروبها المستنبتة، لا سيما *Hyacinthus orientalis*)، لذا لن يحتار المرء كثيراً في الاختيار. هناك *Hyacinthus transcapicus* من تركمانستان وشمال شرق إيران، و*H. liwinowii*، من تركيا وشمال إيران وأنحاء من آسيا، والمكحّلة الشائعة الشرقية *H. orientalis*، من الشرق الأدنى وجنوب تركيا. لكن من سوء الحظ أن المكحّلة الشرقية صعبة الزراعة اليوم، وعلى الرغم من توافر العديد من أنواعها المستنبتة، فإنها لا تشبه الأنواع البرية الأصلية. إذا كان لديك منطقة بستانية صغيرة في حديقتك الإسلامية، فيفضّل زراعة مكحّلتنا المحلية، الجُرَيس *Hyacinthoides non-scripta*، بدلاً من أنواع المكحّلة الشرقية التي ستبدو كبيرة جداً وفي غير مكانها في منطقة الأعشاب البصلية الرقيقة. ويمكن بدلاً من ذلك، أو بالإضافة إليه، زراعة نبتة البلبوس مثل *Muscari armeniacum* («السنبلة الزرقاء» من الأنواع الموصى بها) أو *M. azurem*، وكلاهما موطنه القوقاز وشرق تركيا. يمكن أن تبدو تشكيلة منوّعة من الأعشاب البصلية الربيعية جميلة ومتماشية مع روح الحديقة الإسلامية، لكن عليك أن تتوخّى الحذر عند زراعة الجُرَيس والبُلبوس لأنهما يتكاثران.

الشكل 186. الجُريس (*Hyacinthoides non-scripta*).

الشكل 187. سوسن سيبيريكا، بديل جميل إذا لم تكن الأنواع المذكورة أدناه متوافرة.

السوسن

السوسن (الشكلان 171 و187) من النباتات البصلية الأخرى المفضّلة، وغالباً ما تظهر في المنمنمات الإسلامية. كما أنها في المسيحية ترتبط بالثالوث وشعار ملوك فرنسا. هناك أكثر من ثلاثمئة نوع من السوسن (وآلاف من ضروبه المستنبتة) يمكن الاختيار منها، وجميعها تنتمي إلى نصف الكرة الشمالي. ومن بين هذا التشكيلة الواسعة أختار أن أزرع في حديقتي الإسلامية الشمالية ما يلي: أولاً، السوسن الأزرق الغامق *Iris reticulata*، وموطنه القوقاز وتركيا وشمال العراق وإيران؛ ثم *I. histrioides*، وموطنه تركيا؛ و*I. unguicucularis*، وهو السوسن الجزائري الجميل ذو الرائحة العطرة واللون الأزرق الخزامي الغني، و*I. germanica* الذي يأتي من منطقة البحر المتوسّط، على الرغم من أن أصله البري غير معروف على وجه اليقين؛ والسوسن الدمشقي *I. damascene*، من سورية، وزهرته بيضاء مرقّطة بالأرجواني؛ وسوسن علمنا المحلي *I. pseudacorus*؛ وأخيراً *I. kashmiriana*، من كشمير وأفغانستان الذي رأت كونستانس فيليير ستيوارت أنه السوسن الأجمل. فبعد المشي في تلال كشمير وإبداء الإعجاب بكثير من الأزهار التي تنمو في البرية هناك، كتبت ما يلي: «حسبت أن كل زهرة مررت بقربها هي الأجمل، لكن الحرفي الذي توّج هلال تاج محل بالسوسن هو الأكثر معرفة لأن ذكرى الزنبق تخبو أمام سوسن كشمير»[393].

بخور مريم

يعرف بخور مريم باسم «البنفسج الفارسي»، ويقدّر عدد أنواع هذه الزهرة الرائعة بين خمسة عشر وثلاثين نوعاً. وتستوطن هذه الأزهار منطقة البحر المتوسّط أساساً وما يليه شرقاً، وقد زرعت في الحدائق الإسلامية منذ العصور الوسطى أو قبل ذلك. وأشهر أنواعها وأكثرها توافراً وأسهلها زراعة: أولاً، *Cyclamen coum* من الشرق الأدنى وتركيا والقوقاز؛ ثانياً، *C. hederifolium*، وموطنه جنوب أوروبا؛ ثالثاً، *C. persicum*، من شرق البحر المتوسّط. ويجب تجنّب الأنواع الهجينة ذات الأزهار الكبيرة التي تزرع في الأصص. فعندما تشاهد إلى جانب أسلافها البرية الرقيقة فإنها تبدو ذابلة ومبتذلة. وثمة نوعان من بخور مريم أقل شهرة وأقل قدرة

على التحمّل وهما بخور مريم الأفريقي *C. afrricanum* من شمال أفريقيا، وبخور مريم الكيليكي *C. Cilicilium* من تركيا.

الشُّقّار

يشتقّ اسم الشقّار بالإنكليزية «animone»، ويعرف أيضاً باسم «زنبق الحقل» و«زهرة الريح»، من اللفظة اليونانية «anemos» وتعني الريح. تتراوح تقديرات أنواعه – بشكل مدهش – بين اثني عشر ومئة وخمسين، يستوطن معظمها في شمال أوروبا وجنوبها، بالإضافة إلى تركيا وتركمانستان. والأنواع التي يختار منها هي: الشقّار المشهور *Anemone nemorosa*، وهو الشقّار الخشبي المستوطن في المملكة المتحدة وأوروبا؛ و*A. Blanda*، وموطنه جنوب شرق أوروبا وما يليها شرقاً وصولاً إلى تركستان؛ و*A. coronaria* (شقّار الخشخاش)، يعتقد بعضهم أنه شقّار عظة الجبل لأنه ينمو في البرية في منطقة البحر المتوسّط.

الحَوذان والبنفسج

ذُكر الحَوذان في قوائم النباتات الإسلامية المبكّرة وهو يضمّ عدداً كبيراً من الأنواع تتفاوت تقديراتها بين مئتين وخمسين وأربعمئة. ربما يمكنك زراعة الحوذان الآسيوي *Ranunculus asiaticus*، وموطنه تركيا وآسيا الصغرى وشمال العراق أو *R. rupestris* من المغرب. والبنفسج زهرة ربيعية أخرى تكثر زراعتها في الحدائق الإسلامية ويشار إليها كثيراً في الشعر. وهناك أيضاً العديد من أنواع البنفسج لكنني أفضّل زراعة البنفسج العطر *Viola odorata*، وموطنه أوروبا بما فيها المملكة المتحدة بالإضافة إلى آسيا وشمال أفريقيا؛ و*V. Cornuta* من جبال البيرينيه أو البنفسج المثلّث الألوان *V. tricolor*. وهناك أيضاً العديد من الأنواع الهجينة التي تزرع مثل زهرة الثالوث *Viola x wittrokiana*. ومن المبهج أن البنفسج العطر الجميل قد أخذ يعود إلى أحد مواطنه، ديفون وكورنوال (جنوب غرب إنكلترا).

الأزهار الصيفية (المعمّرة والثنائية الحول والحولية)

الورد والزنبق أهم الأزهار في الحديقة الإسلامية، وهما مهمتان عند المسيحيين إذ إنهما ترتبطان بمريم العذراء. والورود عند الفرس «رسل حديقة الأرواح» – ربما لأن جمالها ذو نوعية أثيرية بحيث تبدو كأنها سقطت من السماء مباشرة.

الورد

تتابك الحيرة عندما يحين اتخاذ قرار بشأن الورد في حديقتك الإسلامية. للحدّ من الخيارات الواسعة واختيار أكثر ما يلائم حديقتك في شمال أوروبا – أو في مكان آخر ذي مناخ ملائم – يفضّل اللجوء إلى الورود القديمة ما أمكن ذلك. ومع ذلك تبقى الخيارات واسعة لكن يمكن تدبّر أمرها. ولتضييق الخيارات أكثر، يمكننا التركيز على الضروب القديمة من نوعي الورد الدمشقي *R. damascena* والورد الفرنسي *R. gallica*، ويعتقد أن كليهما نشآ في الشرق الأدنى، وزرعا في أوروبا منذ العصور الوسطى. لم تزرع أنواع من هذه الورود في الحدائق الإسلامية المبكّرة فحسب، وإنما أزهارها أجمل وأقوى عطراً من الأنواع الهجينة ذات المظهر الاصطناعي التي تولّد اليوم. غير أن ذلك لا يعني أنه ليس هناك وروداً حديثة رائعة (أي تلك التي أنتجت في السبعين سنة الماضية أو نحو ذلك)، مثل تلك المزروعة على

الشكل 188. وردة أصفهان، حديقة السجادة، هايغروف.

طراز الورود القديمة، «كالورود الإنكليزية» لديفيد أوستن. وللحصول على ورود يعوّل عليها وذات فترة إزهار طويلة ومقاومة للمرض، يمكنك اختيار واحدة أو اثنتين من هذه الفئة، لا سيما شجيرة الورد الرائعة ذات الأزهار العطرة، وردة «شريفة أسما»، حيث يوحي اسمها بأنها ملائمة للحديقة الإسلامية[394]. لكن للتقيّد بورود الحديقة الإسلامية المبكّرة، فإنني أوصي بأي من الورود الدمشقية المبكّرة.

الورود الدمشقية مجموعة قديمة إذا لم تكن نشأت في دمشق بالتحديد، فإنها نشأت على الأقل في مكان غير بعيد عنها في جنوب تركيا وآسيا الصغرى. ويبدو أنه لا يمكن تتبع أصلها بوضوح، لكن الاستخدام المتكرّر لعبارة «الورود الدمشقية» في العصر الإليزابيثي يشير إلى أنه كان يعتقد في هذه الفترة أنها أتت من دمشق، ومن المرجّح أن يكون الفرنجة أو الرحالة الأوائل هم الذين أدخلوها إلى أوروبا. وقد أعجبت حدائق دمشق الرحّالة طوال عقود، من امتداح المقدسي لها في القرن العاشر إلى ملاحظات ألكسندر كنغليك Alexander Kinglake في القرن التاسع عشر عن نموّ الورود الدمشقية في الشام «بغزارة شديدة» بحيث «يعبق الهواء القليل الحركة بشذاها. فليس هناك أزهار أخرى»[395]. ويعتقد أنها نباتات هجينة بين الورد الفرنسي *Rosa gallica*، الذي زرعه الرومان والورد الفينيقي *Rosa phoenicia*، الورد الأبيض في جنوب تركيا. تنتقد فيتا ساكفيل وست *Vita Sackville-West* بشدّة مقالة قرأتها وتفيد بأن ذلك «شعر صرف»، مع ذلك نقتبس منها: «في القرن الثاني عشر زرع العرب في إسبانيا الورد الغالي، ويعتقد أنها جُلبت من فارس في القرن السابع»[396]. إن هذا «الشعر الصرف» ربما يكون صحيحاً.

تزرع أنواع من الورد الدمشقي، لا سيما *R. damascena* في تركيا والمغرب وأماكن أخرى لزيتها العطري الذي يستخرج ويقطّر لصنع عطر الورد. ولهذا الورد الدمشقي القديم لون زهري، وأزهار مزدوجة طليقة ورائحة ذكية. الأنواع المستنبتة الأخرى من الورد الدمشقي ليست جميلة جداً ومنشؤها العالم الإسلامي فحسب، وإنما ذات تاريخ طويل من الازدهار في المملكة المتحدة أيضاً. لذا ثمة احتمال كبير بأن ترغب في زراعة الورد الدمشقي فقط في حديقتك. وعلى الرغم من أنها تكرّر الإزهار على العموم، فإن نوراتها الباهتة عادة ذات رائحة فوّاحة وتستحضر صوراً من حدائق دمشق المليئة بالورود، التي لا يسمع فيها سوى خرير الماء وشدو الطيور. ثمة استثناء لقاعدة الإزهار مرة واحدة بين الورود القديمة هو الورد القديم الرباعي المواسم (يدرج أحياناً باسم *R. x damascena* var. *semperflorens*)، يسمّى أيضاً «الورد الدمشقي الخريفي»، لأنه يزهر في في أوائل الصيف وفي الخريف[397]. وثمة ورد دمشقي قديم آخر، «وردة القديس يوحنا» التي تسمّى «الوردة المقدسة»

Rosa sancta وهي تزرع لارتباطها بالقديس يوحنا على الرغم من أن عطرها ليس قوياً. وأعتقد أن هذا القديس هو يوحنا المعمدان (سيدنا يحيى) الذي تجلّه المسيحية والإسلام ويعتقد أن رأسه مدفون في المسجد الأموي الكبير. ومزاره في ذلك المسجد يؤمّه المسيحيون والمسلمون على السواء، ويوجد في مكان هادئ جداً يمكن الجلوس فيه.

ومن الأنواع الزراعية المرتبطة بالورد الدمشقي والتي تعطي شجيرات جميلة تزهر في الصيف في حديقتك الإسلامية، نذكر ورد أصفهان، وهو شجيرة ورد ذات أزهار زهرية داكنة مزدوجة عطرة، ومن مزاياها أنها تحتمل الظل. ويشير اسمها إلى أنها ملائمة تماماً على الرغم من أن ارتباطها بمدينة أصفهان تاه على ما يبدو في غشاوة الزمن. وثمة شجيرة ورد أخرى، وردة «سلسيانا» ذات أزهار زهرية مائلة إلى الأبيض، ووردة «عمر الخيام» ذات الرائحة الذكية، وقد أسميت كذلك لأنها نبتت على قبر الشاعر في نيسابور في شمال شرق إيران.

وتشمل الورود القديمة الأخرى التي يمكن أن تزرع في حديقتك الإسلامية «وردة رشت»، ولعلها هجين من الورد الدمشقي ووردة صينية. وهي ملائمة بسبب مصدرها (سميت نسبة لمدينة رشت في إيران). وقد اكتشفتها نانسي لندساي Nancy Lindsay «التي صادفتها في حديقة فارسية قديمة في مدينة رشت الأثرية على طريق قوافل الشاي المتجهة نحو فارس من الصين عبر سهوب آسيا الوسطى. وهي «شجيرة قوية يبلغ ارتفاعها ياردة واحدة وذات أوراق خضراء لامعة وأزهار حمراء ياقوتية مقزّحة بالأرجواني وكأسيات تشبه النورات المرسومة على الخزفيات الشرقية»[398]. فكيف يستطيع المرء أن يغفل مثل هذا الوصف.

الورد الفرنسي من الورود القديمة الرائعة التي تزرع في حديقتك، ويعتقد أنه نشأ في سورية على الرغم من اسمه، ووصل إلى فرنسا في القرن الثالث عشر. وثمة ثلاثة أنواع مفضّلة لدي لأزهارها الحمراء الياقوتية الداكنة، وهي وردة «توسكانيا العظيمة» (الشكل 169) ووردة «الكاردينال ريشيليو» و«وردة الصيدلاني». وقد استخدمت لأغراض العلاج فضلاً عن ماء الورد، ولعلها الوردة التي يحملها محمد الفاتح في الصورة المنمنمة في متحف توب كابي.

الزنبق

الزنبق والورد زهرتان أساسيتان في الحديقة الإسلامية الصيفية. إنها زهرة تتميّز بحسن وأناقة أرستقراطية وترتفع بجلال فوق معظم الحوليات الأخرى

الشكل 189. الزنبق الملكي (*Lilium regale*).

في حدّ الحديقة، ناهيك عن ذكر رائحتها الرائعة. نشأت معظم أنواعه التي تبلغ مئة نوع تقريباً في الأراضي الإسلامية شرق المتوسّط وتركيا وآسيا الصغرى، لذا ثمة كثير من الأنواع التي يختار منها. ولعل أشهر أنواعها التي تزرع منذ الأزمنة القديمة الزنبق الأبيض *Lilium candidum*، وتشتهر بأنها الزهرة الأكثر ارتباطاً بنقاء السيدة العذراء، وقد اعتمدت بمثابة الزهرة الرئيسية لعيد البشارة منذ العصور الوسطى. وكانت ولا تزال محبوبة لدى المسلمين وتصوّر في المنمنمات كما تذكر في قوائم النباتات والشعر.

وهذه ليست أسهل أزهار الزنبق زراعة لكن تجب محاولة ذلك إذا أمكن، إذ ليس هناك زنبق آخر يساويها حسناً ونقاوة. ومن الأنواع الأخرى التي ربما زرعت في الحدائق الإسلامية المبكّرة الزنبق القوقازي الأصفر *L. monadelphum* التي تنمو في البرية في القوقاز وأنحاء من تركيا. وعلى غرار زنبق العمامة التركية *L. chalcedonicum* القرمزي وزنبق *L. martagon* فإن بتلاته تلتفّ ثانية على نفسها (تعيد الالتفاف مقارنة بالبتلات البوقية الشكل)[399]. ينمو هذان النوعان أيضاً في البرية في شرق البحر المتوسّط، كما ينمو جيداً في شمال أوروبا وغربها. ومعظمها عطر وتشكّل عيّنات جيدة للزراعة في حديقتك شرط أن تزرع في مكان مشمس تماماً أو الظل في تربة غنية.

ربما يبدو في امتداح الزنبق الملكي *L. regale* الذي يأتي من الصين لا العالم الإسلامي شيئاً من عدم الوفاء من منظور إسلامي. فأزهاره البوقية البيضاء الجميلة

ذات الخطوط الزهرية التي تنمو في أعلى سوق طويلة متماوجة تضفي شيئاً من الأناقة على أي حديقة فضلاً عن رائحتها الذكية. وهي خيار لا يمكن مقاومته في الأصص حول بركة أو نافورة مركزية في حديقتك. كما أن شقيقه الزنبق الملكي الأبيض ذا المركز الأصفر لا يقل روعة عنه. وعلى الرغم من أن الزنبق الأبيض *Lilium candidum* هو الخيار الأول، فإن زراعته قد تكون صعبة في بعض الأحيان، ويبدو أنه يسقط ضحية لخنفسة الزنبق الكريهة بسرعة أكبر من الأنواع الأخرى. بالمقابل، يتكاثر الزنبق الملكي سنة بعد أخرى، وكما كتب روبن لين فوكس *Robin Lane Fox*، «رائحته القوية تأخذك بعيداً عن كل إلهاء دنيوي في ليلة باردة صافية من ليالي تموز/يوليو». فماذا يطلب المرء أكثر من ذلك[400]؟

ربما كان زنبق النهار *Hermerocallis* يزرع أيضاً في الحدائق الإسلامية لأن عالم النبات الغافقي وصف استعمالاته الطبية في القرن الثاني عشر. ولعل ذلك هو النوع الآسيوي *H. fulva*، الذي أصبح مستوطناً الآن في أوروبا، في ما يأتي النوع الآخر من الصين واليابان. وبدلاً من محاولة التعرّف إلى العشرين ألف نوع أو نحو ذلك من الأنواع المستنبتة من زنبق النهار المتوافرة اليوم (من نحو خمسة عشر نوعاً)، فإنني أوصي بتجنّبها جميعاً والتركيز على نوع *Hermerocallis fulva* المتوافر في المشاتل المتخصّصة. وبخلاف ذلك، يمكنك التماس الأنواع المستنبتة الراسخة من زنبق *H. fulva*، مثل الزنبق «الجرسي الأصفر» أو زنبق «صقر الليل» الأصفر الليموني.

الخشخاش

الخشخاش من الأزهار المفضّلة التي تلي الورد والزنبق في الحديقة الإسلامية، ويوجد منه نحو مئة نوع والعديد من الأنواع المستنبتة التي يمكنك الاختيار منها اليوم. وعلى الرغم من أن خشخاش أيسلندا الزاهي الألوان (*P. nudicaule*) وخشخاش كاليفورنيا ذا اللون الباهت الرائع (وهو في الواقع جنس مختلف من *Eschoscholzia californica*) مغريان جداً، فإن الأنواع التي استخدمت على الأرجح في الحدائق الإسلامية الأولى هي: أولاً خشخاش الأفيون، *P. somniferum*، وموطنه اليونان والشرق الأدنى وأنحاء من آسيا، وقد ذُكر في الكتب الإسلامية المبكّرة. ثانياً، هناك خشخاش الحقول البسيط والجميل، *P. rhoeas* (موطنه أوروبا ومنه تم استيلاد خشخاش «شيرلي» في إنكلترا في أواخر القرن التاسع عشر، ويتوافر في المشاتل المتخصّصة). ثم هناك خشخاش التوليب، *P. glaucum*، من سورية (وهو غير مدرج في لائحة «دليل النباتات» *Plant Finder* ومن ثم فإنه غير يسير المنال).

الشكل 190. الخشخاش (*Papaver rhoeas*).

وهناك خشخاش *P. pilosum* من آسيا الصغرى، والخشخاش الشرقي المعمّر، *P. orientale*، وأصله من أرمينيا، وقد استولد منه العديد الضروب المستنبتة مثل «ليفرمير الجميلة» ذي اللون الأحمر القرمزي الداكن الذي أطلق عليه اسم خشخاش «أبو الحسن». غير أنه ليس هناك أجمل من مشاهد حقول الخشخاش التي تظهر في أنحاء كثيرة من إنكلترا في أوائل الصيف. ويمكن إدخال هذا الخشخاش بقليل من العناية إلى الحديقة، على أمل أن ينشر بذوره في كل مكان (شرط ألا تكون تربتك ثقيلة جداً)، ما يمنحها روعة الأحمر القرمزي في أيار/مايو وأوائل حزيران/يونيو فضلاً عن استحضار مشاهد الخشخاش البري في الشرق.

القرنفل والخيري والدلفينيوم ورجل اليمامة

من الأزهار الأخرى المحبوبة في العالم الإسلامي – بسبب رائحتها الذكية من دون شك – القرنفل (*Dianthus*)، ويوجد منه نحو ثلاثمئة نوع والعديد من الضروب المستنبتة. وتشمل أنواعه قرنفل *Dianthus caryophylus*، الذي ينمو

في البرية في جنوب أوروبا، وقرنفل *D. barbatus* من جنوب أوروبا أيضاً، وقرنفل *D. noeanus* من شرق أوروبا وتركيا. وإذا كان من الصعب الحصول على هذه الأنواع، فإن الضروب المستنبتة «القديمة الطراز» مثل قرنفل «السيدة سِنْكِنز» يمكن أن تحلّ محلّها. ويقول روبن لين فوكس Robin Lane-Fox إنه يجد «الأشكال البرية أقل إثارة للاهتمام من الأشكال التي استولدها المزارعون. في البرية يكون اللون الزهري للقرنفل فاسداً أو وردياً، في حين يوجد بعض التحويرات الكريهة في اللون إلى الليلكي أو البنفسجي»[401]. ربما يكون الأمر كذلك، لذا يفضّل عندما تنتقي القرنفل بنفسك أن تذهب إلى مشتل جيّد في أوائل الصيف عندما يزهر أو تختار قرنفلاً بلدياً مثل *Dianthus caesius* ذي الرائحة القوية، وهو ينمو جيداً تحت الورود.

الشكل 191. القرنفل.

كانت الحديقة الإسلامية أيضاً مكاناً للخيري (*Cheiranthus*) في العادة، ويقدّر أنه يوجد منه عشرة أنواع تقريباً، أكثرها شيوعاً خيري *C. cheiri*. وثمة شكل قزم من هذا النوع هو *Erysimum cheiri*. وقد لاحظ هارفي أنه بحلول القرن الثاني عشر في إسبانيا، كان يوجد «العديد من الأنواع المزروعة» من الخيري والمنثور[402] (*Matthiola incana*، انظر أدناه). وصل الخيري والمنثور إلى إنكلترا مع ويليام الفاتح في سنة 1066، ربما من الأندلس عبر فرنسا. وأصبحتا من نباتات الحدائق الشهيرة في هذا البلد منذ ذلك الوقت، ويتوافر منهما العديد من الأنواع المستنبتة – مثل الخيري القرمزي الداكن الرائع *Erysimum cheiri*.

الدلفينيوم من الأزهار الأخرى الشائعة في الحديقة الإسلامية، والشهيرة اليوم أيضاً، ويقدّر أن عدد أنواعها يتراوح بين مئتين وخمسين وثلاثمئة وخمسين نوعاً. وتشمل الأنواع الدلفينيوم الشمعي *Delphinium elatum*، والدلفينيوم الكشميري *D. cashmerianum* والدلفينيوم الأفغاني *D. semibarbatm* (وجميعها متوافرة في المشاتل المتخصّصة فقط)، ودلفينيوم *D. grandiflorum*. ويوصى بدلفينيوم «الفراشة الزرقاء» كنوع مستنبت لأن أزهاره المفردة أكثر رقّة من العديد من الأنواع الأخرى ولونه أزرق داكن. والواقع أن الدلفينيوم الشمعي، وهو نوع موطنه أوروبا وآسيا، غير متوافر على نطاق واسع، ولا تتوافر منه بسهولة سوى الأنواع المهجّنة،

مثل مجموعة «غالاهاد» التي لا يوصى بألوانها إذ ليس فيها أي لون «أرزق حقيقي». وثمة أجناس مستنبتة أخرى (أو الأنواع الأخرى) مثل دلفينيوم «أبو زريق الأزرق» ودلفينيوم «العصفور الأزرق» و«مولي بوكانون» ذات ألوان زرقاء جميلة. توخّ أنواع الدلفينيوم ذات الألوان الزرقاء الحقيقية التي تستطيع إيجادها، بدلاً من الألوان الليلكية أو البنفسجية. وعلى الرغم من وجود أنواعٍ من الدلفينيوم ذات ألوان مختلفة، مثل الأحمر، في البرية، فإنني أتوخّى دائماً الدلفينيوم الأزرق – هناك دائماً ما يصدم في الدلفينيوم ذي اللون غير الأزرق! ويوصى «بمجموعة بلادونا» لأنها لا تأتي بأكملها من الشرق (تنتج من تهجين نوعي *Delphinium elatum* و *D. grandiflorum*)، وهي أكثر رقة من الأنواع الهجينة «المحسّنة» الكبيرة الحجم. ولا تتراخى إذا لم تُسند، كما أنها تواصل الإزهار طوال الصيف إذا أزيلت أزهارها الذابلة. وتوصي ماري كين *Mary Keen* بنوعي «فولكرفريدن» و«أتلانتس» للحصول على أزهار زرقاء قوية، والنوع الأزرق الباهت «كليفدون بيوتي»[403]. وهناك أيضاً رجل اليمامة الرائعة *Delphinium consolida*، وهي مثل مجموعة بلادونا، ربما تكون أكثر ملاءمة لحديقتك الإسلامية من أنواع الدلفينيوم الهجينة الفاخرة.

الشكل 192. المنثور والتوليب.

المنثور والخطمي والترمس

المنثور *Matthiola incana* والمنثور العابق ليلاً *Matthiola bicornice* من الأزهار المفضّلة في الحدائق الإسلامية المبكّرة، وأدرج كلاهما في قوائم النباتات القروسطية الأهلية في جنوب أوروبا. ومن السهل زراعة هذه النباتات الحولية أو الثنائية الحول، وهي أساسية بسبب عطرها. كما أن الزهرة المحبوبة في حدائقنا الريفية، الخطمي *holyhock* الثنائي الحول *Althaea rosea*، من النباتات الأخرى التي تظهر في القوائم المبكّرة والأساسية في الحديقة الإسلامية. ينمو الخطمي البري في الأرض المقدّسة ومن المرجّح أن الفرنجة أدخلوه إلى بريطانيا عند عودتهم. فكلمة hoc هي الكلمة الأنكلوسكسونية التي تعني الخطمي، وأصبحت الكلمة الأصلية «holy–hoc» تكتب «holyhock»، مثلما أصبحت كلمة «holy-hoc» تكتب اليوم «holy-day». ويتوافر النوع *A. rosea* بسهولة (فضلاً عن العديد من

الشكل 193. الدلفينيوم (العايق).

الأنواع المستنبتة) بألوان عديدة تشمل الزهري والقشدي والأصفر.

وقد ذكرت نبتة الترمس أيضاً (النوع *Lupinus albus*) في قوائم النباتات الأندلسية القروسطية وربما جُلب إلى بريطانيا من شرقي المتوسّط في القرن الرابع عشر. وهناك نحو مئتي نوع من الترمس، بما في ذلك «البنفسج الإسباني» *L. luteus* الذكي الرائحة من جنوب غرب أوروبا. غير أن هناك العديد من الأنواع الهجينة التي استولدت الآن ومن الأسهل إيجادها من الأنواع الأصلية.

زهرة الحقول وزنبق الماء وزنبق البرك وبنفسج دمشق

من الأزهار الصيفية الأخرى المذكورة في القوائم القروسطية زهرة الحقول الرائعة ذات اللون الأزرق الداكن *Centaurea cyanus* وهذا النوع موطنه المملكة المتحدة. ومن الأنواع الأخرى التي نشأت في الأراضي الإسلامية *C. dealbata*، من القوقاز وفارس، و *C. moschata* (تعرف أيضاً باسم السلطان العذب) من

تركيا وما يليها شرقاً، و*C. Pulchra* من كشمير. وزنبق الماء (*Nymphaea alba* هو أفضل الأنواع التي يمكن اختيارها)[404] نبتة مهمّة أيضاً في الحديقة الإسلامية، ويحتاج إلى التعرّض للشمس عدة ساعات في اليوم، فضلاً عن أنه يفضّل الماء الراكد على النوافير والقنوات المائية. وذكرت القوائم النباتية أيضاً زنبق البرك الأصفر *Nuphar lutea*، ذا الأزهار التي لا تداني جمال زنبق الماء، لكن ميزته أنه ينمو في الظل وينفر من الماء الجاري. ويأتي بنفسج دمشق *Hesperis matronalis* من جنوب أوروبا وكان يزرع أيضاً في الحدائق الإسلامية لأزهاره الجميلة البيضاء أو الأرجوانية التي تصدر عطراً ذكياً في الليل.

في شمال أوروبا يبرز جمال الألوان، بالإضافة إلى الأبيض، و«يتوهّج» إزاء الأخضر عندما يحلّ الغسق بعد يوم ماطر. وكان من المعتاد في الحدائق المغولية زراعة الأزهار البيضاء العطرة، التي «تفوح رائحتها في الليل»، ومن أشهرها الياسمين (انظر النباتات المعترشة). ومن النباتات الجديدة المرحّب بها نبتة التبغ القوية الرائحة *Nicotiana alata*، وهي نبتة حولية أو ثنائية الحول بيضاء اللون تبدأ بإطلاق رائحتها عند المغيب لاجتذاب العثّ من أجل التلقيح. وتشتدّ الرائحة بالتدريج إلى أن تبلغ أقصاها في الثالثة صباحاً، كما يقول الخبراء.

النباتات المعترشة

لعل النبتتين المعترشتين اللتين تقفزان إلى الذهن عند التفكير في الحدائق الإسلامية هما الياسمين (الياسمين الزهري *Jasminum polyanthum* من الصين والياسمين الشائع *J. officinale* من فارس والهند والصين) والجهنّمية (*Bougainvillea spectabilis*). الياسمين الزهري من أكثر النباتات المفضّلة لدي لأنها تنتج الكثير من الأزهار النجمية الشكل الذكية الرائحة مقابل أوراق خضراء داكنة، وتستمرّ طوال الصيف. لكن في شمال أوروبا يجب أن تكون عند الجدار المواجه للجنوب (أو ربما المواجه للغرب) لأنها حسّاسة للصقيع. أما الياسمين الشائع فإنه لا ينتج أزهاراً كثيرة بالمقارنة لكنه يتميّز بقدرته على تحمّل البرد وبعض الظلّ، كما أن أزهاره البيضاء تفوح عطراً ذكياً في الليل. ومن المعترشات الأخرى التي تلائم الحديقة الإسلامية جداً، مع أنها غير مذكورة في القوائم القروسطية، شجرة دائمة الخضرة تأتي من الصين وتشبه الياسمين ذات أزهار نجمية بيضاء عطرة تنمو في الصيف *Trachelospermum jasminoides* أو *T. asiaticum*، وكلاهما أكثر قدرة على التحمّل من الياسمين الزهري، لكنهما بحاجة إلى موقع مشمس وجيد التصريف.

الشكل 194. الخطمي (الخبازى البرية).

نشأت الجهنمية *Bougainvillea spectabilis* أو *B. glarba* في البرازيل أصلاً، على الرغم من أننا نربطها عادة بالحدائق الإسلامية والشرقية والمتوسّطية، وهي غير مدرجة في قوائم النباتات القروسطية إذ إنها دخلت المنطقة في تاريخ لاحق. إذا كان لديك مكان محمي جداً يواجه الجنوب وجيّد التصريف، فربما يجدر بك

زراعة هذه النبتة في الخارج. وبخلاف ذلك لا يستطيع سوى المحظوظين الذين لديهم مستنبتات زجاجية زراعة هذه النبتة المعترشة في المناطق الشمالية. لكن مع أن المستنبت الزجاجي رائع لزراعة النباتات الحسّاسة، فإنه ليس من معالم الحديقة الإسلامية لأنه يزيد الحرارة في بلد بارد بدل العكس – كما كان دور السرادق المفتوح من جوانبه. غير أنه ما من شك في الاستخدام العملي للمستنبت الزجاجي لحماية النباتات الحسّاسة مثل الجهنمية في الشتاء. هناك أنواع مستنبتة عديدة مختلفة الألوان من هذه النبتة الغضّة والجميلة، لا سيما القرمزي والزهري والأرجواني، مثل «سانتياغو رد» و«بِنك تيارا» و«جامايكا وايت».

الشكل 195. القنطريون العنبري (*Centaurea cyanus*).

الشكل 196. زنبق الماء (*Nymphaea alba*).

الشكل 197. نبتة التبغ (*Nicotina alata*).

الشكل 198. الياسمين (*Jasminum officinale*).

كما ذكر من قبل، بدلاً من الجهنمية التي تتسلّق على شجرة سرو أو طقسوس دائمة الخضرة، يمكنك استخدام نوع من نبتة الجُلبان العطر *Lathyrus odoratus* التقليدية ذات الرائحة الرائعة مثل «كوبانيز أوريجينال» (زرعه الأب كوباني في دير باليرمو في صقلية في سنة 1699) أو «بلاك نايت» أو «بينتد ليدي»[405]. والجُلبان العطر ضروري في حديقتك الإسلامية حتى إذا لم يتسلّق شجرة عمودية بل عريشة أو مخروطاً من العيدان. هناك أكثر من نوع منه موطنها جنوب أوروبا، على الرغم

الشكل 199. الياسمين الزهري (*Jasminum polyanthemum*).

من أن موطن نوع *L. rotundifolias* هو آسيا الصغرى، كما أن اسمه الشائع هو «جُلبان فارس الدائم».

أدخل القيسوس *Hedera* إلى الحديقة الإسلامية في الأندلس في القرن الثاني عشر على ما يبدو. وينقل هارفي ملاحظات ابن العوّام عن القيسوس واللبلاب (يقترح هارفي أنه قد يكون *Convolvulus* أو *Calystegia sepium*) اللذين أسماهما

الشكل 200. الجهنَّمية (Bougainvillea spectabilis).

ابن العوام «حبل الفقير» وقوله إنه يمكن نقلهما إلى الحدائق باقتلاعهما مع جذورهما في شباط/فبراير وزراعتهما على مقربة من المجاري المائية[406]. لذا على الرغم من أن اللبلاب قد لا يرد في ذهنك على الفور كنبتة إسلامية، فبإمكانك زراعته في حديقتك لأنه انتشر في حدائق الأندلس وشمال أفريقيا في القرون الوسطى. لكن

الشكل 201. جلبان عطر.

الشكل 202. أحد أحواض النوافير العديدة الجميلة ذات الحواف المحارية التي توجد في قصر الحمراء وجنّة العريف.

بدلاً من زراعة اللبلاب الإنكليزي الشائع *Hedera helix*، من الأفضل اختيار نوع من العالم الإسلامي مثل اللبلاب الجزائري شبه الصلب *Hedera algeriensis* أو اللبلاب الفارسي الصلب *H. colchica*.

اللوتس المقدّس

للوتس المقدّس *Nelumbo nucifera*، الذي يجلّه الهندوس والبوذيون على وجه الخصوص، العديد من المعاني الرمزية، وأهم معاني اللوتس وأكثرها شمولاً أن ظهوره على سطح الماء يمثّل الحياة الوليدة أو الناشئة. وعلى الرغم من أنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالأديان الشرقية القديمة، فقد استوعبته الثقافة الإسلامية في شبه القارّة الهندية. وتوجد انعكاسات لهذا الاندماج بين الثقافات في أمكنة بعيدة مثل قصر الحمراء وجنّة العريف، حيث تسمّى أحواض النوافير الجميلة ذات الحواف المحارية الموجودة في تلك الحدائق في بعض الأحيان «برك اللوتس» أو «نوافير اللوتس»، ما يذكّر بزهرة اللوتس المتفتّحة نفسها وتلك التي ينحت عليها بوذا في الغالب (الشكل 202). وذلك مثال جيد على امتزاج الثقافتين الإسلامية والهندية الذي ازدهر عدة قرون في ظل الحكم المغولي.

اللوتس نبتة حولية حسّاسة لا يمكن زراعتها في شمال أوروبا من دون حماية، وبما أنها أكثر ارتباطاً بالهندوسية والبوذية من الإسلام، فربما يكون من الأفضل أن توجّه طاقاتك نحو زنبق الماء بدلاً من اللوتس.

الفربيونية

تنمو العديد من أنواع الفربيونية *Euphorbia* في منطقة المتوسّط والمناخات الحارّة الأخرى، بالإضافة إلى أنها مشهورة جداً في شمال أوروبا لأنها توفّر أوراقاً خضراء كثيرة توازن الألوان الزاهية لأزهارها – من أنواعها الشهيرة *E. characias* و*E. Oblongata* و*E. Sikkimensis* و*E. Amygdaloides* و*E. Mellifera*. وثمة ما يقرب من ألفي نوع منها، تشمل الحوليات وثنائيات الحول، والشجيرات، والأنواع العصارية. ما صلة هذه النباتات بالحديقة الإسلامية؟ هذه الصلة ليست إيجابية للأسف. ويرجع ذلك إلى عدة إشارات مخيفة في القرآن إلى شجرة الزقّوم التي حدّدت أنها الفربيونية[407]. فقد جاء في القرآن، ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾[408].

إن فكرة تشبيه ثمار النبتة برؤوس الشياطين يؤكّدها نوع من جنوب أفريقيا يدعى «رأس ميدوزا» *E. caput-medusa*، ولعله النوع نفسه المسمّى «رأس غورغون»

الشكل 203. فربيونية (Euphorbia sikkimensis).

E. gorgonis. أياً يكن الأمر فإنها لا تبدو جذابة جداً. ومن المعروف أن النسغ الأبيض الذي ينزّ من الفربيونية سامّ ويسبّب تهيّجاً حاداً للبشرة والعينين (وربما العمى)، على الرغم من أنه قد يكون دواء مهماً إذا استُخدم بعناية، على غرار العديد من النباتات السامة الأخرى. وكلما نظر المرء في هذا الجنس من النبات في ضوء الإسلام، ازداد نفوراً منه. والجانب الإيجابي الوحيد، بعد قراءة فصل الدكتور اقتدار المفصّل عن شجرة الزقّوم، أنه لم يتم حسم ارتباط نوع الفربيونية بشجرة الجحيم. ولنأمل أن تكون واحدة من الأنواع الشائكة أو الشبيهة بالصبّار التي يوجد موطنها في شبه الجزيرة العربية بدلاً من أن تكون واحدة من النباتات المذكورة أعلاه التي يقدّرها البستانيون كثيراً في المملكة المتحدة.

المروج

لم تذكر المروج (الشكل 228) إلا لماماً حتى الآن. ولا يرجع ذلك إلى قلة أهميتها وإنما لأن المناخ في معظم البلدان الإسلامية التي نتفحّصها لا يسمح بأي حلّ بسيط للمحافظة على هذا العنصر المنشود في الحديقة. المرج الأخضر الجميل يحظى

بتقدير كبير أحياناً في العالم الإسلامي – وبخاصة بعد أن ورّدت القوى الاستعمارية، مثل بريطانيا، حبها له إلى الهند. لكن السقاية المستمرة مطلوبة في المناخ الجاف السائد، وذلك يستهلك الوقت والمال. وفي العديد من البلدان الإسلامية الحارّة، مثل منطقة الخليج، ثمة حاجة إلى عشب خاص يتحمّل الجفاف – حيث عشب برمودا *Cynadon dactylon* أو عشب *Zoysia* من أشهر الخيارات. لكن المطر يتساقط بغزارة في شمال أوروبا ودرجات الحرارة باردة ومن ثم فإنها تتمتع بميزة هائلة عندما يتعلّق الأمر بالمروج. ليس هناك ما يماثل اللون الأخضر الغضّ للمرج – إلى جانب الشجيرات والأشجار المحيطة – بعد تساقط المطر، فذلك مريح ومنشّط في الوقت نفسه، وتعويض رائع عن الافتقار لأشعة الشمس[409]. يقال إن العناية بالمرج وجزّه هاجس للإنكليزي – ويمكن استيعاب هذا الهاجس بسلاسة في حديقتك الإسلامية، وإحلاله محلّ الماء في بعض الحدائق (انظر أدناه).

كما رأينا في الفصول السابقة، يشكل الماء محور الحديقة الإسلامية. قد لا يكون ذلك ممكناً دائماً في شمال أوروبا: ربما تكون الحديقة صغيرة أو محاطة بمبانٍ أو أشجار مرتفعة أو تواجه الشمال (أو جميع هذه العوامل)، لذا فإن المرج الصغير قد يكون بديلاً. غالباً ما تعيق الأشجار البارزة زراعة مرج معافى في بيئة حضرية، وكثير من الأشخاص الذين لديهم حدائق أفنية صغيرة يفضّلون المناظر الصلبة بدلاً من ذلك، لا سيما إذا كان المكان يستخدم للجلوس وتناول الطعام إلى مائدة ذات كراسٍ. لكن مع أنه قد يكون لديك بعض الحجارة ذات الأنماط الهندسية والزليج في حديقتك الحضرية الصغيرة، فإنه يجدر بك التفكير في حيّز فارغ للعشب الأخضر رغم تكاليف صيانته: فهو «قرة للعين» بعد التحديق ساعات طوال في الطرقات والأرصفة التي لا تنتهي وبديل غير مكلف وبسيط للنافورة.

من الناحية الرمزية، ثمة حجة قوية داعمة لادعاء أن المروج هي المكافئ الغربي للبركة أو النافورة الإسلامية. فقد ذكر سابقاً أن النار المكشوفة أو الموقد، باعتباره النقطة البؤرية للبيت في المناخ البارد، يمثّل المكافئ للنافورة في المناخ الحارّ – وذلك صحيح إلى حدٍّ كبير. لكن ثمة ما يقال أيضاً عن هذا التماثل بين المرج والبركة أو النافورة. على الرغم من أن المرج لن يمتلك البتة المعاني المتعدّدة التي تمتلكها النافورة، فإن ثمة نواحي وظيفية ورمزية مماثلة: لا سيما توفير مركز وحيّز هادئ وساكن يتركّز حوله ما تبقّى من الحديقة. المرج غير مكتظّ بالألوان والنسج مثل الحدود النباتية: إنه حيّز فارغ ومهدّئ ويقدّم في غياب البركة أو النافورة مكاناً مريحاً للجلوس والتأمّل، و«إنعاش العينين وتغذيتهما» (كما اقتبس في الفصل الأول) وإدخال السكينة إلى النفس. وكما ذكر سابقاً، فإن أهم الألوان المذكورة في الأوصاف

القرآنية للجنّة هو الأخضر، وذلك، إلى جانب المكانة الكبيرة لهذا اللون في الأراضي التي تندر فيها الخضرة، من الأسباب الرئيسية للأهمية الخاصة التي يتمتّع بها هذا اللون لدى المسلمين[410].

الخضروات

أشجار الفاكهة، كما ذكر في الفصل السابق، أساسية في الحديقة الإسلامية، وتليها الخضروات في الأهمية. ويتوقّف الكثير في حديقتك على المتسع والاتجاه، وربما يفضل معظم الأشخاص الأزهار والأعشاب بدلاً الخضروات عندما يكون الحيّز مقيّداً. لكن إذا كنت تحبّ تناول المنتجات المزروعة في المنزل، فإن ذلك يتماشى بالتأكيد مع المثال الإسلامي للحديقة[411]. وفي القرآن توجد آية يطلب فيها الناس من موسى أن يدعو ربه للحصول على المزيد من الخضروات المتنوعة: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها﴾[412].

يبدو أن معظم الخضروات المعروفة التي نزرعها في شمال أوروبا كانت تزرع في الحدائق الإسلامية المبكّرة، بالإضافة إلى الخضروات الدخيلة. الخضروات التالية واردة في قوائم النباتات القروسطية المذكورة أعلاه، لذا يمكنك أن تزرع خضراواتك التقليدية المفضّلة مطمئناً إلى أنها كانت تزرع في الحدائق الإسلامية في الماضي. وهذه الخضروات هي: الفول الأخضر، والملفوف، والجزر، والقرنبيط، والكرفس، والرشاد، والبصل، والثوم، والكراث، والخس، والجزر الأبيض، والفجل، والحَمّاض (الذي ينمو في البرية في أنحاء من المملكة المتحدة)، والسبانخ، واللفت، والعدس (الذي زُرع في كل أنحاء الشرق الأوسط منذ آلاف السنين ووصل إلى المملكة المتحدة في القرن الثالث عشر)، والخرشوف، والقرع. والأخير للزينة أكثر من الأكل. ومن الخضروات والتوابل الأخرى الدخيلة والأقل قدرة على الاحتمال، والتي تزرع في العديد من بلدان العالم الإسلامي ويزرعها بعض الأشخاص في شمال أوروبا في البيوت الزجاجية أو المواقع المحمية والمشمسة: الخيار، والباذنجان، والإنديف، والزنجبيل، والعديد من أنواع الفلفل الأخضر والأحمر والأسود.

يمكن أن نضيف بأن الملفوف والقرنبيط والخضروات الأخرى التي تزرع في مصر اليوم، على سبيل المثال، ضخمة جداً - مقارنة بأنسبائها الأوروبية — وهي ذات مذاق جيد مماثل لها لذا لا يستطيع المرء ادّعاء التفوّق في هذا المجال. إن رؤية الحمير التي تجهد إلى جانب حركة المرور وهي تحمل أثقالاً كبيرة أمر مدهش إذا

لم يكن مشهداً مروّعاً. وبالنظر إلى انعدام مذاق العديد من الخضروات في المتاجر الكبرى، بالإضافة إلى الخوف من الهندسة الوراثية، فقد أصبح من الشائع جداً اليوم أن «تزرع ما تأكل». وثمة أعداد متزايدة من سكان المدن[413] والضواحي والمناطق الريفية يفردون مساحات صغيرة جانباً لزراعة الخضراوات والفاكهة.

عندما قرأت كتاب «لارك رايز إلى كاندلفورد» *Lark rise to Candleford* مؤخّراً، دهشت من التشابه بين الزراعة في الحديقة الإسلامية وحدائق البيوت الڤيكتورية للعاملين الريفيين. تصف الكاتبة حديقة أحد البيوت الكبيرة في القرية:

> على مقربة من البيت توجد أشجار مثمرة، ثم سياج من الطقسوس المتراصّ كالجدار يحمي خلايا النحل ويحيط بأزهار الحديقة. لدى سالي كثير من الأزهار، ومعظمها زكي الرائحة؛ الخيري والتوليب والخزامى وقرنفل الشاعر والقرنفل وورود العالم القديم ذات الأسماء الساحرة – «الشقيقات السبع»، و«حمرة الفتاة»، والورد الحزازي، والورد الشهري، والورد الكرنبي...[414]

وتضيف المؤلّفة أنه لم يكن من المألوف أن تضمّ حدائق العمّال كثيراً من الأزهار لأن معظمهم بحاجة إلى كل الحيّز الذي يستطيعون الحصول عليه لزراعة خضرواتهم التي تشكّل جزءاً أساسياً من النظام الغذائي لأسرهم، لذا كانت «معظم الحدائق تضمّ شجيرة ورد واحدة عطشى على الأكثر». ومن إيجابيات قلة الورد أن الأسر كانت تأكل كثيراً من الخضروات المختارة الطازجة المزروعة في المنزل، وأن نظامها الغذائي كان صحياً مع أنه قليل.

الخلاصة

على الرغم من أن المقطوعة التالية قد تبدو متطرّفة قليلاً لاختتام هذا الفصل، فإنها ملائمة بالنظر إلى تزايد التهديدات في هذه الأوقات التي نعيشها. وقد كتبها ريجينلد فرار، الباحث عن النباتات والبستاني والكاتب الإنكليزي الذي تنطبق كلماته المكتوبة في نهاية الحرب العالمية الأولى على ما يجري اليوم:

> البشر فانون، والسلالات ذات عمر وجيز، لكن الجمال دائم لا يمكن تدميره، حتى لو كانت قبلته بتلة ستسقط غداً. الحرب والآلام ظلال لا تسقط إلا على مسار البشر: يبدو كل منها على التتابع نهاية كل شيء، لكن الإنسان يبرز باستمرار ويتقدّم إلى الأمام، يغريه دائماً ويلهمه الجمال الخالد الذي يجد الشكل في جميع آمال هذه الحياة وتسلياتها. لا صحة لقول «في زمن الحرب تصمت الأزهار»؛ بل على العكس من ذلك، وسط الدمار والخراب تعتمد

سلامة عقلنا وبقاؤنا أكثر من أي وقت مضى على القوة التي نستمع بها إلى الصوت الصغير الذي يعلو على المدافع، ونتمسّك بالأشياء الصغيرة الهادئة في الحياة، والأشياء التي تأتي وتذهب ومع ذلك تبقى دائماً، إنها مصابيح الخالق التي لا تفنى وسط الكارثة التي صنعها الإنسان في حياته[415].

الشكل 204. أزهار الزنبق *(Lilium regale)* تحت شجرة تفاح.

الشكل 205. النافورة، مركز حديقة السجادة عند إعدادها في معرض تشلسي للزهور، أيار/مايو 2000.

الفصل السابع

حديقة السجادة لأمير ويلز في هايغروف: دراسة حالة

مقدمة

تستند حديقة السجّادة في هايغروف، منزل أمير ويلز في غلوسسترشاير، إلى فكرة الأمير التي اختمرت في سنة 2000. وقد صمّمت في الأصل وأنشئت في معرض تشلسي للأزهار في سنة 2001، وفكّكت بعد انتهاء المعرض ونقلت إلى هايغروف. يبدو الأمر بسيطاً بصورة خادعة – فقد لزم شهران من العمل المكثّف لإعداد الموقع ونقل الحديقة إلى مكانها الدائم (بقدر ما تدوم أي حديقة). يروي هذا الفصل كيف ألهم أمير ويلز بتنفيذ فكرته عن حديقة السجّادة والمراحل الرئيسية التي انطوت عليها العملية، بالإضافة إلى تقديم شيء عن الخلفية التاريخية.

تقوم حديقة السجّادة في هايغروف في الواقع على مبادئ تصميم الحديقة الإسلامية التقليدية. وهي تضمّ نافورة مركزية تتدفّق منها بصورة رمزية أنهار الجنّة الأربعة، ويشمل مخططها الرباعي الرسمي العديد من الأشجار الأساسية في الحديقة الرباعية، الرمز الدنيوي للنموذج الأولي في الجنّة. وتعتبر حديقة السجّادة أحد التفسيرات الأولى للحديقة الرباعية التقليدية في المملكة المتحدة. ولعل تصميم مثل هذه الحديقة وتنفيذها في بيئة مختلفة جداً عن البيئة السائدة في المنطقة الجغرافية الواسعة التي تسمّى دار الإسلام يشكّل دراسة مثيرة للاهتمام. وقد مرّ التصميم نفسه، بدءاً من فكرة الأمير المستندة إلى سجّادتيه (انظر أدناه) في عدة مراحل وتطوّرات: من تصميمات مايكل ميلر Michael Miller الأولى للحديقة في تشلسي إلى التعديلات العديدة بإشراف خالد عزام (مدير برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية [فيتا] في مؤسسة الأمير في لندن، انظر الحاشيتين 3 و140) إلى التعديلات الأخيرة التي تطلبها وضعها في موقع جديد في هايغروف. تمثّل التغيير الأكبر في هايغروف في إدراج «منصّة للمشاهدة» عند الدخول. وذلك مهم إذ يعني تمكّن الزوّار من رؤية عظمة تصميم الحديقة ونباتاتها – وشبهه بسجّادة جميلة – وهو أمر لم يكن متاحاً في تشلسي.

في البداية، خطرت ببال أمير ويلز فكرة تحويل تصميم سجّادتيه إلى حديقة ورأى أن ذلك سيكون جميلاً جداً. وهي تقوم على إنشاء حديقة رسمية مسوّرة استناداً إلى تشكيلات هاتين السجّادتين الأناضوليتين، وإحداهما سجّادة صلاة (الشكلان 208 و209). وبذلك نقل الأمير في الواقع مفهوماً إسلامياً تقليدياً – سجّادة منسوجة برؤية ثاقبة للحديقة الرسمية – إلى حيث بدأ (الشكل 210). وبدا من المناسب جداً تزيين معرض تشلسي للأزهار «بحديقة سجّادة» يمكن طيّها لاحقاً ونقلها إلى هايغروف.

عند أخذ سطح السجّادة الصوفي الثنائي البعد وتحويله إلى حديقة تضم نباتات وأزهاراً ثلاثية الأبعاد وممرّات وماء، يجب مزج تشكيلات السجادتين النمطية وتعديلها. مع ذلك، فقد أمكن الاحتفاظ ببعض التشكيلات النمطية والألوان التي تظهر في السجّادتين، حتى إذا لم يتم استيعابها جميعاً. وسيتبيّن من المخطّط (الشكل 207) أن التصميم بأكمله عبارة عن حديقة رباعية إسلامية تقليدية توجد نافورة في وسطها. وكان مايكل ميلر، من مشاتل كليفتون، المصمّم الرئيسي المسؤول عن تحويل السجّادتين إلى حديقة، وقد عمل بالتعاون مع برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية [فيتا] (انظر أعلاه) وأنا منهم، في مؤسسة الأمير[416].

الشكل 206. زراعة حديقة السجّادة في معرض تشلسي للزهور، أيار/مايو 2001.

خلفـية تاريخية

لم يكن من غير المعتاد أن يطلب الأثرياء والنافذون في الماضي نسج سجّاد يحاكي الحدائق، ويوجد بعض أشهرها اليوم في المتاحف مثل سجّادة واغنر في مجموعة بورل في غلاسكو أو سجّادة أبركونواي في مجموعة الصباح (الشكل 210). كما أن بعض أعظم السجاجيد، مثل سجّادة أردبيل الشهيرة وسجّادة تشلسي (كلاهما في متحف ڤيكوريا وألبرت في لندن) تصوّران بتصاميم الأزهار والعربسة المنسوجة بكثافة جنّات الفردوس، على الرغم من أنهما ليستا سجّادتي حديقة من حيث عدم ارتكازهما إلى الحديقة الرباعية. وثمة سجّادة حديقة شهيرة يعتقد أن جميع السجّادات اللاحقة تستند إليها جزئياً، وهي تلك المعروفة باسم «ربيع كسرى». كان خسرو الأول (531-579) ملكاً ساسانياً قوياً يحكم من المدائن، عاصمته الشتوية على نهر دجلة، جنوب بغداد. غير أن من خلفوه لم يستطيعوا صدّ الفاتحين العرب المسلمين الذي عثروا عند فتح المدائن على سجادة رائعة تصوّر جنّة الفردوس ومرصّعة بالجواهر – فقطعوها ووزعوها في نهاية المطاف. ويكشف ذلك عن الشكوك الكبيرة التي شعر بها المسلمون الأوائل تجاه ما اعتبروه غروراً وكِبراً في محاولة الإنسان إنشاء شيء يتحلى بالكمال من دون الإقرار بالاعتماد على الله. ووفقاً لمصدر معاصر، استخدم الملوك الساسانيون السجّادة في القصر في الاحتفالات في الشتاء عندما يكون الطقس بارداً جداً ولا يسمح بالخروج إلى الحديقة. لذا فإنها «مع ذلك سجّادة الشتاء التي عرفها الفارسيون باسم ربيع كسرى لأنها تصوّر جمال الربيع».ولاحظ كاتب معاصر «أن نسيجها الرائع والمكلف يتكوّن من الحرير والذهب والفضة والحجارة الكريمة. وهو يصوّر مكاناً جميلاً للتسلية يضمّ جداول وممرّات متداخلة وأشجار الربيع وأزهاره»[417].

على الرغم من أن الفاتحين المسلمين أتلفوا هذه السجّادة، فإن المسلمين الفرس أصبحوا في القرون التالية النسّاجين الأكثر براعة في الإمبراطورية، فأنتجوا أمثلة رائعة عن سجاجيد الحدائق كتلك المذكورة أعلاه. وذلك مثال جيد على كيفية تطوّر الحضارة الإسلامية جنباً إلى جنب مع الحضارة المحلية للبلد الذي فتحته. ورأى المسلمون الفارسيون في نهاية المطاف أن تمثيل الربيع «الدائم» على سجّادة لا يتعارض مع كلمة الله، شرط عدم محاولة محاكاة الطبيعة بأي طريقة ذات نزعة طبيعية بل السعي إلى تمثيل القوة الغامضة وغير المنظورة التي تمنح الحياة للطبيعة بصورة رمزية. وعلى غرار المنمنمات الفارسية، يشكّل سجّاد الحدائق تصويراً يحاكي

تصميم الحديقة يظهر جوهر الربيع الدائم وجوّه أكثر مما يحاول تصويره حقيقة. وثمة قصيدة فارسية جميلة وشاعرية مطلعها، «في هذه السجّادة يحيا الربيع الدائم الروعة»[418].

إن السجّادتين اللتين بنى عليهما أمير ويلز تصميمه ليستا سجّادتي حديقة رسميتين، مع ذلك فإنهما تجسّدان بعض جوانب الحديقة برسومهما الزهرية المتكرّرة وانسجام الألوان والتشكيلات. وهما، على نحو الحديقة، تعبيران رمزيان عن حب الله وشكره. كما أن سجّادة الصلاة بمحرابها تمثّل مدخلاً للجنّة: لا يمكن أن يدخل المرء الجنّة إلا عن طريق الصلاة لله وعبادته (ممثلاً في السجود في الصلوات الخمس).

وكما ذُكر أعلاه، فإن إحدى الأفكار الرئيسية التي يقوم عليها هذا السجّاد نقل جمال الطبيعة إلى الداخل في أشهر الشتاء من خلال التقاط روحها في سجّادة منسوجة تصوّر الأزهار والأشجار والنباتات، وفي بعض الأحيان الطيور والغزلان وحيوانات أخرى، أو البطّ في بركة مركزية كما في سجّادة واغنر. في البيت الإسلامي التقليدي، يجلس المرء في الواقع على السجّادة لا على كرسي بعيد عنها، ويقوّي ذلك إحساس الجلوس في حديقة. لا يوجد كثير من الأثاث في مثل هذا البيت، لذا فإن السجّادة هي عنصر الزينة الرئيسي، وهي تؤدي وظيفة عملية — لبعث الدفء والصلاة — وجميلة في الوقت نفسه، وتوجد بعض الوسائد لتوفير مزيد من الراحة، وربما طاولة منخفضة يوضع عليها الطعام. وتتسم أرض البيت بالطهارة إذ إن المرء يصلّي عليها، وذلك هو سبب خلع الأحذية عند دخول البيت.

حديقة السجّادة

كان الاشتراك في ذلك المشروع مثيراً للتحدّي لأنه يعني تطبيق أشكال وألوان سجّادتين أناضوليتين على مبادئ تصميم الحديقة الإسلامية الرباعية وأفكار نباتاتها فضلاً عن ربطها بها. وكانت أيضاً فرصة رائعة لا لبث الحياة، قدر الإمكان، في السجادتين فحسب، وإنما أيضاً في مقاطع من الشعر الفارسي، ومشاهد من الرسوم المنمنمة، فضلاً عن الآيات التي تصف الجنّة في القرآن. وعلى الرغم من أن السجّادتين هما مصدر الإلهام الأساسي للحديقة، فإننا أردنا إبراز شيء من جوّ المتعة الصافية والرضا الذي توحي به الجنّة في القرآن، حيث ينعم أصحاب اليمين بما وصفه القرآن ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ ويقيمون في ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ (٢٨) وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ (٢٩) وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ (٣٠) وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ (٣١) وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾[419].

صورة عن المخطط
حديقة السجّادة في منزل هايغروف، تصميم مايكل ميلر المقياس 1:150

مفتاح رسم هايغروف (إلى اليمين)
A حوض النافورة الرخامية
B أشكال هندسية تزيّن القاعدة المثمّنة
C قناة ذات بلاط أخضر فاتح تحفّها عنبات أرجوانية
D سرادق عند مدخلي الحديقة الشرقي والغربي
E النباتات العامة
F أشجار الرمان
G درجات ترتقي إلى القاعدة المركزية التي يحدّها بلاط أخضر فاتح
H غطاء فتحة تؤدي إلى مضخّات النافورة مبلّط ببلاط ملوّن يتوافق مع القناة والعنبات
J بلاط فخّاري اللون على الممرات
K درج للنزول من المصطبة
M سياج من نبات الريحان على مستوى الممرّ يشكّل حافة للمصطبة
N وعاء رصاصي مربّع زرعت فيه نبتة الأستليا في منطقة الحصى السمّاقي
P سرو وممرّ يحدّ الحصى السمّاقي
Q المدخل الرئيسي للحديقة
R باب مزيّف
S أوعية فخّارية تحتوي على أشجار حمضيات
T جدار حدّ الحديقة يعلوه بلاط صلصالي اللون التصميم والنباتات

الشكل 207. تصميم حديقة السجّادة في هايغروف (عدّل هذا التصميم عن التصميم المعدّ لتشلسي للتلاؤم مع الأبعاد الجديدة الكبيرة)، وقد أعده مايكل ميلر.

الشكلان 208 (فوق) و209 (تحت). سجّادتا أمير ويلز الأناضوليتان اللتان استند تصميم حديقة السجّادة إليهما.

لم نتمكّن من زراعة السدر (انظر الفصل الخامس) والطلح[420] في حديقة السجّادة، لكن الظلّ يتوافر عن طريق الأشجار الدائمة الاخضرار مثل شجرة الفلّين والطرفاء (*Tamarix tetandra*)، وسرادقين صغيرين في جانبيها. ويتمثّل «الماء المسكوب» في نافورة رخامية في الوسط، وتوجد الفاكهة في أشجار الحمضيات (الكلمنتين والبرتقال الذهبي، الشكل 230) والرمّان والتين والزيتون، والثلاثة الأخيرة من الأشجار الرئيسية الأربع في الجنّة (انظر الفصل الخامس).

يوجد في وسط الحديقة نافورة رخامية محارية على الطراز المغربي، يرتكز حوضها على قاعدة مثمّنة يغطيها الزليج (قطع من الخزف) الملوّن. وقد صمّم الزليج المثمّن ديفيد فويرستاين David Feuerstein، خريج برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية [فيتا]، بالتعاون مع الدكتور خالد عزّام. وصنعت النافورة والزليج في إسبانيا ونقلت إلى تشلسي، حيث ركّبها خبير الماء بامبر واليس Bamber Wallis. القاعدة الموجودة تحت الزليج هيكل ثقيل من الفولاذ المغلفن مع إسمنت معزّز بالألياف مصنوع من ثمانية أجزاء مثلّثة مركّبة معاً. وفي نهاية معرض تشلسي للزهور تم تفكيك كل ذلك وإعادة تركيبه في هايغروف.

التخطيط والتصميم

زُرع حول محيط حديقة السجادة إلى جانب الجدران أشجار سرو إيطالية (*Cupressus sempervirens*)، وثلاث من الأشجار الأربع المذكورة في الوصف القرآني للجنّة: التين، والزيتون والرمّان. ويعتبر بعضهم أن الرمّان أعلى الفواكه مرتبة في الجنّة[421]. وقد وضعت في هايغروف بعض أشجار الرمّان في أوعية كبيرة خارج مدخل حديقة السجّادة على الجانب الغربي، بجوار قاعة البستان، قاعة الأمير للاستقبالات العامة، وتوجد ثلاث في أحواض داخل الحديقة. في الشتاء الثاني من عمر الحديقة (2002-2003)، جرّب كبير البستانيين في هايغروف، ديفيد هوارد David Howard، تركها في الخارج لمعرفة إذا ما كانت ستعيش. وقد

الشكل 210. سجّادة الحديقة «أبركونواي»، فارسية القرن الثامن عشر.

عاشت اثنتان منها ويؤمل أن يعيش المزيد منها في المستقبل. الشجرة الرابعة المذكورة في وصف الجنّة هي شجرة النخيل، ومن المرجّح ألا تعيش في الخارج في غلوسسترشاير كما ستبدو في غير مكانها. وهذه الحديقة أيضاً «حديقة سجّادة» بالدرجة الأولى، وليست ترجمة حرفية للجنة – أخذاً في الحسبان أن كل حديقة رباعية إسلامية هي إعادة تمثيل إلى حدٍّ ما لجنّات الفردوس.

الشجيرات والورود والنباتات المعترشة

عندما أقيمت حديقة السجّادة في تشلسي، كانت تبلغ 15 متراً طولاً و10 أمتار عرضاً، واستند التصميم، كما يلاحظ (الشكل 207) إلى مخطط الحديقة الرباعية إلى جانب بعض الرسوم الهندسية والألوان المتكرّرة المنسوجة في السجّادتين. وتحيط بالنافورة المركزية الموضوعة على قاعدة مثمّنة مبلّطة بالزليج نباتات تتوافق إلى حدٍّ كبير مع نقوش سجّادة الصلاة وألوانها. على سبيل المثال، القنوات الأربع التي تتدفّق من المركز، ويبطّنها بلاط أخضر فاتح، مصمّمة على نحو متعرّج تقليداً للنمط المتعرج لقوس المحراب (الشكل 208). ويحدّ هذه القنوات سياج نباتي أرجواني داكن من العنبات للتوافق مع الحدّ المحيط بوسط سجّادة الصلاة (الشكل 211). واختير لتمثيل اللون الزبرجدي الفاتح في هذه الناحية من السجّادة العديد من النباتات المتوسطية ذات الأوراق الخضراء الرمادية الفاتحة. والورود أساسية في الحديقة الإسلامية (انظر الفصل السادس)، وللاحتفاظ بفكرة المشي

الشكل 211. مشهد قريب للعنبيات المتعرّجة في الحديقة.

على السجّادة، زُرعت الورود في أحواض غائرة، وتلك حيلة مستخدمة في العديد من الحدائق في العالم الإسلامي لأنها تسهّل الريّ (انظر الفصل الثاني). وقد حفرت هذه الأحواض على عمق 50 أو 60 سنتيمتراً (كانت هذه الأحواض أكثر عمقاً بكثير في الماضين انظر الفصل الثالث)، وكما أنشئت من الفولاذ خلافاً للأحواض الغائرة القديمة المصنوعة من الطوب أو الحجارة. وبعد ذلك طليت بلون التراب المحروق كي تنسجم مع الألوان المتوسّطية للجدار والممرّات، ولا تتنافر مع ألوان الورود. واختيرت قدر ما أمكن ورود قديمة يرجّح أنها استخدمت في الحدائق المشرقية في الماضي وذات ألوان مماثلة لألوان السجّادة مثل القرمزي والأرجواني والزهري الداكن. ورود مثل ورد الشام الزهري العطر، ووردة أصفهان[422]، والورود الفرنسية الرمزية، وورود «شارل دي ميل» و«توسكانيا»[423]، كما اخترنا لأسباب واضحة وردة «الأمير تشارلز» ذات اللون الكستنائي الداكن.

الشكل 212. وردة «شارل دي ميل»، وهي وردة غاليّة.

عند إعداد الحديقة لمعرض زهور تشلسي ولاحقاً في هايغروف كي يعرضها أمير ويلز على زوّاره في بداية آب/أغسطس 2001، زرعت كثير من النباتات بالإضافة إلى الأشجار والشجيرات والورود المذكورة أعلاه. وقد تمت المراجعة دائماً بين النباتات والأزهار التي أعادت تشكيل ألوان السجّادتين، واختيرت تلك التي يعرف أنها كانت تزرع في العالم الإسلامي في الماضي[424] وتلك الملائمة والمتاحة لمعرض الزهور وفي هايغروف. هناك أسيجة نباتية من الريحان الذي أزهر جيداً في ربيع 2002، وتم تقليمها في يوليو). وتشمل النباتات المعترشة حول الجدران في هايغروف عهيد الياسمين *Trachelospermum jasminoides* على الجدار الجنوبي على جانبي مدخل السرادق، واللبلاب، والورود، وكزبرة البتر (*Muehlenbeckia*). ومن المثير للاهتمام قراءة ما كتبه ابن العوّام في كتاب الفلاحة في القرن الثاني عشر عن نقل اللبلاب من البرية وزراعته في الحدائق:

> اللبلاب المعروف بالقيسوس نبات بري يتسلّق الأشجار ويتدلّى منها. يمكن نقله إلى البساتين بقلعه مع جذوره في فبراير، ويزرع قرب قنوات الماء ويروى من وقت لآخر حتى يثبت. ويصنع لهذا النبات المتسلّق عريشة يتسلّق عليها وتحمله[425].

الشكل 213. مشهد يقدّم تفصيلاً عن أحواض الزهور في هايغروف

لا يجوز قانونياً اقتلاع الأشجار من البرية بطبيعة الحال، لذا أرجو ألا تتبع توصياته. كما أن اللبلاب يمكن أن يصبح مشكلة حقيقية في المناخات الرطبة، حيث لا يكتفي بالتعلّق بالجدران والأشجار وإنما يتسبّب في انهيارها في نهاية المطاف. غير أن استخدام عريشة كما ينصح يساعد في تجنّب هذه المشكلة إذا ما كان المرء يقظاً. كما أن استخدام اللبلاب مثير للاهتمام لأنه يرتبط على العموم بالبيئات الرطبة والغابات أكثر من ارتباطه بالمناطق الدافئة والجافة في الجنوب. ويبدو جميلاً في هايغروف إذ لا يتسلّق كثير منه على الجدران، كما أن اللون الأخضر مقابل لون الجدار الصلصالي المتوسّطي (انظر أدناه) يصنع خلفية جميلة ودافئة للنباتات الأكثر ألواناً في ما تبقى من الحديقة.

الأزهار

في البداية، زرعت في هايغروف النباتات نفسها التي كانت مزروعة في تشلسي

لكن في السنوات الثلاث الماضية، بعد أن استقرّت الأمور، أدخلت بعض التغييرات واستبدلت بعض النباتات بما في ذلك الحولية والثنائية الحول، بالإضافة إلى بعض الإضافات الأخرى لملء ناحية الحديقة الكبيرة (انظر أدناه). وفي أحواض الزهور حول حافة الحديقة، زُرع مزيج من النباتات المعمّرة والحولية والثنائية الحول التي اختيرت لتشابه ألوانها مع ألوان السجّادتين، وتآلف ارتفاعاتها وقوامها، بالإضافة إلى اعتبارات التاريخ البستاني الإسلامي، والمعنى الرمزي، والأهم من ذلك توافرها - وكل ذلك لإضفاء تأثير السجّادة المتوازن على نحو جميل. لالتقاط الأزرق النيلي والأحمر الداكن والقرمزي والصلصالي والأبيض والأخضر من السجّادتين، اخترنا الأسترانتيا *Astrantia* والأخيلية ذات الألف ورقة *Achillea millifolium* والزنبق وحشيشة الملاك *Angelica archangelica* لإعطاء بعض الارتفاع الشامل، والكنوتيا *Knautia Macedonica* للونها العنابي الجميل، وحشيشة الجرب *Scabiosa atropurpurea* ورقيب الشمس *Heliotrope* للتوافق مع الألوان الأرجوانية الداكنة. واختيرت الأنتشوسا *Anchusa* للأزرق الداكن المخملي، وللألوان الزرقاء زُرعت أنواع مختلفة من الدلفينيوم والناعمة *Salvia* بالإضافة إلى ضروب من رجل اليمامة *Consolida*، وزهرة الحقول *Centaurea cyanus*، والشؤنيز الدمشقي *Nigella damascena*. وهناك أيضاً الخشخاش *Papaver* وحشيشة القطّ *Centranthus ruber* والتبغ المجنّح *Nicotiana alata* لإعادة تكوين الألوان البيضاء في السجّادة فضلاً عن عطرها الليلي الزكي، وإبرة الراعي *Geranium*.

لا يمكن إنشاء حديقة مستوحاة من الحدائق الإسلامية من دون التوليب، وقد عكست الأنواع التي اخترناها ألوان السجّادتين، مثل توليب ملكة الليل وتوليب «أبو الحسن». وهذا التوليب الأخير نوع أحمر جيّد واسم حسن اسم إسلامي شهير يحمله أحد حفيدي النبي محمد صلى الله عليه وسلم. مع تطوّر الحديقة في سنواتها الأولى في هايغروف، جرّبت أنواع أخرى من التوليب مثل التوليب الأبيض والتوليب البورغندي. وقد أحبّ الأتراك العثمانيون على وجه الخصوص التوليب، وأصبح في القرن السادس عشر الزهرة المحبّبة إلى السلطان سليمان القانوني (انظر الفصل السادس).

بما أن العطر مهمّ جداً في الحديقة الشرقية، فقد كان المراد في الأصل وضع ثمانية أصص مليئة بالزنبق حول القاعدة المثمّنة المركزية التي ترتكز إليها النافورة، لا سيما الأبيض *Lilium candidum*. لكن ذلك الزنبق لم يكن حاضراً للأسف في زمن معرض تشلسي، واستبدلت به أزهار اللقلقي البيضاء الرقيقة. وفي صيف 2002 و2003 زُرعت هذه الأصص بأزهار اللقلقي والحمّاض، وفي السنة التالية ربما تجرّب

أنواع أخرى من اللقلقي بالإضافة إلى الزنبق. ويرمي ديفيد هوارد، كبير البستانيين على العموم استعادة مزيد من ألوان السجّادة الأصلية في السنوات القليلة التالية (2006-2004)، كما زرعت في تشلسي. فكثير من النباتات التي اختيرت مؤقتاً في تشلسي لا تنمو جيداً في غلوسسترشاير، لذا تجرى التجارب باستمرار، كما هو الحال في جميع الحدائق الجديدة، لاكتشاف النباتات التي تعكس الألوان الأصلية وتتكيّف مع الظروف السائدة في هايغروف. وسيزرع ديفيد في صيف 2004 المزيد من البنفسج الأزرق وسيستبدل الأرتميسيا والسانتولينا بعد أن كبرت كل منهما كثيراً وأصبحتا كثيفتين. الأصص التي استخدمت في تشلسي كانت مصنوعة من الألمنيوم، واستبدل ببعضها أصص فخارية في هايغروف لأن المواد الطبيعية واللون الترابي يتلاءم بصورة أفضل مع موضوع الحديقة الإسلامية التقليدية، كما أنها تتأثّر بالجوّ على نحو جميل.

الشكل 214. أحواض الزهور في تشلسي.

البناء في هايغروف

عندما حان الوقت لنقل الحديقة من تشلسي إلى هايغروف، كان لا بد من إجراء الكثير من الإعدادات قبل تركيب الحديقة. وكان يجب الانتهاء من الحديقة وتجهيزها بحلول الأسبوع الأول من آب/أغسطس 2001، عندما يفتتحها أمير ويلز أمام الزوّار. واستقرّ الرأي على أن تكون الحديقة بين الجانب الغربي لقاعة البستان وحظيرة كوتسوُلد الحجرية التقليدية. ثمة حقول إلى شمال حديقة الخزامى ذات الطراز المتوسّطي، وهي منطقة مسوّرة جزئياً مزروعة بأكملها بأسيجة الخزامى، ويوجد المرج الأخضر إلى الجنوب. يوجد المدخل الرئيسي لحديقة السجادة عند الجدار الجنوبي، ويؤدّي إلى خارج حديقة الخزامى مباشرة — وذلك ملائم جداً حيث يتم الانتقال من مشهد متوسّطي إلى مشهد دخيل جذاب يغلب عليه الطابع الشرقي.

من حسن الحظ أن المكان المخصّص لحديقة السجادة في هايغروف تزيد مساحته بمقدار الثلث عن المساحة الأصلية في تشلسي – أي 20 متراً طولاً و15 متراً عرضاً تقريباً. وعلى الرغم من أن ذلك يعني إدخال بعض التعديلات على القياسات، فإن المساحة الإضافية أضفت تحسيناً كبيراً على الموقع المزدحم في تشلسي. كما سمحت بإنشاء منصة مرتفعة للمشاهدة عند الدخول تعلو بمقدار 45 سم عما تبقى من الحديقة يتيح للزوّار القادمين من حديقة الخزامى الحصول على مشهد عام للمخطط الرسمي في الأسفل. لقد كان هذا المشهد (انظر الشكل 206 الملتقط من علٍ) غائباً عن الزوّار في تشلسي، إذ لم يكن باستطاعتهم مشاهدته إلا على مستوى الممرّات نفسه، أو حتى أدنى قليلاً. أما في هايغروف فمن الممكن مشاهدة حديقة السجّادة بأكملها قبل النزول للتجوّل في أرجائها.

الشكل 215. أحواض زهور على جانبي أحد الممرات، تشلسي.

الشكل 216. مشهد للحديقة يظهر شجرتي حمضيات في وعائين فخَاريين، ومصباحين مغربيين للإضاءة الليلية، عند مدخل حديقة الخزامى في هايغروف.

الشكل 217. مشهد لحديقة السجّادة من منصّة المدخل الرئيسي بجانب حديقة الخزامى في هايغروف.

الشكل 218. حديقة السجّادة حيث تظهر الجدران المرتفعة – وهي ميزة نموذجية للحديقة الإسلامية التقليدية تنشئ ملاذاً داخلياً للخضرة، وتبدو هنا شجرتا سرو على جانبي شجرة طرفاء.

الشكل 219. تفاصيل النافورة الرخامية.

الشكل 220. تفاصيل الزليج المحيط بالنافورة.

الماء وإنشاء النافورة

عندما نُقلت الحديقة إلى هايغروف، ابتكر بامبر واليس نظام الماء والسباكة حرصاً على بقاء الماء مضبوطاً على الضغط الصحيح باستمرار. بل يوجد في الواقع تحت الحديقة نظام ريّ معقّد وضعه فريق إنشائي بقيادة كولن ويذيكومب Colin Withycombe، إلى جانب شركة البناء المحلية ر. وليامس بقيادة نايجل سلوين Nigel selwyn. لكن قبل القيام بتنفيذ نظام الري أو سباكة النافورة، كانت الأرض التي ستقام عليها الحديقة بحاجة إلى بعض الحفر العميق، لا سيما بعد اكتشاف أن تربتها صلصالية صلبة. فاضطر فريق البناء إلى الحفر بعمق متر تقريباً لإزالة ما أمكن من التربة الصلصالية ووضع ثمانين طناً من التربة العلوية. ولو لم تزل

الشكل 221. مشهد لحديقة يظهر أشجار السرو الأصلية المرتفعة إلى جانب سقف الحظيرة في الخفية.

التربة الصلصالية، لبقيت الأحواض الغائرة المخصصة للأشجار والورود مغمورة بالماء ما يتلف النباتات في نهاية المطاف. لذا تم تصريف الماء بعيداً عن السطح ومدّدت الأنابيب ووصلت بنظام التصريف القائم في قاعة البستان (تحت المنطقة الواقعة بين الجدار الشمالي لحديقة السجادة والحقل في الخارج). ويقع هذا النظام على منحدر طبيعي حول الحقل الخارجي حيث توجد بالفعل أنابيب التصريف المؤدية إلى بحيرة على مقربة من المكان.

بعد إنشاء نظام التصريف، بنيت الجدران باستخدام أحجار إسمنتية وكسيت بملاط ذي لون فخاري على الطراز المتوسّطي/الشمال إفريقي. واستخدمت لاحقاً حجارة كوتسوُلد المحلية حول المداخل الثلاثة للحديقة على الجوانب الجنوبية والشمالية والغربية بالإضافة إلى الزوايا الأربع (انظر الشكل 222). لا شك في أن الحديقة حقّقت أحد أهدافها الرئيسية بانعزالها عن محيطها لأنها الآن أكبر من حديقة تشلسي بمقدار الثلث وتحيط بها الجدران من جهاتها الأربع بدلاً من جهتين. وللجدران أفريز مائل من البلاط الإيطالي الفخاري اللون، ويمكن زراعة الورود والنباتات المعترشة الأخرى لتنمو خارج الجدران مع تطوّر الحديقة.

قبل البدء بالزراعة، نُقل الهيكل الفولاذي والإسمنتي الذي يشكّل قاعدة النافورة من لندن بقطعه الثماني وأعيد تركيبها في الموقع. وأقيم حوض النافورة المحاري المرمري على حلقة من الرخام بسماكة 2.5 سم ووضع فوق المثمّن المبلّط بالزليج. وثمة خزانان للماء تحت الأرض في الحديقة، يوفّر الخزّان الكبير الماء للنافورة المركزية وقناتي ماء، ويوفّر الخزّان الصغير الماء للقناتين الأخريين. ويوجد نظم آلي لملء الخزانين وجهاز تعقيم بالأشعة فوق البنفسجية لمنع نموّ الطحالب. يضخّ الماء عبر جهاز التعقيم فيقتل الضوء داخل وحدة مقفلة الطحالب ويحول دون تحوّل لون الماء إلى الأخضر. ولا يزال ذلك يعمل جيداً لأن الماء كان صافياً عندما زرت الحديقة في سنة 2003، ولا يوجد أي أثر للطحالب على رخام النافورة الأبيض المائل إلى الرمادي. في الشتاء تغطّى النافورة للحؤول دون تأثرها بالصقيع، ويحبس عنها الماء، ويصرّف ماء الخزانين، ويغطى الحوض بالقش والبلاستيك. وتدخل الحديقة في سبات في الشتاء تدوم حتى قدوم الربيع في السنة التالية حيث تعاود الحياة ثانية. ولا شك في أن حديقة السجّادة حديقة آخر الربيع والصيف. وكما أشرنا من قبل، ترتكز الحديقة على الماء، كما هي حال حديقة هايغروف، وعندما ينقطع عنها الماء يموت القلب وتنعدم الروح. وفي الربيع عندما يتدفّق الماء ثانية، تجدّد الحياة في الحديقة. وقد عبّر و. هـ. أودن *W. H. Auden* عن ذلك بصورة جميلة بقوله:

أطلق نوافير العلاج
في صحارى القلب[426].

كيف حال نباتات الحديقة؟

إن الإعداد لمعرض تشلسي للزهور، وهو معرض مؤقّت يسهل نسبياً اختيار الأزهار والأشجار التي نريد، شيء، وبناء حديقة السجّادة في وسط غلوسسترشاير، شيء آخر، وهي جزء مكشوف من إنكلترا غير موات لنمو الأشجار والشجيرات الرقيقة المختارة لتشلسي. التغيير الرئيسي الوحيد الذي كان لا بد منه هو استبدال أشجار السرو القصيرة بأشجار السرو الطويلة. وقد زرعت هذه

الشكل 222. مشهد لمدخل الحديقة (جانب قاعة البستان) يظهر أشجار السرو الجديدة فوق الجدار وحجارة كوتسوُلد المحلية حول البوّابة.

الشكل 223. مشهد للحديقة يظهر أشجار السرو الجديدة الرفيعة والأصغر حجماً، لكن لم يزرع للأسف الجلبان العطر قربها ليلتف عليها لأن هذا الأمر يتطلب كثيراً من الصيانة.

على مسافات منتظمة حول جدران الحديقة، وعند نقلها من تشلسي إلى هايغروف تبيّن أنها طويلة جداً وهزيلة لا تحتمل رياح غلوسسترشاير القوية. وبدت الأشجار الصغيرة التي يتساوى طولها تقريباً مع ارتفاع الجدار الآن (صيف 2003)، أكثر تناسباً مع الحديقة من الأشجار الأصلية.

لا تزال الحديقة في سنواتها الأولى (ثلاث سنوات ونصف عند دفع الكتاب للطباعة) لكن أشجار الزيتون والتين لا تزال حية بالإضافة إلى شجرتي رمّان وتبدو نضرة قدر ما يتوقّع على الرغم من الموقع المكشوف. ويعني الموقع المكشوف أنها تتلقّى من أشعة الشمس في أشهر قدر ما يسمح به صيف إنكلترا، وقد كان صيف سنة 2003 من أشدّ فصول الصيف المسجّلة حرارة وجفافاً. وبفضل رعاية ديفيد هوارد، كبير البستانيين، القائمة على المعرفة، وفريقه فإن هذه الأشجار الرقيقة نسبياً إلى

جانب النباتات التي تحتمل درجات الحرارة المتدنية ستدوم عدة فصول شتاء أخرى تبعاً للصقيع. كما أن الأشجار الأخرى، أشجار السرو الجديدة، وأشجار الطرفاء والفلين تبلي بلاء حسناً. وتحتاج أشجار الحمضيات إلى القطاف في الشتاء، ويتم ذلك عادة في أواسط أكتوبر قبل سقوط الصقيع. وقد زرعت هذه في أوعية كبيرة بحيث يمكن نقلها إلى الداخل من دون عناء كبير لمدة ثمانية أشهر في السنة. وتظهر طبيعة الفلين تبايناً متوازناً مع السرو ذي الأغصان المنتصبة، فيقدّم الظلّ عندما تنمو وتزداد طولاً. وقد اختيرت أشجار الفلين كبديل لشجرة الدلب الشرقية *Platanus orientalis*، وهي شجرة موجودة في العديد من الحدائق الإسلامية التقليدية (وتظهر إلى جانب السرو في العديد من المنمنمات الفارسية، انظر الفصل الخامس) بسبب الظل الذي توفّره. وغالباً ما تقارن أوراق أشجار الدلب في الشعر الفارسي بأيدي البشر الممتدّة تضرّعاً وهي التي تقود الطريق عندما «تشرع الأشجار في طقوس الصلاة» كما كتب جلال الدين رومي[427]. غير أن الدلب الشرقي ينمو كثيراً وبسرعة في هايغروف، والفلين بديل مناسب لأنه أبطأ نمواً (ولا يرتفع كثيراً في النهاية). وهو يزرع على نطاق واسع في إسبانيا ويشكّل جزءاً من العالم الإسباني المغربي والشمال أفريقي الإسلامي.

نظراً لاتساع الحيّز الذي تغطّيه الحديقة في موطنها الجديد فإنها تضمّ الآن مزيداً من النباتات المعترشة، مثل الياسمين الشائع، بالإضافة إلى سرادق المدخل على جانبي الجانب الشمالي. وبإيحاء من المنمنمات التي غالباً ما تصوّر فيها أشجار الفاكهة ذات الأغصان المزهرة تعانق الشكل الداكن المرتفع للصنوبريات، فقد زرع في تشلسي الجلبان العطر للتسلّق على أشجار السرو وتتشابك معها. كما زرعت مجموعة متنوّعة من الجلبان العطر مثل «كوبانيز أوريجنال» و«لورد نلسن» و«ملك النيلي» للتعلق بالأشجار الداكنة الدائمة الخضرة (انظر الشكل 173). ومما يؤسف له عدم متابعة هذه الفكرة في هايغروف بسبب ارتفاع صيانتها. تجدر الإشارة إلى أنه مرّ على عهيد الياسمين *Trachelospermum jasminoides* وكزبرة البئر *Muehlenbeckia* والنباتات المعمّرة الغضة، مثل الناعمة *Salvia* ثلاثة فصول شتاء ويؤمل أن تتجاوز فصول الشتاء الأخرى. وقد احتفظ البستانيون بفسائل في حال فقد بعضها. وفي السنة الماضية (2003)، زرعوا المتسلّقة البوقية *Campsis radicans* التي تتسلّق الجدران وربما أشجار السرو. وسيجرّبون في السنة القادمة الألبيزيا *Albizia lophantha* والصوفورا *Sophora tetraptera* وربما التفاح البري بغية الحصول على هلام التفاح البري.

ملاحظات حول التصميم

الممرّات في هايغروف أوسع مما كانت عليه في تشلسي، كما رصف مزيد من البلاط الفخّاري في وسطها لتسهيل المشي، فيما وضع الحصى على الجانبين. ويؤمل أن تزرع النباتات العطرية وسط الحصى لإذكاء عبير الحديقة وخلق وهم بالسير على سجّادة. ويضم اثنان من الجدران، في الجانبين الغربي والشرقي، أبواباً خشبية كبيرة رُسم عليها تصميمات سعودية زاهية. كما علّقت على الجدران أنواع مختلفة من الأشغال الفنية العائدة إلى أمير ويلز، مثل لوح خزفي عليه كتابة بخط عربي، وبلاط إسباني، وهي تتلاءم جيداً مع الموضوع الإجمالي للحديقة. عندما كان فريق الإنشاء يعدّ لقيام الأمير بافتتاح الحديقة في آب/ أغسطس 2001، خصّص الأسبوع الأخير للزراعة المكثّفة والريّ، بما في ذلك تركيب الحنفيات في الزوايا ونظام تلقائي لري محيط الحديقة. وحظيت الإضاءة باهتمام كبير في الليلة الأولى والاجتماعات الليلية اللاحقة، فركّبت أنوار كهربائية خافتة خلف أشجار السرو ووسط أوراق الأشجار في الأحواض المركزية. وأضيف مزيد من الإضاءة الجذابة على شكل مصابيح نحاسية تركية ذات أشكال هندسية حول النافورة، بالإضافة إلى الشموع لإضاءة الممرّات. وأضفي على قاعة «كوتسولد» جوّ ألف ليلة وليلة الرومانسي. وربما يزداد طموح أمير ويلز لاحقاً في استخدام مؤثّرات الإضاءة ويتبع المثال الفارسي: جمع مئات السلاحف معاً وتثبيت الشموع على تروسها لخلق مشهد شاعري حيث تتراقص الشعلات وتتحرّك وسط الأزهار والشجيرات[428]. (انظر الصفحات 132-133 عن الإضاءة)

الشكل 224. ممرّ يظهر الحصى على الجانبين والبلاط: يمكن أن يكون لون الحصى والبلاط باهتاً أكثر لإبراز النباتات، لكن لون البلاط يبدو باهتاً وأكثر جمالاً في الواقع عندما يكون جافاً.

الشكل 225. أحد الأبواب وتبدو عليها تصاميم سعودية محفورة ومطلية.

الشكل 226. حديقة السجَادة في الليل حيث تبدو الإضاءة الخافتة الجميلة.

الشكل 227. أحد السرادقين الخشبيين المطليين في حديقة السجَادة – يوجد واحد عند كل طرف. وقد صممه أمير ويلز بناء على أحد الرسوم المتكرّرة في سجَادتيه.

السرادقان

الشكل الهندسي لأعلى المحراب الذي يظهر في سجّادة الصلاة هو الأساس الذي استند إليه الرسم الذي وضعه أمير ويلز للسرادقين الصغيرين على جانبي الحديقة. وقد أنجزهما فريد التركي، خريج معهد فيتا المتخصص في الأشغال الخشبية. تشكّل السرادقات، كما ذكر في الفصل الثالث، إحدى المزايا المهمة للحديقة الإسلامية، وغالباً ما توضع في موقع ممتاز للحصول على أفضل رؤية، فضلاً عن تلقّي النسائم الباردة – عند تقاطع القنوات المائية مثلاً. وتوضع أحياناً في أحد طرفي الحديقة للحصول على أفضل مشهد كما الحال هنا. والمكافئ الأوروبي للسرادق هو البيت الصيفي، الذي يستخدم في الغالب للاختباء من المطر بقدر ما يستخدم للاستظلال من الشمس. ويوفّر هذان السرادقان الظلّ الوحيد في حديقة السجّادة إلى أن تطول أشجار الفلين والزيتون.

حديقة صيفـية

حديقة السجّادة حديقة صيفية كما ذُكر أعلاه وتتطلب قدراً كبيراً من الصيانة لكي تزهر مجموعة ألوان السجّادة كل سنة. ويؤمل التمكّن من ذلك – وحده الزمن كفيل بإبلاغنا أيّ منها سينجح في غلوسسترشاير – لأن المحافظة على الألوان من الأهداف الرئيسية. ربما لا يدوم مجد الحديقة كل موسم، لكن مشهدها رائع في أواخر أيار/مايو وحزيران/يونيو، ويدوم كثير من الأزهار حتى أيلول/سبتمبر، ولعل هذه الميزة العابرة للحديقة هي ما تجعلها مميّزة. ولا يرجع ذلك إلى طبيعة الحدائق بقدر ما يتماشى مع موقف الإسلام بأنه ما من شيء يدوم طويلاً في هذا العالم – وعلينا أن نكون شاكرين في كل لحظة. في الشتاء تكون الحديقة «مكاناً جميلاً وخصوصياً» لكنها تبدو مهجورة إذ تغيب عنها الأزهار، وتوجد فيها بعض النباتات الدائمة الخضرة مثل السرو والسنديان، لكن الأهم من ذلك توقّف جريان الماء، والحديقة الإسلامية من دون ماء مكان موحش. غير أن وحشتها قد تبدو مستساغة لبعض الأشخاص، ويمكن أن تعرض في الأيام القليلة التي تنقشع فيها السماء بعض الوقت في الشتاء الإنكليزي الكئيب، نوعاً من الجوّ التأمّلي الذي يختلف عما تكون عليه الحديقة عندما تتفتّح الأزهار وتتدفّق المياه. وربما تذكّر الحديقة في الشتاء الزائر أن جمالها يزيد عن المجموع الكلي لأقسامها المنظورة: إن قوّتها غير المنظورة لا تكشف عن نفسها إلا ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أو ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[429].

الشكل 228. منزل صيفي مقام على قاعدة حجرية في ديفون.

هل الحديقة ناجحة؟

لا بد من الاعتراف أنني كنت خائفة بعض الشيء عندما قمت بأول زيارة لحديقة السجّادة في هايغروف (تموز/يوليو 2002)، بعد مرور سنة تقريباً على نقلها من معرض تشلسي للزهور وإعادة إنشائها وزراعتها. كان يخامرني بعض الشكّ في إمكانية «زرع» مثل هذه الحديقة في كوتسولد من دون أن تبدو غير متآلفة مع مكانها الجديد. لكنها بدت ناجحة على نحو مدهش، منذ أن وُضعت داخل الجدران المصمّمة على الطراز المتوسّطي/الشمال أفريقي والتي بنيت بحجارة كوتسولد المحلية. فالحديقة المنتظمة، مثل حديقة السجّادة، بحاجة إلى فصل رسمي عن محيطها – وهذا هو مفتاح نقلها السعيد إلى ريف غلوسسترشاير. الحديقة نفسها لا تحاول الامتزاج مع محيطها: إنها مختبئة بين الجدران، والجدران تتلاءم جيداً مع الحيّز الموجود بين حظيرة كوتسولد الحجرية وقاعة البستان.

الشكل 229. مشهد لحديقة السجّادة من إحدى الزوايا.

كنت محظوظة بزيارة الحديقة في أيام حارّة ومشمسة، حيث بدت الجدران والنافورة والماء والنباتات والألوان والقوام كما يجدر بها أن تكون. المياه تتدفّق من النافورة بالسرعة الصحيحة، على ارتفاع منخفض وبلطف – تخرّ من دون أن تطلق رذاذها في الهواء[430]. وكانت تجري صافية في القنوات تحت قدمي المرء والنباتات على جانبيها. وبدت شجيرات الورد المزروعة في الأحواض الغائرة على مستوى واحد مع النباتات الأخرى المزروعة حول النافورة المركزية، ما يعني أن الأزهار ترتفع قليلاً فوق الكاحلين، بحيث يخيّل للزائر أنه يمشي على سجّادة فاخرة ومعطّرة. لا شك في أن قضاء الوقت في هذه الحديقة يمنح المرء الإحساس بأنه في حلم من ألف ليلة وليلة، منعزل تماماً عن العالم الخارجي، فيما يفعل خرير الماء فعله في إدخال السكينة على نفسه.

هل الحديقة ناجحة؟ وهل يمكن أن تنجح حديقة سجّادة على الطراز الإسلامي في محيط ومناخ مختلفين عن المحيط الذي نشأت فيه ومناخه؟ الإجابة هي نعم. وبما أنني شاركت عن كثب في اختيار النباتات، يمكن الإيحاء بوجود بعض التحيّز هنا (بالطبع لا). لا بد من الاعتراف بأن هناك بعض الصحة في ذلك. لكن لدي أيضاً بعض التحفّظات لأن ما ينجح في تشلسي لأسبوع واحد قد لا ينجح بالضرورة كحديقة دائمة (أو تدوم عدة سنوات على ما يرجى) في محيط غلوسسترشاير المغرق في إنكليزيته. لكن هذه المشكلة المحتملة حُلّت قبل أن تنشأ: إنها بحاجة إلى مكان منعزل. وقد أظهرت هذه الحديقة أن من الممكن إنشاء حديقة على الطراز الإسلامي في بيئة مختلفة جداً عما نعهده عن العالم الإسلامي، وأن تحظى بالنجاح أيضاً. لا تزال النباتات بحاجة إلى إجراء بعض التجارب لأن إقامة حديقة «دائمة» وليس لأسبوع واحد يتطلّب اتباع أسلوب مختلف تماماً. يجب أخذ اعتبارات تغيّر الطقس ودرجة الحرارة وأوقات نضج النباتات وما إلى هنالك في الحسبان. لكنني أجرؤ على القول إن حديقة السجّادة تقنع حتى المشكّك. ليس هناك شبه كبير في التفاصيل بينها وبين السجّادتين الأصليتين، لكنها تعبّر عن جوهرهما والفن الإسلامي يقوم على تلقّف الجوهر: الأمر لا يتعلّق كما أشير آنفاً بالمكوّنات الفردية بقدر ما يتعلّق بالوحدة ككل، والتوازن المنسجم بين العمارة وهندسة البناء والطبيعة الزاهية – يجمع بينها جميعاً عنصر الماء الفائق الأهمية ورحمة الله.

ربما أبدو حالمة بعض الشيء، لكن دخول حديقة السجّادة في هايغروف هو بمثابة دخول مكان منعزل، عالم عجيب، عالم يستحضر قصيدة فارسية (على الرغم من عدم وجود مرج أخضر):

في هذه الحديقة العطرة المنعزلة وسناها

يستطيع كل من يرغب الفوز في السكينة

تبدو على الأرض جنة ببهاها

بسروها ومروجها وجداولها

إذا أردت إدخال السرور على قلب مضيفك

فلا تتحدّث عن شيء سواها[431].

الخلاصة

القرآن هو «التجلّي العظيم للذات الإلهية في الإسلام»[432] لذا لا يمكن المبالغة في تقدير أهميته عند النظر في أي جانب من جوانب الحضارة الإسلامية. إنه مصدر الإلهام الأول للفنّ والعمارة الإسلاميين بأكملهما، بما في ذلك فن الحدائق. لكي يكون الفنّ جديراً باسمه، يجب أن يعكس إلى حدٍّ ما مبادئ واقع أكثر عمقاً. ويعني ذلك أن جماله الخارجي يجب أن يحثّ النفس على التأمّل في الجوهر الداخلي. ويجب أن تكون العملية دقيقة وأن تبوح عن نفسها بالتدريج بعد ما يأخذ الناظر وقته في تأمّلها. ويمكن النظر إلى الحديقة الإسلامية، التي تحتضن الزائر بدلاً من أن تعييه، كمثال على ذلك. «فغاية الفنّ هي جمال الشكل، في حين أن غاية التأمّل هي الجمال الكامن خلف الشكل»[433].

لا يوجد في الإسلام أي حاجز يفصل بين الله وبين من يتضرّع إليه – في وسع العبد أن يرفع كفيه في أي مكان وزمان ويدعو الله، بل بإمكانه أداء الصلاة في أي مكان تقريباً[434]. فلا حاجة إلى أي رجل دين أو وسيط، ولا ضرورة للتواجد في مسجد ما، لأن العالم بأكمله بمثابة مسجد: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ... ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ

الشكل 230. شجرة حمضيات في حديقة السجّادة في هايغروف.

ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[435]. الحديقة الإسلامية هي المختلى الخارجي حيث يبتغى جمال الله والسكينة التي تتجاوز الفهم.

إن الأوصاف القرآنية للجنة هي النموذج الأولي الإلهي الذي تقوم عليه جميع الحدائق الإسلامية التقليدية، إنها تتمحور حول الرؤية الروحانية للكون وتهدف على نحو الفن الديني إلى تقريب الزائر إلى الله. ويرجى أن يكون هذا الكتاب قد قدم بعض الفهم لمصدر إلهامها وأن يكون ذا قيمة في إنشاء الحدائق اليوم في العالم الغربي. الحديقة الرباعية (الجهار باغ) نوع من الجمع بين كون قديم وشامل وما يذكّر بجنّات الفردوس التي وصفها القرآن. لذا فإن هذا الشكل، على غرار الفن والعمارة الإسلاميين لا يخضع لتغيّر الموضة. وثمة مجال كبير للابتكار في التخطيط للمياه، وتنسيق المناظر الصلبة، والزراعة، شرط التمسّك بمبادئ هذا الفنّ. وعلى غرار التراث نفسه، يستطيع كل جيل إعادة تفسيره وبثّ روح جديدة في المبادئ الموروثة، مع الوفاء للمصدر الأصلي. لا مجال هنا لفن تقليم الأشجار الرائع والمنحوتات التشكيلية والماء الخارج عن شكله الطبيعي. فالحديقة تتعلّق بالبساطة والنقاء والانسجام بين الهندسة والطبيعة، وتعكس أكثر من أي شيء آخر اللجوء بسلام إلى النظام الطبيعي. لا علاقة للحديقة بالأصالة والابتعاد عن المألوف، لكنها تركّز على تلقّف شيء من الخلود في عالمنا الزائل. «الجنّة ربيع دائم، وحديقة دائمة الإزهار يحييها الماء، وهي أيضاً حالة نهائية غير قابلة للفساد مثل المواد الثمينة والبلّور والذهب»[236].

الشكل 231. فناء مغربي رسمه خالد سيدو، نقلاً عن طيطوس بيركهاردت.

عندما أقام واشنطن إيرفنغ، الدبلوماسي الأميركي والرحالة الشهير، في الحمراء بضعة أشهر في سنة 1829، اعتاد أن يمشي في التلال المجاورة في المساء، وقدّم وصفاً حيّاً للاختلاف بين البساتين المثمرة في غرناطة والبرية المجاورة المعاكسة:

> سرعان ما وجدنا أنفسنا وسط البرية والجبال الكئيبة العارية من الأشجار، المكسوّة بقليل من الخضرة هنا وهناك. كان كل شيء في مرمى البصر قاسياً ومجدباً، ومن غير الممكن إدراك أن جنّة العريف تقع على مسافة قصير خلفنا ببساتينها المزهرة وحدائقها المدرّجة، وأننا على مقربة من غرناطة الرائعة، مدينة البساتين والنوافير. لكن هذه هي الطبيعة في إسبانيا –

تصبح برية وقاسية ما إن تبتعد عنها الفلاحة. وتتعايش الصحراء والحديقة دائماً جنباً إلى جنب»[437].

في عالم اليوم، يرى معظم الأشخاص أن البرية أو الصحراء تحل محلها المدينة التي تفتقر إلى جانب النقاء التعويضي، خلافاً للصحراء. ويشكّل التلوّث المادي للمدينة المتمثّل في الضوضاء والأوساخ والشوارع والمواصلات المزدحمة إجهاداً للطاقة المادية والصحة العقلية لمن يقيمون ويعملون فيها. وعلى شاكلة المسلمين الأوائل الذين كانوا يتطلّعون إلى خلوة منعزلة عن الصحراء القاسية، يرغب كثير من سكان المدن في إنشاء ملجأ داخليّ يسود فيه النظام والجمال والسلام على شكل حديقة.

لقد أصبح العمل في الحديقة لكثير ممن يقيمون في المدينة نوعاً من العلاج، لأنه يشجّع المرء على الاستسلام لسرعة الطبيعة والتخلّي عن الرغبة في فرض سرعته. لا شك في أن قضاء الوقت في العمل في الحديقة نفسها أو الجلوس فيها يمكن أن يحدث تأثيرات مفيدة جداً، لا سيما في الحديقة الإسلامية بتشديدها على النظرية الكونية التي تقوم عليها. لقد قيل ذلك مراراً من قبل، لكن تذكّر أن تراث الحدائق الإسلامية يتميّز في الناحية التأملية، ويحثّ الزائر على التساؤل عن مصدر هذا الجمال المرئي ويتأمّل فيه. إن الأوصاف الرائعة للجنة في القرآن ترمي، على الرغم من رمزيتها، إلى لفت انتباه ضعاف الإيمان ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾[438]. ومن المدهش أن نعلم مؤخّراً أن كثيراً من الذين تعرّضوا لتجارب، غير دينية بالضرورة، كادت تودي بهم، قدّموا وصفاً لحدائق ذات جمال وصفاء غير عاديين[439].

يدرك الجميع، لا سيما في المملكة المتحدة – وهي بلد صغير مقارنة بالعديد من جيراننا الأوروبيين – أن الريف آخذ في الاختفاء تحت الطرق المعبّدة والمدن. تلك هي الحقيقة المحتومة للحياة الحديثة، حيث يتكاثر السكان وتتزايد توقّعات الحصول على أسباب الراحة المادية. لم يحدث من قبل في تاريخ البشرية أن وجدت مناطق حضرية كثيفة السكان كما هو الحال اليوم، ولم نشهد من قبل مثل هذه الرغبة في الهرب من هذه المناطق – عبر السفر عادة إلى أماكن نائية لم يطأها البشر – وعبر إنشاء الحدائق على نطاق أضيق. هذه الحدائق ليست جميلة تسرّ الناظرين وأماكن للسكينة فحسب، وإنما هي إعادة إنشاء (من دون وعي في الغالب) للجنّة على الأرض كما تنعكس في داخلنا – أي حديقتنا الداخلية: «ابحث عن الحديقة في داخلك، في مادّتك الإلهية التي لا تفنى، فتمنحك بعد ذلك حديقة جديدة لا تفسد البتة»[440].

الحواشي

تمهيد

1. Burkhardt, T., *Sacred Art in the East and West* (Perennial Books, 1967), p. 9.

2. سورة النحل، 16: 69 وآيات أخرى. استخدم تفسير آربري A. J. Arberry, *Interpretation of the Holy Quran* (The World's Classic edition, Oxford University Press, 1989) ما لم يذكر خلاف ذلك.

3. في دائرة الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية (فيتا) 1988–1990. وقد انتقلت فيتا من الكلية الملكية للفنون إلى مؤسسة الأمير (لندن) في سنة 1993 وأعيدت تسميتها مؤخّراً (2003) لتصبح كلية الأمير للفنون التقليدية (انظر الحاشية 140).

4. يستخدم مصطلح «فنّ» على نطاق واسع جداً هنا ليشمل الرسم والعمارة وتصميم المناظر الطبيعية في التراثات العالمية الكبرى، لا الحضارة الإسلامية فحسب.

5. سورة النحل، 16: 12.

6. انظر Vicenzo Olivetti, *Terror's Source* (Amadeus Books, 2002), Chapter 1.

7. Greenfield, M., *Newsweek*, 26 March 1979, p. 116.

8. انظر الببليوغرافيا المختارة للحصول على مجموعة من أفضلها.

المقدّمة

9. هذه هي المناطق التي رُكّز عليها لأغراض هذا الكتاب. هناك عدد كبير من المسلمين في الصين وجنوب شرق آسيا حيث يمكن اعتبار التقاليد البستانية مزيجاً بيم الإسلام والثقافات المحلية الأخرى والظروف المناخية والتضاريسية.

10. ينطبق ذلك على وجه الخصوص على تركيا العثمانية. انظر Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan, Gardens and Flowers in Ottoman Culture* (Koc Culture, Arts and Communications Inc. for Aygaz, 2002), Chapter 3.

11. أشهرهم دي بوسبك، سفير الإمبراطورية في اسطنبول في القرن السادس عشر، الذي كان أول من أرسل بصلة توليب إلى أوروبا.

12. من المؤسف أن العديد من الحدائق في العالم الإسلامي لم تعد موجودة إلا في روايات الرحّالة أو الكتب القديمة.

13. ورد ذكر هذه العبارة كثيراً في القرآن لوصف الجنة، مثل سورة الحج، 22: 14. انظر الفصل الأول.

14. هناك استثناءات كثيرة لذلك، لكن إذا ولدت وترعرعت في مناخ حارّ جداً فمن المنطقي ألا تجهد نفسك كثيراً ما لم يكن ذلك ضرورياً.

15. السير جون تشاردن، نقلاً عن Jonas Lehrman in *Earthly Paradise: the Garden and Courtyard in Islam* (Thames and Hudson, 1980), p. 112.

16. أحاديث النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم تلي القرآن في الأهمية في الإسلام.

17. انظر الحديث السادس عشر في Forty Hadith Qudsi, Selected and Translated by Ezzeddin Ibrahim and Denys Johnson-Davies (The Holy Koran Publishing house, 1981), p. 80.

18. David Slawson, *Secret Teachings in the Art of Japanese gardens* (Kodansha International, 1991), p. 13.

19. Huston Smith, *The World's Religions* (Harper Collins, 1991), Chapter 3.

20. أعيد نشرها في كتاب بريجيد كينان الرائع Brigid Keenan, *Damascus, Hidden Treasures of the Old City* (Thames & Hudson, 2000).

21. جورج وليام كورتيس، نقلاً عن بريجيد كينان، المصدر نفسه، ص 91.

22. تبدأ جذور اليهودية والمسيحية والإسلام بالنبي إبراهيم، والد إسماعيل وإسحاق. وقد بنى إبراهيم وإسماعيل الكعبة في مكة، وهي المكان الذي يتوجّه إليه المسلمون في صلواتهم الخمس يومياً. وترمز الكعبة إلى مركز العالم عند المسلمين، وهي مكعّبة الشكل تقريباً، وكلمة كعبة تعني مكعّباً. ومن الشعائر الرئيسية في الحجّ والعمرة الطواف حول الكعبة. تمثّل الدائرة السماء والكعبة الأرض، وبالتالي فإن المرء يربط ما بين السماء والأرض.

23. وأعني بذلك جميع البشر، ذكوراً وإناثاً. ويشير استخدام لفظة إنسان إلى البشر لا إلى فرد معيّن.

24. Plato, *The Republic*, *Part Ten*, Penguin Classics, 1975.

25. من القول المأثور اللاتيني Pulchritudo splendor veritatis، وهي عبارة تنسب إلى أفلاطون الذي قال الأمر عينه في أماكن مختلفة وإن يكن بصيغ مختلفة. (أنا مدينة إلى روجر غايتاني من وورلد وزدُم بُكس لإيضاح ذلك لي).

26. إذا عُبد شيء لذاته فهو صنم.

27. هذا تحفّظ في التعبير! وأوضح الأمثلة على ذلك المسجد المركزي في ريجنتس بارك، لندن، الذي شيّد في الستينيات (1960نيات). ومن المثير للاهتمام أن المساجد التي بنيت في أواخر القرن التاسع عشر أو النصف الأول من القرن العشرين في أوروبا تمسّكت بالتصميم الإسلامي التقليدي وهي أبنية جذّابة. وثمة مثالان على ذلك، المسجد الرئيسي في باريس (يرجع إلى العشرينيات وبني على الطراز الشمال أفريقي التقليدي، وهو يضمّ أيضاً حديقة جميلة، انظر الشكل 23)، ومسجد شاهجهان في جنوب إنكلترا. ويرجع هذا المسجد، أقدم مسجد بني في أوروبا، إلى الثمانينيات (1880نيات) وهو على الطراز «المغولي المحدث» إذا جاز القول. ويجري الآن (صيف 2003) تنسيق المناظر الطبيعية المحيطة به وفقاً لمبادئ الحديقة الإسلامية. ويتطلّب إدراج موقف للسيارات وفق هذه المبادئ شيئاً من الخيال.

28. Russell Page, *The Education of a Gardener* (Penguin Edition, 1983), pp. 360-1.

29. Hassan Fathy, *Architecture for the Poor* (The American University of Cairo Press, 1989).

الفصل الأول

30. في أعقاب ذلك بقليل (نحو 1500 قبل الميلاد)، أصبحت الحديقة أيضاً رمزاً للحياة الآخرة عند المصريين القدماء الذين غالباً ما وضعوا نماذج للحدائق في قبورهم.

31. سورة الواقعة، 56: 28-30، وسورة البقرة، 2: 268.

32. سورة الكهف، 31: 18.

33. Vita Sackville-West, *Passenger to Tehran* نقلاً عن John Brookes in *Gardens of Paradise: A History and Design of the Great Islamic Gardens* (Weidenfeld and Nicholson, 1987), p. 13.

34. Titus Burckhardt, *Moorish Culture in Spain* (George D. W. Callwey, Munich, 1970). English translation by Alisa Jaffa, George Allen & Unwin, London, 1972), pp. 209-210.

35. Huston Smith, *The World's Religions* (Harper Collins, 1991), p. 236.

36. سورة السجدة، 32: 19.

37. على سبيل المثال، سورة الفرقان، 25: 15.

38. على سبيل المثال، سورة الواقعة، 56: 12.

39. على سبيل المثال، سورة السجدة، 32: 19.

40. على سبيل المثال، سورة الكهف، 18: 31.

41. على سبيل المثال، سورة الصفّ، 61: 12.

42. سورة الحجر، 15: 45.

43. من سورة الفاتحة التي يتلوها المسلمون عدة مرات في كل من الصلوات الخمس يومياً.

44. تأتي لفظة religion من اللاتينية *religio* بمعنى ربط، أي بالعالم السماوي.

45. Martin Lings, *The Quranic Doctrine of the Afterlife*, Lecture, The Thames Academy, London, March 1993؛ متوافرة على كاسيت من The Temenos Academy, The Prince's Foundation, London EC2.

46. سورة البقرة، 2: 38.

47. سورة الإنسان: 76: 13-20.

48. سورة النبأ: 78: 35؛ الغاشية، 88: 11؛ الواقعة: 56: 26.

49. سورة الحجر، 15: 47.

50. سورة الإنسان، 76: 13.

51. سورة الإنسان، 76: 21.

52. سورة الحجر، 15: 48

53. سورة الواقعة، 56: 20-21.

54. سورة الإنسان، 76: 15.

55. سورة الواقعة، 56: 19.

56. على سبيل المثال، سورة الحديد، 57: 12.

57. سورة الإنسان، 76: 21-22.

58. الصوفية هي البعد الروحاني للإسلام. انظر Martin Lings, *What is Sufism?* (Mandala, Unwin Paperbacks, 1981).

59. انظر الفصل الثاني و Martin Lings, *Symbol and Archetype, A Study of the Meaning of Existence* (Quinta Essentia, 1991), p. 67. وقد عرف الغزالي، العالم المسلم الكبير في القرن الحادي عشر الرمزية بأنها «علم العلاقة بين المستويات المتعدّدة والواقع».

60. انظر الحاشية 16.

61. انظر الحاشية 22.

62. سورة محمد، 47: 15:

63. سفر التكوين، 2: 10. انظر الفصل الثالث لمزيد من الشرح عن الرقم 4.

64. Titus Burckhardt, *Moorish Culture in Spain*، مرجع سابق، ص 209.

65. سورة الروم، 30: 21.

66. انظر كتاب المؤلفة «Underneath which Rivers Flow», The Symbolism of the Islamic Garden (The Prince's Foundation, 1996). للحصول على شرح واف لسورة الرحمن، انظر The Book of Certainty by Abu Bakr Siraj ad-Din (The Islamic Text Society, 1992) and Frihjof Schuon, *Islam and the Perennial Philosophy* (World of Islam Festival Publishing Company, 1976), chapter 12.

67. انظر الفصل الرابع ووصف راسل بيج لجادة جهار باغ في أصفهان في *The Education of a Gardener*، مرجع سابق، ص 222-3.

68. سورة الواقعة، 56: 25-26.

69. Huston Smith، مرجع سابق، ص 222.

70. سورة الكهف، 18: 32-42.

71. سورة الكهف، 18: 40

72. Washington Irving, *Tales of the Alhambra* (Ediciones Miguel sanchez, Granada, 1994), p. 130.

73. أشير إلى الحدائق العثمانية أيضاً باسم إرم باغي، أي حدائق الجنّة.

74. لم يؤدِّ التصدير الواسع النطاق للثقافة الغربية إلا مؤخّراً نسبياً إلى تنامي التشوّش في الحضارات التقليدية في العالم مثل الحضارات الإسلامية والهندية والبوذية، بالإضافة إلى الثقافات القبلية في أنحاء من أفريقيا.

75. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning* (World of Islam Festival publishing Company, 1976), p. 91.

76. D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania State University, 2000).

77. أدرك وليان موريس، الشخصية الرئيسية في حركة الفنون والحرف، ذلك جيداً. وما مبدؤه بأن كل ما في المنزل يجب أن يكون جميلاً ومفيداً إلا ترداد خافت للمنظور التقليدي.

78. القسم الأول من الشهادتين والركن الأول من أركان الإسلام الخمسة. والقسم الثاني من الشهادتين هو محمد رسول الله.

79. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning*، مرجع سابق، ص 46.

80. *Hamlet*, Act 1, Scene 2.

81. نقلاً عن *Gertrude Jekyll On Gardening, An Anthology*, edited by Penelope Hobhouse (Macmillan 1985), p. 23.

الفصل الثاني

82. بدأت كتب الرحلات الحديثة تشير إلى البيت الحضري ذي الفناء في المغرب باسم روضة، لكن ما ذكرته هو الروضة تقليدياً.

83. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals* (A. & C. Black, 1913), p.42.

84. حديقة تلّة الشمس مقابل قصر الحمراء في غرناطة، جنوب إسبانيا.

85. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning*، مرجع سابق، ص 75.

86. ينقل كتاب سلوسون David Slawson, *Secret Teachings in the Art of Japanese gardens* (Kodansha International, 1991) أهمية التمهّن والتأمّل في تعلّم فنّ تصميم الحديقة اليابانية. «على الطامح أن يكون مستعداً لإبلاغه أكثر من مرّة أن التمهّن التقليدي يفترض أن يستغرق خمس عشرة سنة – وتلك فترة طويلة تجعل أكثر الغربيين صبراً يتخلّون عن ذلك بيأس».

87. نقلاً عن Kenneth Clarke in *Piero della Francesca* (Phaidon, 1951), p. 1.

88. *The Concise Oxford Dictionary* (Oxford University Press, fifth edition, 1964), p. 981.

89. كتاب ابن عربي ، إنشاء الدوائر، *Book of the Description of the Encompassing Circles*, quoted by Keith Critchlow in Research Projects 1993 (The Prince of Wales' Institute of Architecture, 1993), p. 7.

90. John Harvey, *Medieval Gardens* (Batsford, 1981), p. 41.

91. المصدر نفسه.

92. أثير ذلك مؤخّراً عند قراءة ترجمة غير منشورة (ومقالة ستصدر لاحقاً في مجلة «دراسات في تاريخ الحدائق والمناظر الطبيعية المصمّمة»، مجلة *Journal of Garden History* سابقاً) للباحث والدبلوماسي Philip Watson, A Record of Famous Gardens of Luoyang وضعها لي غيفي Li Gefie في سنة 1095، وفيها كتب أن «ظهور هذه الحدائق وتراجعها يشير إلى ازدهار لويانغ (الصين) أو تراجعها». ويتابع المؤلّف القول، «ما إن يعيّن كبار الوزراء والمسؤولين حتى يتبعون أهواءهم ومصالحهم الشخصية ناسين الحكم الرشيد للعالم. وعندما يرغبون في التقاعد للاستمتاع بها هل سيقدرون على ذلك»؟

93. Ibn Luyun, Tratado, p. 171-5. Translated by James Dickie, «The Islamic Garden in Spain», in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976), p. 94.

94. Babur-Namah, *Memoirs of Babur* (Luzac, London, 1922).

95. نقلاً عن *Mugal Gardens*, *Sources*, *Palaces*, *Representations and Prospects*, edited by James Wescoat, Jr. and Joachim Wolscheke-Bulmahn (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1996), p. 176.

96. Peter Levi, *The Light Garden of the Angel King*, *Travels in Afghanistan* (Penguin, 1984), p. 39.

97. المصدر نفسه.

98. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mugals* (A&C Black, 1913), p. 68.

99. انظر Nurhan Atasoy، مرجع سابق، الفصل الثامن.

100. ترجمة غير منشورة لفيليب واطسون، مرجع سابق.

101. ينطبق ذلك على الحضارتين الهندية والبوذية.

102. مثل باليول ومرتون ويونفرستي كولدجز، وجميعها أنشئت في القرن الثالث عشر، ودراستها هي الفنون الحرّة السبعة (انظر الفصل الثالث) التي تدرّس باللاتينية.

103. نقلاً عن Sylvia Landsberg, *Medieval Gardens* (British Museum Press), p. 36.

104. إنجيلا لوقا، 23: 42-3.

105. انظر Sylvia Landsberg، مرجع سابق، ص 36-7.

106. Thomas Baskkerville, c. 1675, quoted in *The Oxford Book of Oxford*, Edited by Jan Morris, 1978, p. 74.

107. Maggie Campbell-Culver, *The Origin of Plants* (Headline, 2001), p. 34.

108. D. Fairchild Ruggles، مرجع سابق، الفصل الرابع.

109. نقلاً عن Plants, Gardens, and the Quran by A. K. Khan (Jasmina, Karachi, 2001).

110. John Harvey, *Medieval Gardens*، مرجع سابق، ص 40.

111. لا شك في أن هناك بعض الفناءات ذات النوافير، لكن لم يكن هناك نوافير أو برك في جميع الفناءات التي تفحّصناها.

112. نقلاً عن، (Martin Lings in *What is Sufism?* (Mandala, Unwin Paperbacks, 1981 .p. 49

113. Titus Burckhardt, *Moorish Culture in Spain*، مرجع سابق، ص 184. اعترف صديق لي أنه عند زيارة قصر الحمراء، دهش كثيراً في فناء الريحان بحيث إنه لم يزر فناء الأسود.

114. لا يسع المرء سوى التفكير في كتاب الأطفال الشهير *The Secret Garden* by Frances .(Hodgson Burnett (Puffin Classic, 1994

115. انظر، James Dickie, «The Islamic Garden in Spain» in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976), p.

116. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mugals*، مرجع سابق.

117. رودريغو كلارو، نقلاً عن «James Dickie, «The Islamic Garden in Spain، مرجع سابق، ص 97-8.

118. انظر على سبيل المثال John Brookes, *Garden Design Book* (Dorling Kindersley, .(1991

119. كتب المصمّم المعاصر جيل بلنغتون، «المصمّمون الجيّدون يحلّون المشاكل فضلاً عن أنهم مفسّرون خلاّقون»، (*The Garden*, vol. 128, part 2, Feb, 2003).

120. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mugals*، مرجع سابق، ص 79.

121. ثمة حديقتان مشهورتان في إنكلترا، الأولى من تصميم لورنس جونستون في بداية القرن العشرين، والثانية من تصميم فيتا وهارولد شاكفيل وست في الثلاثينيات (1930نيات).

122. من المثير للاهتمام أن وصف المخطط الأولي يبدو شبه إسلامي حيث هناك قناة تنقل الماء من البيت إلى بركتين قبل أن ينحدر إلى بركة أكبر في وسط المرج الدائري الذي يحيط به سياج من الطقسوس من جميع الجوانب.

123. George Dillistone, *The Planning and Planting of Little Gardens*, 1920, Quoted .in *The Castle Drogo Guidebook* (The NationalTrust, 2002), p. 29

124. هذه خلاصة مبسّطة جداً لشيء عميق جداً. رجاء، انظر الببليوغرافيا لقراءة المزيد عن المحتوى الروحاني لفن الإسلامي.

125. لاحظ أحد زائري فناء الأسود في سنة 1970: «في وسط البركة توجد نافورة الأسود الاثني عشر، وهي تبدو حازمة لكن أحدها على الأقل يبدو كئيباً من بسبب نباتات «البلدية» المعروضة أمامه». Jules Margottin, «Tour of gardens in Southern Spain» 7th–17th June 1974, *Journal .of Garden History*, vol. III, No. 1, Autumn, 1974, p.23

126. في The Garden of General MIAO، «هناك أكثر من عشرة آلاف خيزرانة يبلغ محيط كل منها شبرين أو ثلاثة، كأنها أعمدة من يشب أخضر مرقّش» نقلاً عن *A Record of Famous Gardens of Luoyang*، ترجمة غير منشورة أعدها فيليب واطسون، مرجع سابق.

الفصل الثالث

127. على سبيل المثال، يوجد في غاليري نهرو في متحف ڤيكتوريا وألبرت في لندن مشربيات حجرية منقوشة جميلة.

128. هناك استثناءات لذلك، لكن يبدو على العموم أن معظم الفنّ المعاصر ذاتي.

129. لمزيد من الأبحاث انظر، Robert Lawlor, *Sacred Geometry, Philosophy and Practice* (Thames and Hudson, 1982); Keith Critchlow, *Islamic Patterns, an Analytical and Cosmological Approach* (Thames and Hudson, 1976)، بالإضافة إلى مختلف الأطروحات غير المنشورة في دائرة الفن البصري الإسلامي والتقليدي (فيتا)، مؤسسة الأمير.

130. الستة الأخرى هي الحساب، والموسيقى، وعلم الفلك – التي تشكّل مع الهندسة العلوم الأربعة – والنحو، والمنطق، والبلاغة التي تشكّل العلوم الثلاثة.

131. إخوان الصفا. انظر S. H. Nasr, *An Introduction to Islamic Cosmological Doctrines* (Cambridge University Press, 1964).

132. Robin Waterfield, translator, *The Theology of Arithmetic* (Kairos, 1988), p. 56.

133. Titus Burckhardt, *Sacred Art in East and West* (Perennial Books, 1986), p. 7.

134. الثالوث المقدّس بالإضافة إلى «الهتافات الثلاثة» الأكثر دنيوية.

135. انظر الحاشية 31.

136. Titus Burckhardt, *Sacred Art in East and West* (Perennial Books, 1986), p. 18.

137. محي الدين بن عربي (1165–1240) المعروف بالشيخ الأكبر صفي كبير ومعلّم وكاتب ولد في مرسية في الأندلس واستقرّ فيما في ما بعد في دمشق ومات فيها.

138. انظر William L. Hanaway Jr., «Paradise on Earth: The Terrestrial Garden in Persian Literature», in in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976).

139. John Brookes in *Gardens of Paradise: A History and Design of the Great Islamic Gardens* (Weidenfeld and Nicholson, 1987).

140. من الأسباب الرئيسية لإنشاء برنامج الفنون البصرية الإسلامية والتقليدية (فيتا) في مؤسسة الأمير إحياء ممارسة الهندسة. ويجري حالياً إنشاء مؤسسات مماثلة في البلدان الإسلامية باستخدام فيتا كنموذج.

141. Keith Critchlow, *Islamic Patterns, an Analytical and Cosmological Approach* (Thames and Hudson, 1976); Issam el-Said, edited by Tarek El-Bouri and Keith Critchlow, *Islamic Art and Architecture, The System of geometric Design* (Garnet Publishing Ltd., 1993); and Robert Lawlor, *Sacred Geometry, Philosophy and Practice* (Thames and Hudson, 1982). وهناك أيضاً كتاب عملي أو اثنان في فيتا في مؤسسة الأمير.

142. يفصّل ذلك في كتابين رائعين، واحد كتبه William Slawson، مرجع سابق، و Infinite Spaces, *The Art and Wisdom of the Japanese Garden*, Introduction by Joe Earle, (Galileo Multimedia, 2001).

143. يشير كتاب Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، إلى العديد من الوثائق العثمانية الرائعة المتعلّقة بالحدائق والأشجار والنباتات والأزهار ويترجمها، لكنها كما أرى لا تحتوي على الكثير لتدريب البستاني. وهناك مجال لإجراء أبحاث مثيرة للاهتمام هنا.

144. انظر الحاشية 140.

145. احرص دائماً على أن يكون البلاط والأصص صامدة للصقيع. انظر القسم «الأصص والأوعية».

146. هناك تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله الحسنى في الإسلام، كل منها يشير إلى إحدى صفاته مثل الرحمن أو السلام أو القدوس.

147. انظر الحاشية 78. البسملة هي «بسم الله الرحمن الرحيم».

148. جعل محمد بن الأحمر، وهو أمير من بني نصر، هذه العبارة صيحة المعركة في أواسط القرن الثالث عشر.

149. المشربية حجاب من قدد خشبية مركّبة معاً، انظر قسم المشربية لاحقاً في هذا الفصل.

150. «الحديقة الأدبية» لإيان هاملتون فنلي قرب دنسير في لانكشير، اسكتلندا، مشهور بعدة قطع من الحروف المنقوشة في الحجر والخشب والمواد الأخرى التي تمثّل أقوالاً مختلفة. وكثير منها موضوع على الأرض، خلافاً لما يجب أن تكون عليه الحال في الحديقة الإسلامية.

151. سورة الرحمن، 55: 46.

152. سورة الواقعة، 56: 24.

153. سورة النمل، 27: 80

154. من كتاب *The Sayings of Muhammad*, translated and compiled by Sir Abdullah al-Mamun al-Suhrawardy (John Murray, 1992).

155. Dorothy Frances Gurney (1858-1932), *God's Garden*. وقد كان اسم إحدى الحدائق في معرض تشلسي للزهور 2003 بيتين من الشعر: «What is this life if, full of care/ We have no time to stand and stare?» (ما هذه الحياة إذا امتلأت بالهموم/ولم يعد لدينا وقت للوقوف والتأمّل) (من *Liesure* by W. H. Davies, 1870-1940).

156. تشير آن ماري شيمل Annemarie Schimmel في مقالتها «The Celestial Garden», in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976).

157. كتب جلال الدين رومي ما يماثل ذلك في كتابه Mathnawi IV: 1357, quoted by Annmarie Schimmel، مرجع سابق، ص 23، انظر الحاشية 158.

158. جلال الدين رومي عالم مسلم وشاعر وصوفي شهير ينحدر من فارس، لكنه استقرّ في قونيا في تركيا. أنشأ طريقة المولوية الصوفية التي اشتهرت برقصها الدائري الجميل وموسيقاها، وكلاهما دعامة لمسارها الروحاني.

159. إذا لم يكن المال عائقاً اليوم، يمكن نقل الموادّ من جميع أنحاء العالم، وتشاهد الأرضيات الرخامية الإيطالية من أبوظبي إلى لوس أنجلس.

160. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning* (World of Islam Festival publishing Company, 1976), p. 61.

161. يرجع إلى القرن التاسع عشر، وربما يكون منتون Minton أشهر صانع بلاط في إنكلترا. يوجد هذا البلاط في الكناس والبيوت في كل أنحاء المملكة المتحدة.

162. استخدمت المواد المتنوّعة المتوافرة اليوم لإحداث تأثير كبير في العديد من المدن في المملكة المتحدة وسائر أوروبا. وقد أضفت تحسيناً كبيراً على الأماكن العامة.

163. انظر الحاشية 141.

164. سورة الأنعام، 6: 2.

165. سفر التكوين، 2: 7.

166. علم السيمياء قديم ويفيد كأساس للتقاليد الروحانية المرتبطة بهيرمس العظيم والإله المصري ثوث. وتركّز السيمياء على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، ما يرمز إلى تحوّل النفس إلى روح.

167. فريثجوف شون Frithjof Schuon. هذا الاقتباس وما يليه في الفقرة مأخوذ من مقالته «The Principles and Criteria of Art», in *Castes and Races* (Perennial Books, 1982), Chapter III, pp. 61-88.

168. تجلّ الحدائق الصينية واليابانية الصخور والحجارة وتدرك جودتها العالية.

169. انظر الحاشية 127.

170. ستيفن غيرلاش من السفارة النمساوية، نقلاً عن Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 331.

171. الفيلد مارشال فون مولتكه عندما زار اسطنبول في سنة 1837، نقلاً عن Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 297.

172. انظر المنمنمة في Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 263.

173. المصدر نفسه، ص 304-5.

174. انظر لائحة العناوين المفيدة.

175. ستيفن غيرلاش من السفارة النمساوية، نقلاً عن Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 331.

176. يظهر استثناء لهذه القاعدة العامة في منمنمة عثمانية وردت في ستيفن غيرلاش من السارة النمساوية، نقلاً عن Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 53. والمنمنمة من كتاب «خمسة أتايي» Hamse-I Atayi، وهي بعنوان «وجبة في حديقة»، وهي تصوّر رجالاً يرتدون ثياباً أوروبية جالسين وهم يأكلون تحت مظلة خشبية مرتفعة تتشابك أوراق النباتات مع سقفها. ترجع المنمنمة إلى القرن الثامن عشر وتظهر التأثير الأوروبي الذي كان يتزايد بالتدريج يف ذلك الوقت.

177. Sylvia Landsbrg, *Medieval Gardens* (British museum Press), Chapter 2.

178. نقلاً عن Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals*، مرجع سابق، ص 67.

179. المصدر نفسه، ص 79.

180. على الرغم من رأي فيتا ساكفيل وست بأن رائحتها كريهة.

181. النار المنبعثة من الشمس رمز للروح.

182. الاقتباسان مأخوذان من Sajjad Kausar, Michael Brand, James, L. Wescoat Jr., *Shalimar Garden, Lahore, Landscape, Form and Meaning* (dept. of Archaeology and Museums, Ministry of Culture, Pakistan, 1990).

183. Flora Thopmpson, *Lark Rise to Candleford* (Penguin, 1973)، الثلاثية الشهيرة عن الحياة في ريف إنكلترا في الثمانينيات (1880نيات)، ص 422.

184. أجمل الأضواء وأبسطها وأقلها تكلفة تلك التي شاهدتها مؤخّراً هي مصابيح الحدائق المغربية المعلّقة على أعمدة خشبية، ويمكن تثبيتها في الأرض متى شئت، ويبلغ ارتفاعها 70 سم تقريباً. تتوافر هذه المصابيح عند الطلب بالبريد في حديقة سارة ريفن.

185. يكفي ملاحظة شجرة ميلاد بأسلاك الزينة ذات الأضواء ثم شجرة مضاءة بالشموع لإدراك مقدار عمق جمال الأخيرة مقارنة بالجمال السطحي للأولى. إن سحر الشموع المرتعشة يستحوذ على اهتمام الأطفال أكثر مما يفعله الضوء الكهربائي.

186. انظر Salley Storey, Lighting by Design (Pavilion, 2002). وهي تذكّرنا ألا نترك الشمع مشتعلاً من دون مراقبة.

187. انظر Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، الفصل 8.

188. نقلاً عن Sajjad Kausar, *Shalimar Garden, Lahore, Landscape, Form and Meaning*، مرجع سابق، الفصل 4، ص 74.

الفصل الرابع

189. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals*، مرجع سابق.

190. Huston Smith, *The World's Religions* (Harper Collins, 1991), p. 246.

191. على سبيل المثال، Philip Swindells, «Water Gardening», *The RHS Encyclopedia of Practical Gardening* (Mitchell Beazley, 2001); Anthony Archer-Wills, *The Water Gardener* (Frances Lincoln, 2000).

192. انظر الفصل الثاني و Andreas Wohlhasen, *Living Architecture, Islamic Indian* (Macdonald, 1970), p. 90.

193. كان صدام حسين يحب في الظاهر عرض «عضلاته» بإنشاء برك للسباحة في جميع قصوره العشرين.

194. كنت في جدة (المملكة العربية السعودية) مؤخّراً فأصبح الطقس غائماً ومكفهراً. أوضحت لي صديقتي التي تقيم هناك أن ذلك يعتبر أفضل طقس يحصلون عليه – حيث يريد الجميع أخذ إجازة في ذلك اليوم للتوجّه إلى الشاطئ!

195. يتطلّب ذلك إغلاق مفتاح المضخّة، لكن إذا كنت تشتبه فذ أن المواد التي لديك ليست صامدة للصقيع (تحقّق من ذلك دائما عند الشراء)، مثل بعض الرخام، فعندئذ يجب لفّ النوافير بأي شيء دافئ تستطيع إيجاد مثل بطانيات قديمة أو قشّ أو صوف وتغطيتها بقطعة من البلاستيك القوي وربطها بإحكام. لا يبدو ذلك جميلاً لكنه يوفّر عليك كثيراً من الكرب إذا ما جاء الصقيع شديداً.

196. التكوين، 1: 2.

197. سورة الأنبياء، 21: 30.

198. سورة فاطر، 35: 27.

199. سورة لقمان، 31: 10.

200. الأحقاف، 41: 39.

201. سورة مريم، 24-25.

202. عندما سأل أحد الصحابة النبي صلى الله عليه وسلّم هل يستطيع التصدّق عن أمه التي ماتت وأي الصدقة أفضل، قال: سقي الماء.

203. من المثير للاهتمام ملاحظة أن على المسلم التوضّؤ بماء جارٍ لا بماء راكد في حوض لأن الماء الجاري يطهّر نفسه. وكم من مرة سمعت أصدقائي المسلمين يشتكون من حنفيات الماء الباردة والساخنة المنفصلة في إنكلترا، ما يجعل من المتعذّر عليهم الوضوء من دون أن يتجمّدوا أو يحترقوا.

204. جون وسلي (1703-91)، من عظته رقم 93، *On Dress*. من المفارقة أنه عندما أعاد السيطرة على إسبانيا بالتدريج، حضّوا تباعهم المسيحيين عن الاغتسال كثيراً لأن الماء والاغتسال ارتبط بنظرهم بالمسلمين المرتبطين بالشهوة والشبق.

205. كتب طيطوس بيركهاردت في Titus Burckhardt, *Mirror of the Intellect* (Cambridge, Queen Essentia, 1987), p. 128 أن «النفس تشبه الماء مثلما تشبه الروح الريح أو الهواء».

206. انظر الحاشية 58.

207. Titus Burckhardt, *Moorish Culture in Spain* (George D. W. Callwey, Munich, 1970). English translation by Alisa Jaffa, George Allen & Unwin, London, 1972), pp. 208.

208. أبلغت مؤخّراً أن هناك قول في الهندية بأن كل من ينظر إلى جبال هملايا يتطهّر من خطاياه: هذه هي القوة التطهيرية للطبيعة في أعظم أشكالها.

209. Titus Burckhardt, *Mirror of the Intellect*، مرجع سابق، ص 128.

210. لا يسعنا إلا التفكير بمكبث الذي كانت خطيئته عظيمة جداً بحيث عجز محيط نبتون العظيم عن تطهير يده من الدم (الفصل II: II)

211. رسالة بولس إلى الكورنيثيين، 4: 18.

Noble Ross Reat, *The Tree Symbol in Islam* (Studies in Comparative Religion, .212
.summer 1975), p. 178

213. نقلاً عن المصدر نفسه، ص 179.

214. الأخضر هو لون الإسلام ويرجع ذلك إلى حدٍّ كبير لوروده عدة مرات في وصف الجنّة ي القرآن.

215. سورة المطففين، 83: 27.

216. سورة الإنسان، 76: 18.

217. انظر Abu Bakr Siraj ad-Din, *The Book of Certainty* (The Islamic Text Society, 1992؛ وكتاب المؤلفة كتاب المؤلفة *«Underneath which Rivers Flow», The Symbolism of the Islamic Garden* (The Prince's Foundation, 1996).

218. من الممكن مشاهدة مزيد من الأمثلة في المتحف الإسلامي في القاهرة.

219. انظر Yasser Tabbaa, «Towards an Interpretation of the Use of Water in Islamic Courtyards and Courtyard Gardens», *Journal of Garden History*, Vol., 7, No, .3. p. 205

220. نقلاً عن ياسر طباع، المصدر نفسه، ص 205.

221. Macbeth, Act V:I.

222. Russel Page، مرجع سابق، ص 224.

223. المصدر نفسه.

224. يمكن أن تذكر هنا حدائق مغولية أخرى كبيرة في كشمير مثل حدائق أتشابال بنوافيرها العديدة نيشات باغ (حديقة السعادة) التي تتركّز حول الماء الذي يربط بين مستويات مختلفة.

225. Sajjad Kausar, Michael Brand, James, L. Westcaot Jr., *Shalimar Garden*، مرجع سابق، ص vi.

226. على سبيل المثال، سورة الصف، 61: 12. انظر الفصل الأول للاطلاع على تفسير لهذه الآية.

227. Russel Page، مرجع سابق.

228. Chris Stewart, *Driving Over Lemons* (Sort Of Books, 1999), pp. 112-3.

229. انظر Francisco Prieto Moreno, *Los Jardines de Granada* (Arte de Espana, 1983).

230. Titus Burckhardt, *Moorish Culture in Spain*، مرجع سابق، الفصل 12.

231. هناك أريكتان جلديتانٍ وثيرتان عند طرفي الفناء وأنا أنصح الزائر بالجلوس على إحداهما عند أول فرصة والبقاء جالساً لمدة ساعة أو نحو ذلك – عندئذ فقط يبدأ مفعول الحديقة ويتلاشى الزوّار في الخلفية.

232. Washington Irving المؤلف الأميركي لكتاب *Tales of the Alhambra* (Ediciones Miguel Sanchez, Granada, 1994).

233. المصدر نفسه.

234. المصدر نفسه.

235. المصدر نفسه.

236. انظر Richard Fletcher, Moorish Spain (University of California Press, 1992)، p. 66. ويتابع قائلاً، «هذا ما تخبرنا به مصادرنا. ربما كانت الأرغفة صغيرة جداً».

237. John Harvey, «Spanish Gardens in their Historical Background», *Journal of Garden History*, Vol, 3, No, 1. Autumn 1974, p. 7-14.

238. نقلاً عن D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania State University, 2000), p. 31.

239. نقلاً عن *Rough Guide to Morocco*, 1994.

240. Brigid Keenan, *Damascus, Hidden Treasures of the Old City* (Thames & Hudson, 2000).

241. نقلاً عن المصدر نفسه.

242. نقلاً عن المصدر نفسه.

243. نقلاً عن المصدر نفسه.

244. Russel Page، مرجع سابق.

245. نقلاً عن Arthur Upham Pope, *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present* (Oxford University Press, firs published 1938) vol. VI. من المثير للاهتمام كثرة عدد الرحّالة الذين يتحدّثون عن «الصهاريج»، التي نميل اليوم إلى ربطها بشيء يؤدي وظيفة مهمة لكن ليس له صلة بالجمال. على سبيل المثال ، حوض سمك، أو خزان نفط، أو حتى خزّان ماء. وبخزان الماء نعني عادة وعاء كبيراً معدنياً أو بلاستيكياً لا تنظر إليه عادة بأنه ينمّ عن جمال. ويتحدّث هربرت أيضاً عن نوع من السرادقات بأنه «معتّق». ويفترض أن ذلك يعني أنهم جعلوا السرادق يبدو كأنه قائم منذ سنوات، مثلما يعتّق بعض بائعي التحف مقتنياتهم قبل إضافة بعض الأصفار إلى سعرها.

246. انظر الحاشية 190.

247. لكن ما من شك في أن النوافير التي تعمل بالجاذبية تستطيع أن تقذف الماء بقوة. وقد صمّم باكستون نافورة الإمبراطور لدوق ديفونشاير في تشاتسوورث في الأربعينيات (1840نيات) وكانت تقذف الماء إلى ارتفاع 260 قدماً. انظر Kate Colquhourn, *A Thing in Disguise: The Visionary Life of Joseph Paxton* (Fourth Estate, 2003), p. 103.

248. استخدمت فكرة جريان حجاب رقيق من الماء على حجر في النافير المركّبة مؤخّراً في فناء أكاديمية الفنون الملكية في لندن. وهي تعمل بصورة جيدة جداً لكن الطقس بارد ورطب في معظم أوقات السنة والماء يزيد من ذلك.

249. نقش أحد خريجينا في فيتا، مؤسسة الأمير، على قطعة رخام شادورواً لنيل شهادته وعرضه في المعرض والماء يجري فوقه. وقد بدا جميلاً لمنه سيبدو أجمل بكثير في مكانه في الحديقة.

250. على الرغم من أن عمق رمزية حدائق الشرق الأقصى مماثل لرمزية الحدائق الإسلامية، فإن إدراك الحقيقة الخفية التي تقم عليها كافة الظواهر والتعبير عنها مختلف. ويرجع ذلك إلى الاختلافات المعقّدة والعميقة في المنظور، وهو أمر ليس لدينا الحيّز الكافي لنظر فيه هنا. رجاء الرجوع إلى الببليوغرافيا المختارة.

251. ثمة حديقة أخرى ملهمة للوتيان وجكل ذات قنوات على الطريقة الإسلامية في سوننغ بيركشاير.

252. BBC 2 Horizon programme, *The Quest for El Dorado*, 19 December 2002.

253. Mohammad Asad, The Road to Makkah (Islamic Book Service, New Delhi, 1994) نقلاً عن Saudi Aramco World, Jan/Feb 2002, p. 27.

الفصل الخامس

254. *Poems from the Persian*, translated by J. C. E. Bowen (Blackwell, Oxford, 1958), p. 53.

255. توجد الأسماء الكاملة لهذه الأشجار والشجيرات ومزيد من التفاصيل عنها لاحقاً في الفصل.

256. ثمة قول شهير جداً في الإسلام «الزواج نصف الدين» [ورد ما يشبه ذلك في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلّم، «إذا تزوج العبد فقد استكمل نصف الدين»، ويقال إن النصف الثاني هو الصبر والجَلَد.

257. Richard Bisgrove and Paul Hadley, *Gardening in the Global Greenhouse: Climate Change and gardens*, 2002.

258. John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain». *Journal of Garden History*, Vol, 3, No, 2. 1975, pp. 10-21.

259. انظر Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan, Gardens and Flowers in Ottoman Culture*، مرجع سابق.

260. كريتوڤولوس Kritovoulos نقلاً عن Andrew Wheatcroft, *The Ottomans, Dissolving Images* (Penguin, 1993), p. 27.

261. نقلاً عن Annemarie Schimmel, «The Celestial Garden»، مرجع سابق.

262. الورود في قصر الحمراء وجنة العريف مثلاً تبدو بمعظمها هجائن حديثة. إذا استبدلت بها ورود من أجناس منشؤها الشرق الأدنى (مثل الورد الدمشقي)، فستبدو الحدائق أقرب إلى ما كانت عليه بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، فضلاً عن أنها ستبدو أجمل. الورود «القديمة» ذات جمال رائع ورائحة أشدّ من الورود الهجينة الحديثة ذات الألوان الزائفة والنورات الكبيرة. انظر الفصل السادس.

263. سورة الرحمن، 55: 12.

264. انظر الحاشية 16.

265. John Harvey, *Medieval Gardens*، مرجع سابق: «خلافاً لليونانيين الذين دمّروا حقول أبناء جلدتهم اليونانيين الذي يتحاربون معهم، وقطعوا بساتين زيتونهم، حرص المسلمون على تجنّب الدمار وأعادوا السلام والحكم والازدهار إلى البلاد التي فتحوها بأسرع ما يمكن»، ص 37.

266. انظر الفصل الثاني، الحاشية 109.

267. Noble Ross Reat, *The Tree Symbol in Islam* (Studies in Comparative Religion, summer 1975), pp. 164-82.

268. هذه شجرة دائمة الخضرة يصل ارتفاعها إلى 15 متراً، ذات أغصان وأشواك مائلة إلى الأبيض. تشيع زراعتها في مصر لخشبها وثمرها الذي يؤكل. ويقال إن تاج الشوك الذي وضع على رأس المسيح صنع من أغصانها الشائكة، ومن ثم اسمها *spina christi*، أي أشواك المسيح.

269. انظر Abu Bakr Siraj ad-Din, *The Book of Certainty* by (The Islamic Text Society, 1992), Chapter 2؛ انظر أيضاً M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran* (Sidrah Publishers, Lucknow, 1997).

270. المزامير، 114: 16.

271. ابن حنبل، نقلاً عن Noble Ross Reat, *The Tree Symbol in Islam*، مرجع سابق.

272. المصدر نفسه.

273. سورة إبراهيم، 14: 24-25.

274. Martin Lings, *The Quranic Doctrine of the Afterlife*، مرجع سابق، الفصل 7.

275. سورة إبراهيم، 14: 26.

276. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق.

277. سورة مريم، 19: 22-25.

278. Maggie Campbell-Culver, *The Origin of Plants* (Headline, 2001), pp. 24-5.

279. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق، حيث يضيف الكاتب أن هناك في اليونان القديمة قوماً يقال لهم «المرشدين إلى التين» الذين يقدّمون معلومات عن أماكن وجود التين، *sukophantai*، التي أصبحت في الإنجليزية «sycophant»، أي متزلّف.

280. هناك عينة رائعة من تين البنغال في حدائق قصر المنيل بالقاهرة.

334. Jules Margottin, «Tour of Gardens in Southern Spain», *Journal of Garden History*, Vol. 3, No. 1, Autumn 1974, p. 15ff.

335. الموضة الرائجة مؤخّراً في البستنة «الغربية» هي مزج الخضراوات مع نباتات الزينة في تصميم هندسي إسلامي إلى حدٍّ ما. والحديقة ذات السور المرتفع في هايغروف مثال جيد على ذلك. وثمة مثال آخر هو حديقة الخضراوات في روزمور، حديقة جمعية البستانيين الملكيين في شمال ديفون – وفي هذه الحالة يوجد تعريشة مغطاة بالورود في الوسط بدلاً من النافذة.

336. تبيّن الأدلة أن ذلك آخذ في التغيّر ببطء إذ إن شتاءاتنا لم تعد باردة وقلّ صقيعها، على الرغم من أنها لا تزال رطبة. انظر «تغيّر المناخ» في الفصل الخامس.

337. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق، ص 338.

338. أخبرني بعض الأصدقاء مؤخّراً كيف أنهم اختاروا مجموعة من أقوى الأزهار والورود رائحة من حديقتهم عندما كانوا ينتظرون زيارة من سيدة فارسية. وعندما وصلت، علّقت على جمالها واستنشقتها وقالت، «من المؤسف أنها تفتقر إلى الرائحة. في بلدنا تتمتّع جميع الأزهار برائحة قوية».

339. انظر «John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain، مرجع سابق، ص 10-12.

340. انظر Ralph Pinder-Wilson, «The Persian Garden» in *The Islamic Garden*، مرجع سابق، ص 82.

341. المقّري، الجزء الأول: 304، نقلاً عن D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania State University, 2000), p. 17

342. نقلاً عن Elizabeth Moynihan, «But what a happiness to have known Babur», in *Mugal Gardens*, edited by James Wescoat, Jr. and Joachim Wolschcke-Bulmahn (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1996), p. 123.

343. نقلاً عن Andrew Wheatcroft, *The Ottomans, Dissolving Images* (Penguin, 1993)، ويضيف ويتكروفت ملاحظة كئيبة عن السلطان محمد الذي لم يمنعه حبه للحدائق الإقدام على أعمال وحشية.

344. يفصّل ذلك لاحقاً في الفصل.

345. كلاهما نقلاً عن Donald Newton Wilber, «Persian Gardens and Garden Pavilions», in *The Islamic Garden*، مرجع سابق، ص 16-17.

346. انظر Andrew Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World (Cambridge University Press, 1983), Chapter 22.

347. السير توماس هربرت نقلاً Arthur Upham Pope, *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present* (Oxford University Press, firs published 1938) vol. VI. انظر Penelope Hobhouse, *Gardens of Persia* (Cassell 2003) للاطلاع على وصاف حديثة للحدائق الفارسية

348. نقلاً عن «Donald Newton Wilber, «Persian Gardens and Garden Pavilions، مرجع سابق، ص 6.

349. انظر James Dickie, «The Islamic Garden in Spain», in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976).

350. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق، ص 328.

257. Richard Bisgrove and Paul Hadley, *Gardening in the Global Greenhouse: Climate Change and gardens*, 2002.

258. John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain». *Journal of Garden History*, Vol, 3, No, 2. 1975, pp. 10-21.

259. انظر Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan, Gardens and Flowers in Ottoman Culture*، مرجع سابق.

260. كريتوڤولوس Kritovoulos نقلاً عن Andrew Wheatcroft, *The Ottomans, Dissolving Images* (Penguin, 1993), p. 27.

261. نقلاً عن «Annemarie Schimmel, «The Celestial Garden، مرجع سابق.

262. الورود في قصر الحمراء وجنة العريف مثلاً تبدو بمعظمها هجائن حديثة. إذا استبدلت بها ورود من أجناس منشؤها الشرق الأدنى (مثل الورد الدمشقي)، فستبدو الحدائق أقرب إلى ما كانت عليه بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر، فضلاً عن أنها ستبدو أجمل. الورود «القديمة» ذات جمال رائع ورائحة أشدّ من الورود الهجينة الحديثة ذات الألوان الزائفة والنورات الكبيرة. انظر الفصل السادس.

263. سورة الرحمن، 55: 12.

264. انظر الحاشية 16.

265. John Harvey, *Medieval Gardens*، مرجع سابق: «خلافاً لليونانيين الذين دمّروا حقول أبناء جلدتهم اليونانيين الذي يتحاربون معهم، وقطعوا بساتين زيتونهم، حرص المسلمون على تجنّب الدمار وأعادوا السلام والحكم والازدهار إلى البلاد التي فتحوها بأسرع ما يمكن»، ص 37.

266. انظر الفصل الثاني، الحاشية 109.

267. Noble Ross Reat, *The Tree Symbol in Islam* (Studies in Comparative Religion, summer 1975), pp. 164-82.

268. هذه شجرة دائمة الخضرة يصل ارتفاعها إلى 15 متراً، ذات أغصان وأشواك مائلة إلى الأبيض. تشيع زراعتها في مصر لخشبها وثمرها الذي يؤكل. ويقال إن تاج الشوك الذي وضع على رأس المسيح صنع من أغصانها الشائكة، ومن ثم اسمها *spina christi*، أي أشواك المسيح.

269. انظر Abu Bakr Siraj ad-Din, *The Book of Certainty* by (The Islamic Text Society, 1992), Chapter 2؛ انظر أيضاً M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran* (Sidrah Publishers, Lucknow, 1997).

270. المزامير، 114: 16.

271. ابن حنبل، نقلاً عن Noble Ross Reat, *The Tree Symbol in Islam*، مرجع سابق.

272. المصدر نفسه.

273. سورة إبراهيم، 14: 24-25.

274. Martin Lings, *The Quranic Doctrine of the Afterlife*، مرجع سابق، الفصل 7.

275. سورة إبراهيم، 14: 26.

276. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق.

277. سورة مريم، 19: 22-25.

278. Maggie Campbell-Culver, *The Origin of Plants* (Headline, 2001), pp. 24-5.

279. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق، حيث يضيف الكاتب أن هناك في اليونان القديمة قوماً يقال لهم «المرشدين إلى التين» الذين يقدّمون معلومات عن أماكن وجود التين، *sukophantai*، التي أصبحت في الإنجليزية «sycophant»، أي متزلّف.

280. هناك عينة رائعة من تين البنغال في حدائق قصر المنيل بالقاهرة.

281. سفر التكوين 3: 7.

282. نقلاً عن ابن القيم الجوزية، **الطب النووي**، *Medicine of the Prophet*, translated by Penelope Johnstone (Islamic Texts Society, 1998), p. 227.

283. سورة النور، 24: 35.

284. انظر *M. Iqtedar H. Farooqi, Plants of the Quran*، مرجع سابق، ص 49-54.

285. Noble Ross Reat، مرجع سابق.

286. التكوين 8: 11، وسورة الأعراف، 7: 59-64. لم يرد ذكر الحمامة في الرواية القرآنية عن الطوفان.

287. F. Nigel Hepper, Illustrated Encyclopedia of Bible Plants (Three's Company, 1992), p.108.

288. نقلاً عن ابن القيم الجوزية، **الطب النووي**، *Medicine of the Prophet*, p. 227.

289. انظر Clive Simms, «Olives al Fresco», *The Garden*, Vol. 127, Part 6, June, 2002, pp. 444-5.

290. المصدر نفسه.

291. لاحظت مؤخّراً (آذار/مارس 2003) أنهم جرّبوا في حدائق كيو ترك هذا الضرب المستنبت في الخارج في الشتاء عند حدٍّ مواجه للجنوب إلى جانب جدار من الطوب لكنه لم يعمّر للأسف.

292. المرتان الأخريان في سورة الأنعام، 6: 99 و141.

293. انظر Abu Bakr Siraj ad-Din, *The Book of Certainty*، مرجع سابق.

294. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق، ص 65.

295. المقّري، الجزء الأول: 351، نقلاً عن D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania State University, 2000), p. 17.

296. Russell Page, *The Education of a Gardener*، مرجع سابق.

297. العالم الإسلامي (دار الإسلام) يتغيّر على الدوام وذلك من أسباب وضع هذا الكتاب، أي المشاكل التي تواجهها الثقافات الإسلامية التقليدية الاستقرار في العالم الغربي غير التقليدي.

298. يشاهد مثال مدهش على شجرة شرقية في هام هاوس في ريتشموند، خارج لندن، حيث تعيش أقدم عيّنة مزروعة في إنكلترا. وهي ترجع إلى السبعينيات (1770نيات) وتبدو رائعة.

299. سورة الواقعة، 56: 30، وسورة الرحمن، 55: 48.

300. انظر ص 183 و Annemarie Schimmel, «The Celestial Garden»، مرجع سابق.

301. Hilliers' *Manual of Trees and Shrubs* (David & Charles, 1974).

302. العيب الوحيد أن اليوكريفيا ليست كثيفة جداً كما يرغب المرء في الحديقة لإسلامية.

303. انظر افصل السادس للاطلاع على رمزية الأشجار والأزهار في قصة ليلى والمجنون. السرو رمز أيضاً للحياة الأبدية ويمثّل أحياناً امرأة نحيلة ورشيقة. Norah M. Titely, *Plants and Gardens in Persian Mughal and Turkish Art* (The British Library, 1979), p. 6, 299.

304. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals*، مرجع سابق، ص 87-8.

305. وفقاً للاختصاصيين في أشجار الفاكهة التزيينية، اللوز شديد التعرّض لمرض «التفاف ورقة الخوخ» ولذلك أصبح أقل شهرة مما كان عليه في السابق.

306. سورة الواقعة، 56: 20.

307. سورة الرحمن، 55: 54.

308. انظر John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق.

309. أسميت كذلك إذ كان يعتقد أنها جاءت من فارس، مع أنه اكتُشف في القرن التاسع عشر أنها تنمو في البرية في الصين.

310. ثمة مشتل في غرب إنكلترا، ثورنهايز Thornhayes، متخصص في الضروب المحلية من الأشجار المثمرة.

311. Maggie Campbell-Culver، مرجع سابق.

312. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق.

313. قبل الاستثمار في أصص صلصالية كبيرة تزرع فيها أشجار البرتقال والليمون، تذكّر أنها بحاجة إلى النقل مرتين في السنة من مكانهما الشتوي إلى موقعهما الصيفي والعكس. وأفضل طريقة لنقلها استخدام عربة ذات دولابين.

314. سورة الواقعة: 56: 29.

315. سورة البقرة، 2: 266.

316. نقلاً عن M. M. Pickthall، في تفسيره للقرآن، مرجع سابق.

317. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*، مرجع سابق.

318. انظر Martin Lings, *The Quranic Doctrine of the Afterlife*، مرجع سابق، ص 255.

319. سورة سبأ، 34: 16.

320. سورة البقرة، 2: 57.

321. انظر سورة النبأ، 78: 31.

322. ينبت في فناء قصر هامبتون، خارج لندن، ما يقال أنها أقدم كرمة معروفة في العالم. وقد زرعها «كيبَبلتي» براون في سنة 1768 وأصبح طولها الآن 120 قدماً ومحيطها 5 أقدام.

323. تسمى كذلك إذ يقال بأن يهوذا شنق نفسه على هذه الشجرة، وتمثل الأزهار القرنفلية الغامقة التي تظهر قبل الأوراق في الربيع دمه، أو يقول بعضهم دم المسيح الذي خانه. ويقول آخرون إنها شجرة يهوذا فحسب.

324. للمهتمين بالهندسة، تتميّز العنبات الحمراء لغبيراء الحابلين بقاعدتها النجمية الخماسية الرؤوس. ويرتبط الرقم خمسة عادة بجسم الإنسان، إذ يضمّ أربعة أطراف ورأس.

325. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق، ص 305.

326. Jane Austin, *Mansfield Park* (Penguin edition, 1996), pp. 47-8.

327. *Poems from the Persian*, translated by J. C. E. Bowen (Blackwell, Oxford, 1958), p. 55.

328. تذكّر أن جميع أجزاء الدفلى سامّة، لذا من الأفضل تجنّبها إذا كان هناك أطفال.

329. انظر John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق.

330. انظر Nurhan Atasoy، مرجع سابق، الفصل 8.

الفصل السادس

331. *Poems from the Persian*، مرجع سابق، ص 47. وأنواري شاعر فارسي مشهور بمهارته في نظم القصائد أو الأناشيد الصوفية.

332. Russell Page, *The Education of a Gardener*، مرجع سابق، ص 90.

333. المصدر نفسه.

334. Jules Margottin, «Tour of Gardens in Southern Spain», *Journal of Garden History*, Vol. 3, No. 1, Autumn 1974, p. 15ff.

335. الموضة الرائجة مؤخّراً في البستنة «الغربية» هي مزج الخضراوات مع نباتات الزينة في تصميم هندسي إسلامي إلى حدٍّ ما. والحديقة ذات السور المرتفع في هايغروف مثال جيد على ذلك. وثمة مثال آخر هو حديقة الخضراوات في روزمور، حديقة جمعية البستانيين الملكيين في شمال ديفون – وفي هذه الحالة يوجد تعريشة مغطاة بالورود في الوسط بدلاً من النافذة.

336. تبيّن الأدلة أن ذلك آخذ في التغيّر ببطء إذ إن شتاءاتنا لم تعد باردة وقلّ صقيعها، على الرغم من أنها لا تزال رطبة. انظر «تغيّر المناخ» في الفصل الخامس.

337. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق، ص 338.

338. أخبرني بعض الأصدقاء مؤخّراً كيف أنهم اختاروا مجموعة من أقوى الأزهار والورود رائحة من حديقتهم عندما كانوا ينتظرون زيارة من سيدة فارسية. وعندما وصلت، علّقت على جمالها واستنشقتها وقالت، «من المؤسف أنها تفتقر إلى الرائحة. في بلدنا تتمتّع جميع الأزهار برائحة قوية».

339. انظر John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق، ص 10-12.

340. انظر Ralph Pinder-Wilson, «The Persian Garden» in *The Islamic Garden*، مرجع سابق، ص 82.

341. المقّري، الجزء الأول: 304. نقلاً عن D. Fairchild Ruggles, *Gardens, Landscape and Vision in the Palaces of Islamic Spain* (Pennsylvania State University, 2000), p. 17

342. نقلاً عن Elizabeth Moynihan, «But what a happiness to have known Babur», in *Mugal Gardens*, edited by James Wescoat, Jr. and Joachim Wolschecke-Bulmahn (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1996), p. 123.

343. نقلاً عن Andrew Wheatcroft, *The Ottomans, Dissolving Images* (Penguin, 1993)، ويضيف ويتكروفت ملاحظة كئيبة عن السلطان محمد الذي لم يمنعه حبه للحدائق الإقدام على أعمال وحشية.

344. يفصّل ذلك لاحقاً في الفصل.

345. كلاهما نقلاً عن Donald Newton Wilber, «Persian Gardens and Garden Pavilions», in *The Islamic Garden*، مرجع سابق، ص 16-17.

346. انظر Andrew Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World (Cambridge University Press, 1983), Chapter 22.

347. السير توماس هربرت نقلاً Arthur Upham Pope, *A Survey of Persian Art from Prehistoric Times to the Present* (Oxford University Press, firs published 1938) vol. VI. انظر Penelope Hobhouse, *Gardens of Persia* (Cassell 2003) للاطلاع على وصاف حديثة للحدائق الفارسية

348. نقلاً عن Donald Newton Wilber, «Persian Gardens and Garden Pavilions»، مرجع سابق، ص 6.

349. انظر James Dickie, «The Islamic Garden in Spain», in *The Islamic Garden*, edited by E. B. Macdougall and R. Ettinghausen (Dumbarton Oaks Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976).

350. نقلاً عن Nurhan Atasoy، مرجع سابق، ص 328.

351. نقلاً عن Jane Brown, The Pursuit of Paradise (Harper Collins, 1999), p. 37.

352. انظر Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، للاطلاع على بحث رائع عن الحدائق العثمانية.

253. المصدر نفسه، ص 46، نقلاً عن مراقبان أوروبيان للحياة في اسطنبول في القرن السادس عشر.

354. نقلاً عن Sylvia Landsberg, *Medieval Gardens*، مرجع سابق.

355. يشير طيطوس بيركهارت إلى نفسه، انظر Titus Burckhardt, *Sacred Art in East and West* (Perennial Books, 1986), pp. 103-4.

356. هناك تسعة وتسعون اسماً من أسماء الله الحسنى في الإسلام، كل منها يشير إلى إحدى صفاته مثل الرحمن أو السلام أو القدوس.

357. على سبيل المثال، على الرغم من أن الأيقونات ترسم صوراً للإنسان، وهو أمر ينهى عنه الإسلام، فإنها ليست طبيعية لكنها شكلية ورمزية. ولم ترسم مريم العذراء كإنسانة إلا في القرن السادس عشر وبالتالي أنزلت إلى مستوانا.

358. انظر Sylvia Landsberg, *Medieval Gardens*، مرجع سابق.

359. سمع ذلك زميل في مؤتمر عن الفن الديني في طهران في سنة 1993.

360. Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 63.

361. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals* (A. & C. Black, 1913), pp. 149-50.

362. انظر Annemarie Schimmel, «The Celestial Garden»، مرجع سابق، للاطلاع على تفسير أشمل وأجمل لرمزية الورود في الإسلام.

363. المصدر نفسه.

364. لا شك في أن العثمانيين تخصصوا في ربط العمامات الغريبة.

365. وثّق ذلك في كتاب Anna Pavord, The Tulip (Bloomsbury, 1999)، وقد حظيت هذه الزهرة بشهرة غير مسبوقة وأصبح ذات قيمة نقدية في جميع أنحاء أوروبا.

366. أبو طالب كليم، وهو شاعر فارسي في بلاط شاهجهان، نقلاً عن Annemarie Schimmel, «The Celestial Garden»، مرجع سابق.

367. نقلاً عن المصدر السابق.

368. Constance Villiers Stuart, *Gardens of the Great Mughals* (A. & C. Black, 1913), p. 88.

369. نقلاً عن Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، ص 311.

370. المصدر نفسه، ص 312.

371. المصدر نفسه، ص 27.

372. Flora Thopmpson, *Lark Rise to Candleford*، مرجع سابق، ص 115.

373. أصبح ذلك شائعاً جداً في السنوات القليلة الماضية، ومن الأمثلة الشهيرة على ذلك حدود الحديقة التي فازت بجائزة «لعرض الأفضل» في معرض تشلسي للزهور 2000، وصمّمها آرن ماينارد وبايت آوتدولف.

374. Lord Northbourne, «Flowers», in *Seeing God Everywhere, Essays on Nature and the Sacred*, edited by Barry Macdonald (World Wisdom, 2002), pp. 279-95.

375. ثمة حاجة إلى إجراء مزيد من الأبحاث في هذا المجال لمتابعة عمل هارفي المهمّ.

376. *RHS Plant Finder*, devised by Chris Philip, principal editor Tony Lord, (Dorling Kindersley, 2002-2003).

377. سورة الرحمن، 55، التي أشير إليها سابقاً تضمّ أطول وصف لجنة في القرآن.

378. Martin Lings in *What is Sufism?* (Mandala, Unwin Paperbacks, 1981), p. 56.
يضيف المؤلّف حاشية بأن «قرّة العين» تعبير اصطلاحي عربي يعني المتعة الكبيرة.

379. على الرغم من ذلك أصبح متوافراً على نطاق واسع منذ الستينيات (1960نيات)، وأن يكن على شكل أعواد بخور مخفّفة جداً، فإنها لا تزال تشبه البخور الحقيقي قليلاً. وثمة صديقة سعودية متخصّصة في صنع بخورها من أجود أنواع المكوّنات بما في ذلك خشب الصندل المنقوع بزيت الياسمين. وينقلك إحراقه في البيت أو الحديقة إلى عالم سماوي.

380. على سبيل المثال، Sylvia Landsberg, *Medieval Gardens*، مرجع سابق؛ وJekka McVicar, *New Book of Herbs* (Dorling Kindersley, 2002).

381. يكشف كتاب Nurhan Atasoy, *A Garden for the Sultan*، مرجع سابق، عن معلومات مدهشة من المصادر التركية لكن ثمة مجال كبير للباحث العربي والإيراني.

382. انظر M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran*. مرجع سابق، و-Ibn Qayyim al-Jawziyya, *Medicine of the Prophet*, translated by Penelope Johnstone (Islamic Texts Society, 1998).

383. دير باكفست في ديفون، جنوب غرب إنكلترا، من الأمكنة الجيدة لملاحظة كثير من الأنواع المختلفة للخزامى، بالإضافة إلى الأعشاب الأخرى.

384. Roy Garders, *Flowers and Herbs* (Darton, Longman and Todd, 1978).

385. H. G. Witham Fogg, Geranium Growing (W. & G. Foyle, 1955).

386. انظر. John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain». *Journal of Garden History*، مرجع سابق.

387. تأتي كلمة salvia من اللاتينية salvere وتعني «يشفي»، وتأتي عبارة «wise old sage» (عجوز حكيم) من أن المريمية sage تهدّئ التوتّر العقلي، وثمة اختبارات مثيرة للاهتمام تجرى عليها كعلاج لمرض ألزهايمر.

388. أفاد أحد كتب الأعشاب أن «سيدة من ترنت كادت... تنهار من الضحك الشديد لمدة ثلاث ساعات، وأن ذلك نجم عن تناولها كثيراً من الزعفران». نقلاً عن Alice Coats, *Flowers and their Histories* (Ebury Press, 1999). ويقال إنه يلوم 4300 زهرة للحصول على أونصة من الزعفران. ولفظة saffron مأخوذة من كلمة زعفران العربية، وثمة دير سرياني في جنوب شرق تركيا يدعى دير الزعفران. انظر Maggie Campbell-Culver, *The Origin of Plants*، مرجع سابق.

389. للاطلاع على تحليل مفصّل عن الخصائص الطبية للأعشاب المذكورة هنا، انظر David Hoffman, *The Complete Illustrated Holistic Herbal* (Element Books, Shatsbury, 1996) بالإضافة إلى Jekka McVicar, *New Book of Herbs* (Dorling Kindersley 2002).

390. المناخ أكثر تطرّفاً في بلدان الخليج ومعظم الأزهار المذكورة حساسة جداً للحرارة والظروف القاسية ولن تدوم طويلاً، حتى إذا سقيت بانتظام.

391. ذلك ممكن حتى في لندن المكتظّة. وقد كانت اثنان من أصدقائي محظوظين بشراء بيتين، واحد في جنوب لندن والآخر في غرب لندن، ولكل منهما أرض صغيرة (15م x 10م) في أسفل حديقتهما الخلفية الضيّقة مزروعة بالتفاح والإجاص والكرز.

392. تذكّر أن كلمة narcissi (نرجس) تحتوي على «narc»، وهو جزء من كلمة «narcotic» (مخدّر) لذا يمكن أن تشعر بالنعاس بعد استنشاق عبيرها.

393. C. M. Villiers Stuart، مرجع سابق، ص 74.

394. يبدو أن أصل هذا الاسم قد فقد. غير أن «شريف» هو لقب أحد المتحدّرين من نسب النبي صلى الله عليه وسلم، و«أسماء» اسم عربي قديم.

395. نقلاً عن Brigid Keenan, *Damascus, Hidden Treasures of the Old City*، مرجع سابق.

396. Vita Sackville-West, Garden Book (Michael Joseph, 1987).

397. انظر Roger Phillips and Martyn Rix, Traditional Old Roses (Pan, 1998), p. 20.

398. المصدر نفسه، ص 39.

399. كما أشير أعلاه، افترض أن التوليب شبيهة بعمامة التركي، وزنبق العمامة التركية شبيه بها أيضاً، ولا شك في أن الأتراك كانوا يحبّون الأزهار حباً جمّاً.

400. Robin lane Fox، مرجع سابق، ص 317.

401. المصدر نفسه، ص 163.

402. John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق. ويقول أيضاً إن اللائحتين اللتين يقوم بتحليلهما «تظهران أن عدد الأنواع تضاعف في قرن واحد (بين نحو 1080 و1180)»، ص 12.

403. نقلاً عن جريدة *The Telegraph*, 14 June 2003.

404. انظر Anthony Archer-Wills, *The Water Gardener*، مرجع سابق.

405. Sarah Raven, *Cutting Garden Catalogue*.

406. John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق.

407. M. Iqtedar H. Farooqi, *Plants of the Quran* (Sidrah Publishers, Lucknow, 1997), chapter 20.

408. سورة الصافات، 37: 62-68.

409. لإدراك جمال اللون الأخضر الخاص والغامض، من المثير للاهتمام أن تحاول تصوّر كيف يمكن أن يبدو العالم الطبيعي بلون آخر – أحمر أو أزرق مثلاً. إنها فكرة غير مريحة البتة. الأخضر كما هو معروف ينتج عن مزج اللون السماوي الأزرق – وهو لون تأمّلي وبارد – مع الأصفر، لون الشمس، وهو دافئ ومنعش. عندما يمزج الأصفر بالأزرق، فإنه يمنح صفة التأمّل المرتبطة باللون خاصية «الأمل» والمتعة والتحرّر من الهدوء المحيط بالتأمّل. Frithjof Schuon, *Spiritual Perspectives and Human Facts* (Perennial Books, 1987), p. 43.

410. طليت قبّة المسجد النبوي في المدينة بالأخضر منذ عدة قرون. ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرتدي عمامة خضراء.

411. سورة الواقعة، 56: 20-21.

412. سورة البقرة، 2: 61.

413. قلة من المحظوظين لديهم محاقل توفّر المتعة الكبيرة والمكافأة لمن يرعاها. وقد سمعت مزارعاً في التسعين من العمر يرعى محقلة يقول مؤخّراً، «إنها تمنحني عمراً جديداً... عندما أدخل هنا أنسى نفسي تماماً».

414. Flora Thopmpson, *Lark Rise to Candleford*، مرجع سابق، ص 78.

415. R. Farrar, The Rainbow Bridge (1922)، نقلاً عن Lord Northbourne, «Flowers»، مرجع سابق، ص 294-5.

الفصل السابع

416. قدّمت شركة بورسلانوس الإسبانية المتخصصة في صناعة البلاط، الرعاية للحديقة في معرض تشلسي للزهور، بالإضافة إلى تركيبها في هايغروف، كما وفّرت البلاط للمرات والقنوات المائية والزليج (البلاط الخزفي ذو النقوش الهندسية المحيط بالنافورة)، فضلاً عن النافورة الرخامية نفسها – وجميعها مصنوعة في إسبانيا.

417. نقلاً عن W. H. Hawley, *Oriental Rugs* (1913).

418. القصيدة مذكورة كاملة في N. Ardalan and L. Bakhtiar, *A Sense of Unity* (University of Chicago Press, 1973).

419. سورة الواقعة، 56: 15 وما يليها.

420. يمكن في الواقع إحياء فكرة «الطلح» (serried acacia) في الحديقة الإسلامية في شمال أوروبا بسهولة، لأن الميموزا (Acacia dealbata) تنمو جيداً هنا في المواقع المشمسة، كما ذكر في الفصل الخامس، كما أنها تبدو رائعة عندما تغطيها زهورها الصفراء في الربيع.

421. انظر الأول وكتاب المؤلفة *«Underneath which Rivers Flow», The Symbolism of the Islamic Garden*، مرجع سابق.

422. يعتقد ، كما هو معروف، أن الورد الدمشقي أحضره الصليبيون معهم من دمشق – مثل الحرير الدمشقي – لذا بدا ذلك خياراً واضحاً (انظر الفصل السادس). وقد نظر أيضاً في زراعة وردة «شريفة أسما» في الحديقة لأنها ترتبط بالإسلام بفضل اسمها (انظر الحاشية 394). لكنها رُفضت في النهاية لأن لونها الزهري باهت جداً ولا تتوافق مع أي لون في السجادتين.

423. لعل الورد الفرنسي ملائم جداً لهذه الحديقة بسبب ألوانه الغنية الرائعة وعطره القوي، وكذلك بسبب قصر سوقه واكتناز أزهاره ذات البتلات المرصوصة بإحكام. ولعلها من أقدم الورود المزروعة، ومع أنها تزهر موسماً واحداً فإنها متينة وتتحمّل الريح الباردة، وهو أمر على المرء التنبّه له في كتسوُلد.

424. معظمها يرجع إلى لوائح البستانيين اين بصال وابن العوام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر التي أدرجت في John H. Harvey, «Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain»، مرجع سابق.

425. نقلاً عن المصدر السابق، ص 13.

426. W. H. Auden, *In Memory of W. B. Yeats*, Pt. 2.

427. Jalal ud-Din Rumi, Diwan-I kabir، نقلاً عن Annemarie Schimmel، مرجع سابق، ص 25. انظر الفصل الخامس.

428. تنبّه إلى أنظمة الصحة والسلامة وجمعية الحماية من الإرهابيين.

429. سورة آل عمران، 3: 13، وسورة يونس، 10: 24. .

430. الموضة الرائجة في النوافير – لا سيما العامة – هي «الأكبر الأفضل». وقد ركّب مؤخّراً في حدائق بيكاديلي في مانشستر مؤخّراً عدة نوافير تطلق الماء إلى ارتفاع 6 أمتار على الأقل. وهي تتطلّب كمية كبيرة من الماء بحيث أنشئ تحتها خزان ماء كبير جداً، وقد استعين بغوّاص مؤخّراً لإجراء بعض التصليحات فيه.

431. من نظم الشاعر الفارسي أمير خسرو (1253–1325)، والقصيدة مدرجة في *Poems from the Persian*، مرجع سابق، ص 75.

الخلاصة

432. Frithjof Schuon, *Understanding Islam* (Allen and Unwin, 1963), p. 43.

433. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning*، مرجع سابق، ص 197.

434. شاهدت مؤخّراً زوجين يؤديان صلاة المغرب قرب سربنتين في هايد بارك، لندن.

435. سورة طه، 20: 7، وسورة الأنعام، 6: 59.

436. Titus Burckhardt, *Art of Islam, Language and Meaning*، مرجع سابق، ص 36.

437. Washington Irving, *Tales of the Alhambra* (Ediciones Miguel sanchez, Granada, 1994), pp. 104-5.

438. سورة الأنعام، 6: 113.

439. إنني مدينة للدكتور طوبي ماير لأنه أشار علي بذلك.

440. Frithjof Schuon, *The Transfiguration of Man* (World Wisdom Books, 1995). P. 103.

الببليوغرافيا

القرآن والحديث

Arberry, A.I.. The Koran Imerpreted (The World´s Classics, Oxford University Press, 1989)

Muhammad Marmaduke Pickthall (translated by) The Meaning of the Glorious Quran

Abdullah Yusuf Ali (translation and commentary) The Holy Quran:Texl

Ezzeddin Ibrahim and Denys Johnson-Davies (selected and translated by) Forty Hadith Qudsi, (The Holy Koran Publishing House, 1981)

Allama Sir Abdullah al-Mamun al-Suhrawardy (translated and compiled by) The Sayillgs of Muhammad Oohn Murray, 1992)

The Holy Bible, The Authorized version ofK.ing James I

كتب تقدم معلومات أساسية عن الإسلام والصوفية والفن والعمارة الإسلاميين

Ardalan, N. and L. Bakhtiar, A Sense of Unity (University of Chicago Press, 1973)

Asad, M., The Road 10 Makkah (Abdul Moin for Islamic Book Service, New Delhi, 1994)

Bowen,].C.E. (translated by) Poemsfrom lhe Persian (Blackwell, Oxfo,d, 1958)

Burckhardt, Titus, Sacred Arl ill EaSl andl.%Sl (Perennial Books, 1967)

Burckhardt, Titus, Arl of Islam, Language and Meaning (World of Islam Festival Publishing Company, 1976)

Burckhardt, Titus, Moorish Culture in Spain (George D. W. Callwey, Munich, 1970). English translation by Alisa Jaffa (George Allen & Unwin, London, 1972). New paperback edition by Fons Vitae (Louisville, Kentucky, 1999)

Burckhardt, Titus, Mirror of the Intellect (Cambridge, Quinta Essentia, 1987)

Coomaraswamy, A.K., Christian and Oriemai Philosophy of Art (Dover Publications, first published, 1956)

Eaton, Gai, Remembering God, Reflections on Islam (The Islamic Texts Society, 2000)

Fathy, H., Archilecture for the Poor (The American University in Cairo Press, 1989)

Fletcher, Richard, Moorish Spain (University of California Press, 1992)

Fletcher, Richard, The Cross and the Crescellt, Christianity and IsLam from Muhammad to the Reformation (Allen Lane, the Penguin Press, 2003)

Irving, W., TaLes of the Alhambra (Ediciones Miguel Sanchez, Granada, 1994)

Lings, Martin, Muhammad, his Life Based on the EarlieSl Sources (Unwin Paperbacks, 1988)

Lings, Martin, The Quranic Doctrine of the Afterlife, Lecture, Temenos Academy, London, March 1993; available on cassette from Temenos, The Prince´s Foundation, London EC2 3SG (see List of Useful Addresses)

Lings, Martin, Symbol alld Archetype, A Study of the M eaning of Existence (Quinta Essentia, 199 1)

Lings, Martin, W´hat is Sufism? (Unwin paperbacks, Mandala, 1988)

Nasr, Seyyed Hossein, The Hearl of Islam (Harper Collins, 2002)

Nasr, Seyyed Hossein, Islamic Art and Spirituality (Golgonooza Press, 1987)

Olivetti, v., Terror´s Source, The Ideology oflVahhabi-Salafism and its Consequences (Amadeus Books, 2002)

Smith, Huston, The Wbrld´s Religions (Harper Collins, 199 1)

Schuon, Frithjof, Islam alld The Perennial Philosophy (World of Islam Festival Publishing Company, 1976)

Schuon, Frithjof, Spiritual Perspectives and Human Facts (perennial Books, 1987)

Schuon, Frithjof, Ulldemalldiug Islam (Allen and Unwin, 1963)

Schuon, Frithjof, essay on The Principles and Criteria of Art in Castes and Races, (Perennial Books, 1982)

Siraj ad-Din, Abu Bakr, The Book of Certainty, rhe Sufi Doctrine of Faith) Vision and Gnosis (I slamic Texts Society, 1992)

Upham Pope, A., A Survey of Persian Artfrom Prehistoric Times to the Present (Oxford University Press, 1938)

الحدائق والبستنة

Archer-Wills, A., The Water Gardener (Frances Lincoln, 2000)

Atasoy, Nurhan, A Garden for the Sultan, Gardens and Flowers in Ottoman Culture (Koc Culture, Arts and Communications Inc. for Aygaz, 2002)

Babllr´s Memoirs, National Art Library Edition, Victoria & Albert Museum

Brookes, John, Gardens of Paradise: A HistOlY alld Design of the Grealisiamic GarderlS (Weidenfeld and Nicholson, 1987)

Campbell-Culver, Maggie, The Origill of Plants (Headline, 2002)

Clark, Emma, «Underneath which Rivers Flow», The Symbolism of the Islamic Garden (The Prince of Wales´ Institute of Architecture, 1996)

Dickie, James, ‹The Islamic Garden in Spain´, in The Islamic Garden, eds. E.B. MacDougall and R. Ettinghausen (Dumbarron Oaks Trustees for Harvard University, Washington D.C., 1976)

Earle, J., Imrodllccion w Infinite Spaces, the Art and Wisdom of the Japanese Garden (Galileo Multimedia, 2000)

Gildemeister, H., Mediterranean Gardening: A Waterwise Approach (Edirorial Moll, 1995)

Hanaway, W.L. Jr., ‹Paradise on Earth: The Terrestrial Garden in Persian Literature´, in The Islamic Garden, eds. E.B.

MacDougall and R. Ettinghausen (Dumbarron Oaks Colloquium, Trustees for Harvard University, 1976)

von Hantelmann, C., (editor) and Zoern, D. (photographer), GardetlS of Delight, Ihe Great Islamic Gardens, (DuMont monte, 2001)

Harvey, John, M edieval Gardens (Batsford, 1981)

Harvey, John, ‹Gardening Books and Plant Lists of Moorish Spain´,JournalofGarden Hislory,Vol. m ,No. 2,1975, pp.l021-

Hepper, EN., Illustrated Encyclopedia of Bible Plants (Three´s Company, 1992)

Hobhouse, Penelope, Plants ill Garden History (Pavilion Books, 1992)

Hobhouse, Penelope, Gardens of Persia, (Cassell 2003)

Hoffman, D., The Complete IlluSlrated Holistic Herbal (Element Books, Shaftsbury, 1996)

Iqtedar, M. and Farooqi, H., Plants of the Qltran (Sidrah Publishers, Lucknow, 1997)\

al-Jawziyya, I.Q., Medicine oflhe Prophet (translated by Penelope Johnstone), (The IslamicTexts Society, 1998)

Kausar, S., Brand, M., and Wescoat, J.L. Jr., Shalimar Garden, Lahore, Landscape, Form and Mea/ling (Dept. of Archaeology and Museums, Ministry ofCulrure, Pakistan, 1990)

Keenan, B., Damascus, Hidden Treasures of the Old City (Thames & Hudson, 2000)

Landsberg, Sylvia, Medieval Gardem (British Museum Press, paperback edition (no date)

Lane Fox, Robin, Belter Gardening (Penguin Books, 1985)

Lehrman, Jonas, Earthly Paradise: gardell and courtyard in Islam (Thames and Hudson, 1980)

Margonin, J., ‹Tour of Gardens in Southern Spain′, Journal of Garden History,Vol. III, No.1 , Aurumn 1974,pp. 714-

Maurieres, A. and Ossart, E., Paradise Gardens (Editions du Chene, Hacherre Livre, 2000)

Moynihan, Elizabeth, Paradise as a Garden in Persian and Mugha/ India (George Brazilier, 1979)

McVicar, J., New Book of Herbs (Dorling Kindersley, 2002)

Moore, E., Gardenillg £n the Middle East (Stacey International, 1986)

Lord Northbourne, ‹Flowers′, essay included in Seeing God Everywhere, Essays all Nature a»d the Sacred (edited by Barry Macdonald),(WorldWisdom,2002)

Page, Russell, The EducatiOll of a Gardeller (Penguin, 1983)

Phillips, R. and Rix, M., Traditional Old Roses (Pan, 1998)

Pinder-Wilson, Ralph, ‹The Persian Garden′ in The Islamic Garden (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976), p.82

Prieto Moreno, E, Los Jardines de Granada (Arte de Espana, 1983)

Ruggles, D.E, Gardens, Landscape and Visioll ill the Palaces of Islamic Spaill (Pennsylvania State University Press, 2000)

Sackvill e~West, Vita, Garden Book (Michael Joseph, 1987)

Schimmel, A., ‹The Celestial Garden′ in The Islamic Garden, eds. E.B. MacDougall and R. Eninghausen (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1976)

Slawson, David, Secret Teachings in the Art of Japanese Gardens (Kodansha International Ltd., paperback edition, 1991)

Storey, Sally, Lighting by Design (pavilion, 2002)

Swindells, P., Warer Gardening ([he RHS Encyclopedia of Practical Gardening, Mitchell Beazley, 200 1)

Tabbaa, Y., ‹Towards an interpretation of the use of water in Islamic courtyards and courtyard gardens′, Journal of Garden History, Vol. 7, No.3, pp. 197220-

Ticley, N.M., Plants and Gardens ill Persian, Mughal and Turkish Arc (The British Library, 1979)

Villiers Stuart, Constance, Gardens of the Great Mughals (A. & C. Black, 1913)

Watson, AM., Agricultural Innovation in the Early Islamic Wbrld (Cambridge University Press, 1983)

Wescoat, J-L. Jr. and Wolschke-Bulmahn, J (eds), Mughal Gardens, Sources, Places, Represemariolls and ProspeCts (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1996)

Wilber, D.N., Persian Gardens and Gardel/ Paviliolls (Dumbarton Oaks, Trustees for Harvard University, Washington DC, 1979)

Wohlhasen, A., Living Architecture, Islamic Indian (Macdonald, London, 1970)

النقوش الهندسية

Bourgoin, L A rabic Geometrical Patten! Design (Dover Publications Inc., New York, 1973)

Critchlow, Keith, Islamic Patterns, An A/laiyticai and Cosmological Approach (Thames and Hudson, 1976)

el-Said, Issam, (edited by Tarek El-Bouri and Keith Critchlow) Islamic Art and Architecture, The System of Geometric Design (Garnet Publishing Ltd, 1993)

Lawlor, Robert, Sacred Geometry, Philosophy and Practice (Thames and Hudson, 1982)

Waterfield, Robin, (transla[ed by) The Theology of Arithmetic (Kairas, 1988)